لورانس العرب

في الحرب والسلم

مختارات من كتاباته العسكرية



لورانس العرب في الحرب والسلم

لورانس العرب
في الحرب والسلم

مختارات من كتاباته العسكرية

تحرير وتقديم
مالكوم براون

ترجمة
هيثم فرحت



T. E. Lawrence in War and Peace: The Military Writings of Lawrence of Arabia, Greenhill Books, 2005

الطبعة العربية

الطبعة الورقية الأولى، ٢٠٢٢

الطبعة الإلكترونية، ٢٠٢٢

ISBN-978-614-03-0243-3

Published 2022 by Saqi Books Saqi Books

26 Westbourne Grove, London W2 5RH, United Kingdom

Tel: +44 (0) 20 7221 9347; Fax: +44 (0) 20 7229 7492

e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

www.saqibooks.com






@DarAlSaqi دار الساقي Dar Al Saqi Dar Al Saqi

”أريد الانسلاخ عن عاداتي البريطانية ومسايرة فيصل قليلاً. فالعمل رائع والبلد جديد برمّته“.

توماس إدوارد لورانس Thomas Edward Lawrence مخاطباً الرائد كيناهان كورنواليس Kinihan Cornwallis 27 كانون الأول/ ديسمبر 1916

”أفغاني واحد على ظهر حمار أفعل من أربعة روس في دبابة“.

قولٌ منسوبٌ إلى جنرال روسي في الحرب السوفياتية-الأفغانية، 1979-1989

”كانت الحرب على التمرد فوضوية وبطيئة، مثل تناول الحساء بالسكين“.

توماس إدوارد لورانس، *Seven Pillars of Wisdom [أركان الحكمة السبعة]*

«مكتبة ♔ النخبة»

توطئة

الكتابة الجيدة تبقى رائجة دوماً، حتى لو كان الكتّاب أنفسهم يخضعون لأهواء التاريخ ومراجعاته. كان توماس إدوارد لورانس محارباً مثيراً للجدل، ومخططاً عسكرياً لامعاً، ومحللاً سياسياً محنّكاً، وفيلسوفاً، ومغروراً دائماً. نظراً إلى شخصيّته المعقدة والملوَّعة بالتناوب، كان طوال حياته كاتباً ضليعاً ومُلمّاً بالنثر البديع. وعاد إلى الأضواء إلى حد ما في الوقت الحالي، إذ يحاول صانعو السياسة والقادة العسكريون الغربيون إعادة اكتشاف بعض الفهم الذي طوّره في فن حرب المتمردين في الظروف الثقافية الخاصة بالجزيرة العربية. فبَاتَ كتاب *Seven Pillars of Wisdom* عملاً يستعين به كثيراً ضباط الجيش الذين يسعون حالياً من أجل إرساء النظام في العراق بعد الغزو الذي قادته الولايات المتحدة في آذار/ مارس 2003. فيجري اقتباس تأمّلاته السياسية الشهيرة التي ظهرت لأول مرة في كتاب *The Changing East* [الشرق المتغيِّر] بصورة متكررة: "يجب أن نكون مستعدين لرؤيتهم يفعلون الأشياء بأساليب تختلف تماماً عن أساليبنا، وبجودة أقل. ولكن في المبدأ، من الأفضل أن يفعلوا نصف ما نفعله على أن نفعل لهم ذلك بطريقة مثالية". لكن يصعب هذا الأمر على مؤسسة سياسية متمرِّسة في الإدارة والتجانس، وحسّاسة تجاه العالَم المُراقب لها عند كل منعطف. على أي حال، يجب أن يُفهم ما كان يكتبه في هذا السياق من منظور مقاربته الأكثر سفاهة اللاحقة في التفكير المؤسسي إلى حد ما، كما هو مبيَّن في كتابه المعنون *The Mint* [دار سك النقود].

فالحقيقة تكمن في أنه يُروى عن لورانس، مثل الكتّاب العظماء كلّهم، أكثر مما يُفهم. ولا يمكن فهمه بصورة كاملة من *Seven Pillars* وحده، إذ وُجدت كثير من الكتابات التي تم جمعها هنا طريقها إلى هذا العمل لاحقاً بصورة أكثر نضجاً واعتباراً. مع ذلك، تُقدم هذه الكتابات، التي تغطي تكتيكات الحرب المتطورة وتأمّلاته المريرة عن السِّلم في أحيان كثيرة، لورانس في أكثر حالاته تلقائيةً. إنها ركيزة أساسية لحكمته التي نشأت خلال تلك السنوات، ولا يمكن فهم إسهاماته الفكرية في كل من الحرب والسِّلم بشكلها الصحيح إلا في ضوئها. وبالعمل عبر آليات خلق تمرد ضد القوات التركية في الحرب

العربية 1916–1918، توصّل لورانس إلى فهم مبادئ مكافحة التمرد الفعالة. لقد تعلّم من التجربة القاسية إخفاق حركات التمرد عبر مواجهة العدو في عقر داره، بل بسحبه إلى الخارج مثل المطاط. وأعرب عن تقديره أن عمليات التمرّد نادراً ما تهزم العدو بمفردها، لكنها قد تحرم العدو الانتصار إلى ما لا نهاية تقريباً، في حين أن القوات الأكثر تقليدية، سواء أكانت عسكرية أم سياسية، ستعمل على إلحاق الهزيمة به. إذا كان يتأمل اكتشاف سون تزو Sun Tsu ذلك الأمر، فقد كان مع ذلك متقدماً إلى حد ما على ماو تسي–تونغ Mao Tse–tung، أو هو شي منه Ho Chi Minh، أو تشي غيفارا Che Guevara في فِعْل ذلك. فهو لم يتلقَّ تربية عسكرية رسمية، واستهان بالكتّاب العسكريين الذين صادفهم، ولم يتمرّس إلا في حملات الأقدمين. وعام 1917، بعد بعض الكوارث الوشيكة، "اضطُّرَ إلى التصرّف فجأة لإيجاد معادلة فورية بين قراءتي الكتب وحراكاتنا الحالية". ونجم عن إنجازه العسكري تقديره التكتيكي الغريزي لوضعه.

قدّر لورانس بصورة غريزية الآلية التي يجب أن يتّسم فيها التمرّد بالحنكة السياسية كي يتسنّى له النجاح. الأمر نفسه ينطبق على مكافحة التمرد. إنّ إضفاء الشرعية السياسية على قوات مكافحة التمرد في بلد أجنبي يستغرق وقتاً وصبراً. ويمكن هزيمة هذه القوات على نحو أكثر فعالية بسبب افتقارها إلى فهم المجتمعات التي ستحميها أكثر من أي قدر من العنف من جانب المتمردين. فالفهم يعني كلّ شيء. إنه ليس بالضرورة تزويقاً لفظياً لمقاربة ناعمة في حفظ الأمن. فمكافحة التمرد قد تقتضي إجراءات صارمة. لكن إذا لم تتفق دوافعها مع فهم السكان المشروع، فسيكون لـ"حفظ الأمن الناعم" نتائج عكسية أيضاً. وبتفوّقه عليهم كلّهم، أدرك لورانس أنّ الأدب يوفِّر مثل هذا الفهم على نحو أفضل من الكتيبات. في الواقع، باتت مساعي صباه الشخصية لإعداد الكتيبات أدباً بحد ذاتها.

مع ذلك، إذا كانت البصيرة والألمعيّة المنطويتان في هذه المراسلات والمقالات خالدتين فعلياً، فإن هذه الميزة تظهر عندما توضع هذه الكتابات في سياقها التاريخي الخاص فقط، وهذا ما يفعله هذا المجلد. عاش لورانس في عصر الإمبريالية، ورأى مهمة بناء الشرعية السياسية من تلك العدسة الخاصة. لقد استوعب قوة القومية المتنامية في أرجاء العالم كلّها، التي كان يُفترض منها أن تبيِّن أنها محرك سياسي رئيس للقرن العشرين. وخامرته فكرة إمكانية توفير الوضع الاستعماري للدول الوطنية الناشئة، القائم على الهيمنة، إطاراً لاستيعاب القوى الوطنية المتنوعة دون تخلي بريطانيا عن نفوذها في العالم. في الواقع، افترض أن الجاذبية المطلقة للقوة العظمى، مثل الولايات المتحدة اليوم، كانت قوة سياسية يمكن التلاعب بها إلى الأبد. إن كان يعتقد أن الإمبراطورية البريطانية بُنية يمكنها الصمود، فهو متأكد أنه لا يمكنها فِعْل

ذلك بالقوة وحدها في السنوات المقبلة. وبدا أيضاً فهمه حاجة طبقات بريطانيا السياسية إلى مزيد من التعلّم في هذا الصدد.

قد يبدو هذا الأمر مقاربة حديثة للغاية للإمبريالية، لكنّ لورانس لم يكن بالتأكيد محصناً من التأثيرات المُخدِّرة والمُضعِفة للحساسية للوحشية المميِّزة لحروب التمرد ضد السلطة الإمبريالية كلّها، وفي هذه الحالة السلطة العثمانية. ففي مقالة "The Destruction of the Fourth Army" [تدمير الجيش الرابع]، يكتب بصراحة عن الفظائع التي شهدوها في طفس، وهي قرية كان يحتلها رتل تركي. وبعد هزيمة الأتراك، يتابع: "أصدرنا الأوامر بـأنّنا 'لا نريد أسرى' وامتثل الرجال باستثناء سريّة الاحتياط التي أسرت مئتين وخمسين رجلاً ... أحياء، بما في ذلك، كما شاءت الأقدار، العديد من الألمان". ومع ذلك، تم العثور في وقت لاحق على أحد رجال لورانس الجرحى مطعوناً بالحراب، وكان الرد فورياً، ومرتجلاً تقريباً: "ثم وجّهنا مدفعنا الرشاش Hotchkiss على الأسرى وقضينا عليهم، ولم ينطقوا ببنت شفة". أمّا بالنسبة إلى مَن انتقدوا لاحقاً، فلاحَظَ بهدوء أنّهم "لم يدخلوا طرة أو طفس".

ربما لا ينبغي أن نُفاجأ من أنّ مثل هذا الرجل كان لغزاً لجميع مَنْ حوله تقريباً. تستند جاذبية لورانس الدائمة لدى كتّاب السِّير الذاتية وصانعي الأفلام والكتّاب المسرحيين والمؤرخين إلى حد كبير إلى بريق حياته وصخبها بعد 1916. وفي الوقت الذي يسهل فيه الاستشهاد به، من المسلّم به أنه رجل غامض. لكن إن كان الرجل لا يزال غامضاً بطريقة ما بالنسبة إلينا، فكتاباته بالتأكيد ليست كذلك. إنّ نطاق رواياته وحدتها وعمقها الإنساني المطلق يضمن أنه ما دامت لدينا النصوص، فإن ما لا نعرفه عن الرجل قد يغلب عليه، ولحسن الحظ، ما نعرفه عن القضايا التي كان يتناولها. إنها ملاحظة شائعة في العالم الأدبي عن الكتاب العظماء بدءاً بهوميروس Homeros وانتهاءً بشكسبير Shakespeare. وفي العالم الفكري الأكثر تقييداً وضبطاً للتحليل السياسي والعسكري، أجرؤ على طرح ملاحظة توماس إدوارد لورانس نفسها. ففي نمط الكتابة السياسية العسكرية التي نادراً ما تسمح لنفسها بالتعبير الحر عن احتكار البصيرة والإلهام في أحسن حالاتها، يعدّ لورانس استثناء مجيداً ومتحرراً.

البروفيسور مايكل كلارك Michael Clarke مدير "معهد السياسات الدولية"

King’s College, London

حزيران/ يونيو 2005

تمهيد

بعد مدة وجيزة من وفاة توماس إدوارد لورانس المأسوية المفاجئة في أيار/ مايو 1935، تم نشر روايته لحرب الصحراء من 1916–1918، في كتاب *Seven Pillars of Wisdom* الذي لم يصدر إلا في طبعة محدودة للمشتركين عام 1926، لينال إشادة شعبية فوريّة. أدى هذا إلى موجة عارمة من الاهتمام الذي لم يستطع كتاب وحده أن يفي به. بعد ذلك بعامين، ظهر عدد كبير من الذكريات جمعها وحررّها شقيقه، أرنولد والتر لورانس Arnold Walter Lawrence، بعنوان واضح: *T. E. Lawrence by His Friends* [توماس إدوارد لورانس بعيون أصدقائه]. تبع ذلك في 1938 مجموعة مختارة من رسائله التي يبلغ طولها قرابة تسعمئة صفحة، وقد جمعها ديفيد غارنيت David Garnett بمعرفة وجدانية ودقيقة. صدرت هذه الأعمال كلّها عن دار Jonathan Cape للنشر الجديدة نسبياً (آنذاك)، وقد أسهم لورانس في استقرارها قبل عقد تقريباً عندما أسهم بمقدمة لطبعة ثانية من مجلّدين لأحد أفضل أعماله وأكثرها تأثيراً بقلم تشارلز داوتي Charles Doughty، والمعنونة *Arabia Deserta* [صحراء الجزيرة العربية]، الأمر الذي سرعان ما جعلها من أكثر الكتب مبيعاً. مع ذلك، كان ثمة ناشرون آخرون حريصون الآن على المشاركة في اقتسام الغنائم. وهكذا شهد 1939 إضافتين إلى مجموعة المبادئ. تمثّلت إحداها في كتاب *Oriental Assembly* [مختارات مشرقية]، وهي مختارات من كتاباته الثانوية المرتبطة بالشرق الأوسط، التي كانت تصدر بدمغة الناشر ويليامز Williams ونورغيت Norgate (انظر مقدمة كتاب *The Changing East*، ص. 248 في النص الأصلي). أمّا الأخرى، فهي تجميع لتقاريره في زمن الحرب، نشرتها مطبعة Golden Cockerel Press، المملوكة لـWaltham St Lawrence، في Berkshire، بعنوان أخّاذ: *Secret Despatches from Arabia* [مراسلات سرية من الجزيرة العربية]. في كلتا الحالتين، عمل أرنولد والتر لورانس بوصفه محرراً.

نظراً إلى أن حقوق طبع المستندات الواردة في هذا المجلد الثاني ونشرها محفوظة لدى Crown، ولذا حُظرت رسمياً بموجب قاعدة الأعوام الخمسين ذات الصلة، تم الحصول على إعفاء خاص بالطباعة، ويقرّ بذلك ببيان مفاده "منشور بإذن من وزارة الخارجية" على صفحة العنوان. صدر الكتاب في طبعة محدودة من ألف نسخة. في 1990، بعد عامين من نشر مجموعتي الخاصة من رسائل لورانس (نُشرت في بريطانيا باسم *The Letters of T. E. Lawrence* [رسائل توماس إدوارد لورانس]، وفي الولايات المتحدة باسم *T. E. Lawrence: The Selected Letters* [توماس إدوارد لورانس: الرسائل المختارة])،

تواصلت معي مطبوعات Bellew في لندن، موجِّهةً دعوة لتقديم مجلّد من مراسلات لورانس في زمن الحرب وإعداده. من الغريب أن صاحب الفكرة الذي طرح المشروع على Bellew بدا غير مدرك أن مثل هذه المجموعة موجودة سلفاً، ولو في طبعة يكاد ينعدم توافرها. مع ذلك، سرعان ما رأيت أنّها مبادرة تستحق الدعم، إذ واضح أنّ كثيراً من الأشخاص المهتمين بلورانس سيرحبون بنشر نصّ من تجميع Golden Cockerel بتنسيق جديد وبسعر مقبول. ففي الوقت الذي كان سيكلِّف فيه هذا المجلّد الصادر بشكل رفيع، في حال ظهوره في سوق الكتب، وهو ما حدث فعلاً، ولو بصورة نادرة، المشتري المحتمل، 500 جنيه إسترليني (أو ما يصل إلى 950 جنيهاً بشكله الفاخر). إنها، على ما يبدو، لفتة تستحق العناء. ثمة عامل آخر جعل إعادة الطبع لافتة. فالمراسلات وحدها التي يبلغ طولها المتواضع قرابة ستين ألف كلمة نادراً ما تملأ غلافاً قاسياً قياسياً حديثاً، ما يفسح المجال لإدراج عدد من كتابات لورانس الأخرى حول الموضوعات المتعلقة بحرب الصحراء. وبمباركة من المحرر الأصلي، أرنولد والتر لورانس، مضى المشروع قدماً. كانت النتيجة، التي نُشرت في 1991، مجلّداً مقبولاً ومشغولاً بشكل رائع، بعنوان *Secret Despatches from Arabia and Other Writings by T. E. Lawrence* [مراسلات سرية من شبه الجزيرة العربية وكتابات أخرى بقلم توماس إدوارد لورانس]، وقد بيعَ بسعر التجزئة الرسمي آنذاك البالغ 14.95 جنيه إسترليني.

لقد حظي الكتاب بقبول جيد وأصبح الآن يُزيِّن، أو على حد فهمي، كثيراً من الرفوف في كثير من البلدان حول العالم. أمّا في حالتي الخاصة، فلم أحلم بالحصول على أي شيء منشور تحت راية مطبعة Golden Cockerel Press المهيبة إطلاقاً، وهي رائدة بين هذه المطابع المستقلة الصغيرة في أوجها. هذا يعني أنه في مقدوري الحصول على نسخة من مراسلات لورانس السرية بنفسي.

للأسف، بينما ازدهرت بعض دور النشر وخاب مسعى بعضها، كانت بصمة Bellew واحدة من تلك الدُّور التي انضمت إلى الفئة الأخيرة، رغم أنها أنشأت مجموعة واسعة من العناوين اللافتة والمصممة جيداً بشكل ملحوظ (رغم أنه لأمر طيب أن تكون قادراً على ذكر أن ناشرها المؤسس، الناشر المتألِّق الذي لا يمكن كبته، Ib Bellew، قد انتقل بنجاح إلى الولايات المتحدة). قد يُعتقد في مثل هذه الظروف أنه سيُطرح أي نسخ غير مباعة في السوق بسعر مناسب من أجل زيادة الحد الأقصى لرأس المال. ومع ذلك، لم يكن هذا بيت القصيد. فتمثّلت النتيجة في إتلاف النسخ المتميِّزة لعناوين الشركة كلّها.

لحسن الحظ، لم أدرك ما حدث لمجلد 1991 إلا بعد تواصل شركة Greenhill Books معي، منذ قرابة ثمانية عشر شهراً، بهدف إصدار كتاب جديد عن توماس إدوارد لورانس. كان رد فعلي الفوري اقتراح إعادة صياغة هذا العمل. استجابت Greenhill بحرارة رغم إصراري على الحصول على إذن بالمتابعة

من الناشرين الأصليين. عندئذ ظهرت قصة الأفول المؤسف لـBellew Publishing والمصير المحزن لمجلّد 1991. لم تكن طبعة الكتاب الأصلي نافدة فحسب، بل كانت، بمعنى ما، بحكم المتوفى قانوناً. في الواقع، مهّد هذا الأمر الطريق. مع ذلك، إنّ مجرد إعادة إحياء كتاب لم يعد موجوداً أمرٌ واهٍ. باختصار، قدمت الظروف تحدياً إيجابياً تمثّل في تأليف كتاب جديد لزمن وغرض جديدين، مع الأخذ بالحسبان أن العالم قد شهد تحولاً ملحوظاً بين أوائل التسعينيات والوقت الحالي.

تم تجهيز طبعة 1991 وتجميعها في 1990، بعد عام واحد فقط من سقوط جدار برلين، وهو الحدث الذي تم الترحيب به بوصفه إيذاناً بنهاية "الحرب الباردة" التي بدت لعقود خطراً داهماً بأن تتحول إلى حرب ساخنة. مع ذلك، كان التركيز لا يزال على القوى العظمى، رغم حقيقة انتهاء اللعبة في نزال طويل الأمد بين الولايات المتحدة الأميركية واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية. حتى أن أكاديمياً مرموقاً مقيماً في أميركا أعلن نهاية التاريخ: الديموقراطية 1، الشيوعية صفر. فيمكننا الاسترخاء. وكأنّ أشباح حربين عالميتين قد أُرسلت إلى الظلال أخيراً. ويمكننا جميعاً أن نتطلع إلى ما أطلق عليه ونستون تشرشل Winston Churchill – في عبارة لا تُنسى صيغت في أيام 1940 الحالكة – "مرتفعات مشرقة شاسعة". الفردوس المُستعاد.

لكن حتى أثناء استكمال الكتاب، كان المُناخ السياسي في العالم يتغير. أثار غزو الكويت على يد عراق صدام حسين في آب/ أغسطس 1990 أزمة خطيرة في الشرق الأوسط، الأمر الذي أدى إلى استجابة دولية سريعة وسرعان ما سُمِّيت حرب الخليج وهي منطقة موضع جدل كبير على مرّ العقود، إن لم يكن القرون. تكلّلت حرب تحرير الكويت بالنجاح. كما كانت قانونية في تنفيذ الهجوم على العراق وقواتها المسلحة بتفويض من الأمم المتحدة. على ما يبدو، حُسِمَ الأمر، لكنّ صدام حسين بقي في السلطة. وشعر أكثر مراقبي الشرق الأوسط تفاؤلاً بمزيد من المتاعب الآتية من ذلك الجزء البعيد من الربع الخالي. مع ذلك، لا يزال ممكناً في هذا الوقت الاعتقاد بأنه رغم هذه الصعوبات الإقليمية، فإن نهاية الحرب الباردة أوجدت عالماً أكثر أماناً عموماً. في النتيجة، كان ثمة قوة عظمى واحدة فقط، ولذا لم يكن هناك احتمال لصراع العمالقة. يمكن، بصورة مؤقتة على أقل تقدير، وضع مفهوم "التدمير المتبادل المؤكد" الذي أسهم خصوصاً في الحفاظ على السِّلم أربعين عاماً تقريباً على الرف المُخصَّص لـ"التاريخ".

ثمّ في الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر2001، اصطدمت طائرتان بمركز التجارة العالمي في نيويورك، فيما أصابت طائرة ثالثة جناحاً من البنتاغون في واشنطن العاصمة، وتحطمت طائرة رابعة معدّة لاستهداف مبنى الكابيتول (Capitol) بصورة شبه مؤكّدة، في حقل في ولاية بنسلفانيا. دخلت الصيغة القاتمة "11/9" – تاريخ هجوم نيويورك على النوع الأميركي – إلى مفردات

العالم بين عشية وضحاها واستقرّت فيه. ففي طرفة عين، كنا في إقليم مختلف، لا يمكن التنبؤ به. وفجأة صارت تلك "المرتفعات المشرقة الشاسعة" مظللة بسحب الدخان المخيفة. كان عدد الضحايا مروعاً. أقل بكثير من الوفيات الناجمة عن الغارات الجوية بالقنابل الذرية على هيروشيما وناغازاكي في 1945. لكن عندما يعود المؤرخون المستقبليون إلى الماضي في هذه الفترة المضطربة (أي في حال نجاة العالم لفعل ذلك)، ستجد كلتا المجموعتين من الأحداث عينها في الفئة نفسها بالتأكيد.

كان علينا تبديل افتراضاتنا بين عشية وضحاها. فلم يعد العدو هو الكرملين الذي كان على الأقل له هوية جغرافية ذات موقع وعنوان تواصل، لكنّ "القاعدة" – الاسم الذي لا يكاد يمكننا نطقه ناهيكم عن تهجئته – لم يكن لديها أيّ منهما. ففي وقت قصير، كانت هناك هجمات غربية على أفغانستان أولاً، موطن "القاعدة" الشهير، وعلى العراق لاحقاً، على نحو أكثر إثارة للجدل. وكان الهجوم الأخير، بالنسبة إلى بعضهم، اعتداءً مشروعاً على مصدر آخر للإرهاب الدولي. أمّا لدى الآخرين، فبدا الأمر كأنه محاولة متعمّدة من الولايات المتحدة لاستكمال "عمل غير مكتمل"؛ تولى الرئيس بوش مارك الثاني Bush Mark II زمام الأمور من حيث توقّف والده، بوش الأول Bush I. وكان هناك هجوم أكبر مما حدث في 1991؛ والشعار الرئيسي في هذه اللحظة هو "الصدمة والرعب". مع ذلك، ما بدا في غضون أسابيع على أنه "مهمة مُنجزة" سرعان ما تحوّل إلى مرحلة خطيرة من التمرد. وكان هناك ما يمكن تعريفه أنه ثورة عربية جديدة. ووصف لورانس ذات مرة ثورته العربية بأنها "عرض ثانوي لعرض ثانوي". انظر مقالته "The Evolution of a Revolt" [تطوّر ثورة] المنشورة في هذا المجلد. فما كان يجري في العراق بداية 2003 لم يكن عرضاً ثانوياً، بل أكبر عرض في البلاد.

لم يمضِ وقت طويل على اسم مألوف بقي لعقود حبيساً لبريق واحد من أكثر أفلام هوليوود شهرة إطلاقاً (أهرق مؤلفو السيرة الذاتية المؤيدون والمعارضون حبراً غاضباً في حجج لا نهاية لها حول ما إذا كان الشخص المعني مثلياً أو محتالاً من عدمه) حتى خرج إلى العلن، وبات موضوعاً لدراسة واعتبار أكاديميين جدّيين. بطبيعة الحال، كان هذا الاسم توماس إدوارد لورانس. كان هذا رجلاً، على ما يبدو الآن، يتحلّى ببعض الحكمة ليسديها، لأن الغرب وجد نفسه في مأزق عسكري ونفسي في الشرق الأوسط.

نشرت *The Times* (الصحيفة التي لجأ إليها لورانس لأول مرة في أواخر 1918 عندما أطلق حملته السياسية نيابة عن القضية العربية) مقالات حول هذا الموضوع بصورة ملحوظة. وتحمّست صحيفة *The New York Times* للقصة أيضاً. وردّدت صحف أخرى صدى الصرخة. ونفض الخبراء العسكريون على جانبي المحيط الأطلسي الغبار عن كتب لورانس على رفوفهم، وبدؤوا مسح صفحاتها ضوئياً. فعاد لورانس إلى الأضواء.

آمل أن يصفح عنّي القراء إذا ذكرت أنني أسهمت إسهاماً شخصياً متواضعاً في هذه العملية؛ نقلتُ في رسالة إلى *The Times* في 8 آذار/ مارس 2003 تعليقاً من لورانس في 1929 عند الرّد على سؤال طرحه عليه صحافي أميركي يسأله فيه عن آلية تعامله مع التحدي المتمثل في العمل مع القوات العربية أثناء حملته الصحراوية. فكتب، يقول: "على ما أعتقد أنت تتعامل مع العرب مثلما تتعامل مع الإنكليز، أو سكان أقصى شمال أوروبا، أو التشيكوسلوفاكيين، بحذر في البداية، وبلطف دائماً".

إنّ إعادة اكتشاف لورانس هذا قد تحكّم في إعادة صياغة هذا الكتاب.

لدى المجلد الحالي كثير من القواسم المشتركة مع سابقه لعام 1991. تم هنا إعادة إصدار "Secret Despatches" [المراسلات السرية] بكاملها التي شكّلت مسوّغه الأساسي. كما أعيدت طباعة عدد من "الكتابات الأخرى" التي تضمنته. مع ذلك، يحتوي أيضاً مادة جوهرية لا يتّسع المجلّد لها، أو التي اعتُبرت غير مناسبة لمفهومه. الأهم من ذلك أنّ صِبغَة الكتاب الجديد كلّها مختلفة تماماً لدرجة اقتضت فيها عنواناً جديداً.

بدأ مجلّد 1991 بجزأين تمهيديين معنونين بـThe History of Secret Despatches from Arabia [تاريخ المراسلات السرية من الجزيرة العربية] وThe Lawrence of Secret Despatches from Arabia [مراسلات لورانس السرية من الجزيرة العربية]، والهدف من الجزء الأخير مناقشة دور لورانس في حرب الصحراء إلى حد كبير في ما يتعلق بالطريقة التي كان يكتب بها عن ذلك الأمر في مراسلاته آنذاك، وفي *Seven Pillars* لاحقاً. ولكلا هذين العنصرين غرضه الأدبي في الأساس. إن هدف مقدمة المجلّد الحالي، رغم احتوائها على بعض العناصر من الإصدار السابق، مختلف بصورة ملحوظة. إنه يمثل محاولة لكتابة شيء جوهري وجدير بالاهتمام حول موضوع كنت قد خضت غماره بدلاً من الانخراط فيه مباشرة، بشأن سنوات انهماكي الكثيرة في قضية لورانس العرب: فضيلته وقيمته بصفته رجلاً عمل في الحملة التي منحته شهرته وكذلك الاسم الذي صار مرتبطاً به بشكل لا ينفصم. كما يناقش تعاملاته بعد الحرب مع القضايا والمشكلات التي لا تزال على جدول أعمال الشرق الأوسط بعد انتهاء تلك الحملة. ونظراً إلى أن لورانس لم يكن رجلاً يتخلّى عن حربه وينفض يديه منها، كان عليها البقاء معه بقية حياته بطريقة أو بأخرى.

لذلك يحمل هذا المجلّد عنواناً جديداً ومثيراً للتحدي: *T. E. Lawrence in War and Peace* **[لورانس العرب في الحرب والسلم]**. ويقع في جزأين. يُظهر لنا الجزء الأول لورانس وهو حبيس قسوة الحرب وتحدياتها. أمّا الثاني، فيُبيِّن لنا لورانس وهو يحاول التكيف مع تداعيات الحرب في ظروف السلم. فالمؤلف الأساسي لهذه المختارات هو لورانس نفسه، إذ أدّيت دور المرشد بصورة رئيسية، ودور محامٍ متواضع يترافع، أو ربما لا يترافع في بعض الأحايين، في قضيته أيضاً. فالمُحلَّف هو القارئ الذي يتعيّن عليه النطق بالحكم.

بغض النظر عن الحُكم على هذا التجميع، هو ليس كسابقه في 1991، إعادة زيارة حنين الآن إلى فترة ساحقة من تاريخنا عبر وسيط الكتابات القديمة التي أعيد طبعها على نحو ورع. إنّه كتاب، كما آمل، يكتنف في طياته أمراً رائعاً عن الوقت الحالي وعن التحديات التي تواجه العالم ونحن نتوغّل بعمق أكبر داخل قرن جديد ونحو مخاطر جِسام.

كلمة أخيرة وشخصية: لقد قطعتُ كتابة مقدمة هذا المجلد لحضور ندوة "جمعية توماس إدوارد لورانس" التي عقدت في أكسفورد في أيلول/ سبتمبر 2004 وكان الضيف الرئيسي فيها البروفيسور جون إدوارد ماك John E. Mack، صاحب الدكتوراه في الطب وأستاذ الطب النفسي في جامعة هارفرد ومؤلف سيرة ذاتية رائدة وبحث معمّق عن لورانس بعنوان *A Prince of Our Disorder* [أمير اضطرابنا]، وقد فازت بجائزة Pulitzer في 1977. كان يعتقد اعتقاداً راسخاً أن ثمة دروساً يمكن تعلمها من لورانس حول كيفية تصرف الدول الغربية، وخاصة دولته، في ما يتعلق بمشكلات الشرق الأوسط. فالأمر المفجع للغاية لزوم إسكات صوته بوفاته المفاجئة في حادث مروري في لندن في اليوم الذي تلى انتهاء الندوة. أعطاني بعض كتاباته الأخيرة حول هذا الموضوع أثناء الندوة وسمحت لنفسي بالاقتباس منها بإيجاز في مقدمتي. لو قُدِّر له البقاء على قيد الحياة، لكنت بالتأكيد قدمت إليه تلك المقدمة وهذا التمهيد من أجل تعليقاته. ولا يساورني شك في أنّ تدقيقه سيجعلهما أثرى وأجدر بالمتابعة. كانت معرفتي به قصيرة لكنها مجزية للغاية. وقد تركت لي انطباعاً حياً عن رجل لامع ومتبصّر وعطوف للغاية، وتغمرني السعادة والامتنان في معرفته. وأود أن أهدي هذا الكتاب إحياءً لذكراه.

مالكولم براون Malcolm Brown "المتحف الحربي الإمبراطوري"، لندن

أيار/ مايو 2005

تسلسل الأحداث

1.1888 16 آب/ أغسطس: وُلد توماس إدوارد لورانس في قرية ترمدوق شمال ويلز

2.1896 استقرت عائلته في أكسفورد. والتحق بمدرسة مدينة أكسفورد الثانوية (حتى 1907) 3.8–1906 صيفاً: في فرنسا من أجل دراسة القلاع

4.1907 تشرين الأول/ أكتوبر: يستهلّ الدراسة في الكلية اليسوعية بأكسفورد

5.1909 صيفاً: في سوريا، لدراسة القلاع الصليبية

6.10–1909 شتاءً: يعمل على الأطروحة المعنونة Crusader Castles [القلاع الصليبية]

7.1910 صيفاً: يتخرّج بمرتبة الشرف الأولى في التاريخ الحديث، ويسافر إلى الشرق الأوسط

8. شتاءً: في جبيل، لبنان، من أجل تعلّم العربية

9.1911 شباط/ فبراير – آذار/ مارس: يسافر إلى كركميش

10. نيسان/ أبريل وتموز/ يوليو: يجري أعمال التنقيب في كركميش بإشراف

11. ديفيد جورج هوغارث David George Hogarth وريجنالد كامبل تومسون Reginald Campbell Thompson 12. صيفاً: يعبر شمال بلاد الرافدين

13.1912 كانون الثاني/ يناير: في مصر للتنقيب بإشراف فلندرز بتري Flinders Petrie 14. ربيعاً: التنقيب في كركميش بإشراف تشارلز ليونارد وولي Charles Leonard Woolley .15 (حتى ربيع 1914)

16.1913 صيفاً: في بيته في أكسفورد، بصحبة حمودي ودحوم

17.1914 كانون الثاني/ يناير – شباط/ فبراير: مسح سيناء بالاشتراك مع وولي Woolley والنقيب نيوكومب 18 Newcombe. صيفاً: في أكسفورد ولندن، استكمالاً لتقرير The Wilderness of Zin [صحراء قادِش (زِنْ)] (تقرير أثري عن سيناء بمشاركة وولي) 19. تشرين الأول/ أكتوبر: يلتحق بوزارة الحربية (الشعبة الجغرافية في الاستخبارات العسكرية) 20. 26 تشرين الأول/ أكتوبر: تم تكليفه ملازماً ثانياً على القائمة الخاصة (دون ارتباط بالفوج) 21. 16 كانون الأول/ ديسمبر: في مصر بصفة ضابط استخبارات (حتى تشرين الأول/ أكتوبر 1916) 22.1916 20 آذار/ مارس: تمت ترقيته إلى رتبة نقيب

23. آذار/ مارس – أيار/ مايو: في مهمة خاصة في بلاد الرافدين

24. 5 حزيران/ يونيو: يعلن الشريف حسين انطلاق الثورة العربية

25. 16 تشرين الأول/ أكتوبر: يصل جدة بصفة مشارك في بعثة عسكرية بريطانية

26. 23 تشرين الأول/ أكتوبر: لقاؤه الأول مع الأمير فيصل

27. 7–11 تشرين الثاني/ نوفمبر: في الخرطوم

28. 18–25 تشرين الثاني/ نوفمبر: في القاهرة. يغادر عائداً إلى الجزيرة العربية

29. 18 كانون الأول/ ديسمبر: أُلحق ضابط ارتباط للقوات العربية (حتى تشرين الأول/ أكتوبر 1918) 30.1917 4 كانون الثاني/ يناير: أول غارة على جبل ظهران

31. 14 كانون الثاني/ يناير: يغادر ينبع على متن HMS Suva متوجهاً إلى أملج

32. 18 كانون الثاني/ يناير: يبدأ رحلة برية إلى الوجه برفقة جيش فيصل، ويصل في 25 كانون الثاني/ يناير

33. 10 آذار/ مارس: يغادر الوجه إلى وادي العيص (بقي غائباً حتى 16نيسان/ أبريل) 34. 11 آذار/ مارس: يستولي البريطانيون على بغداد

35. 26 آذار/ مارِس: معركة غزة الأولى، جبهة فلسطين

36. 17 نيسان/ أبريل: معركة غزة الثانية

37. 9 أيار/ مايو: بدء حملة العقبة بقيادة الشريف ناصر

38. حزيران/ يونيو: رحلة لورانس الشمالية

39. 6 تموز/ يوليو: الاستيلاء على العقبة

40. 10 تموز/ يوليو: يصل القاهرة. الاجتماع الأول مع الجنرال السير إدموند ألِّنبي Edmund Allenby 41. 22 تموز/ يوليو: يعود إلى الجزيرة العربية

42. 5 آب/ أغسطس: رُقِّي إلى رتبة رائد

43. 7–22 أيلول/ سبتمبر: غارة حالة عمار

44. 27 أيلول/ سبتمبر – 9 تشرين الأول/ أكتوبر: غارة بئر الشيدية

45. 24 تشرين الأول/ أكتوبر– 3 كانون الأول/ ديسمبر: غارة ممتدة إلى اليرموك ... إلخ

46. 31 تشرين الأول/ أكتوبر: معركة غزة الثالثة، والاستيلاء على بئر السبع

47. 1–20 تشرين الثاني/ نوفمبر: أسر واغتصاب في درعا

48. 9 كانون الأول/ ديسمبر: ألِّنبي يستولي على القدس

49. 11 كانون الأول/ ديسمبر: يشارك في مراسم احتفالية لدخول ألِّنبي إلى القدس

50. 28 كانون الأول/ ديسمبر: يبدأ تجنيد حارس شخصي

51.1918 20 كانون الثاني/ يناير: في الطفيلة

52. 24 كانون الثاني/ يناير: معركة الطفيلة

53. 5–11 شباط/ فبراير: رحلة شتوية من القويرة وإليها

54. 21 شباط/ فبراير: في بئر السبع، يطلب استبداله لكن أُقنع بالبقاء

55. 24–7 شباط/ فبراير: في القدس، اجتماع مع لويل توماس Lowell Thomas
56. 12 آذار/ مارس: رقِّي إلى رتبة مقدم. تأجلت العمليات المشتركة بين قوات أَلِّنبي والقوات العربية بسبب الحاجة الماسّة إلى قوات في فرنسا بعد شن هجوم ألماني كبير

57. 18–19 نيسان/ أبريل: برفقة فرقة الهجانة الإمبراطورية إلى محطة تل الشحم

58. 25 حزيران/ يونيو–1 تموز/ يوليو: في جدة، محاولة فاشلة للقاء الشريف حسين

59. 31 تموز/ يوليو–4 آب/ أغسطس: برفقة فرقة الهجانة الإمبراطورية في العقبة، وادي رم... إلخ

60. 4 أيلول/ سبتمبر: يغادر أبو اللسن إلى الأزرق قبيل المرحلة النهائية من الحملة

61. 19 أيلول/ سبتمبر: شنّ أَلِّنبي هجومه الأخير (معركة مجدّو Megiddo) ضد القوات التركية في فلسطين مع تصرّف عرب فيصل كخاصرة يمنى في الصحراء

62. 1 تشرين الأول/ أكتوبر: الوصول إلى دمشق

63. 4 تشرين الأول/ أكتوبر: يغادر دمشق إلى القاهرة

64. 24 تشرين الأول/ أكتوبر: الوصول إلى إنكلترا والعودة إلى أكسفورد

65. 29 تشرين الأول/ أكتوبر: يحضر اللجنة الشرقية لحكومة الحرب

66. 30 تشرين الأول/ أكتوبر: توقع تركيا هدنة مع الحلفاء

67. تشرين الثاني/ نوفمبر– كانون الأول/ ديسمبر: بصحبة فيصل في فرنسا وبريطانيا

68.1919 كانون الثاني/ يناير–تشرين الأول/ أكتوبر: في باريس من أجل مؤتمر للسلام

69. أيار/ مايو– حزيران/ يونيو: رحلة جوية إلى مصر

70. آب/ أغسطس: يفتتح لويل توماس حفلته الشرق الأوسطية في لندن

71. تشرين الثاني/ نوفمبر: تم انتخابه زميلاً في All Souls College بأكسفورد، وبقي في أكسفورد ولندن حتى 1921 يعمل على كتاب Seven Pillars Wisdom of 72.1921 عُين مستشاراً لونستون تشرشل في وزارة المستعمرات

73. آب/ أغسطس – كانون الأول/ ديسمبر: في مهمات إلى عدن وجدة وشرق الأردن

74.1922 تموز/ يوليو: يستقيل من وزارة المستعمرات

75. آب/ أغسطس: يلتحق بسلاح الجو الملكي البريطاني بدور جون هيوم روس John Hume Ross، وأُرسل إلى قاعدة تدريب تابعة لسلاح الجو الملكي البريطاني في أوكسبريدج

76. تشرين الثاني/ نوفمبر: نُقل إلى مدرسة للتصوير الفوتوغرافي تابعة لسلاح الجو الملكي في فارنبرة

77. كانون الأول/ ديسمبر: افتضحت الصحافة أمره

78.1923 كانون الثاني/ يناير: صُرِف من الخدمة بعد انكشاف أمره

79. 25 آذار/ مارس: يلتحق بالجيش بصفته الجندي توماس إدوارد شو T. E. Shaw، فرقة الدبابات الملكية البريطانية (يخدم حتى آب/ أغسطس 1925) 80. صيفاً: يمتلك كوخاً في Clouds Hill، بالقرب من قاعدة Camp Bovington, Dorset 81.1925 18 آب/ أغسطس: يعيد التحاقه بسلاح الجو الملكي البريطاني

ُ

بصفة ضابط صف توماس إدوارد شو. وأرسل إلى قاعدة Cranwell التابعة لسلاح الجو الملكي البريطاني في لينكولنشاير

82.1926 اكتمال إصدار المشتركين في كتاب Seven Pillars of Wisdom
83.1927 9 كانون الثاني/ يناير: يصل الهند (يقيم فيها حتى كانون الثاني/ يناير 1929). نُشر كتاب Revolt in the Desert [ثورة في الصحراء] (نسخة شعبية مختصرة لكتاب Seven Pillars)، ثم سُحب من التداول لاحقاً

84.1928 الانتهاء من كتاب The Mint، وبدء العمل على ترجمة كتاب Odyssey [الأوديسّة]، ويتبنى الكُنْية Shaw بصورة رسمية بموجب إجراء قانوني يسمح بتغيير الأسماء

85. كانون الأول/ ديسمبر: وضعته وزارة الطيران البريطانية قيد الإقامة الجبرية بعد انتشار أخبار صحافية تزعم تورطه في تمرد في أفغانستان

86.1929 تم تعيينه في محطات جوية مختلفة في إنكلترا (إلى 1935)

87. أيلول/ سبتمبر: العمل مع سيدني سميث Sydney Smith على طائرات Schneider Trophy، ثم على قطعة بحرية عالية السرعة لاحقاً

88.1934 تشرين الثاني/ نوفمبر: ينتقل إلى قاعدته الأخيرة في سلاح الجو الملكي البريطاني في بريدلينغتون Bridlington، في يوركشاير

89.1935 26 شباط/ فبراير: لورانس يترك سلاح الجو الملكي البريطاني للانكفاء في Clouds Hill 90. 13 أيار/ مايو: يتعرض لحادث على دراجة نارية بالقرب من Clouds Hill 91. 19 أيار/ مايو: يفارق الحياة في مستشفى Bovington العسكري

92. 21 أيار/ مايو: مراسم الجنازة في موريتون Moreton، في دورسِت

مقدّمة عامّة

أعدّ توماس إدوارد لورانس، خلال عامين من خدمته الحربية في الصحراء، تقارير عدة عن أنشطته. وطُبع كثير منها في منشور سريّ مُسمّى "النشرة العربية" الصادرة عن المكتب العربي، والأخير منظمة استخباراتية أُنشئت بدعم من وزارة الخارجية منتصف عام 1916 من أجل التعامل مع تداعيات انطلاق الثورة العربية. وكان عليه في وقت لاحق الاتكال على هذه التقارير بكثافة في كتابة مذكراته الحربية في كتاب *Seven Pillars of Wisdom*.

يُعدّ ذلك العمل الأكثر مبيعاً في أرجاء العالم كلّها منذ إصداره العام الأول في 1935، والمطبوع باستمرار والمُترجَم إلى سبع عشرة لغة، والكتاب الذي تعتمد عليه سمعة لورانس بوصفه كاتباً ورجلاً مغواراً إلى حد كبير. ونظراً إلى كون الكتاب قصة مغامرة، ومثيراً للجدل، ودفاعاً في جزئيّاته، ومكتوباً بمزاعم مميِّزة للأسلوب الراقي، يجذب القراء أو يزعجهم أو يحيّرهم بنسب متساوية تقريباً. أمّا الناس، فإمّا يحبونه أو ينفرون منه. ففي الوقت الذي استدرجَ فيه الكتاب عدداً لا يحصى من القراء إلى متاهاته وجعلهم يستسلمون لسحره، نفَّرَ الحشود الكبيرة الأخرى منه وجعلهم ينصرفون عنه على نحو واعٍ. فلورانس ليس رجلاً يبقى كثير من الناس محايدين تجاهه. مع أنّ هذه المقدمة كانت معدّة للنشر بعد سبعين عاماً من وفاته، لا يزال بعد مسيرة حياته الطويلة الحافلة قادراً على شقّ الصفوف. فالمعجبون به يلتقون لتبادل أشكال الحماسة العميقة التي تنتابهم. أمّا غير المعجبين، فيمشون بجهالة إلى الضفة الأخرى.

يمكن لما هو معروف عن تأليف الكتاب أو ما يفترضه أن يجذب أو ينفّر أيضاً. فتمّ تبنّي نسخ، وتجاهل أخرى. مخطوطة مفقودة أو لم تضع في محطة سكة حديد تتوسط الطريق بين أكسفورد ولندن. وشخصية شبه مهووسة تكتب طوال الليل في شقة مستعارة في لندن، على مرمى حجر من دير وستمنستر وعلى مسمعٍ من جلجلة Big Ben، ثم تظهر في ساعات الصباح الأولى وهي تسير في شوارع العاصمة مثل شبح خارج من كتابات ديكنز Dickens. من المؤكد أننا انتهينا من الكتّاب، في عهد الرومانسيين، الذين كانوا يكدحون في الغرف العليا منذ زمن بعيد. ومع ذلك، ها نحن نعاود الكرّة. كتب الشاعر روبرت غريفز Robert Graves في 1923: "كدت أفقد عقلي في شارع Barton، وهو يجيش على كتابي الفظيع هذا". قد تعود هذه الكلمات إلى الشاعر تشاتيرتون Chatterton، رغم غياب الفقر (كان لديه ما يكفي من الأموال لإعالة نفسه) أو اللجوء المشؤوم لذلك الشاب المأسوي إلى الزرنيخ. مع ذلك، وكما

هو مسلّم به على نطاق واسع، لم يكن الانتحار خَياراً مغلقاً بالنسبة إليه في هذه السنوات المضطربة. إنِ انحرفت مخططاته عن مسارها أو تحطمت نفسيّته بصورة لا يمكن تعويضها، فقد يكون ذلك بمكانة نكوص دائم.

إن التناقض مع ذلك كلّه ما يعطي قيمة خاصة للمراسلات السرية من الجزيرة العربية التي تُشكل الجزء الأول من المجلّد الحالي. لم يكتبها شخص اكتئابيّ عصابيّ يضنيه الشعور بالذنب وكليم الإخفاق، لكنه لا يزال يسعى بأسلوبٍ واعٍ إلى تشكيل تحفة فنية. ألّفها شاب مفعم بنضارة العالم المرتجى، متراوحاً بين الحماسة والغاية عبر واحدة من أعظم المناظر العامة الطبيعية وأكثرها تاريخية في العالم، ومنخرطاً في مهمة جادت به وأحيته. ووقفت العصور والحضارات القديمة معه. فكتب الشاعر ويليام بليك William Blake، يقول: "الأمور العظيمة تحدث عندما يلتقي الرجال والجبال/ لا يتم ذلك بالتدافع في الشارع". بالنسبة إلى الجبال، طالعوا مسطّحات الصحراء العربية العظيمة أو "المرتفعات الهائلة" في وادي رم.

تكمن مشكلة توماس إدوارد لورانس في أنه كان شخصية مركّبة من شخصيات عدة في شخص واحد: باحثاً وعالم آثار وجندياً وديبلوماسياً وكاتباً وناشراً وميكانيكياً... ويمكن أن تستمر تعريفات من هو فلان إلى ما لا نهاية. عندما توليت في أواخر الثمانينيات تحرير مجموعة مختارة من رسائله، كانت مهمتي الشاقة محاولة عكس جوانب هذا الرجل الرائع كلّها (في مجلّد من ستمئة صفحة) على مدى أربعة عقود تقريباً. يعود تاريخ المراسلات الواردة في هذا الكتاب إلى عامين فقط، وهي تطرح في جوهرها جانب واحد منه فقط. ومن صفحاته، يظهر لورانس داهية وبارعاً ومرناً ومتحمساً وكفؤاً تماماً وملتزماً في تنفيذ واجباته، مع أن اللحظات السيئة تتخلل أفضلها، فمثل هذا الأمر لا فكاك منه في ظروف الحملة الحربية. إنه لأمر جيد أن ترى مَن يقع فريسة التساؤل الذاتي، في غالبية الأحوال، يؤدّي عمله على أكمل وجه بوضوح. فالرجل المتعدّد الآراء هو متفرّد الرأي في هذا المقام، أو إلى حد كبير للغاية، لأنّه رغم امتلاكه أهدافاً شتّى في آفاقه، العسكرية والسياسية والأدبية والشخصية، كلنها كانت موحَّدة على نحو كافٍ في معظم الأوقات لجعل هذه المرحلة من حياته أكثر إيجابية وإنتاجية.

تلك كانت السنوات من أواخر 1916 إلى أواخر 1918 التي حارب فيها لورانس مع العرب في ثورتهم ضد تركيا. فوجدهم في شبه الجزيرة العربية يحققون نجاحاً محدوداً فقط ضد عدوهم الأفضل تسليحاً والأكثر تنظيماً. ومع تقهقر الأتراك بالكامل، تركهم مقيمين في دمشق، ولو بصورة مؤقتة. بطبيعة الحال، لم يكن العرب وحدهم في هذا المسعى، وبحلول 1918 باتوا الجناح الأيمن، أو ربما بصورة أكثر ملاءمة، "مجموعة الدعم الصحراوي" لزحف كبير بقيادة الجنرال السير إدموند أللّنبي. كان مكان لورانس الطبيعي مع ذلك الجناح الأيمن الّذي كان يُشكّل إلى حد كبير قوة مغاوير مختلفة تماماً في أسلوبها عن

جيش ألَنبي النظامي المحترف، مع أنها كانت تتضمن مجموعة كبيرة من المنتظمين العرب النظاميين أيضاً، ومعظمهم من الفارّين من الجيش التركي، بقيادة قائد لورانس العسكري، العقيد بيرس جويس[1] Pierce Joyce (لكن بعد التعرّف إليه، بات صديقه المحبوب أيضاً). شارك لورانس، طوال فترة عمله ضابطاً في الخدمة الفعلية، في هذا النوع من الحروب التي كانت تليق به بمثالية. لقد فهم الناس والتضاريس وأتقن اللغة إتقاناً مفيداً، وكان مولعاً بالزعيم العربي الأمير فيصل الذي كان يقدّره (في معظم الأوقات) ويثق بسلائقه. كما أُعطي حرية كبيرة لإصدار أحكامه وقراراته الخاصة. كان هذا كلّه مبعث متعة لفردانيّ سلوك لديه آراء متطرفة حول إدارة الحرب، ونفور من الانضباط العسكري التقليدي. باختصار: إن كان الرجل المناسب في المكان المناسب في الوقت المناسب، فهو توماس إدوارد لورانس.

[1] كان رد فعل جويس الأول على رؤية لورانس الرغبة الشديدة في إخباره بقص شعره وتلميع أزراره، إذ أدرك لاحقاً، عندما رأى لورانس مرتدياً لباساً عربياً في اجتماع مغلق مع زعماء عرب، أنه كان في حضرة شخصية غير عادية وموهوبة للغاية.

كان دور لورانس الأساسي ذا شقين: العمل مستشاراً وضابط ارتباط مع القوات العربية، وإعداد تقارير تفصيلية ومطوّلة عن الجوانب ذات الصلة بالحملة كلّها. كما نفّذ بعض المضايقات العملية الفعالة للعدو في الميدان. باختصار: تمثّلت أسلحته في المتفجرات التي كان يستخدمها لتفجير القطارات والسكك الحديدية والجسور التركية، وبتقنيات الإقناع التي جعلته فعلياً المحرك الرئيسي من حيث الإستراتيجية والتكتيك، وباستخدام عبارته الخاصة المقتبسة من كتاب *Seven Pillars of Wisdom*، "قلماً سيّالاً".

فضلاً عن ذلك كان مدركاً أن مَن وضعوه في ذلك المكان يثقون به ويقدّرون ما يفعله. تفيض المراسلات المطبوعة في هذا الكتاب بثقة رجل يعي بوضوح أن عمله يحظى بالاحترام ووظيفته ليست عرضة للخطر. كما كان لورانس يعرف أنه لم يكن يضيع وقته في كتابتها. فلم يكن مقصدها درج الوارد العميق في الأسفل، بل التقدير الفوري والجاد، ومن المحتمل جداً، كما حال التقارير المجموعة هنا، الطباعة والتداول الفوريين على نطاق واسع في المناصب العليا. فتبعاً لعددها الأول تُشكل المراكز العليا التي وُزِّعت عليها "النشرة العربية" قائمة مُذهلة. وكان بينها وزارة الحربية، والقوى البحرية، وقيادة الجيش في الهند، والخرطوم، وقبرص، وعدن، إضافةً إلى المندوب السامي البريطاني (الذي بحوزته ثلاث نسخ لوزارة الخارجية أيضاً) والقائد العام لقوات الحملة المصرية.

رغم إمكانية المحاججة في أنّ قضاء عامين في الصحراء جعله ناجحاً وأصاب منه مقتلاً على حد سواء، لا يمكن إنكار أنه، في حال استخدمنا العبارة المعروفة، خاض "حرباً مقبولة". لم يخرج منها – رغم شكوكه الشخصية في

الأمر – رجلاً ميدانياً مجرّباً فحسب، بل خرج بمادة خام لكتاب جوهري أيضاً. عندما كان يعتزم كتابة الفصل 99 من كتاب *Seven Pillars of Wisdom*، وجد في مشاركته في الثورة العربية "ثيماً جاهزاً وملحمةً لمراقب ومشارك مباشرين على أرض الواقع ... يقدمان إليّ متنفّساً في الأدب". أو على حد تعبيره في مكان آخر: "القصة التي يجب أن أرويها هي واحدة من أفضل القصص المتاحة لرجلٍ من أجل الكتابة".

في النتيجة، يمكن تفسير مراسلات زمن الحرب المطبوعة في هذا الكتاب بأكثر من طريقة. فهي ليست مجرد تقارير استخباراتية من الميدان، بل محاولات مبكرة للتعبير الأدبي عن تجربته في الحرب أيضاً. فبعد كثير من التحولات والانعطافات إنها غارات على طول الطريق المؤدّي إلى كتاب *Seven Pillars of Wisdom*. فكما ستظهر نظرة سريعة على أي صفحة من هذا الكتاب تقريباً، إن هذه المراسلات ليست شروحات واقعية مقتضبة ليتم العمل عليها وتحويلها إلى نثر لائق في وقت لاحق. فهي حسنة الصياغة للغاية، وبشكل مثير للغاية في بعض الأحايين. إنها تنظم المعلومات المُراد نقلها بوضوح وسلاسة. وتتحلّى بالسمة المميِّزة التي لا لبس فيها لكاتب نوعيّ على نحو يجعل القارئ يرغب في مواصلة القراءة.

في هذا المقام لا بدّ من الإشادة المستحقّة بالمحرر الذي حدد أسلوب النشر الذي ظهرت فيه هذه التقارير لأول مرة والتي أُعيدت طباعتها في هذا الكتاب. فالمراسلون الجيدون هم الأفضل دائماً بالنسبة إلى المحررين الجيدين. ولم يكن ليتسنّى للورانس إقامة علاقة أجدى سوى مع الضابط البحري المؤقت الذي تهيمن شخصيته على "النشرة العربية"، إذ كان مُرشده وصديقه من أيام الدراسة في أكسفورد، ديفيد جورج هوغارث، أمين متحف أشموليان، والزميل في كلية المجدلية Magdalen بأكسفورد – الكلية التي منحت، بتحفيز من هوغارث، لورانس منحة للدراسات العليا بعد حصوله على مرتبة الشرف من الدرجة الأولى في التاريخ في الكلية اليسوعية عام 1910 – ورئيسه لوقت وجيز خلال المدة التي قضاها من 1910 إلى 1914 في مهمته الأثرية في كركميش بسوريا. فزملاء السِّلم باتوا زملاء الحرب الآن، لأنه في هذا الوقت كان هوغارث ضابطاً برتبة رائد بحري (قائد لاحقاً) RNVR[2]، بوصفه احتياطياً متطوعاً في البحرية الملكية، مع تمحور نطاق نشاطه على الاستخبارات الشرق–أوسطية. ولم يكن هناك مَنْ هو مؤهّل بصورة أفضل للإشراف على تقارير الضباط الذين شاركوا في الثورة العربية. كما سبق أن أشرنا، نجم عن تلك الانتفاضة وحدة متخصصة في القاهرة تسمّى المكتب العربي، وبات هوغارث عضواً قيادياً فيه. وكانت "النشرة العربية" تعبّر عن صوت المكتب العربي. وكان توماس إدوارد لورانس وراء فكرة هذا المنشور، وبالفعل يظهر اسمه محرراً في العددين الأول والتاسع. أمّا هوغارث، فكان العقل الأكثر تأثيراً

وراءه، ويمكن عدّه الضامن الرئيسي لتميزه. إذا كان لورانس، أو أي من الضباط الآخرين الذين كانوا يكتبون لـ"النشرة العربية"، قد سلّموا مادة مملة وطنّانة، ما كان هوغارث مسروراً. بل سيوضح وجهات نظره تماماً كما سيفعل مع طالب يصل إلى درس عمليّ بمقالة سيئة الإعداد والتعبير.

2 أي احتياطيون متطوعون في البحرية الملكية، وهو وصف مخصص لضباط "الأعمال العدائية فقط"، إذ تم تطبيق التصنيف "RN" (= البحرية الملكية) على الضباط النظاميين حصرياً.

كتب لورانس إلى صديقه في أكسفورد فيفيان ريتشاردز Vyvyan Richards في 1918: "نثر الجيش سيئ، ولدى المرء فيض منه لدرجة يخشى فيها التلوث". فلم يكن لديه لقاح أفضل ضد مثل هذه المخاطر من نفوذ ديفيد جورج هوغارث. بالنسبة إلى اعتقاد هوغارث الراسخ المنصوص عليه صراحةً بشأن "النشرة العربية"، كان "من السهل كتابتها إمّا بلغة إنكليزية لائقة وإمّا بلغة رديئة، لكنها أكثر قبولاً بكثير". وتمثّلت النتيجة في تمتّع "النشرة العربية" "منذ البداية بلمسة أدبية غابت عن ملخصات الاستخبارات دائماً". ومع ذلك، لم تكن هذه نعمة خالصة. "مشفوعاً بالحرف الطباعي والورق الجيدين"، أدى هذا الأمر، على ما يبدو، إلى مراجعة قائمة المستفيدين، واتخاذ "إجراءات احترازية أخرى... لمنع مخاطر الإفراط في التداول". هذه الاقتباسات مستقاة من الافتتاحية التي كتبها هوغارث لـ"النشرة العربية" في آب/ أغسطس 1918 للاحتفال بطبعتها المئة، وهي مقالة تصف سياق المحتوى الرئيسي لهذا الكتاب بصورة جيدة وسهلة القراءة، إذ أعيدت طباعتها بالكامل في هذا الكتاب.

كان هناك بعض الضباط الفصيحين للغاية بين المشاركين في "النشرة العربية"، مثل: السير رونالد ستورز Ronald Storrs، وستيوارت نيوكومب Stewart Newcombe، وهيربرت غارلاند Herbert Garland، وهوغارث ذاته، والرحّالة المهيب هاري سانت جون بريدجر فيلبي Harry St John Bridger Philby، لاحقاً. لكن لا شك في أن لورانس كان، إذا جاز التعبير، المراسل النجم، وليس بسبب كتاباته الرائعة فقط. إن تدريبه السابق بصفة باحث متجول وعالم آثار، والعمل الذي انخرط فيه منذ 1914 في مجال استخبارات الشرق الأوسط، أكسباه مؤهلات ممتازة.

لقد أوضح جيريمي ويلسون Jeremy Wilson هذه النقطة في سيرته الذاتية المعتمدة: لا تضاهي تقارير أخرى من الضباط البريطانيين في الحجاز تقارير لورانس، سواء أكانت تتعلق بالمراقبة التفصيلية أم بجودة الكتابة. تم تحسين موهبته في الوصف عبر علم تدوين الملاحظات حول العمارة والاكتشافات الأثرية، وبات يمتلك الآن قدرة رائعة على تصوير ما رآه. لقد علّمه العمل على الخرائط أن يسجل شكل المناظر الطبيعية التي جابها. فكان يحتفظ بسجل تفصيليّ لأوقات السفر واتجاهات البوصلة طوال رحلاته. تم استخدام هذه

الأمور في وقت لاحق إضافة إلى رسوماته التخطيطية لخطوط ارتفاع التلال كأساس لمراجعات الخرائط في القاهرة. تضمنت تقارير الطرق معلومات عسكرية قيّمة مثل موقع الآبار ومدى ملاءمة التضاريس للمركبات ذات العجلات. رغم أن كتابة ملاحظات حول "الشخصيات" كان تصرّفاً طبيعياً، فإن تعليقاته كانت لافتة على نحو خاص، سواء من حيث الأوصاف الجسدية أو تقييمها الدقيق للشخصية.[3]

[3] Jeremy Wilson, *Lawrence of Arabia: The Authorised Biography* (Heinemann, London, 1989; Atheneum, New York, 1990), pp. 315–16.

بطبيعة الحال، يجب ألا ننسى الجوانب المظلمة من حرب لورانس عند قراءة هذه المراسلات الرائجة والمبهجة في أحيان كثيرة. لن نجد ما أطلق عليه "عذابات ومخاوف وأخطاء" الحملة، ولا الشعور بالذنب الذي ظل يطارده طوال الوقت بشأن نيات الحلفاء النهائية تجاه العرب، ولا رد فعل رجل نيّق على قذارات الحرب أساساً.

يجري اختيار هذه المراسلات بدلاً من جمعها. كان لورانس يكتب عدداً من التقارير الأخرى التي لم تجد طريقها إلى "النشرة العربية" لسبب أو لآخر. حتى لو فعلت ذلك، فلن توفر إعادة الطبع الكاملة وصفاً شاملاً لإنجازات لورانس ومآثره. سيكون ثمة فجوات كبيرة (ينطبق هذا الأمر على عام 1918 خاصة حين ظهر خمسة من تقاريره في "النشرة العربية" فقط، فيما طُبع تقرير آخر – "التيارات السورية المتنازعة" – كوثيقة مُلحَقة). وعليه، لا يقف هذا الكتاب وحده، ولا ينبغي له فعل ذلك.

فالمجلّد المصاحب الذي يجب أن يكون في متناول المرء عند قراءة المراسلات هو كتاب *Seven Pillars of Wisdom*. ولكن لإنقاذ القارئ من المتاعب، مع أن *Seven Pillars* ليس مهمة سهلة حتى بالنسبة إلى أكثر القراء المتصفّحين حنكةً، إليكم حبكة هذا العمل الأدبي الرائع باختصار. في الواقع إنه موجز لاهتمام كبير لأنه بقلم كاتب مشهور كان صديقاً للورانس ومعجباً بأعماله التي بقيت سمعتها راسخة لعقود، بينما كانت شهرة لورانس ترتفع وتنخفض وفقاً لإملاءات الذوق والموضة. فالكاتب المعني هو الروائي إدوارد مورغان فورستر E. M. Forster الذي اشتهر بأعمال مثل *A Room with a View* [غرفة ذات إطلالة] و*Howard's End* [نهاية هاورد] و*A Passage to India* [رحلة إلى الهند] (تحولت جميعها، مثل قصة لورانس الخاصة، إلى أفلام ناجحة). أمّا كتاب *Abinger Harvest* [حصاد أبنغر]، وهو مختارات فورستر من المقالات العلمية والإنشائية والمراجعات والقصائد المنشورة عام 1936، فيتضمن حصّة معنونة بـ"T. E. Lawrence" [توماس إدوارد لورانس]، أُلِّفت خلال العام الذي

سبق ظهور أول طبعة متاحة عامّة من *Seven Pillars*، بعد وفاة لورانس. وكتب فيها فورستر عن هذا العمل: عن ماذا يتحدث هذا الكتاب الطويل؟

يصف الثورة في الجزيرة العربية ضد الأتراك كما تبدّت لإنكليزي شارك فيها. ولم يسمح لنا بكتابة "الجزء الرئيسي". فيستهلّ بزيارته الأولية إلى محافظة رابغ والتفاهم مع فيصل، ثم تأتي الفكرة الجديدة المتمثِّلة في الانتقال شمالاً إلى محافظة الوجه ثمّ مهاجمة سكة حديد المدينة المنورة. أتت الفكرة أُكُلها، وانفضّ عن فيصل لبعض الوقت، وتحرّك ضد العقبة بمؤازرة من الشيخ عودة، شخصية عظيمة أخرى في الثورة. وكان هذا الأمر بمنزلة نجاح ثانٍ متمثِّل في شلالات العقبة. ثم تنتهي الحرب في الحجاز وتصبح سوريّة. أمّا من الآن فصاعداً، فيتعاون مع الجيش البريطاني بقيادة بطله ألّنبي، ويكمن عمله الرئيسي في إمارة شرق الأردن. فيفضي هذا الأمر إلى قطع السكك الحديدية الثلاث حول درعا. وتصبح بذلك درعا معزولة، الأمر الذي يمهّد الطريق للنجاح الثالث المتمثِّل في الاستيلاء على دمشق، فتدخل الجيوش المتحدة دمشق معلنةً انتصار الثورة.[4]

[4] E. M. Forster, *Abinger Harvest* (Edward Arnold, London, 1936), p. 140.

بطبيعة الحال، لم يكن فورستر، في اختزاله كتاب *Seven Pillars* إلى مثل هذه العناصر الأساسية، يقدم معروفاً إلى القارئ المحتمل بقدر ما كان ينصب فخاً أدبياً له. وتابع: "هذا ما يدور حوله الكتاب، ولا يمكن تحقيقه إلا رسمياً من ضابط أركان ضليع بالشرق. هذا ما يدور حوله الكتاب، وكانت رواية *Moby Dick* تدور حول اصطياد حوت". بإضافة هذا الملحق المزدوج إلى ملخصه، لم يكن فورستر يشير بصورة صحيحة إلى أن *Seven Pillars* بعيد كلّ البعد عن المذكرات العسكرية العادية فحسب، بل كان يحاول، كما كان يعرف حقّ المعرفة، إدخال أحد تلك الأعمال العملاقة في المعادلة أيضاً (مثل *War and Peace* [الحرب والسلام] و*The Brothers Karamazov* [الإخوة كارامازوف]) التي أُعجب لورانس بها كثيراً، والتي حاول بوعي محاكاتها في *Seven Pillars*. فضلاً عن ذلك سلّم لورانس بصوابية دراسة *Seven Pillars* في هذا المقام.

رغم ذلك، *Seven Pillars* ليس موضوع هذه المقدمة، بل سلفه الجذاب والناشئ، "المراسلات السرية"، الذي يمكن أن يخدم ملخص فورستر المكون من مئتي كلمة بصورة متكافئة كدليل مصغر. إذا كُتِبَ كتاب فورستر لإثارة الإعجاب بدلاً من الإفادة منه، يبقى مع ذلك ملخصاً مفيداً يتّسم بميزة إضافية تتمثل في كونه فضولاً أدبياً بقلم أحد أكثر الكتاب إثارة للإعجاب في القرن الماضي.

وبالاعتماد على الحسابات الشخصية بصورة كبيرة، ألّفت في السنوات الأخيرة عدداً من الكتب حول موضوعات الحرب. تنقسم هذه الروايات إلى فئتين واضحتين: المواد المعاصرة، أي الرسائل واليوميات، والمواد الصادرة لاحقاً، أي المذكرات أو الذكريات المسجلة. أمّا أنا، فلديّ تحيز إلى الفئة الأولى. في اعتقادي، ثمة صفة خاصة بشأن الأدلة التي تعود في تاريخها إلى وقت وقوع الحدث، خلافاً للأدلة المكتوبة أو المنطوقة بعد انتهاء الأحداث

بالفعل. بالنسبة إليّ، تتمتع خطابات أو يوميات الرجال، على سبيل المثال، بمصداقية أكبر من روايات الرجال الذين يتذكرونها بهدوء ما بعد الحرب. يمكن مع جهلك هل ستعيش لليوم اللاحق أو لا أن تركّز عقلك بطريقة رائعة، في حين يتشكّل لدى المحارب المخضرم، الذي نجا من تجربة معارك St[5] Crispin's day وعاد إلى الوطن سالماً، منظور مختلف تماماً. فقد لا يكون ثمة رؤية شاملة وإنما يعوّض ذلك عبر شعورٍ بالآنية.

5 يشير هذا اليوم إلى The Battle of Agincourt [معركة أجينكور] التي دارت رحاها بين الإنكليز والفرنسيين في 25 تشرين الأول/ أكتوبر 1415. (م.) تندرج "المراسلات السرية" في هذه الفئة الأولى بوضوح. فيُقدِّم لورانس تقاريره دون فكرة واضحة عن الأحداث اللاحقة، رغم وضوح اعتزامه بذل ما استطاع إليه سبيلاً لإعدادها. وكلّما تابعنا القراءة، نرى تطور الحملة بصورة تدريجية، وتبايناً في المواقف، إذ يمكن تعرّض الشخصيات التي صُفِّق لها في لحظة ما للانتقاد بشدة في اللحظة اللاحقة. خذ مثلاً الحظوظ المتقلبة لزعيم قبيلة الحويطات المخضرم، الشيخ عودة أبو تايه، وهو بلا شك إحدى شخصيات الثورة الفريدة. تم تقديم الشيخ عودة في عدد "النشرة العربية" الصادر في 24 تموز/ يوليو 1917 المعنون The Howeitat and Their Chiefs [قبيلة الحويطات وزعاماتها] بنوع من التباهي الذي يربطه المرء بالظهور الأول لشخصية رئيسية في رواية فيكتورية – أو ربما بشكل أكثر ملاءمة – وصول شخصية البطولة للكاتبين مالوري Malory أو ويليام موريس William Morris إلى مسرح الأحداث: تزوج ثمانياً وعشرين مرة، وأصيب ثلاث عشرة مرة... ولم يبلِّغ عن "صيده"، الذي تبلغ حصيلته الآن خمسة وسبعين عربياً، إلا منذ 1900. أمّا الأتراك، فلا يحصيهم الشيخ عودة عندما يموتون... يعدّ الحياة ملحمة والأحداث فيها مهمة كلّها والشخصيات بطولية كلّها. وذهنه يزخر (ويفيض عموماً) بقصص الغزوات القديمة وقصائد المعارك الملحمية.

تتواصل العبارات الرنّانة باستمرار، وتعود إلى العصور الوسطى أكثر من الحديثة. بالتأكيد، لم يُقرأ أي اقتباس من الحرب العالمية الأولى عن المروءة على هذا المنوال. لكن في العدد الصادر في 8 تشرين الأول/ أكتوبر (بعنوان The Raid at Haret Ammar [غارة على حالة عمار]) أفاد لورانس أن الشيخ عودة "يثير المشكلات بسبب جشعه ومحاولاته تولي السلطة على قبيلة الحويطات كلّها"، وكتب في عدد "النشرة العربية" اللاحقة الصادر في 21 تشرين الأول/ أكتوبر، (The Raid near Bir esh–Shediyah [غارة بالقرب من بئر الشيدية]) عن مجموعة أخرى من "الصعوبات الناجمة عن ادعاءات عودة أبو تايه".

لا بدّ من إضافة عدم التعويل على الشيخ عودة لمدة وجيزة. لقد أشاد به لورانس في مقالات ما بعد الحرب في صحيفة *The Times*. وهو بلا شك الشخصية العربية الأكثر بطولية في كتاب *Seven Pillars*. وعليه، تؤكد إشارة المراسلات إلى مراوغاته المقلقة وعدم استقراره طبيعة هذه الكتابات المعاصرة. كان هذا تاريخاً في طور التكوين، وينمّ عن أمر مختلف تماماً عن التاريخ. وعندما يتم تسجيل الأحداث أثناء إماطة اللثام عنها، لا يختلف الزمن فحسب، بل ثمة تفاوت ملحوظ في التوتّر أيضاً.

للحصول على مثال رئيس على سمة الآنيّة المُلحّة هذه، انظر مقالة "The Destruction of the Fourth Army" [تدمير الجيش الرابع]، حيث يصف لورانس

الحملة القاسية والوحشية في أيلول/ سبتمبر 1918 التي بلغت أوجها بالاستيلاء على دمشق. إنه قطعة سريعة، وخام، ونابضة بالحياة، منبثقة من تبجيل تلك الأسابيع الأخيرة وأهوالها التي لا تزال حاضرة في ذهنه. لا بد أنه كتبه، إن لم يكن في دمشق، أو بعد مغادرتها، فعلى الأرجح أثناء إقامته القصيرة في القاهرة قبل عودته إلى إنكلترا، لأنه ظهر في "النشرة العربية" في 22 تشرين الأول/ أكتوبر. فهذا هو التاريخ الذي تمّ رصده بفعل استمرار تدفق وابل من الأحداث. إن الاقتباس منه من أجل إظهار نكهته أمر مثير للاستياء. فيقتضي قراءته من ألفه إلى يائه وبسرعة.

ثمة جانب جذاب آخر لـ"المراسلات السرية". ففي *Seven Pillars*، غالباً ما يكون المرء مدركاً للجهد المبذول وراء الفصول المعدّة بعناية. يحاول لورانس جاهداً أن يكتب جيداً. كما أنه يحاول، كما ذكرنا، الانضمام إلى نادي المحترفين، أن يكون بمصاف تولستوي Tolstoy، أو دوستويفسكي Dostoevsky، أو ميلفيل Melville؛ باختصار، ليثبت نفسه فناناً ناضجاً في مسألة تأليف الكتب. خلافاً لذلك، تُهرق "المراسلات السرية" بمرح، مع (كما يمكن للمرء أن يستشف من المخطوطات الأصلية المحفوظة في الأرشيف الوطني) غياب أي تصويبات أو إعادة كتابة. فالانطباع المتشكّل هو أنه كاتب بالفطرة ينساب قلمه عبر الصفحة غير متأثّر بالشكوك والتردد، ومستمتع بحقيقة أن عمله اليومي يكمن في إفراغ ما في جعبته من أمور جيدة للكتابة عنها أكثر مما يمكن أن يتخيله.

لقد أشرت إليه بصورة مقصودة كشاب في هذه المرحلة من مسيرته المهنية. ومع ذلك، تجدر الإشارة إلى أنه لو خدم في الجبهة الغربية، لكان ملازماً ثانياً مسناً نسبياً؛ هو من مواليد 1888، وكان يبلغ الثامنة والعشرين عندما ذهب إلى الصحراء، والثلاثين عندما وصل دمشق. لكن في البيئة التي وجد فيها نفسه عند وصوله إلى القاهرة عام 1914، كان بالتأكيد فتياً نسبياً، ويمكن الزعم بأنه عبّر عن ابتهاجه بهذه الحقيقة. كان زملاؤه كلّهم من الرجال الأكبر سناً تقريباً: وُلد هوغارث عام 1862، والعميد كلايتون Clayton، رئيسه في الاستخبارات العسكرية في القاهرة وكان يعمل مخبراً لديه في غالبية الأوقات، من مواليد 1875، ونيوكومب الذي صار زميله في غارات الصحراء لاحقاً التحق بالجيش المصري عام 1901، ونائبا البرلمان فخامة أوبري هيربرت Aubrey Herbert (مولود 1880) وجورج لويد George Lloyd (مولود 1879)، وكان النقيب بوكستون Buxton، من مرتّبات فرقة الهجّانة الإمبراطورية وخاض معه حملته إلى حين 1918، يكبره بخمس سنوات. فمن بين هؤلاء الرجال، كان شاباً لامعاً نشطاً ومارقاً وشقياً فظيعاً تقريباً (عندما وضع نفسه في مشهد القاهرة، كتب في الفصل السادس من *Seven Pillars*: "كنتُ عنيفاً بالفطرة وشريراً"). كان في مقدوره طوال الحرب إثارة غضب رؤسائه، وهذا ما فعله في غالبية الأوقات، غير أنه كان يعرف كيف يبهرهم أيضاً. كان في مقدور هوغارث، في

وقت مبكر من خريف 1917، أن يكتب عن سمعته بوصفها "متسلّطة". فلم يرد أي تلميح إلى اللوم في تعليق هوغارث. بدلاً من ذلك يُظهر التعليق إعجاباً حقيقياً بشخص أدى أداءً جيداً لدرجة أنه برَّ زملاءه الأكثر نضجاً وفاقهم بهاءً.

مع ذلك، إن ادعائي أن "المراسلات السرية" كتاباً يعود إلى شاب لا يعني أنني أفترض أنه عندما ألّف *Seven Pillars* كان قد تنصّل من موقف الشباب في سنوات الحرب التي قضاها. على العكس من ذلك تماماً. مثلاً انظر بيانه الكلاسيكي في الفصل التمهيدي: لقد عشنا كثيراً من الحيوات في تلك الحملات الالتفافية، ولم ننقذ أنفسنا إطلاقاً. ولكن عندما حققنا ما نبتغيه ولاح العالم الجديد، عاد الرجال المسنون مرة أخرى وخطفوا انتصارنا من أجل إعادة صنعه على صورة العالم السابق الذي كانوا يعرفونه. وكان في مقدور الشباب الفوز، لكنهم لم يتعلموا الحفاظ عليه. فكانوا ضعيفين على نحو مثير للشفقة مقابل عامل العمر. لقد تلعثمنا بقولنا إننا عملنا من أجل سماء جديدة وأرض جديدة، وشكرونا بلطف وصنعوا سلامهم.

يكاد يتذكر المرء قصيدة ويلفريد أوين Wilfred Owen اللاذعة المعنونة 'The Parable of the Old Man and the Young' [حكاية العجوز والشاب الرمزية]، وهي نسخة من القرن العشرين لقصة إبراهيم وإسحاق، إذ يوثق إبراهيم ابنه من أجل التضحية به قرباناً، فيما يتوسل ملاك والده عبثاً من أجل الصفح عنه: انظروا! كبش عالق في دغل من قرنيه،

ضحِّ بكبش كبريائك بدلاً من ذلك.

لكن العجوز لم يفعل ذلك،
بل ذبح ابنه ونصف ذرّية أوروبا واحداً تلو الآخر.

هاتان صيغتان رئيستان لمفارقة الحرب الأبدية تتمثّلان في أن جيل الشباب يقوم بالقتال والموت بينما الأجيال الأكبر سناً تعطي الأوامر وتحتفظ بالغنائم.

ففي نواحٍ معينة، كان لورانس وأوين (يذكّرنا اسمه بوجود حملة أخرى أكبر بكثير كانت تجري طوال عامي لورانس في الجزيرة العربية) متشابهين. فكلاهما كان ضابطاً "عدائياً فقط" يتمتّع بذكاء عالٍ وحساسية غير عادية. وكلاهما نتاج تنشئة دينية سليطة، وكلاهما من الرجال ذوي الهدف الأخلاقي والطموح العالي. فأرادا صياغة تجربتهما الحربية على نحو يلفت انتباه العالم. وكانا مدركَيْن لعنة الحرب تماماً. وخدمةً للتاريخ والأدب كان وجودهما في مكانهما المعهود أمراً حسناً. فلا غنى عن أوين من أجل فهم الجبهة الغربية. ولا يمكن الاستغناء عن لورانس من أجل فهم حرب الشرق الأوسط، ولفهم الشرق الأوسط منذ ذلك الحين، بوصفه جزءاً من الهدف الذي يفترضه هذا الكتاب. لكنهما كانا جزءاً من المشهد العام نفسه.

بصفتي شخصاً كان يسعى إلى دراسة جوانب كثيرة من الحرب العالمية الأولى، أشعر أن دارسي توماس إدوارد لورانس يخفقون في فهمه في سياقه الأوسع في أغلب الأحايين. تبدو الثورة العربية كأنها كانت حرباً منفردة. ويمكن

للناس أن يعتادوا عدّ حملة الشرق الأوسط بوصفها أمراَ بحد ذاته لدرجة ترقى فيها إلى مصافّ الصدمة عندما يشير لورانس إلى أنه عند لقائه الأمير عبد الله في مخيمه الصحراوي بوادي العيص في آذار/ مارس 1917 لم يُبدِ الأخير اهتماماً بالحديث عن المهمة الحالية بقدر اهتمامه بمناقشة موضوعات أخرى مثل معركة السوم. لكن لم يُصنّف لورانس الحرب بنفسه، إذ كان دائماً على دراية بما وصفه ذات مرة بـ"الحرب الكبرى" الجارية في مكان آخر. مع ذلك كلّه، توفي شقيقان أصغر منه سناً في فرنسا وهو لا يزال يرسم الخرائط ويعدّ تقارير المخابرات في القيادة العامة في مصر. عندما ذهب إلى الصحراء كان يعلم أنه يقاتل حلفاء العدو الذين قتلوا شقيقيه. في وقت لاحق، أثّرت نكسة الحلفاء الكبرى في أوروبا في ربيع 1918 بشدة في خطط ألّنبي، وفي النتيجة في خططه للحشد النهائي ضد الأتراك. سُحبت القوات إلى فرنسا وكان لا بد من وضع خطط جديدة طويلة الأمد. فضلاً عن ذلك، كانت تتم الإشارة إلى المبادرات التي شارك فيها، ولا سيما في المراحل اللاحقة، ومناقشتها بصورة منتظمة في لندن. حتى أنها بلغت مكتب رئيس الأركان العامة للإمبراطورية، السير ويليام روبرتسون William Robertson، الذي كان مسؤولاً عن متابعة الأعمال العدائية في مسارح العمليات كلّها، بما في ذلك أكثر قطاعات القتال شهرة وحسماً، الجبهة الغربية على وجه الخصوص. كانت هذه حرباً واحدة، وليست حروباً شتّى.

ظهر قدر كبير مما سبق في مقدمة إصدار 1991 من "المراسلات السرية"، وهي حقيقة لا أقدم إليها سوى اعتذار صامت، لأنها توضح كثيراً مما يجب قوله في هذا القسم من المجلد الجديد. ولا أرى فائدة في إعادة كتابة ما عملت جاهداً ترجمته إلى نثر مقروء منذ أربعة عشر عاماً خلت. ولكن من هذه النقطة فصاعداً، سأدخل أرضاً غير مرسومة المعالم بصورة مقصودة، وأقوم فعلياً بتقليد نقش لورانس الذي اقتبسته في بداية تلك الطبعة وكررته مرة أخرى في هذه الطبعة، مع إشارته إلى "عمل مسلٍّ، وكلّ بلد جديد". بطبيعة الأحوال على المرء أن يكون حذراً من كلمة "مسلٍّ" التي استخدمها الكاتب الأصلي بوضوح وبروح سخرية مميز، إن لم تكن غير تقليدية، وحذراً من استخدامي محاكاة تبريرية باهتة للفظته. عملياً، كانت وظيفته بعيدة كل البعد من التسلية، ولا ينبغي أن ينطبق المصطلح على أي محاولة جادة لتحليله لأنه، بغضّ النظر عن النتيجة، في هذا التحليل تستمدّ هذه الطبعة الجديدة قِبْلَتها، وعليه مسوّغها، في حال تم رفع القضية، لو بصورة نصف مُرضِية.

لذلك، فلنطرح سؤالاً محورياً وضرورياً: عندما انسلخ النقيب توماس إدوارد لورانس عن عاداته البريطانية وساير فيصل "قليلاً"، هل كان يضيع وقته، وفي النتيجة، بحكم التعريف، وقتنا؟ أو بعبارة أخرى: هل قدم إسهاماً كبيراً في حرب 1914–1918؟ وهل كان لديه أي شيء يقدمه إلى "العرض الثانوي لعرض ثانوي" الذي كان منخرطاً فيه – هذا المسرح الثانوي نسبياً لصراع عالمي –

سوى المقالات الراقية والخصبة التي شكّلت قراءة ممتعة لكبار عائلته وعلية القوم وهم يحتسون مشروبات روحية في القاهرة ومقر الحكومة البريطانية؟ ويكتنف هذا الأمر في طيّاته السؤال العام الأهم الآتي: ما الذي أسهمت فيه الثورة العربية في محصلة حرب الشرق الأوسط الناجحة؟ في ضوء الأبحاث الحديثة حول هذا الموضوع، أقدم الإحاطة المختصرة الآتية عن هذا السؤال الأخير، رغم التسليم بصرامتها.

مما لا شك فيه أن قوة ألّنبي التقليدية كانت المحرك الرئيسي في هذا المشروع الهائل الذي تم تنفيذه على نحو مثير للإعجاب، بصرف النظر عن بعض النكسات. فمن حيث عدد الرجال ووزن الأسلحة المستخدمة ووقعها على القوة البشرية ومعنويات الجيش العثماني المتقهقر، ليس ثمة تفسير آخر. وهكذا مع أفضل مشيئة في العالم، لا يمكن عدّ الإسهام العربي سوى أمر مكمِّل. وبما أن بعض القبائل العربية كانت تريد التأكد من أنها مع الفريق الفائز قبل الموافقة (ستكون في ورطة كبيرة في حال استيعابها الأمور بطريقة خطأ) بوصفها عنصراً مشكوكاً فيه إلى حد ما، ويصعب تحديده عسكرياً.

يُلخص هذا الأمر ما يمكن وصفه بأنه وجهة نظر سائدة بين مؤرخي الحرب العالمية الأولى البريطانيين المعاصرين، وليس فقط مَنْ ركزوا على الحرب في أوروبا لدرجة قد تبدو فيها حملات الشرق الأوسط بحكم العرَضِيَّة. مع ذلك، ثمة تفسيرات أخرى. في ما يأتي حكم المؤرخ الأسترالي المرموق تريفور ويلسون Trevor Wilson، مؤلِّف كتاب تاريخ مرجعيّ معنون بـ*The Myriad Faces of War* [وجوه الحرب التي لا تُعد ولا تحصى] حول إسهام بريطانيا في نزاع 1914–1918 المنشور في 1986. علق قائلاً: ”من الواضح أنه لم يكن حاسماً“. ”ومع ذلك، لم يكن غير مهم: في حماية خاصرة ألّنبي اليمنى، والمساعدة في تضليل العدو في ما يتعلق بمكان وجود هجومه الأولي، وتعطيل اتصالات الأتراك“. كما استدعى ويلسون للشهادة أمام الجنرال غلوب Glubb المشهور بأنه آخر قائد للفيلق العربي، وقد كانت الثورة العربية في رأيه مثالاً استثنائياً على ما يمكن تحقيقه عبر تكتيك حرب العصابات، إذ تم وضع حد لتحرّكات عشرات الآلاف من القوات التركية النظامية على يد خصم لم يكد قادراً على إشراك لواء مشاة في معركة ضارية. وعلق ويلسون على ”ندرة ادخار القوة هذه على ضفتي هذه الحرب“.[6]

[6] Trevor Wilson, *The Myriad Faces of War* (Polity Press, Cambridge, in association with Basil Blackwell, Oxford, 1986), p. 622.

يُعدّ سيريل فولز Cyril Falls، الذي خدم في فرنسا طوال الحرب العالمية الأولى وجمع التاريخ الرسمي لحملتي مصر وفلسطين المنشور عام 1930 أيضاً، مؤرخاً لجيل سابق تستحق تعليقاته التدوين في هذا السياق. ففي كتابه عن تاريخ الحرب المكوَّن من مجلد كلاسيكي واحد صدر عام 1960 (في ذلك الوقت، يمكن التنبيه إلى أن سمعة لورانس كانت موضع خلاف)، أقرّ فولز بأن ألِّنبي أعطى إسهام القوات العربية غير النظامية الفضل الكبير في نجاح الحملة. وبقرنه مقاربة ألِّنبي بمقاربة سلفه كقائد عام للقوات المسلحة، الجنرال السير أرشيبالد موراي Archibald Murray، أدلى فولز بالآتي: كان موراي يدعم الثورة العربية باستمرار. أمّا ألِّنبي الذي كان خياله الخصب يناقض صورته التقليدية، فيتطلّع إلى المزيد فيها، وقدم إيها مساعدة أكثر فعالية. وشكّلت مجموعة صغيرة من الضباط البريطانيين صلة الوصل بينه وبين العرب، إذ كان توماس إدوارد لورانس أبرزهم نظراً إلى صلته الروحية بالبدو وبراعته في تكتيك حرب العصابات وإستراتيجياته.[7]

[7] Cyril Falls, *The First World War* (Longmans, London, 1960), p. 375.

تَظهر وجهة نظر أخرى داعمة بقوة للإنجاز العربي في كتاب *Images of Lawrence* [صور من حياة لورانس]، من تأليف مرجعيْن أميركيين اثنين، ستيفن تاباتشنك Stephen E. Tabachnick وكريستوفر ماثيسون Christopher Matheson، المنشور عام 1988. واستشهد المؤلفان برأي الجنرال ليمان فون ساندرز Liman von Sanders، القائد العام الألماني للجيوش التركية في فلسطين، الذي أقرّ أنّ البريطانيين، بسبب الثورة العربية، "كانوا يقاتلون في ظل ظروف كأنّهم في عقر دارهم، بينما تعيّن على الأتراك في دفاعهم عن بلدهم القتال وسط سكان معاديين مباشرة". ادعى المؤلفان أن فون ساندرز لم يعدّ الاستيلاء العربي على العقبة في حزيران/ يونيو 1917 بوصفه غير مهم عسكرياً، ولم يرَ الهجمات العربية على سكة حديد الحجاز تافهة، في المراحل اللاحقة من الحملة بصورة خاصة عندما لم تعد قطع الغيار متاحة من أجل إجراء إصلاحات للمحركات وعربات السكك الحديدية. وبدعوى أن "مرونة" لورانس حاسمة، صرّحا: تمكن لورانس، بسبب مرونة هذه المقاربة على وجه التحديد، من اتخاذ مجموعة سيئة التنظيم من القبائل البدوية المتناحرة (وسكان الحجاز وسوريا المدنيين) وتحويلها إلى سلاح غير تقليدي أسهم في اندحار الأتراك... فقُوِّضت ثقة الأتراك، وتحولوا إلى حاميات قلقة ومعزولة في أرض معادية... وعندما زحف العرب على دمشق في الأول من تشرين الأول/ أكتوبر 1918 (بعد عامين فقط من توقعه فعل ذلك) حظيت نظرية لورانس القائلة إن القوة غير التقليدية قيِّمة بحجّتها النهائية.[8]

8 Stephen E. Tabachnick and Christopher Matheson, *Images of Lawrence* (Jonathan Cape, London, 1988), pp. II9–20.

قد يُتوقع من تاباتشنك وماثيسون، المعروفين بكونهما دارسيْن جادّيْن، بل معجبيْن بلورانس، أن يتبنيا وجهة نظر إيجابية بصورة عامة. لكن ليست هذه هي الحال بالتأكيد مع روبرت براون أسبري Robert B. Asprey الذي استطلع عمله الموسوعي *War in the Shadows: The Guerrilla in History* [حرب في الظلال: حرب العصابات في التاريخ]، المنشور في سبعينيات القرن الماضي، الملحمة الكاملة للحرب غير النظامية، بدءاً من رجال حرب العصابات السكيثيين Scythian الذين أغاظوا الملك الفارسي داريوس Darius أو الإسكندر Alexander ومآثر سبارتاكوس Spartacus الفاشلة انتهاءً بأزمات أواخر القرن العشرين، المصحوبة بأجندة خاصة لتحذير إخوانه الأميركيين من مخاطر الانجرار إلى فيتنام أخرى. ومع ذلك، أفرد مساحة لفصل كامل عن لورانس، وفي ما يأتي فقرة رئيسية مقتبسة منه: لم يُصرّ على تطعيم معاييره ومعايير بلاده بجسد عاجز عن التلقّي. بدلاً من ذلك، وبفضل القدرة اللغوية والخيال والإدراك والأمانة الفكرية والأخلاقية، ولا سيما الطاقة الهائلة، قصدَ القبائل، ووجد قائداً، وحدد هدفاً قابلاً للتطبيق، وقدّر الإمكانات، واختار نوعاً من الحرب متوافقة مع القيادة والقدرات والهدف السياسي. إن تقدير الوضع الذي جلبه معه لورانس من الكثبان الرملية عام 1917 هو معادل عسكري للدستور البريطاني، أحد أكثر الوثائق غير المكتوبة إثارة للاهتمام على مرّ العصور.[9]

9 Robert B. Asprey, *War in the Shadows: The Guerrilla in History* (Doubleday, Garden City, NY, 1975), pp. 289–90.

الأمور على خير ما يرام حتى الآن. لكن من المهم أن نضيف وجود آراء معارضة يُعبر عنها أحياناً أشخاص يُنظر إليهم على أنهم مدرجون في قالب لورانس عموماً. في هذا الصدد، لم يكن أحد أكثر صراحةً من أورْد وينغيت Orde Wingate، الرجل الذي أطلق عليه كثيرون لقب توماس إدوارد لورانس الحرب العالمية الثانية، واللامع كقائد حرب عصابات أبرزها في بورما وفلسطين. وشاءت الأقدار أن يكون أحد أقارب لورانس البعيدين (كان ابن عم بعيد من جهة والدته). ففي فِقْرة لاذعة من مقالة بعنوان "Palestine in Imperial Strategy" [فلسطين في الإستراتيجية الإمبراطورية]، مكتوبة عام 1939، كتب عن الثورة العربية: لقد سُمح لغرور الرؤساء، إضافة إلى قدر كبير من الغبار الرومانسي حتى الآن، بالتعتيم على ما حدث فعلاً. حشد منهك مكوّن

من بضعة آلاف على الأكثر وغالباً بضع مئات من البدو فقط، يتلقون رواتبهم ذهباً مقابل القتال ليومين في الشهر تقريباً... سبّب للأتراك قدراً معيناً من الإحراج والقلق... فمقابل المساعدة المرتفعة الأجر لهذا الحشد الصغير من البدو الحجازيين، سلّمنا للعرب المملكة العربية السعودية كلّها واليمن والعراق وشرق الأردن وسوريا. لم يسبق رؤية صفقة أسخف منها إطلاقاً.[10]

10 John Bierman and Colin Smith, *Fire in the Night: Wingate of Burma, Ethiopia and Zion* (Random House, New York, 1999; Macmillan, London, 2000), p. 13 I.

مع ذلك، لا بدّ من وضع هذا الرأي في سياقه. إن كان وينغيت يحتقر لورانس، يمكن القول إن لورانس كان يريد الانتقام من وينغيت. فأقتبس الآتي من مقدمة كاثي فرانسيس ماكغرو Kathi Frances McGraw العلمية إلى دليلٍ مُعدٍّ لمعرض لورانس الذي أقيم في جامعة براون بنيو جيرسي، في 1998: اعترف كثير من الجنرالات، أثناء الحرب العالمية الثانية، بعبقرية توماس إدوارد العسكرية الخاصة وقدّروها حقّ قدرها. وكان المشير البريطاني أرشيبالد بيرسيفال ويفل A. P. Wavell، أحد قادة الحلفاء العظماء، يكنّ لتوماس إدوارد احتراماً كبيراً، وهذا ما فعله المارشال الألماني إرفين رومل Erwin Rommel. فعلى هذا الجانب من المحيط الأطلسي، درس القائد الميداني الأميركي الجنرال جورج سميث باتون George S. Patton كتاب *Seven Pillars of Wisdom*. وقد ينعكس إرث توماس إدوارد في تلك الحرب بصورة لافتة للنظر في صعود نجم أورْد وينغيت. عندما كان رئيس الوزراء تشرشل يُقيل الجنرالات البريطانيين في الأماكن كلّها، كان يبحث عن قائد من عيار توماس إدوارد، غير تقليدي، وفعّال وقادر على الاكتفاء بقوات صغيرة وإلحاق أكبر ضرر بالعدو. فلجأ إلى وينغيت، الذي وصفه سكرتير تشرشل الخاص، جون مارتن John Martin، بأنه "شخص مثير للاهتمام ولافت للنظر، ولا يختلف عن رأيي في توماس إدوارد لورانس". استخدم وينغيت تكتيكات لورانسيّة بشكل فعال، إذ قاد مجموعات الاختراق، Chindits، السيئة السمعة في الاختراقات البعيدة المدى ضد اليابانيين في بورما. وأكسبته مآثره ألقاباً غير رسمية مثل لورانس يهودا (لقاء أنشطته في فلسطين)، ولورانس إثيوبيا، ولورانس بورما. فعندما اعتمدت الجمعية الملكية لوسط آسيا إنجازات وينغيت، منحته وسام لورانس العرب التذكاري.[11]

11 Kathi Frances McGraw and Andrew Carvely, *T. E. Lawrence, A 20th Century Retrospective* (Andrew Carvely Corporation, Summerduck, VA,

1998).

كان ماو تسي تونغ قائداً بارزاً آخر في سياق مختلف تماماً، وأولى توماس إدوارد لورانس انتباهاً مدروساً، وقدّم عروضاً متواضعة في الحرب النظامية، لكنه برهن أنه لا يُقهر عند اتّباعه أساليب غير نظامية. حتى أن إدغار سنو Edgar Snow، المعجب الأميركي بـماو ومترجمه الفوري، شبّه "شيوعيي ماو" بعرب لورانس. أمّا الجنرالات الصينيون والفيتناميون الآخرون، فأخذوا لورانس على محمل الجد. يكتب ماغرو: من المفيد أن نلاحظ أن فو نغوين جياب Vo Nguyen Giap، وهو جنرال عصامي آخر في حرب العصابات، نجح في طرد الفرنسيين فالأمريكيين من فيتنام، وكان على دراية بتوماس إدوارد. فأثناء مقابلة أجرتها معه مجلة *Paris Match* عام 1977، علّق السائل: "أنت... يا جنرال، لُقِّبت بـ'القضيّة'. لقد أصبحت أسطورة عصرك الخاص"، فردّ جياب على هذا الأمر ضاحكاً: "أنا لست لورانس العرب".

على نحو ملحوظ، رُوي عن فو نغوين جياب ذهابه إلى الحرب حاملاً معه كتاب *Seven Pillars of Wisdom*. ويثير هذا الأمر ادعاءً وارداً نيابة عن توماس إدوارد لورانس لقي قبول حتى مَن لا يميلون إلى قبول المقومات الأكثر تطرفاً في سمعته، أي مهما كانت خبرته في مسألة ممارسة حرب العصابات في الميدان، يمكن القول جدلاً إنه كان أفضل داعية للموضوع.

تم تأكيد ذلك في عمل مؤثر معنون بـ *The Art of Counter Revolutionary War: The Strategy of Counter–Insurgency* [فن مكافحة الحرب الثورية: إستراتيجية مكافحة التمرد]، بقلم جون جاك ماكيون John J. McCuen، المقدم في الجيش الأمريكي، المنشور في بريطانيا عام 1966. وأشار ماكيون إلى كتاب لورانس *Seven Pillars* بوصفه "باهراً". ونصّ في قسم عن دور المستشارين على مطالعة المشتغلين في مسألة مساعدة الدول الناشئة في تمردها على الكتاب. فوصف لورانس بأنه "مثال للمستشارين الناجحين: مُعلِّم لقادة الثورة العربية المدعومة من بريطانيا ومستشار وداعم وصديق لهم".[12]

[12] John J. McCuen, *The Art of Counter–Revolutionary War: The Strategy of Counter–Insurgency* (Faber & Faber, London, 1966), p. 67.

في ما يتعلق بدور لورانس بصفته داعية للحرب غير النظامية ومروّجاً لها، الصوت الذي يستحق الاستماع إليه هو صوت الخبير البريطاني المتميز في مسألة التمرد ومكافحته خلال القرنين أو الثلاثة الماضية، البروفيسور إيان بيكيت Ian Beckett، وهو مؤرخ له سجل مجرّب على جانبي المحيط الأطلسي.

بالنسبة إليه، يجب تخصيص سعفة الخبرة في حرب العصابات في حرب 1914–1918 للقائد الألماني المنتظم البارز في شرق أفريقيا الألمانية بول فون ليتو–فوربيك Paul von Lettow–Vorbeck الذي خاض حملة رائعة جداً ضد الحلفاء الغربيين وألقى سلاحه بعد قرابة أسبوعين من انتهاء الحرب في أوروبا، بعد أن نغّص حياة أعدائه وفاقهم حيلة ودهاء حتى الرمق الأخير. ففي كتابه (المطبوع) The Roots of Counter–Insurgency: Armies and Guerrilla Warfare, 1900–1945 [جذور مكافحة التمرد: الجيوش وحرب العصابات، 1900–1945]، المنشور عام 1988، وفّى بيكيت ليتو–فوربيك حقه. ثم أضاف: "مع ذلك، إذ قدم لورانس إسهاماً كبيراً تمثّل في الظرافة المطلقة لوصفه المكتوب لتجاربه، كان *Seven Pillars of Wisdom* على وجه الخصوص عرضاً كلاسيكياً لنظرية حرب العصابات أبرزها فهم حقيقي لتداعياتها السياسية على القومية العربية".[13]

13 Ian F. W. Beckett (ed.), *The Roots of Counter–Insurgency: Armies and Guerrilla Warfare, I900–1945* (Blandford Press, London, 1988), p. 7.

كتب بيكيت في الأوان الأخير عن هذا الموضوع الواسع بإسهاب أكبر بكثير في كتابه Modern Insurgencies and Counter–Insurgencies: Guerrillas and Their Opponents since 1750 [حركات التمرد العصرية ومكافحتها: رجال العصابات وخصومهم منذ 1750]، المنشور في 2002. ففي مقطع بارز في مقدمته، اختار ثلاثة قادة عصابات معاصرين تجدر الإشارة إليهم بوصفهم "يقدِّمون فهماً عصرياً تماماً لإمكانات التمرد السياسية والاجتماعية والاقتصادية: نيستور ماخنو Nestor Makhno وأوغستو ساندينو Augusto Sandino وتوماس إدوارد لورانس". فأول اسمين ليسا بحاجة إلى إعاقتنا؛ كان ماخنو فوضوياً أوكرانياً قاتل ضد البلاشفة في المرحلة الأخيرة من الحرب الأهلية الروسية 1917–1921. وكان ساندينو متطرفاً من نيكاراغوا شن حملة ضد الحرس الوطني النيكاراغوي وحلفائه البحريين الأميركيين بين 1927 و1933. مع ذلك، يستحق مرور بيكيت على لورانس الاقتباس منه بشيء من التفصيل: باستثناء توماس إدوارد لورانس (1888–1935)، لم يكن الفرد الثالث، الذي يمكن القول جدلاً إنه من أكثر المنظرين نفوذاً في القرن العشرين في ما يتعلق بالحرب الثورية ثورياً إطلاقاً. ولا يزال دور لورانس الدقيق في "الثورة العربية" ضد الأتراك خلال الحرب العالمية الأولى موضع جدل. ولا يساورنا أدنى شك في المبالغة في إنجازاته العسكرية، ليس من طرفه فحسب، بل من الكاتب العسكري البريطاني بازل ليدل هارت Basil Liddell Hart أيضاً الذي عدّ نظريات لورانس وأساليبه مكملة بصورة مثالية لمفهومه

الخاص عن "المقاربة غير المباشرة". كانت الثورة العربية، في جوهرها، عرضاً ثانوياً في مسرح حرب فرعي، رغم أنه تم تقدير أن ثلاثة آلاف عربي قد قيّدوا ما يربوا إلى خمسين ألف جندي تركي. ومع ذلك، أهمية الحملة مستمدة من وصف لورانس لها، التي يمكن أن يضاف إليها أنه كان يقلل من وقع عمليات الجيش البريطاني التقليدية في فلسطين بصورة عامة. ويمكن القول جدلاً إن لورانس، على ما يبدو، مُنظِّر أصيل لأنه لم يكن لديه منافسون أدبيون بين المزاولين المعاصرين، ولكن ثمة أوصاف قليلة أفضل لصراع حرب العصابات.[14]

[14] Ian F. W. Beckett, *Modern Insurgencies and Counter–Insurgencies: Guerrillas and Their Opponents since 1750* (Routledge, London and New York, 2002), pp. 19–20.

من الواضح أن بيكيت لم يكن معجباً وديعاً بلورانس. مع ذلك هو بالتأكيد مستعد لإعطاء كلّ ذي حقٍّ حقّه، أي بتأكيد أن مَنْ لم يقتنع تماماً بأدائه قد يجد قيمة في نثره. رغم هذا، قد يُلام بيكيت على ما كتبه لاحقاً، إذ رسّخ نظريات لورانس العسكرية في كتاباته بعد الحرب: مقالة "The Evolution of a Revolt"، المكتوبة عام 1920، وفي كتاب *Seven Pillars of Wisdom*. بالنسبة إلى دارسي لورانس هذا افتراض يكاد يرقى إلى حد البدعة، إذ قد يعزز وجهة النظر التي طرحها بعض منتقديه بأنه اختلق كل شيء بعد الحرب، مسوّغاً بلغة نظرية راقية أن ما حدث كان مجرد حسن طالع.

لم تكن هي الحال بالتأكيد. وهنا يأتي دور "المراسلات السرية" الفعال في هذا المجلد لأنها لم تُقدِّم لورانس في ما بعد الحرب فحسب عندما كان يدافع عن نفسه وعن العرب الذين كانوا، كما كان يعلم علم اليقين، كتائب صغيرة في الصراع بين القوى العظمى حول من يحظى بالغنائم، بل صوت لورانس سنوات الحرب عندما كان ثمة عمل كثير حقيقي يتعين فعله والخيارات كلّها مفتوحة. ولم يكن صوته في سنوات الحرب تلك صوتاً مريباً، بل بليغاً وحاسماً، ويركز بسرعة على العناصر الأساسية لهذا النوع الغريب من الحرب التي وجد نفسه فجأة في خضمها أواخر 1916.

لا بدّ من الاقرار بأن العرض الأفصح لآرائه حول موضوع حرب العصابات يقع في الفصل 33 الشهير من *Seven Pillars* (أو الفصل 35 في طبعة 1997 من نسخة 1922 التي يمكن القول جدلاً إنها تقدم لنا نصاً أفضل وأكثر أصالة من ذلك المنشور في 1935). ومع ذلك، يمكن العثور على دراسة بارزة بالقدر نفسه، إن لم تكن أهمّ بصورة عامة، عن حرب العصابات في بحث لورانس المعنون "Twenty–Seven Articles" [البنود السبعة والعشرون]، الصادر في

"النشرة العربية" في 20 آب/ أغسطس 1917، ويدرج فيه لائحة إرشادات وتحذيرات للضباط البريطانيين الملحقين بالجيوش العربية. إنه مبحث رائع لم يكن في مقدور أحد كتابته سوى لورانس. فثمة موهبة واثقة ومبكرة وهي نفسها فعّالة في هذا المقام أذهلت الممتحنين في أيام أكسفورد. في الواقع هناك قدر معين من الجانب الشبابي المطلق في الكتابة، إذ يسكب لآلئ حكمته مثل كثير من الوصايا (وهو ما يطلقه عليها بالضبط، ولو بإشارة بسيطة إلى الاعتذار). فضلاً عن ذلك من الواضح أنه كان يقصد التزام أجداده وحكمائه ومرؤوسيه بنصائحه، وكان يعلم أن "وصاياه" ستُقرأ على نطاق واسع عند صدورها في "النشرة العربية" (يكاد المرء أن يتخيل الذهول في أروقة القاهرة: "سبعة وعشرون؟ كان الإله بحاجة إلى عشرة فقط!). لكن لم يكن هذا الأمر مجرد رياء، إذ ثمة هدف سياسي وراء الرأي أيضاً، قود طرح على بساط البحث اعتقاده الواضح بأن العرب يستحقون القتال معهم ومن أجلهم، فلولا أنهم كانوا يرقون إلى مستوى الجهد المبذول لدعم قضيتهم، ما تجشّم عناء ذلك.

قبل المتابعة من الحكمة أن يلجأ القارئ إلى بحث "Twenty–Seven Articles" وقراءته، أو بلوغ نقاطه البارزة على أقل تقدير. فهذا الأمر يشكّل عقيدته المحورية إلى حد ما، وموعظته على الجبل لمن هم على وشك مغادرة أسباب الراحة والأجواء المألوفة في مقر قيادة الحلفاء في القاهرة والانتقال إلى ثقافة الصحراء المختلفة تماماً.

مع ذلك، النقطة المحورية التي يجب توضيحها حول هذه الوثيقة هي أنها كُتبت في ذلك الوقت. وللحصول على بيان سابق يُظهر فهم لورانس لنوع الحرب التي شارك فيها، قد يلجأ القارئ إلى فقرة قوية في نهاية "Military Notes" [معلومات عسكرية]، وهي حاشية استدراكية معنونة بـ'Argument against landing foreigners at Rabugh' [سجال ضد إنزال الأجانب في رابغ]، تطالعنا بالآتي: حرب الحجاز حرب الدراويش ضد القوات النظامية، ونحن إلى جانب الدراويش. فكتبنا الدراسية لا تراعي ظروفها إطلاقاً. إنها معركة بلد صخري جبلي شحيح المياه (بمساعدة حشد هائج من متسلقي الجبال) ضد قوة قام الألمان، في ما يتعلق بالحرب المتحضرة، بتحسينها إلى حد كبير، إذ كادت أن تفقد كفاءتها في تنفيذ أعمال عدائية غير منضبطة.

فالمراسلة التي أُرفقت بها الحاشية مسجلة بتاريخ "جدة، 3 تشرين الثاني/ نوفمبر 1916". عندما كتبها، وهي بحد ذاتها جزء من تدفق هائل من الكتابات الجزلة واللاذعة التي تم إصدارها في يومنا، كان لورانس في شبه الجزيرة العربية لمدة لم تتجاوز الشهر. بعيداً من كونه مُنظّراً متعلّقاً بالماضي كان مفكراً عسكرياً منذ اللحظة التي بات فيها ناشطاً عسكرياً، وعاش فلسفته وشرحها في الوقت نفسه.

بذلك، إن لورانس هو المنتقد لحربه. لكن ماذا بشأن كتابات لورانس عن الحرب في زمن السلم؟

تم تكريس النصف الثاني من هذا الكتاب لهذا الموضوع، ولكل عنصر مدرج مقدمته المنفصلة الخاصة به. وما يحتويه هذا القسم أساساً هو مزيج من المقالات التفسيرية والرسائل الموجهة إلى الصحافة المكتوبة كتعليقات على الأحداث التي كانت تثير اهتمام لورانس، أو غضبه في أحيان كثيرة. يكون التأليف واضحاً أحياناً. أمّا في أحايين أخرى، فيتم تغييبه – كما الحال في المقالات الثلاثة لصحيفة *The Times* الصادرة في تشرين الثاني/ نوفمبر 1918. ففي مقدمة المقالة الأولى الافتتاحية، تبيّن أنه "كان مراسلاً على صلة وثيقة بالعرب طوال حملتهم ضد الأتراك". أمّا الاختلافات حول هذا الثيم، فتصدّرت المقالتين الثانية والثالثة. لكنّ عدم الكشف عن الهوية كان النهج السائد لأشهر الصحف في البلاد (انظر مقدمة Three Articles from The Times, pp. 216–17) [ثلاث مقالات من صحيفة *The Times*، الصفحات 216–217]. وعلى أي حال، لم يكن اسمه معروفاً في هذا الوقت، لدرجة أُعيد فيها إصدار وثيقة زمن السلم الأولى مطبوعة، كما هو بيِّن، من نسخة أصلية مكتوبة بخط اليد بعنوان Reconstruction of Arabia [إعادة إعمار الجزيرة العربية، الصفحات 211-215] تم نسبها إلى T. E. Laurence, Lieut.– *Colonel* [المقدم توماس إدوارد لورانس]. لكن وقع هذا الأمر بتاريخ 4 تشرين الثاني/ نوفمبر 1918؛ لقد مر شهر واحد فقط على بدء رحلة عودته من دمشق ولا يزال أمام الحرب أسبوع كامل قبل أن تضع هدنة 11 تشرين الثاني/ نوفمبر حداً للأعمال القتالية.

تمت طباعة مواد هذا القسم من الكتاب كلّها في مكان آخر، ولا سيما في مجموعة ديفيد غارنيت الواسعة النطاق لعام 1938 والمعنونة *The Letters of T. E. Lawrence*، أو في المختارات القيمة لكتابات المراحل المبكرة من فترة ما بعد الحرب التي جمعها ستانلي وروديل واينتراوب Stanley and Rodelle Weintraub المعنونة "Evolution of a Revolt"، الصادرة عن مطبعة جامعة بنسلفانيا الحكومية عام 1968. فحقيقة نفاد هذين الكتابين منذ مدة طويلة تسعى إلى منحهما فرصة جديدة للعودة إلى الحياة.

مع ذلك، العنوان الأخير هو مصدر مثير للاهتمام وغير عادي. أعادت طبعه *Encyclopedia Britannica* [الموسوعة البريطانية] لعام 1929. ولا يُستشهد به عادةً كواحد من كتابات لورانس لأنه في الأساس تجميع لأفكاره حول حرب العصابات التي نسّقها النقيب بازل ليدل هارت. إنّ هذا المصدر يعيد، بالضرورة، تدوير المواد التي يمكن العثور عليها في مكان آخر من هذا الكتاب، ولكن يتم تجميعها بمهارة، إذ تُطالع بسلاسة واتساق وثيقة جديدة تماماً. في النتيجة هي تكيل المديح لكلا الرجلين المعنيين. وبعدما حظيت بشرف لقاء ليدل هارت في سنواته الأخيرة ومناقشة لورانس معه، يسعدني بصورة خاصة أن أدرج في هذا المقام مثالاً على ما جادت به يداه.

بطبيعة الحال إن فضيلة إعادة طباعة هذه العناوين في هذا المقام هي أنها تشكل، إضافة إلى المراسلات، مؤلَّف ما قبلها وما بعدها، إذ تُقدم، إذا جاز التعبير، صورة فوتوغرافية عن لورانس في المرحلة النشطة من مسيرته المهنية وفي مرحلة إدارة الحملة التي تلت ذلك. فهو في الأساس محارب نظري في هذه المرحلة الثانية، رغم صعوبة تخيل عدم استمتاع أي شخص براحة الاسترخاء إطلاقاً. واللافت أن هذه العناوين تثير بعض هذه الشكوك بالنسبة إلى رجل كان ينفر عادة من تجاربه في الأدب، فقد دأب على تشويه سمعة *Seven Pillars of Wisdom* إلى ما لا نهاية، رغم تأييد الأصدقاء الأدبيين غير المحدود من أمثال إدوارد مورغان فورستر وسيغفريد ساسون Siegfried Sassoon. وكما حال تقاريره في الحرب، كان يكتب عن أمور عملية، أو لأغراض عملية، بسرعة وثقة. فهموم الأسلوب لا صلة لها بأهدافه، لكنه كان يكتب بأسلوب.

الأحداث التي تمخّضت عنها المواد التي أعيد نشرها في هذا الكتاب عفا عليها الزمان. ومع ذلك ثمة براهين قوية على عودة الاهتمام بلورانس بزخم جديد في أيامنا. ويُعزى هذا الأمر، على الأغلب، إلى الوضع في العراق في أعقاب هجوم التحالف بقيادة الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى عام 2003. لكن حتى قبل ذلك، كان بعض المحللين العسكريين يشيرون إلى لورانس بوصفه شخصية رئيسية تنبغي إعادة النظر في آرائها، وفي الظروف المناسبة الاقتداءُ بها. كان أحد المحللين الدكتور جورج والتر غوريتش George W. Gawrych، من مرتّبات كلية القيادة والأركان العامة للجيش الأميركي في قاعدة Fort Leavenworth، في ولاية كانساس، وهو قدّم في مؤتمر في أيار/ مايو 2000 عرضاً تعريفياً معنوِناً إياه ‘T. E. Lawrence and the Art of War at the Dawn of the Twenty–First Century’ [توماس إدوارد لورانس وفن الحرب في مطلع القرن الحادي والعشرين].

ففي فقرة حادة اللهجة بعنوان ”Intellect and Military Theory“ [الفكر والنظرية العسكرية]، انتقد النزعة ”المناهضة للفكر“ التي وصفها بأنها ”متفشية في القوات المسلحة (الأميركية)“. أمّا في سياق حرب فيتنام، فاقتبس وصف خبيرٍ شهيرٍ في ذلك الصراع لموقف الجيش الأميركي تجاه الفيتناميين الشيوعيين بأنه (في تشويه بارع للعبارة المعهودة) ”جهل يُقهر“: ”فالمرء لا يعرف، ويدرك المرء أنه لا يعرف، ومع ذلك لا يشعر المرء بالحاجة إلى تغيير حقيقة أن المرء لا يعرف“. وأشاد بلورانس في قسم بعنوان ”Coalition Warfare“ [حرب التحالف]، لأنه كان ”مهيّأً لمواجهة تحدي العمل بصفة ضابط ارتباط بريطاني مع الأعراب“. وتابع: ”التزاماً منه برغبته في العمل والتأمل، فكّر لورانس ملياً وبجدية في مهمته داخل تحالف بريطاني عربي. فتُعدّ أفكاره الواردة في ‘البنود السبعة والعشرون’ بمنزلة نصيحة ممتازة للعمل في أي تحالف“.

ومضى غوريتش في اتهام القائد الأميركي في حرب الخليج عام 1990، الجنرال نورمان شوارزكوف Norman Schwarzkopf، بالتقصير في هذا الصدد. ونقَل عن خالد بن سلطان، قائد القوات العربية في Operation Desert Storm [عملية عاصفة الصحراء]، قوله عن زميله الأمريكي إن "الشعب والشخصيات القيادية في السياسة العربية والعائلات والعادات والمواقف واللغة والتاريخ وأسلوب الحياة – في الواقع، تعقيدات عالمنا العربي كلّها – غريبة وغير مألوفة بالنسبة إليه، شأنه شأن الأميركي العادي". خلافاً لذلك أشاد غوريتش بلورانس لإقامته البرهان على أن "الموقف الصحيح تجاه حليف المرء ضروري من أجل تفادي الخلافات والمشكلات غير الضرورية. وأثناء تأمله تجاربه مع عرب الحجاز، أوصى لورانس بالصبر والاحترام واللباقة وبجرعة مقبولة من التواضع أيضاً".

يمكن الإضافة على الهامش أن القوى الأخرى التي تواجه أمماً تنتمي إلى ثقافة مختلفة تماماً كانت معرّضة لـ"جهل يُقهر" مماثل. تكمن إحدى الحالات الحديثة العهد التي يمكن الاستشهاد بها في المحاولة السوفياتية في الثمانينيات لإخضاع أفغانستان، وهي مواجهة تبيَّن فيها أن القبضة الحديدية غير ناجعة إطلاقاً ضد القوات التي كانت تستخدم التضاريس والتشتيت وتكتيكات التمرد لخداع عدو تقليدي متفوق إلى حد كبير. ومن هنا، تُنسب الكتابة المنقوشة المقتبسة في ترويسة هذا الكتاب إلى جنرال روسي لم يذكر اسمه كان يزعم أن أفغانياً راكباً جملاً أفعل من أربعة روس في دبابة. فستبقى الدبابات المحطمة على سفوح التلال الأفغانية واحدة من الصور الدائمة لذلك الصراع القبيح والعقيم.

لم يكن القادة الأميركيين كلّهم دون المستوى الذي دعا إليه غوريتش ومَنْ يحملون الفكر نفسه. وأشاد بصفة خاصة بالرئيس المستقبلي دوايت ديفيد أيزنهاور Dwight D. Eisenhower لما يتمتع به من قيادة كان يمارسها في أداء دوره قائداً أعلى في أوروبا أثناء الحرب العالمية الثانية، قائلاً: طالب أيزنهاور المرؤوسين والموظفين بالزمالة واللباقة، وباتخاذ القرارات بالإجماع، وكرس جلّ وقته لسياسة الائتلاف. وتفادياً للخلافات غير الضرورية حصل الجنود الأميركيون على كتيبٍ يُطلعهم على الأعراف والعادات البريطانية. وكان لورانس يقارب مهمته بعقلية مماثلة تشدد على المرونة والقدرة على التكيّف والزمالة.

في فقرته الختامية، أوصى غوريتش بشدة بضرورة دراسة لورانس. "فلورانس يطرح في طيف نزاع القرن الحادي والعشرين، من الحرب التقليدية إلى غير التقليدية وعمليات حفظ السلام، نظرية عسكرية تعالج بفعالية طبيعة حرب العصابات التي تشغل الجزء الأوسط من ذلك الطيف".

إن تقريظ غوريتش بليغ ولافت. فبالنسبة إلى كثير من الدارسين والمؤرخين أيضاً، في بريطانيا بصورة خاصة، الذين يعدّون لورانس شخصيةٍ مشبوهة

وذات وجاهة ملتبسة عبر حملة ثانوية لحرب عمرها تسعون عاماً، قد يكون هذا الأمر بمنزلة شهادة يجدر ذكرها.

كانت ملاحظات الدكتور غوريتش تتعلق بحرب خليج مضى عليها أكثر من عقد. منذ ذلك الحين، اندلع نزاع ثانٍ في ذلك الجزء من العالم المضطرب منذ مدة طويلة، بدءاً بهجوم التحالف في أوائل 2003، الذي شنته الولايات المتحدة وبريطانيا بصورة فعالة لإكمال أعمال ذلك الحريق السابق غير المنتهية وتخليص العالم من نظام حكم الديكتاتور العراقي صدام حسين. وكانت ذريعة الحرب هي امتلاك صدام المزعوم أسلحة دمار شامل قادرة على الانتشار الفوري تقريباً، الأمر الذي جعله هدفاً رئيسياً على خلفية تحديه سلسلة من القرارات الصادرة عن الأمم المتحدة. فانهار النظام في الحال نسبياً. وبات سقوط تمثال الديكتاتور العراقي في قلب بغداد حديث الساعة، وأعلن الرئيس الأميركي "إنجاز المهمة" وسط تصفيق متواصل على ظهر إحدى حاملات طائراته الضخمة. مع ذلك، أخفق السلام والمودّة والديموقراطية التي كان يفترض منها أن تنجم عن الإطاحة بواحد من أسوأ أنظمة الاستبداد في العالم على نحو شخصي في الظهور. بدلاً من ذلك غرقت البلاد في حالة من الفوضى الفعلية. فلم يُصبّ جام الغضب على المحررين المحتملين فحسب، بل اندلع بشراسة بين فئات مختلفة من المجتمع العراقي، إذ أثار الإرهابيون (وفقاً لأحد التفسيرات) أو المجاهدون (وفقاً لتفسير آخر) البلابل لتحقيق أهدافهم التعصبية في أغلب الأحايين. وكانت ثمة فظائع مرتكبة من الأطراف كلّها. فنال سجن أبو غريب السيئ السمعة في أيام صدّام نوعاً مختلفاً من سوء السمعة بفضل الانتهاكات الجسيمة، والمنتشرة على نطاق واسع، لحقوق السجناء العراقيين. إذا كانت هناك تجاوزات أميركية، فهناك تجاوزات بريطانية أيضاً. وبدت استمالة القلوب والعقول، وهي أمر جوهري لأي نجاح سياسي في حالة التمرد، قضية خاسرة تقريباً.

فجأة عاد لورانس إلى المشهد، إذ تمت معاملته بنوع من الاحترام كان نادراً بوضوح في المدة الأخيرة بين مؤرخي القرن العشرين في بريطانيا العظمى. ففي آذار/ مارس 2004، نقلت صحيفة *The Times* عن البروفيسور أندرو لامبرت في King’s College بلندن والموظف السابق في الأكاديمية العسكرية الملكية في ساندهيرست قوله: "يُعلِّمنا لورانس أنه لا يمكنكم النجاح إلا بالانغماس في الثقافة. كما يُخبرنا بأمور مهمة جداً عن التمرد". ونُقل عن البروفيسور مايكل كلارك، مدير معهد السياسة الدولية في King’s College، وقع مماثل، بقوله: "ثمة قدر هائل من مكافحة الإرهاب يتعلق بفهم الخلفية الثقافية. وكان أحد أسباب نجاح لورانس هو امتلاكه مثل هذه البصيرة الجيدة في السياسة العربية". أمّا الأمر الأكثر إثارة للإعجاب، فكان في ما روي عن أن كلارك أكد على نحو رائع أن لورانس لا يقل أهمية عن نيلسون Nelson في فهم القتال. وسجلت الصحيفة أيضاً ارتفاعاً بنسبة 50% في مبيعات كتاب

Seven Pillars of Wisdom منذ بداية قرع طبول الحرب للصراع في العراق في آب/ أغسطس من العام السابق.

تم تبنّي قضية لورانس بزخم أكبر في الولايات المتحدة. ففي مقالة بعنوان 'Seven Pillars Today' [الأركان السبعة اليوم]، منشورة في *Finest Hour*، مجلة رابطة تشرشل، وصف تشارلز أندرسون Charles Anderson ملحمة لورانس بأنها "كتاب لا بدّ منه للراغبين في فهم علم النفس العربي، وإلى حد كبير تقريباً التاريخ العسكري كما تم تطبيقه في بيئة معادية بطريقة حرب العصابات". ويختتم كلامه بالنصيحة الآتية: "يحتاج الرئيس بوش والسيد بلير إلى قراءة هذا الكتاب".

الأهم من ذلك أن البروفيسور الراحل جون إدوارد ماك John E. Mack، المتخصص بلورانس ومؤلف السيرة الذاتية المعنونة *A Prince of Our Disorder* والحائزة جائزة Pulitzer عام 1977، قدّم مقالة بليغة في صحيفة *Boston Globe*، أشار فيها إلى أبحاثه في العالم العربي أثناء إعداد كتابه. فكتب: بادئ ذي بدء كان لورانس قادراً على كسب احترام الرجال الذين قاتل معهم. وأوضح لي رجال القبائل العربية الذين كانوا مع لورانس أثناء الثورة أنه يفهم ثقافتهم وسيكولوجيتهم واحتياجاتهم الخاصة. فكانوا فخورين باتباعه. أمّا في الوضع الحالي في العراق، فيبدو أن مقوّمات القيادة الفعالة الأساسية هذه مفقودة إلى حد كبير. والأمر الأكثر إثارة للدهشة هو الميل الانفعالي لكبار المسؤولين الأميركيين إلى تصيّد آخرين من أجل تحميلهم مسؤولية ما يحدث من أخطاء كلّها.

بصورة أكثر دقة، ناقش ماك اشمئزاز لورانس من اللجوء السريع إلى السلاح مقتبساً منه قوله: "يجب أن نضطر إلى سلوك نهج الدم الشنيع ومبادئ "الحرب الجنائية" كملاذ أخير فقط ... بالنسبة إلى الإنسان المنطقي، كانت حروب القومية، مثل الحروب الدينية، نفاقاً". واختتم ماك حديثه، قائلاً: "لقد غصنا في فوضى أخلاقية لا يمكن أن تنتهي إلا عندما تستطيع العقول الراجحة، "الإنسان المنطقي" على حد تعبير توماس إدوارد لورانس، تولّي السلطة في هذا البلد مرة أخرى".

صدر تكريم آخر للورانس لافت للنظر باسم كاتب في موضوعات عسكرية لصحيفة *Washington Post*، توماس إدوين ريكس Thomas Edwin Ricks، في تشرين الثاني/ نوفمبر 2004. حتى ذلك الحين، كان ريكس، على حد تعبيره، "يتلعثم" كلما حاول قراءة *Seven Pillars of Wisdom*، إلى أن جعلته تجربة الالتحاق بفرقة المشاة الأميركية الأولى في العراق يحاول مرة أخرى. وكتب في مقالة بعنوان "Lessons of Arabia" [دروس من الجزيرة العربية]: "كما شاءت الأقدار، كنت أحمل الكتاب في حقيبتي الظهرية ... وعندما أخرجته، بدا كأنه كتاب مختلف. أمّا هذه المرة، فقرأت صفحاته الستمئة والست والخمسِين بسرِعة". فأخذ يحذّر: اسمحوا لي أن أؤكد على نحو قاطع في هذا

المقام أنني لا أشبّه قضية المتمردين العراقيين بقضية المتمردين العرب ضد الأتراك. كنت أتصفّح هذا الأمر بوصفه دليلاً تكتيكياً للعمليات العسكرية ضد جيش آخر، وليس للهجمات الإرهابية على المدنيين.

ففي ضوء ذلك، كانت التكتيكات التي استخدمها لورانس ورجالات القبائل العربية مشابهة بصورة لافتة لتلك المستخدمة ضد القوات الأميركية اليوم في العراق، إذ تتعرض قوافل الشاحنات الأميركية للهجوم باستمرار، بقذائف صاروخية أحياناً وبقنابل مجهولة المصدر على جوانب الطرق في أغلب الأحايين. بالمنحى نفسه، لم يكن لورانس، في معظم سنوات حربه، معنياً بالمواجهة المباشرة مع الجيش التركي. وبدلاً من ذلك سعى إلى تفادي المعارك المخططة، مثل معركة الفلوجة الأخيرة التي تميل الجيوش الغربية – والصحافيون الغربيون – إلى التفكير فيها بوصفها جوهر الحرب. لقد عمل بلا هوادة على تدمير سكة الحديد التي كانت تزود القوات التركية في عمق ما يعرف الآن بالأردن والسعودية وأسقط جسور سكك حديدية وفجّر قاطرات...

عندما قرأت وصفه السبب الذي جعله يعتقد أن قوته المفتقرة إلى السلاح والعديد والتطور قادرة على الانتصار، أصابني الهلع. كان يكتب أن تمرده واجه "عدواً أجنبياً متطوراً مُعداً كجيش احتلال في مساحة أكبر مما يمكن السيطرة عليها فعلياً من المواقع المحصنة". في غضون ذلك، كان خاصرته مدعومة من "شعب ودود، كان قرابة اثنين بالمئة منه نشطاً، والباقي متعاطفاً بهدوء لدرجة عدم خيانة حراكات الأقلية".

أشاد ريكس بقدرة لورانس على شن الحرب نفسياً، مقتبساً مقطعاً يصف فيه انتظار وصول التعزيزات بقوله: "لم يكن يسعنا سوى التفكير، ومع ذلك ... كانت العملية الأساسية".

وأشار ريكس إلى أن لورانس رغم معرفته الواسعة بالثقافة العربية، يمكن أن يذهل من دقة النهب العربي. كان لورانس يكتب عن سقوط مزيريب: "كان الرجال والنساء والأطفال يتناحرون كالكلاب على كلّ غرض. فتم خلع الأبواب والنوافذ وإطاراتها، وحتى السلالم ... وتم نقل الأطنان. ومع ذلك، تناثر المزيد منها في الأنقاض على الأرض". وعلّق ريكس: "كان يمكن كتابة تلك الفقرة عن سقوط بغداد قبل قرابة 20 شهراً".

مع ذلك، بالنسبة إلى ريكس، لا يزال فهم لورانس الشامل لضرورات مكافحة التمرد مثيراً للإعجاب. فباقتباسه قولاً مأثوراً آخر من *Seven Pillars*، "كانت الحرب على التمرد فوضوية وبطيئة، مثل تناول الحساء بالسكين"، أفاد أن الضابط الذي خدم في العراق عام 2003 المقدم جون ناغل John Nagl قد صاغ ذلك المفهوم في أطروحة دكتوراه قدّمها إلى جامعة لورانس الخاصة، أكسفورد، وأن رئيس أركان الجيش، وفقاً لأبناء المؤسسة العسكرية في البنتاغون، وزع نسخاً من كتابه على جنرالات الجيش الأميركي كلّهم، رغم أنه علّق، بقوله: "يبقى علينا أن ننتظر لنرى هل سيتعظون بدروس لورانس".

فالأطروحة المعنية سبقت صراع 2003، وصدرت في 2002 معنونة بـ *Counterinsurgency Lessons from Malaya and Vietnam* [دروس مكافحة التمرد من مالايا وفيتنام]، مع عنوان فرعي لها Learning to Eat Soup with a Knife [تعلّم تناول الحساء بالسكين]. كان ناغل خريجاً أسبق في الأكاديمية العسكرية الأميركية المعروفة بـ West Point وباحثاً حائزاً منحة رودس Rhodes

للدراسات العليا في كلية القديس أنطوني بأكسفورد، وخدم قائد فصيلة دبابات في العراق عام 1991، وحصل على نجمة برونزية تقديراً لجهوده. ومنحته العودة إلى العراق في 2003 بصفة ضابط عمليات فرصة العمر باحثاً في حرب العصابات. ففي مقالة مؤرخة في 11 تشرين الثاني/ نوفمبر 2004، شبّهه بيتر ماس Peter Maass، الكاتب في صحيفة *New York Times*، بـ"عالِم الحفريات الذي أتيحت له الفرصة للعودة في الزمن والسير مع الديناصورات". ونقل ماس، وهو نفسه صاحب سجل حافل بصفته مراسلاً من العراق، عن ناغل قوله له شخصياً: لم أكن أدرك مدى صوابية لورانس العرب. كانت حرب الخليج تجربتي الأولى في الحرب. أطلقنا النار على الدبابات التي لا تشبه دباباتنا، وأطلقنا النار على العدو المرتدي زياً لا يشبه زيّنا، وأبَدْنا العدو في مئة ساعة. هذا ما ظننته حرباً. حتى عندما كنت أكتب أن التمرد فوضوي، لم أستطع استيعاب فداحة ذلك الأمر. أمّا (الآن)، فإنني أرى تقدماً ملموساً، لكنني بدأت أفهم في قرارة نفسي مدى صعوبة مكافحة التمرد وطولها وبطئها. وليس ثمة احتمال بنهايتها في القريب العاجل.

وكان جويل تيرنبسيد Joel Turnipseed، مؤلِّف مذكرات عن حرب الخليج الأولى بعنوان *Baghdad Express* [قطار بغداد السريع]، كاتباً آخر يشيد بلورانس كثيراً في المُناخ الحالي. وكان يكتب في مقالة رئيسية في مجلة *Salon* الإلكترونية عن كتاب *Seven Pillars*: لقد سبقت رواية الحرب الأولى لهمنغواي Hemingway، المعنونة *A Farewell to Arms* [وداعاً للسلاح]، ورواية ريمارك Remarque المعنونة *All Quiet on the Western Front* [كلّ شيء هادئ على الجبهة الغربية]. في النتيجة، كان لورانس هو مُكوِّن كلّ من الجندي المستقلّ المعذب بسبب أهداف حربه، وكامل مخزون شخصيات غراهام غرين Graham Greene وجون لو كاريه John Le Carre في دوره المزدوج كجندي وجاسوس أيضاً... عندما تؤلَّف الكتب كلّها حول حرب الخليج الأخيرة – الكتاب الذي بين أيدينا والمدة الفاصلة لعقد وأكثر التي ستنضم إلى مغامرات 1990–1991 و2003 في نهاية المطاف – سيجري تذكّر *Seven Pillars* بوصفه أعظم مذكّرات حرب الخليج.

إذا كان ثمة تعديل يستحق إضافته إلى السجال، من المحتمل أن يكون هذا الأمر. في اليوم الذي سقطت فيه سايغون عام 1975 في نهاية حرب فيتنام، وجد الشاعر الإنكليزي جيمز فنتون James Fenton اقتباساً ضمن إطار على جدار في السفارة الأميركية المنهوبة يحمل الآتي: "من الأفضل تركهم يفعلون ذلك بصورة ناقصة بدلاً من فعلكم ذلك بنفسكم بمثالية، لأنها بلدهم وحربهم ووقتكم قصير". فالكلمات مستقاة من توماس إدوارد لورانس. وظهرت نسخ من هذا الاقتباس على جدران كثيرة في العراق أثناء التمرد الذي أعقب هزيمة العراق العسكرية عام 2003. فالنص الصحيح يجب أن يؤدي المعنى الآتي: لا تحاولوا أن تبذلوا جهداً كبيراً بأيديكم. فمن الأفضل أن يفعل العرب ذلك

بطريقة مقبولة بدلاً من فعلكم ذلك بمثالية. إنها حربهم، وعليكم مساعدتهم لا أن تكسبوها نيابة عنهم. في الواقع، في ظل ظروف الجزيرة العربية الغريبة للغاية، لن تكون أنشطتكم العملية في حكم ما تعتقدون به.

وهذا بند لورانس رقم 15 من "Twenty-Seven Articles".

لا أحد يعلم إلى متى سيستمر هذا الارتقاء في سمعة توماس إدوارد لورانس. فكلّ شيء يتوقّف على كيفية سير الحرب العالمية ضد الإرهاب في السنوات المقبلة. ومع ذلك، ما يُظهره ما سبق، بالتأكيد، هو أن الضابط الشاب غير التقليدي الذي تم تعيينه في الجزيرة العربية عام 1916 وخدم في حملة ثانوية في الحرب العالمية الأولى كان لديه الحياة الآخرة بصفتها نفوذاً ومفسِّراً عسكرياً بعيداً من تخيله أو تخيل أي شخص آخر. ويجب تأكيد أن جهوده كلّها لم تكن إيجابية أو فعالة. إن تسوية 1921–1922 في الشرق الأوسط، على وجه الخصوص، التي تعاون فيها مع تشرشل القوي والمتحمس، قد تعرضت لانتقادات شديدة، خاصة في ما يتعلق بالعراق. ويُساق ظهور فيصل ملكاً في بغداد بمباركة بريطانية قد يجعله يبدو كأنه ملك صوريّ، ومصير سلالته، التي أطيح بها بدموية في 1958، كدليل على وجود خلل في المفهوم الأساسي. مع ذلك، لم تكن فكرة إنشاء دولة العراق، التي ينظر إليها كثيرون على أنها تركيب مصطنع يُثقل كاهل كيانات متباينة، فكرة تشرشل أو لورانس، بل حلاً اقترحته حكومة الهند البريطانية في البداية، إذ أحسن استغلاله من أجل حكم منطقة كبيرة ذات انقسامات دينية وإثنية. وفي ما يتعلق بذلك التركيز الآخر على القلق المستمر، الأرض التي كانت تُعرف آنذاك باسم فلسطين فحسب، كان لورانس حكيماً بما فيه الكفاية لرؤية أن ما أطلق عليه في *The Changing East* "التجربة اليهودية"، أي توطين اليهود القادمين من أماكن أخرى بين السكان الحاليين المتحدثين بالعربية ("شعب من أصول عشائرية، لكن من ظرف اجتماعي مختلف تماماً") لن يلقى النجاح ما لم يتم تنفيذه بإحساس مرهف. فعلى حد تعبيره، كان يتوقّف الكثير "على نهج الاجتهاد الصهيوني". لكن كان ثمة تشجيع لهذا الأمر وليس انتقاصاً منه. فلا أرى فيه أي علامة من علامات معاداة الساميّة السهلة والغريزية لكثيرين جداً من معاصريه. وفي حال وجود هذا الأمر، كان موالياً للساميّة بحماسة، إذ تشمل رؤيته ساميّي الشتات والصحراء، فهم كلّهم (كما علّمته معرفته العميقة بـ**الكتاب المقدس** منذ الطفولة) ذريّة أبي الأنبياء، إبراهيم. والجدير بالذكر أنه كان يرى الصهيوني حاييم وايزمان Chaim Weizmann، إضافة إلى العديد من القادة العرب، من بين أصدقائه. لكنه كان عاجزاً عن التنبؤ بتبعات الهولوكوست، وكفاح حرب العصابات اليهودية ضد البريطانيين، والحروب العربية الإسرائيلية، وتاريخ الأمل وخيبة الأمل الطويل الذي حوّل الأرض التي قاتل عليها إلى واحدة من أكثر أماكن العالم العصري اضطراباً.

ليس لدى كثير من الشخصيات في حرب 1914–1918 ما يسهمون فيه كثيراً في مناقشات المفكرين العسكريين في القرن الحادي والعشرين. ونظراً إلى شهرة تلك الحرب بمعاركها الفدائية المخططة – هذا ما أطلق عليه ريكس على نحو مُعبِّر "النّزَالات" – وضعَت أسلوباً نجم عنه عدد من مثل هذه المواجهات في صراعات لاحقة، وصولاً إلى الحرب العراقية–الإيرانية في الثمانينيات، بينما لم تكد تتفادى حرب الخليج عام 1990–1991 ما كان مراقب ألمعي مثل أليستير كوك Alistair Cooke يخشاه من إمكانية إعادة معركة السوم بسهولة. أمّا الآن، فاتخذت الحرب بُعداً مختلفاً. وفي هذا النظام الجديد، القديم قدم الحرب نفسها حقاً، تم الاعتراف بتوماس إدوارد لورانس كصوت يستحق الاستماع له. فالكلمة الأساسية في عمله الإبداعي الذاتي هي "الحكمة". وعسى أن يكون إظهار بعض ما لديه من كلمات حكيمة يقدمها إلينا في ظروف هذا العصر هو الهدف الجوهري ومسوِّغ هذا الكتاب.

الجزء الأول

في زمن الحرب

مقدمة

لم يكن لحرب لورانس أن تكون قد بدأت على نحو أقل دراماتيكية. ففي الوقت الذي غصّت فيه شعب التجنيد بآلاف المتطوعين، بمن فيهم ثلاثة من إخوته، المطالبين بالقتال من أجل الملك والبلاد، كان لورانس، بمشاركة زميله المقرب من سنوات ما قبل الحرب، ليونارد وولي Leonard Woolley، يستعد بهدوء لنشر تقرير سريّ طويل عن آثار منطقة سيناء، من المقرر أن يصدره "صندوق فلسطين للاستكشاف" بعنوان The Wilderness of Zin [صحراء قادِش (زِنْ)]. كان ثمة تحول وطني في الموقف، إذ تم إجراء البحث الذي أفضى إلى التقرير في أوائل 1914 كغطاء علمي لمسح عسكري أجراه ضابط من المهندسين الملكيين بناءً على أوامر اللورد كتشنر Kitchener الذي كان قلقاً من أن سيناء (القريبة بشكل حساس من قناة السويس، شريان حياة الإمبراطورية البريطانية الشهير) قد تبيّن أنها منطقة نزاع إذا أصبحت تركيا، التي كانت سيناء جزءاً من أراضيها، طرفاً معادياً في حالة نشوب حرب. ونظراً إلى وجود وُولي ولورانس في سوريا، حيث شاركا في حفريات أثرية كبيرة في كركميش على نهر الفرات في ذلك الوقت، كانا مرشحين واضحين (أو "تضليلاً" مناسباً، على حد تعبير لورانس) لأداء مثل هذا الدور.

بمجرد الانتهاء من التقرير، تم تكليف وُولي بالعمل في المدفعية الملكية، فيما التحق لورانس بالقسم الجغرافي لهيئة الأركان العامة (المخابرات) في وزارة الحربية في لندن بصفة مدني في البداية. وفقاً للعقيد الذي عيّنه، رغم وصوله حاسر الرأس مرتدياً سروالاً رمادياً وبدا كأنه في الثامنة عشرة (في الواقع، كان في السادسة العشرين)، سرعان ما تم تكليفه ملازماً ثانياً في "القائمة الخاصة" (أي دون ارتباط بالفوج). وقبل انتهاء 1914، وجد نفسه في الشرق الأوسط مجدداً كجزء من كادر استخباراتي من الحكماء والمهمّين الذين تم حشدهم في القاهرة لابتكار طرائق لزعزعة استقرار الأتراك العثمانيين الذين انضموا، كما توقع كتشنر، إلى الركب الألماني والنمساوي–المجري في الحرب فعلاً.

بقي هناك أكثر من عامين خاض فيهما حرباً من وراء مكتب (رغم أنه باشر، بالاشتراك مع زميله المميز، المبجَّل أوبري هيربرت، مهمة عالية الخطورة إلى بلاد الرافدين عام 1915 إبّان حصار الكوت) تعصف به الأفكار رغم انزعاجه من وفاة اثنين من أشقائه في فرنسا أيضاً، أحدهما في أيار/ مايو 1915، والآخر في أيلول/ سبتمبر. دفعه ذلك إلى الاستعانة بالتعليق المقتبس كثيراً: "كلاهما أصغر

مني، ولا يبدو استمراري في العيش في القاهرة بسلام أمراً صائباً، إلى حد ما".

لقد منحه اندلاع الثورة العربية في حزيران/ يونيو 1916 الفرصة التي كان ينشدها الآن، أي الانتقال من دور سلبي إلى فعّال. ففي تشرين الأول/ أكتوبر 1916، باشر أول مهمة له إلى الجزيرة العربية، وسرعان ما بدأ التغيير الذي من شأنه أن ينقله من ضابط متمرّن مرتدياً بزّة كاكية قذرة ومزوّدة بأزرار غير مصقولة وبحاجة ماسّة إلى قصة شعر إلى هجّان ذي شخصية كاريزمية مرتدياً زياً فضفاضاً يجوب فيه الصحراء على رأس مجموعات من رجال القبائل المرعبين في إدارة الحملات. وسيخدم في الجزيرة العربية عامين تقريباً، مع وجود أوقات استراحة قصيرة.

في الواقع، تُعدّ الصفحات اللاحقة صفوة نتاج النثر في هذين العامين. كما وجد وقتاً لإرسال رسائل إلى عائلته أو أصدقائه، رغم وجود فجوات طويلة بينها عادةً. لكن مهمته الأساسية كانت تزويد القاهرة بالتقارير، وكان هذا الرجل يكتب بطاقته القصوى أياً كانت المناسبة، سواء أكان يبتكر إشارة عسكرية، أم رسالة إلى المهميّن أو المتواضعين، أم تقارير عاجلة من الميدان، كما هي الحال في هذا المقام. لذلك، اقتضت مراسلاته من الجزيرة العربية ونالت منذ البداية أفضل ما في مكنونه في المضمون والأسلوب. وكان (كما تمت مناقشته بإسهاب في المقدمة العامة) يعمل على صياغة مادة مسبّقاً للكتاب الذي كان يعتزم إصداره بعد الحرب. وبافتراض نجاته، كان مدركاً أن فرصة الحرب ستزوِّده بالمادة الخام لملحمة بصورة يومية تقريباً. على سبيل المثال ليس ضرورياً عادةً تضمين تقرير عسكري وصفاً حياً لعاصفة رملية صحراوية، فلا يمكن أن يؤثر هذا الأمر في نتيجة الحملة في أي حال. مع ذلك، يظهر أحد هذه الأمثلة هنا، في تقرير معنون بـRaids on the Railway [غارات على سكة الحديد]، وسيجد طريقه إلى كتابه *Seven Pillars of Wisdom* بسلاسة لاحقاً.

بطبيعة الحال كلمة "سرية" هي الكلمة الأساسية في هذا القسم من الكتاب، المصطلح الذي من المفترض أن أرنولد والتر لورانس اختاره عند تحرير مراسلات شقيقه من أجل إصدارها الأول عام 1939. لا بدّ أن المصطلح أعطاها آنذاك تلميحاً لافتاً عن الغدر والخيانة. وإنه لأمر طيّب أن يحتل عنوان هذا الإصدار الجديد في 2005 موضع الصدارة.

أولاً

مراسلات سرية من الجزيرة العربية

1. رسالة من الشريف فيصل

8 تشرين الثاني/ نوفمبر 1916

الحمراء، 28 ذو الحجة، 1334 (25.10.2016)

مولاي وسيدي، علي بك،
بعد تقبيل رجليكم النبيلتين، أُقر باستلام أمركم النبيل الذي أرسلته مع عبد العزيز يادي. فتم استيعاب تنبيهاته، وما ذكرته عن مسيركم بصورة خاصة، لأنني أريد معرفة ذلك جِدياً. أتوسل إليكم أن تكونوا حذرين للغاية، لأنه من الواضح تماماً أنه إذا لم تكن الحركة مشتركة، لن تكون النتيجة جيدة. في النتيجة، أرجوكم أن تتخذوا الإجراءات الممكنة كلها المتعلقة بتحركاتكم. خلافاً لذلك من الأفضل ألّا تنطلقوا من رابغ إلّا إذا انطلق سيدي عبد الله من مكة المكرمة. وعليه أن ينطلق قبل أربعة أيام أو خمسة من انطلاقكم. وعندما يصل إلى الحجرية، يمكنكم متابعة مسيركم. ويجب أن تقسموا قواتكم إلى قسمين. على سبيل المثال الجزء الأصغر من الاثنين، نحو 300 أو 400 من الهجّانة، بقيادة أحد أفراد الأسرة، يجب أن يقصدوا الملاف، حيث أحمد بن منصور، وسيكون برفقته هناك قبائل صبح وزبيد وبني يوم وبني محمد كلّها. وسيدافع عن المكان (الملاف). وكما أبلغتهم، سيتبع بنو سالم أولئك الموجودون في السدادة. أمّا الفرقة الثانية، وهي القوة العامة، فعليها التحرّك بأسرع ما يمكن نحو طريق الفارعة والتخييم في منطقة المجاز، وقطع خطوط اتصال العدو في الغاير من أجل تهديد المدينة المنورة. وأنا بدوري ذاهب إلى الشمال لقطع سكة الحديد وحصار المدينة المنورة، بإذن الله. إنني بانتظار ردّكم على بئر سعيد، وعليكم إبلاغي بـ:

1. عدد القوات الخاصة بكم
2. عدد قوات عبد الله
3. توقيت انطلاق عبد الله وعدد رجاله

4. يوم انطلاقكم

سأتقدم أمامكم لجذب انتباه الأتراك، وفي النتيجة، يسهل عليك التقدم.
هناك فكرة أخرى هي أنكم قد تجذبون انتباههم (الأتراك) نحوكم، وقد تنتظرون يومين أو ثلاثة، ثم أتقدم بسرعة لتدمير السكة. إنني في انتظار ردكم ومعلوماتكم. على أي حال، يجب إرسال أحد أفراد الأسرة، سواء أكان زيد أم شرف، إلى الملاف. لولا تحرّك قبيلة جهينة، لذهبت إلى هناك بنفسي. إن شاء الله، ستكون إقامتي في بواط أو الجفر. إنني في انتظار أوامركم الفورية يا سيدي.

عبدكم، فيصل

2. مقتطفات من يوميات رحلة

18 تشرين الثاني/ نوفمبر 1916

21 تشرين الأول/ أكتوبر

انطلقت في السادسة مساءً من خيمة عزيز بك المصري في رابغ. وودّعني سيدي علي وسيدي زيد ونوري. كان لدي جمل سيدي علي بسرجه الرائع للغاية. لقد ضمن لي هذا اعتباراً غير مباشر في الطريق. وكان وشم عبيد الله هو "العلامة السرية" لرسل بور سودان.
رافقني الشيخ عبيد الرشيد من حوازم بني سالم حرب وابنه عبد الله.
سرنا عبر بساتين النخيل. ثم خرجنا على طول تهامة، الصحراء الساحلية المنبسطة والخالية الملامح في الجزيرة العربية. ويحاذيها طريق السلطاني هذا للأميال الخمسين الأولى.
وفي السابعة مساءً، عبرنا منطقة من الرمال والشجيرات المتحركة، بعرض نحو 500 ياردة، لكن بعمق قدم واحد فقط. ربما كان من الممكن التحايل عليها، لكن كان الظلام دامساً. بعد ذلك، بين 7:30 و8 مساءً، عبرنا حفر رملية مشابهة شتّى لكنها أصغر، وحفرة أعمق في 9.20 مساءً. أمّا في 9.30 مساءً، فتوقّفنا وخلدنا إلى النوم.

22 تشرين الأول/ أكتوبر

تحرّكنا مجدداً في البلاد نفسها من الثالثة إلى الرابعة صباحاً عندما بلغنا سفح سلسلة من التلال الصخرية المنخفضة جداً، التي تبيّن أنها مرتفع ضيق من الحرار، وتندمج في كتلة صغيرة مسطحة من الحرار بالقرب من البحر تؤدي

إلى الكتلة الداخلية الرئيسية. فلم أتمكن من رؤية بُعد البحر، لكن يُروى أنه لا يتجاوز خمسة أو ستة آلاف ياردة. وإذا كان الأمر كذلك، يجب أن يكون المكان مناسباً لنيران السفينة. فالمضيق الذي يعبره الطريق صخري وضيق نوعاً ما بين عواتق منخفضة. لقد تمت إعاقته بعدد من المعالم الحجرية البالغة الصغر لكنه ليس ممراً صعباً سوى على السيارات المنخفضة، إذ يجب دحرجة بعض الأحجار الكبيرة جانباً. فبحلول 4.45 صباحاً، تخطينا سلسلة التلال ونزلنا إلى قرية مستورة التي تعدّ دلتا وادي الفُرع فعلاً. تقع بئر مستورة على الضفة الشمالية لقاع الوادي، وهي منطقة من الحصى والرمل مغطاة جيداً بأجمة وأشجار شوكية يصل ارتفاعها إلى عشرين قدماً. يبدو أنه يمتد نحو خمس عشرة دقيقة غرب الطريق، وبعد ذلك تمتد البلاد الجرداء باتجاه البحر. ويبدو أن الداخل يتراجع ساعتين، ثم يتضاءل في مصب وادي الفرع، على بعد ساعة واحدة من قرية الخريبة. قد تكون الخريبة موضع أهمية كبيرة، ويجب التثبّت من ذلك. وتفيد التقارير أنها تحتوي على آبار ونبع ومياه جارية وبساتين نخيل.

وصلنا بئر مستورة في 6.45، وبقينا حتى الثامنة صباحاً. فالبئر مبطّن بالحجارة وعمقه قرابة عشرين قدماً وقطره تسعة أقدام. وتوجد مدخنة (مزوّدة بفتحات للأيدي والأقدام) على أحد جانبيه تغوص في الماء، التي قد تكون وفيرة إذا كان البئر نظيفاً. كما هي الحال القاع نصفه ملآن بالحجارة. وثمة ملجأ طبيعي من مخلّفات الأنقاض، قد يكون مرئياً من البحر، وبعض أكواخ القصب لثلاث عائلات أو أربع على بُعد أربعين ياردة جنوب البئر.

غادرنا بئر مستورة في الثامنة صباحاً، وسرنا حتى الحادية عشرة صباحاً، ومرة أخرى من 12.30 ظهراً حتى الرابعة عصراً عندما ينفصل طريق السلطاني عن تهامة باتجاه الشمال الشرقي. حتى هذه المرحلة، كانت الأمور كما كانت عليه من قبل، رغم أنها ازدادت سوءاً بالنسبة إلى العجلات، إذ بات السطح أملسَ. تتكون الأرض من رقائق من صخور الرخام السماقي والبازلت، مُقحمة في الرمال، أو أحياناً من الرمل النقي فقط، مع تربة سفلية قاسية. ولم تكن الأشجار الشوكية وفيرة بعد بئر مستورة. وتمتد طريف بني أيوب، وهي سلسلة من التلال الجرداء الشديدة الانحدار، بعيداً شرق تهامة. يبدو أن طولها يبلغ نحو خمسة عشر ميلاً، وضيقة للغاية. وتقع شمالها كتلة متشابكة من التلال الصخرية الصغيرة (تغطي المساحة نفسها) ثم جبل صبح، بوصفه كتلة كبيرة من الصخور تصل إلى ما وراء بئر ابن حصاني. وشمال جبل صبح يقع جبل غيقة. أمّا جبل رضوى، فيقع في الأفق إلى الشمال الغربي. ويمتد عبر قمّة تهامة، بالقرب من رأس الأبيض (الرويس) من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، سلسلة من التلال المنخفضة (جبل حسناء) كأنها كانت تنوي لقاء جبل صبح. ويمتد طريق السلطاني شمالاً وصولاً إلى وادي حسناء المؤدي إلى تلك التلال. لكننا تحولنا إلى الشمال الشرقي عبر طريق مختصرة الرابعة عصراً. كان وادي حسناء رملاً يكتنف في طياته أجمة أشبه بالمكنسة،

ويمثل بداية منطقة وسيطة بين تهامة الخفيضة وتلال الداخل الصخرية. كانت الخصائص الأساسية لهذه المنطقة الوسيطة سلسلة تلال بازلتية منخفضة، لكنها مغطاة بالرمال في كل الأماكن تقريباً، ينمو عليها قدر كبير من الأعشاب والأشجار الجافة. والأغنام والماعز ترعى في الوديان الضحلة التي استنزفت الجنوب الشرقي.

وفي الخامسة مساءً، مررنا بحجر يميز الحدود الشمالية لديرة مسروح والطرف الجنوبي لقرية بني سالم. وعاودنا الانضمام إلى الطريق الرئيسي مجدداً في 5.30، وتبعناه على سفوح رملية سريعة الانهيار وكثيفة نوعاً ما إلى بئر الشيخ السادسة مساءً. فهذه قرية بني سالم، وفيها شارع قصير وواسع من الأكواخ الخشبية وبضعة متاجر، وأيضاً بئران مبطنان بالحجارة (يروى أنهما بعمق ثلاثين قدماً) يحتويان كماً وفيراً من المياه الصالحة للشرب. غادرنا مرة أخرى التاسعة مساءً، وتابعنا المسير في الظلام وعبرنا المزيد من السفوح الرملية الوعرة مع بعض البقع الصلدة والأشجار وما إلى هنالك حتى الثانية عشرة ظهراً؛ عندئذٍ خلدنا للنوم.

23 تشرين الأول/ أكتوبر

انطلقنا مرة أخرى في الثالثة صباحاً، وتبعنا وادي مارد بين التلال الوعرة المحاطة بكثير من الأشجار. وعند الفجر (الخامسة صباحاً)، وصلنا بئر ابن حصاني عند تقاطع ثلاثة أودية كبيرة. ويبلغ عرض نقطة التلاقي قرابة نصف ميل من التربة القاسية، وتتكون القرية (يعيش فيها أحمد المنصور، شقيق محسن جدة وأمير حرب الشريف) من نحو ثلاثين بيتاً حجرياً. وهناك ثلاث آبار. ويتجه طريق السلطاني المؤدي إلى بئر عباس إلى الشمال الشرقي وصولاً إلى وادي الملاف أو المريغة الذي يصب، مثل وادي الملاف، في الجنوب الغربي باتجاه بئر الشيخ والبحر.

ويتموّج جبل صبح، شرق بئر ابن حصاني، في أروع الأشكال على طول الأفق.

عندما جئنا ليلاً، لا يسعني القول إن كانت السيارات ستمر ببئر الشيخ. لا أعتقد ذلك، رغم أن الذهاب إلى بئر ابن حصاني وسطح الوديان على جناح السرعة أمر ممتاز للغاية. على ما يبدو، لم تكن الجبال سالكة سوى للعرب أو الطيور.

في السادسة صباحاً، غادرنا بئر ابن حصاني متجهين نحو الشمال الغربي من وادي بئر ابن حصاني. تغيرت البلاد فوراً في الوقت الذي وصلنا فيه إلى المنطقة الثالثة من ساحل الحجاز، حيث تحلّ التلال الرملية محلّ الصخور الجرداء. كانت التلال على جانبي الوادي شديدة الانحدار، قد يبلغ ارتفاعها

ألفي قدم، ومن الغرانيت الأحمر الباهت أو الرخام السماقي مع بقع وردية. لكن سفوح التلال، التي يبلغ ارتفاعها قرابة مئة قدم، كانت من صخرة خضراء غامقة، الأمر الذي أعطى المنحدرات السفلية صبغة مصقولة. ثمة كثير من الأشجار (أكاسيا يبلغ ارتفاعها ثلاثين قدماً، والشجيرات الشوكية، وما إلى ذلك). وكان هناك ما يكفي من شجر الطرفاء والشجيرات الناعمة لجعل المنظر مبهجاً جداً وشبيهاً بمنتزه من مسافة قصيرة. كان سطح الأرض تربة حصباء وخفيفة، صلبة للغاية، مع بقع صخرية في بعض الأحايين. وكان عرض الوادي يتراوح بين مئتي وخمسمئة ياردة. وعرجنا فيه (ارتفاع لطيف للغاية) إلى 8.15 صباحاً، حيث وصلنا مستجمَع مياه منخفض تناثرت عبره أنقاض غرفتين صغيرتين، وجدار من طوب صديع من أفقٍ إلى آخر. ربما كان يُمثِّل حدوداً قبلية سابقة، أو تخوماً محصّنة. فعبر مستجمع المياه، كنا في حوض وادي الصفراء. أصبح الوادي أجردَ وصخرياً أكثر فأكثر، والتلال على الجانبين أقل تلوناً. وبعد نصف ساعة، مررنا ببئر من الشرق، بجانب مزار حجري صغير في مصب وادٍ جانبي. وبعد ساعة، انضم الوادي إلى وادٍ أكبر قادماً من الشمال الشرقي ومتجهاً إلى الجنوبي الغربي من وادٍ عميق ضيّق يؤدي إلى وادي الصفراء، حيث كنّا قادرين على رؤية بساتين النخيل في جِدّة على الجانب الآخر منه. فاجتاز مسارنا هذا الوادي الكبير، وتحرك صعوداً، عبر فجوة أخرى، نحو رافدٍ صغير نصف ساعة ونزولاً نحو وادٍ عريض ثلاثة أرباع الساعة يؤدي إلى وادٍ وسط محافظة الواسطة. وكان السير على الأقدام من وادي بئر ابن حصاني إلى الواسطة قاسياً وصعباً.

كانت الواسطة بلدة تضم نحو ألف بيت ومقسمة إلى أربع قرى صغيرة متناثرة حول وادي الصفراء. وهو واسع في هذا المكان. فالبيوت مبنية على تلال ترابية أو سفوح تلال كي تكون بمنأى من الفيضانات، ومحاطة ببساتين النخيل. وكان يعيش في المكان نحو أربعة آلاف نسمة، لكن الفيضانات اجتاحت الضفاف ودمرت كثيراً من البساتين؛ بات كثير من البيوت مهجوراً اليوم. ونظراً إلى اختفاء التربة، سيستغرق إصلاح الأضرار سنوات طوالاً.

توقفنا في الواسطة حتى الثانية ظهراً. فبيوتها مبنية من الطين ومسقوفة بجذوع نخيل مربّعة، وأضلاع نخيل، وتراب متراص يغمر المكان. وثمة سوق صغير يحوي تموراً حلوة جداً وطيّبة المذاق، لا تزال وفيرة، رغم الجراد الذي كان خطيراً هذا العام. ويوجد جدول جارٍ في الواسطة. وعند حصر مياهه بشكل مصطنع، يتحوّل إلى قناة سريعة بعرض قدم أو قدمين. أمّا عند إطلاقه في الأسفل، فيصبح نهراً بطيئاً عزيزاً يبلغ عرضه نحو عشرة أقدام وعمقه ثماني عشرة بوصة، بين شرائح سميكة من العشب الأخضر الناعم. وتحتوي أشجار النخيل قنوات صغيرة محفورة بينها، بعمق قدم أو اثنين، ويتمّ ريّها بالتناوب. نتيجة لذلك يوجد كثير من الأعشاب في البساتين كلّها، وشجيرات مزهرة. وينسحب الأمر على كلّ عمقٍ في الوادي، إذ يمِكن، على ما يبدو،

العثور على المياه بعمق قدمين تقريباً في أي مكان تقريباً. فمياه النبع (وحق الحصول على كثير من الدقائق التي تُباع فيها مياهه يومياً أو أسبوعياً مع كل قطعة أرض) ليست جيدة جداً لأنها قليلة الملوحة ودافئة. أمّا بعض آبار المياه الخاصة في البساتين، فهي ممتازة. ويفيض وادي الصفراء كل عام، ومرات شتّى أحياناً. فقد يصل عمق المياه إلى ثمانية أقدام، وتستمر في الجريان يومين أو ثلاثة أحياناً. وليس هذا بالأمر المدهش، فلا بدّ لكلّ قطرة ماء تسقط على هذه التلال المصقولة أن تنساب عليها كانسيابها على الزجاج. فوادي الصفراء قناة منطقة مصبّ كبيرة.

فالأرض والأشجار كلها مملوكة لبني سالم من قبيلة حرب، والقبيلة كلها تعيش على غلة الوادي. إنها التمور أساساً رغم زراعة قليل من التبغ وبعض البطيخ والكوسا والخيار، وتجريب العنب والفواكه بنجاح. فيتم تصدير الفائض من التمور إلى السودان عبر الرايس وبريقا... إلخ، ومقايضتها بالحبوب والكماليات. يبدو أن هذه الصادرات تصل إلى نحو ألف إلى ألف وخمسمئة طن في السنة العادية.

أصحاب البيوت في الوادي من بني سالم جميعهم، لكنّ العمل الزراعي الفعلي يقوم عليه العبيد (الخَدَم)، ولدى كل بيت ميسور أربعة أو خمسة منهم. فهؤلاء العبيد الزنوج وأجسامهم المكتنزة وأرجلهم السمينة يبدون غرباء الدار بين أشباه العصافير العرب بصورة تثير الاستغراب. عندما كانوا صغاراً، كانوا يأتون من سواكن وبور سودان في الأصل برفقة حجاج تكرور، وينتحلون صفة أطفالهم، ويُباعون عند وصولهم إلى الحجاز. أمّا عندما صاروا كباراً، فيتراوح سعر الذكر بين ستين جنيهاً إسترلينياً وثلاثين وفقاً للموسم وشروط التبادل التجاري. ونظراً إلى تمتّعهم بمثل هذه القيمة يُعاملون جيداً إلى حد ما. ففي البلدات، يقومون على الأعمال المنزلية، ويتمتعون بحياة مريحة. أمّا في القرى، فيتعين عليهم العمل بكدّ، غير أن العزاء الذي يُحسدون عليه يتمثل في السماح لهم بالزواج بالسراري وتكوين أُسرٍ. بطبيعة الحال هذه الأسر ملكٌ للسيّد، لكن الآداب تنص على منح امتيازات معقولة للأب والأم. فيصير عملهما خفيفاً وعادة لا ينفصلان عن أطفالهما إلى أن يبلغوا سن الرشد. فكلّهم مسلمون، لكن ليس لديهم صفة قانونية ولا يمكنهم الطعن في الأعراف القبلية أو حتى الاستئناف أمام محكمة الشريف. وعندما يخفقون في إرضاء سيدهم، يتعرضون للضرب. لكن الرأي العام لا يشجع على القسوة. على العموم، بدوا راضين للغاية، إذ يُسمح لهم عموماً بمصروف جيب صغير يُكثرون بموجبه مخزونهم من الملابس. وكانوا يُشكّلون قرابة 5% من جيش فيصل، والفتيان الأصغر كانوا مفضلين للخدمة. فمن المفترض وجود قرابة عشرة آلاف منهم في وادي الصفراء، وربما نصف هذا العدد في وادي ينبع مجدداً، وهي المنطقة الكبرى الأخرى المزروعة وسط الحجاز. فقرى وادي الصفراء مِن مصبّه إلى منبعه هي: بدر حنين (يُروى أنها تضم نحو ستة آلاف نسمة، وتُعدّ

أكبرها)، والبركة والعالية والفارعة والجديدة والحسنية ودغبج والواسطة والخرماء والحمراء وأم ذيال والحزم والخَيْف (أو الجديدة كما يُطلق عليها الأتراك).

غادرت الواسطة الثانية بعد الظهر، وانطلقنا من وادي الصفراء مروراً بالخرماء (عشر دقائق)، وصولاً إلى الحمراء الثالثة بعد الظهر. ويبلغ عرض الوادي من مئة إلى ثلاثمئة ياردة، وهو وادٍ من الحصى الناعم والرمال، وانسيابيّ للغاية جرفته الفيضانات. وجدرانه من الصخور الحمراء والسوداء الجرداء تماماً، وحافاته وجروفه حادة مثل أنصال السكاكين العاكسة للشمس مثل المعادن. فبفضل الأعشاب والحدائق المخضوضرة، كان الانطباع العام جميلاً جداً. وفي الحمراء المكان يعجّ بقوافل هجن سيدي فيصل وجنوده. وجدته في بيت طينيّ صغير مبني على رابية يبلغ ارتفاعها عشرين قدماً مشغولاً بزوار كُثر. كان حديثي معه مقتضباً وحيوياً إلى حد ما، ثم استأذنت بالانصراف. استقبلني زكي بك بحرارة، ونصب لي خيمة في فناء عشبي حيث استحممت ونمت جيداً بعد تناول العشاء مع فيصل (كان غير منطقي إلى أبعد الحدود) والخوض معه في سجال ساعات طويلة.

24 تشرين الأول/ أكتوبر

استيقظت متأخراً. جاء سيدي فيصل لرؤيتي في 6.30 صباحاً، وخضنا مناقشة حادّة أخرى انتهت بصورة وديّة. دام هذا الأمر حتى الظهيرة تقريباً، عندما خرجت واستكشفت الحمراء، وقصدت الخَيْف من أجل تفقّد الخفراء الذين لم يكونوا في خطر! فالحمراء نفسها مكان صغير من 150 بيتاً (مخفياً في الأشجار على روابٍ يبلغ ارتفاعها عشرين قدماً) وجدول صغير وبساتين خصبة جداً وأراضٍ عشبية. تحدثت مع رجال فيصل كلهم، إذ كانوا منتشرين في أرجاء المكان كلّه، ومعظمهم من قبائل جهينة وبني سالم والأحامدة وصبح ورحالة وبني عمرو. بدوا قساة للغاية، وكانوا ظريفين في الغالب، وفي أفضل المعنويات التي يمكن تخيلها بالنسبة إلى جيش مهزوم أيضاً.

ثم رأيت فيصل مجدداً. فسار كل شيء بسلاسة هذه المرة، وبدا أقل توتراً. كان تفاؤله بإمكانية الزحف التركي أو ازدراؤه منها ثابتاً على نحو غريب.

في الرابعة عصراً، انطلقت على ظهر راحلة بصحبة مرافقة جديدة من أربعة عشر شريفاً، وجميعهم من قبيلة جهينة، ومعظمهم من أقارب محمد علي البداوي من ينبع، وكنت في حيرة من أمري، هل يتعيّن عليّ الذهاب عن طريق الحجيج. لبلوغ هذا الأمر، نزلنا وادي الصفراء بضع دقائق، وعبرنا ضفته، ودخلنا وادياً جانبياً يؤدي إلى الخرماء. في البداية، كان السير ممتازاً عبر دغل كثيف للغاية، ولكن من 5.30 إلى 5.45، يتحول المسار إلى الغرب أكثر، ونحو معبر

وعر وضيّق، محصور بجدران جرداء من الحجارة الضخمة غير المنحوتة. يستمر هذا العمل أسفل الجانب الآخر من مستجمع المياه لميلين تقريباً. من الواضح أنه كان طريقاً متدرّجاً. وفي بعض الأماكن مجرد ضفة محصّنة. أمّا في أماكن أخرى، فكان معبراً ممهّداً عبر الوادي في بعض الأحايين، يبلغ ارتفاعه من ستة أقدام إلى ثمانية. لقد كان السطح معبّداً لكنه اليوم في حالة خراب، وتم اختراقه من الجدول. وربما عرضه من الرواسب عشرين قدماً، لكنني رأيته في الظلام فقط، ولم أستطع التثبّت من ذلك. فربما كان هذا الأمر قد شغل الجميع تقريباً، وصولاً إلى محمد علي.

وصلنا في 6.30 مساءً قاع المعبر (هو الآن جرف شديد الانحدار ووعر) وسلكنا طريقاً يمر قليلاً إلى الشمال من بئر سعيد عبر نظام أعقد من الوديان والتلال الصغيرة، مع وجود بعض الوديان الكبيرة من جهة الجنوب أو الجنوب الغربي، وكتل رخوة من الحمم البركانية هنا وهناك. أمّا في 8.30 مساءً، فبلغنا بئر المياه أو مياه القلعة، وهو بئر تحت أنقاض حصن صغير على تلة منخفضة. ربما كان بيت حراسة فوق الماء على طريق الحجيج.

25 تشرين الأول/ أكتوبر

انطلقنا مرة أخرى في الثالثة صباحاً، صعوداً ونزولاً في متاهة الأودية نفسها، حتى الخامسة صباحاً، عندما بزغ الفجر ووجَدَنا وسط حرّة عَكِرة ذات قاع رملي. مما يدعو للغرابة أن الصخور منحنية وملتوية ومتشققة. وفي 5.45 صباحاً، تم التخلص من هذه الحرّة التي تلاشت في بحر واسع من الكثبان الرملية التي تتخللها تلال صخرية تغطي الرمال قممها كلها بصورة متفرّقة. وكان كثير من الوديان يصب في هذه المنطقة، ويتجه نزولاً بسرعة نحو البحر الذي كان مرئياً من جنوب الجنوب الغربي.

لقد صمدنا الآن بثبات في الغرب، مع توجّه عرضي بلا هدف نحو الشمال. وفي 7.30 صباحاً، كنا فوق الكثبان الرملية وخرجنا إلى سهل رملي منبسط مع قدر كبير من الشجيرات الخفيضة والأكاسيا فوقه في البداية، والتلال المنخفضة إلى الجنوب، والممتدة غرباً إلى سلسلة جبال ساحلية صغيرة. أمّا في الشمال، فثمة تلال منخفضة أخرى، أي نتوءات الكتلة المركزية إلى الشمال منها (وجود طريق أسهل ينعطف إلى الشمال يتفادى أسوأ الكثبان الرملية). وتوقفنا من 7.30 إلى 8.45 صباحاً. ثم مضينا عبر سهل خالٍ من الحصى الناعم حتى العاشرة صباحاً، عندما دخلنا فرعاً شمالياً من سلسلة الجبال الساحلية الصغيرة. فكان هناك فضاء مفتوح متدحرج بينه وبين سلسلة الجبال الداخلية، ينهال من مستجمع مياه غير محدد شمال طريقنا قليلاً يؤدي إلى وادي ينبع، حيث كانت بساتين النخيل مرئية على بعد قرابة ستة أميال من

شمال الشمال الغربي. وكان الجزء الأكبر من جبل رضوى يقع خلف البساتين، التل الأكثر لفتاً للانتباه في القضاء.

كانت سفوح التلال التي عبرناها منخفضة ومحاطة بسهل شوكي ذي قاع رملي. وفي الحادية عشرة صباحاً، انتهينا من هذا الأمر، ونزلنا منخفضاً صغيراً يؤدي إلى حوض وادي ينبع، الذي كان يُشكِّل في هذا المكان حزاماً أخضر واسعاً جداً من الطرفاء والشوك، وعلى حافته الشرقية تلة منخفضة واضحة بذروة قبتها البركانية التي يُطلق عليها جبل عَرْوَر الملح، والتي تنحرف عن الوادي من جنوب الجنوب الغربي إلى الجنوب الغربي أو إلى غرب الجنوب الغربي أيضاً. أمّا فوقنا، فكانت القناة الرئيسية تتجه نحو ثلاثين درجة شمالاً لمسافة لا بأس بها. وتوقّفنا تحت شجرة أكاسيا في الوادي من 11.15 صباحاً حتى الثالثة بعد الظهر. ثم توقّفنا مجدداً في 3.15 بعد الظهر من أجل تزوّد الإبل بالمياه من وقب ماء قليل الملوحة يقع تحت سطح الوادي الرئيسي بقرابة أربعة أقدام، وخلف جدارٍ من الطرفاء. بعد ذلك، مضينا ساعة وثلاثة أرباع الساعة وتوقفنا للمبيت ليلاً. فالأرض المعنيّة مجدداً، تهامة، إذ تتكون من عشرة أقدام من الجروف المتضخّمة ببطء والوديان الضحلة بينها. فسرير وادي ينبع الرئيسي، حيث عبرناه، ويبلغ عرضه قرابة ميل ونصف. لكن، على ما يبدو، ثمة وديان أصغر شتّى إلى الغرب، أي مصبّات رافدة. ويبدو أن النهر يترجّح إلى الغرب بعد عبوره المسار. فالأرض الواقعة بين المسار والبحر تحتوي كثيراً من الشجيرات الخفيضة التي تنمو عليها، وبذلك، لا يكون منفذ الوادي الفعلي مرئياً. فتهامة منبسطة للغاية في هذا المكان حيث تغمر المياه معظمها كلما فاض وادي ينبع بصورة قوية.

26 تشرين الأول/ أكتوبر

انطلقنا مجدداً في الثانية صباحاً، وبلغنا ينبع في 5.30 صباحاً عبر سهل رتيب من الرمال الرطبة والحصى الصلبة. تقع ينبع على نتوء صخري منخفض، على ارتفاع بضعة أقدام فوق السهل. ذهبت إلى منزل عبد القادر العبدو، وكيل أعمال فيصل العسكرية، وهو مسؤول مطّلع وكفؤ وحسن النية. فاستضافني أربعة أيام عدت خلالها إلى وادي ينبع مجدداً لرؤية بساتين النخيل.

وفي 1 تشرين الثاني/ نوفمبر، صعدت متن السفينة Suva.

ينبع، 29 تشرين الأول/ أكتوبر

3. مقتطفات من تقرير عن عمليات فيصل

18 تشرين الثاني/ نوفمبر 1916

في تموز/ يونيو، أخفق هجوم فيصل الأول على المدينة المنورة، ويرجع ذلك جزئياً إلى مواجهة قوات خيري بك له ولكن الأمر المرجَّح افتقار رجاله الأسلحة والذخيرة. وانقلب أهل العوالي، الذين كان يعتمد عليهم في التحكم في إمداد المدينة المنورة بالمياه عليه، وانضموا إلى الأتراك بدافع الخوف. وسرعان ما صفّاهم الأتراك. فالأرض المفقودة لا يمكن استعادتها، الأمر الذي اضطر فيصل إلى الانسحاب أكثر فأكثر إلى أن قصد ينبع أخيراً ورأى العقيد ويلسون.

بعد ذلك، وجد ما يُشجّعه قليلاً، وأبلغ الشريف أنه يمكنه إيقاف الزحف التركي خمسة عشر يوماً أو عشرين، إلى أن يتم تحويل مساره عبر طريق آخر، أو حتى وصول التعزيزات إليه. منذ ذلك الحين وهو يحارب بمفرده على طريق السلطاني. في البداية، اقتحم المواقع التركية الأمامية، وألحق بها بعض الأضرار، لكن فخري حضر شخصياً للوقوف على الأمر، وزاد القوة التركية في بئر عباس إلى قرابة ثلاثة آلاف رجل. فدفع هؤلاء فيصل إلى التلال. لبّت المدفعية المصرية النداء، واستعاد العرب الثقة، لكنهم فقدوها مرة أخرى عندما اكتشفوا قلة جدواها ضد المدافع التركية. فلم تتم الإفادة من قدرتها على الحركة، بل استُخدمت كمدفعية ميدان ضد المدفعية التركية، ورُوي عن إحداها أنها مدفع Howitzer. ولم تقترب القذائف المصرية من الأتراك إطلاقاً، لكن القذائف التركية كادت تصيب خيمة فيصل بنيرانها غير المباشرة، وأرعبت العرب إلى أبعد الحدود. أعتقد أن فيصل انسحب إلى الحمراء ولم يترك وراءه سوى قوة تغطية لمهمة دفاعية في التلال، ليس لمنع إحباطهم المطلق فحسب، بل لأنه كان يشعر بالسأم من عجزه الشخصي الواضح. فلم يقم الأتراك بأي محاولة للمضي قدماً في مطاردته.

كان المغزى من القتال هو تأكيد احترام العرب القديم (السخيف) للمدفعية. فبدءاً من فيصل وانتهاءً برجاله العُزَّل يقسمون كلّهم: "لو كان في حوزتنا مدفعان، لكنا استولينا على المدينة المنورة،، لأنّهم لن يدركوا أن الأتراك ليسوا حمقى مثلهم في هذا الأمر. ولا أعتقد أنهم اقتربوا من الاستيلاء على المدينة المنورة، لأن قوات فيصل ليست سوى حشد من القناصين النشطين والمستقلين (لكن علينا أن نحسب حساباً لهوسهم بالمدفعية هذا، ونزوّدهم بالمدفعية اللازمة كرموز لاستعادة معنوياتهم).

يقترح فيصل من الحمراء الانسحاب إلى بئر سعيد لبضعة أيام، ثم يكرس اهتمامه الشخصي لسكة حديد الحجاز التي بدأ يدرك أهميتها الأساسية. مع ذلك، لن يتقبّل فكرة قطعها على حين غرة عبر مجموعات إغارة صغيرة، لكنه يرغب في الاستعانة بجيش جهينة المرابط الآن في طريف وخَيْف حسين

(2500–3000 رجل)، وشن هجوم كبير على بواط وبئر ناصيف. لا يريد فعل ذلك إلا بعد اقتراب عبد الله من المدينة المنورة على الطريق الشرقي، وقيام عليّ أو زيد أو الشريف شاكر بإسناد الشريف أحمد المنصور (خليفة فيصل) على طريق السلطاني. تتمثل فكرته في نشر القوات العربية – إذ يُتاح لكل منها الخدمة في منطقتها القبلية الذاتية فقط – على أوسع نطاق ممكن، وذلك لزيادة العدد الأقصى من الرجال إلى حد ما، وجزئياً لتشتيت التركيز التركي الحالي لما يقارب قوتهم كلها على بئر درويش [الفُرَيش حالياً] التي تهدد رابغ على نحو غير مستحب، بوصفها نقطة مشتركة لطرق الغاير (الفرع) والجاهة والسلطاني (تكمن الصعوبة في خلل في الاتصال البيني، وهو أمر لا فكاك منه إلى أن نوفّر أجهزة لاسلكية ميدانية).

بطبيعة الحال، لا يكاد يكون التنبؤ بأمر ما مضموناً، لكنني أعتقد أنه إذا نجح المخطط، قد يضطر الأتراك إلى الانسحاب من بئر درويش إلى المدينة المنورة، وتخصيص معظم قوتهم الحالية لحراسة مواصلات السكك الحديدية الخاصة بهم. إذا تم قطع سكة الحديد، وبقيت مقطوعة، قد تسقط المدينة المنورة بسرعة أكبر مما هو متوقع؛ تشير التقارير إلى أن سكانها المدنيين يعانون من نقص في الغذاء سلفاً رغم حلول موسم حصاد التمور الآن. فالجراد وحوائج القوات تسببت في هذا النقص. أمّا السكة الحديدية في الوقت الحالي، فهي غير محمية بشكل كافٍ.

إذا أخفقت الخطة، ستكون الخطوة اللاحقة مع الأتراك. فبعد ما رأيته من التلال الواقعة بين بئر عباس وبئر ابن حصاني لا أرى الآلية التي يمكن للأتراك فيها في هذا المكان أن يخاطروا بشق طريقهم بالقوة دون الخيانة من قبائل التلال. فالتلال ليست مرتفعة جداً، وهناك كمية كبيرة من المياه في الوديان. لكن أسرّة هذه الوديان هي الطرق العملية الوحيدة، وتتخذ طبيعة الصدوع والوديان لأميال، بمتوسط عرض ربما مئتي ياردة، ولكن عشرين ياردة فقط أحياناً، مليئة بالمنعطفات والمنحنيات دون غطاء، وتحيط بها من الجانبين تلالٌ قاسية من الغرانيت والبازلت وصخور الرخام السماقي؛ هي ليست سفوحاً جرداء بل مسننة ومصدوعة ومتراكمة في آلاف الأكوام المتعرجة من الجذاذات الصلبة والحادة مثل المعادن تقريباً. يركض العرب فوق هذه الجروف الصخرية حفاة، وهم يعرفون مئات الطرق بين قمة تل وأخرى. ويتراوح المدى المتوسط المجدي بين مئتي ياردة وثلاثمئة. أمّا في الأمداء القريبة، فيرمي العرب بشكل جيد جداً. ويُعدّ نطاق التل جنات النعيم بالنسبة إلى القناصين. ويجب أن يتمكن مئة أو مئتان من الرجال المصممين (خاصة المزوّدين برشاشات خفيفة يمكنهم حملها وصعود المرتفعات بها) من قطع كلّ طريق.

لكسر عزيمة العرب، يمتلك الأتراك مدفعيتهم – لا أرى كيف سيساعدهم ذلك كثيراً في التلال – وطائراتهم التي لم تؤدّ دوراً فعالاً في القتال حتى الآن،

ولكن يبدو أنها بلغت بئر درويش، وأثارت حالة من الذعر لمجرد إشاعتها التي قد تتلاشى عند التحقّق منها. ربما أفضل الأسلحة إطلاقاً هي المتمثّلة في المال والإقناع الأخلاقي. في الواقع إنهم ينفقون قدراً كبيراً من المال (يقول بعضهم إنه سبعون ألف جنيه إسترليني شهرياً)، ويتلقون تطمينات كلامية تُثلج الصدر في المقابل، ربما باستثناء قبيلة العوالي، عندما أتت النتيجة بتشجيع قليل للمشاركة العربية في الجانب التركي في المستقبل. وكان لديهم عدد قليل من رجال قبيلة جهينة برفقتهم، وبعض الرجال من قبيلة بلي بالقرب من الوجه. لكن يبدو أن العرب الوحيدين لدى الجيش التركي الرئيسي هم ثلاثمئة شمّري أرسلهم ابن رشيد، وبعض الرجال من قبيلة عُقيل، ومعظمهم من أهل بلدات المدينة المنورة الذين لا يستبسلون في القتال.

إن القبائل التي تتلقّى المال التركي هي في الغالب على تواصل مع الشريف أيضاً. ومما يتبدّى لي أنّ جانب الشريف هو الأكثر ربحاً وشعبيةً إلى حد بعيد في الوقت الحالي. ففيصل لا ينفق أكثر فحسب، بل يقوم بترتيبات لمكافآت الغنائم التي حصل عليها. في النتيجة، يدفع جنيهاً إسترلينياً واحداً لكل بندقية تركية، ويعيدها إلى صاحبها. ويدفع لقاء البغال أو الجمال أو الأتراك المأسورين بسخاء.

إذا بقيت الأمور على ما هي عليه الآن، سيتمتّع الجانب العربي بتفضيل ثابت دائماً ولأسباب وجدانية. أمّا اليوم، فالعرب يخشون الأتراك ويكرهونهم (باستثناء القبائل التي أفسدها نفوذ حسين مبيريك). ويُنظر إلى الشريف بفخر كبير عموماً يرقى إلى التبجيل تقريباً بوصفه سلطاناً عربياً ذي ثروة هائلة وفيصل أمير حربه. فتمثّلت قضيته في الوقت الحالي في تسوية النزاعات بين القبائل. وتمكّن فيصل من جعل أعداء الأخذ بالثأر في قبائل بلي وجهينة وحرب يقاتلون ويعيشون جنباً إلى جنب في جيشه. فلا يطعم الشريف مقاتليه فحسب بل عائلاتهم أيضاً، وهذه هي أثرى الأوقات التي عرفتها القبائل؛ ما كان لشيء آخر أن يكفل استمرار قوة بدوية خمسة أشهر في الميدان. ويشمل المقاتلون في الحجاز أي شخص قوي بما فيه الكفاية لحمل بندقية، وتتراوح أعمارهم، على ما يبدو، بين اثني عشر وستين. كان معظم الرجال الذين رأيتهم من الشباب. إنها حشود قاسية الملامح، ذات بشرة سمراء كلّها وبعضها زنجي، نحيفة قدر الإمكان، يرتدون قميصاً فضفاضاً فقط وسروالاً قصيراً وعصابة رأس تصلح للأغراض كلها. يتجولون مدججين بأحزمة خرطوش ويطلقون نيران بنادقهم عندما يستطيعون فعل ذلك. إنهم يتعلمون استخدام المناظير بالتدريب. أمّا حالتهم البدنية، فأنا أشك في وجود رجال أصلب منهم في أي وقت مضى. ومضى فيصل في رحلة اثني عشر يوماً ركوباً على طول الطريق الشرقي في ستة أيام برفقة ثمانمئة منهم. وقد جعلتهم يركضون ويمشون معي تحت أشعة الشمس عبر الرمال وفوق الصخور ساعة تلو أخرى دون أن يرفّ لهم جفن. أمّا مَن رأيتهم، فكانت معنوياتهم جامحة،

وسريعين مثل الصقور، وصارمين، وأذكياء، وكانوا يصرخون بأن الحرب قد تستمر عشر سنوات، ويصرخون: "الله ينصر الدِّين" كلما اقتربوا من الأتراك، وهذا ما يفعلونه عموماً، فبسبب خوفهم من القصف المدفعي، كانت المعارك كلها تدور في الليل. هذه المعارك هي مسابقات طريفة لاختبار الذكاء، لأن تتويج نموذج الإساءة، بعد البحث عن أقبح الكلمات في لغتهم، يقع عندما يطلق الأتراك على العرب في نوبة سُعار اسم "الإنكليز"، ويسمي العرب الأتراك "الألمان". فيقع عدد من الأسرى في يد العرب. أمّا بعض السوريين وآخرين، فيولّون الأدبار. كان الأتراك يذبحون أسراهم كلّهم بالسكاكين ذبح النعاج (هذه الحقيقة تُحزن رجال المدفعية المصرية، وقد نرتِّب لهم شروطاً تفضيلية إذا أسرهم الأتراك).

كنت أتجول بين الجنود العرب وحدي كثيراً لأسمع ما يقولونه عني. فكانوا يظنونني تركياً، ومفرطين في مقترحات تشرح الصدر من أجل التخلص مني. أمّا الموضوع الآخر الوحيد في حديثهم، فكان المدفعية، ثم المدفعية، ثم المدفعية، والسلطة والإرهاب المتحكّميْن في أذهانهم. وكاد تقرير وصول مدفع Howitzer ذي البوصات الخمسة إلى رابغ أن يعيد إلى أذهانهم توازن انسحابهم الأخير من بئر عباس. ومن الجدير ذكره أن بني عمرو (أضعفتهم تصرفات حسين مبيريك) سألوا سيدي فيصل، عندما انسحب، هل ينوي مهادنة الأتراك الآن، وتلقّوا رداً ساخطاً. أعتقد أن معظم القبائل (كانت خسائرها شبه معدومة) ستندم على السلام في الوقت الحالي، رغم أن أهل المدن الذين لا يحابون الشريف سيرحبون بذلك.

إذا زاد الأتراك قوتهم وانتقلوا إلى الهجوم، ثمة خيارات شتّى مفتوحة أمامهم. إذا انهارت القبائل، قد يغزون تهامة عبر التلال المحاذية لطريق السلطاني. وقد تكون مثل هذه الخطوة خطيرة جداً عليهم، إذ لا يمكن للمرء أن يشعر باليقين التام إطلاقاً من عدم تجمع القبائل مرة أخرى (يبدو أن رجال قبيلة الرحلة، المبالين بصورة خاصة، هم أفضل مقاتلي فيصل). وسيكون من الأسوأ تقريباً وجود مثل هذه التلال خلف المرء وعبر طرق مواصلاته بدلاً من أمامه للاستيلاء عليها عنوةً. فالأتراك لا يملكون سوى الأرض التي يقفون عليها، ولا يمكنهم إهمال خواصرهم إطلاقاً إلى أن يجعلوا القبائل تقف في صفهم. وعبر طريق السلطاني أيضاً، يجري إنزالهم إلى تهامة، حيث شح الماء والغذاء، وستكون قوافل الهجن الطويلة ضرورية. (قد يكون مفيداً الاحتفاظ بطائرات بحرية وعربات مدرعة في رابغ لأن فخري رجل غير مجرّب بموجب أوامر جمال باشا الأحمق؛ إنه يتصرف في الحال دون مشورة الألمان ضد عدو يحتقره وقد يمنحنا في أي وقت هدية مثل زحف تركي إلى تهامة عندما أسسنا قوة رابغ).

هناك طريق آخر محتمل يؤدي إلى رابغ عبر الطريق (الفرع) المركزي. يبدأ وادي الفرع بالقرب من الغاير حيث كان الأتراك يمهدون المسار من بئر

درويش. أمّا من الغاير، فينساب وست واحات من النخيل والمياه إلى بئر رضوان، ومن هناك إلى الخريبة التي تبعد ثلاث ساعات عن داخل مستورة. إنه طريق مباشر من المدينة المنورة إلى رابغ تجري من تحته الأنهار. ولكن لسبب ما، لم يستغلّه موسم الحج. ولم أتمكن من الحصول على تفصيلات حول سطحه.

لا بدّ أن نتذكر أيضاً أن موسم الأمطار يبدأ في تشرين الثاني/ نوفمبر، وقد تستمر على نحو متقطع حتى كانون الثاني/ يناير. فلا تتسرب الرطوبة إلى هذا الريف الصخري. لذلك، تفيض الوديان بسرعة كبيرة، وتتشكل البِرَك في الأماكن كلها. هذا سلاح ذو حدين. فرغم وفرة المياه بكثرة لشهرين، قد يتحول طريقك إلى سيل هادر في ثلاث دقائق يصل فيها عمق المياه إلى الصدور. أمّا في ما يتعلق بالمياه، فإن ما أثار إعجابي في الحجاز (باستثناء تهامة الجافة دائماً) ليس ندرة المياه فحسب، بل غزارتها النسبية. في الواقع، حدث هذا في أكثر المواسم جفافاً لسنة كانت أمطارها السابقة قليلة جداً.

يكمن الخيار التركي المحتمل الآخر، وربما أحكمه في ضوء الخطر المحدق بسكة الحديد، في المضي قدماً في التهدئة التدريجية للحجاز من الشمال إلى الجنوب. قد يكون تصرّف بصري باشا في الذهاب إلى الوجه هو الخطوة الأولى في مثل هذا الخيار عبر تأكيد ولاء قبيلة بلي. وقد حرّم الشريف أسواقه على بلي وهي في ضائقة مالية أو غذائية. كما أنه على تواصل مع معظم الشيوخ، ويثير الاستياء من سليمان رفادة الذي وجه إليه إنذاراً مدته عشرون يوماً (ينتهي في 15 تشرين الثاني/ نوفمبر تقريباً) يهدده فيه بمصير حسين مبيريك. فرجال قبيلة بلي معادون جداً للأجانب، ومنزعجون من التحالف الألماني–التركي كثيراً. وقطع فريق منهم في قرية الشَّفَا الطريق على قافلة تركية وتحفّظ عليها. وزاد سعد غنيم شهرته بمطاردة دورية هجن تركية إلى الوجه. في الوقت الحالي، لا ندري وجهة رجال قبيلة بلي. وإذا قرروا رفض الأتراك، سيؤدي ذلك إلى جعل إخضاع الحجاز أطول وأصعب.

إذا نجح بصري باشا في الاحتفاظ بقبيلة بلي، ستكون خطوته اللاحقة فصل قبيلة جهينة عن الشريف. فهم رعايا أحدث من قبيلة حرب، وينبغي أن يسقطوا بسهولة أكبر، لأنهم يعتمدون في وجودهم على وادي ينبع بالكامل من الناحية الاقتصادية. يمتد الوادي من ينبع باتجاه بواط على سكة حديد الحجاز، ويحتوي في مساره السفلي على أربع وعشرين واحة من المياه الجارية وحدائق النخيل. ويبلغ عدد سكانه عشرين ألف نسمة تقريباً، ومعظمهم من العبيد العاملين في زراعة الأراضي. وتعتمد جهينة بأكملها على إنتاج هذا الوادي في قوتها. وبوصفه محاطاً بمناطق سهلية رغيدة، تبدو عملية احتلاله على يد قوة تركية كبيرة أمراً وارداً. عندئذ سيُحصر الشريف في منطقة الحمراء–مكة، ولن يعود بإمكانه تهديد سكة الحديد.

تكمن الخطوة اللاحقة في احتلال وادي الصفراء. فهو وادٍ شبيه بوادي ينبع لكنّه أصغر منه. ومقامه بالنسبة إلى قبيلة بني سالم مثل مقام وادي ينبع بالنسبة إلى جهينة. وباحتلالهم وادي الصفراء، سيضمن الأتراك إبادة قبيلة بني سالم أو استسلامها. وسيكونون في وضع يمكنهم من الإفادة المباشرة من السخط الذي تسبب فيه الشيخ حسين.

تبدو هذه العملية بالنسبة إليّ محتملة من أجل غزو الحجاز، إذا كان بإمكان العرب، بالعمل ضد سكة الحديد، أن يخيفوا الأتراك من زحف فوري على طريقي السلطاني أو الفرع. في الوقت نفسه، لا أعتقد بفعل ذلك بالقوة أو على يد القوات التركية الموجودة الآن أو عن طريق الاحتيال على إنفاقهم الحالي. من ناحية أخرى، الأخبار التي تناهت إلى مسامعنا عن النيات التركية تبدو كأنها كانت تقصد المضي قدماً إلى مكة للمكرمة. في هذه الحالة إمّا يكون وادي الفرع وارداً عملياً، وإمّا أنهم، في رأيي، يستخفّون بالبلد الذي يتعين عليهم التعامل معه (إن النظر إلى جسامة الثورة محلياً يثير إعجابي).

لدينا إقليم مكتظ بالسكان في هذا المكان، يمتد من أملج إلى مدينة القنفذة، ويستغرق عبوره أكثر من أسبوعين في أسفار على ظهور الجمال، وتحول سكانه البدو وشبه البدو فجأة من لصوص عرضيين إلى أعداء قاتلين للأتراك، ويقاتلونهم باسم الدِّين الذي بشّر بحرب مقدسة ضدنا أخيراً، ربما ليس على طريقتنا، ولكن بأسلوب فعالٍ وكافٍ على الطريقة التي تحلو لهم. لقد استمر هذا الأمر الآن خمسة أشهر. وخلال هذه المدة، صاغوا من العدم دستوراً ومشروعاً لحكم المناطق الواقعة خلف خطوط النار (هم يعتقدون أنهم بتحرير الحجاز يدافعون عن حقوق العرب كلهم في وجود سياسي وطني. ويتجهون بالتأكيد شمالاً نحو سوريا وبغداد، دون تصور لدولة واحدة أو حتى فيدرالية. إنهم لا يشككون في استقلال الإمام أو ابن سعود، بل يرغبون في تأييدهما... لكنهم يريدون إضافة سوريا المستقلة إلى الحظيرة العربية. فوق هذه الاعتبارات كلّها، أطلقنا موجة من المشاعر المعادية للأتراك ولّدتها حدة ومرارة الرضوخ الذي عانت منه بعض الأجيال، وقد لا تتلاشى قريباً. على ما أظن، يوجد لدى القبائل على خطوط النار حماسة محمومة مشتركة بين الانتفاضات القومية كلّها. فتمرّد على هذا النطاق يؤدي إلى إضعاف بلد أكثر من الحروب الخارجية الفاشلة. وأظن أن تركيا قد تضررت في هذا المكان أكثر من تضررها في أماكن أخرى إلى أن يتم الاستيلاء على القسطنطينية وجعل السلطان دمية بيد المستشارين الأوروبيين).

تجري مناقشة حركة الطورانية الجديدة في الحجاز بشدة، إذ يُفهم طابعها المناهض للعرب والمعادي للإسلام جيداً. أعتقد أن مؤتمر السلام سيشهد طلباً من الشريف بنقل الآثار المقدسة من القسطنطينية إلى مكة المكرمة في إشارة على أن الأتراك لم يعودوا يستحقون أن يكونوا أوصياء على مثل هذه الأمور.

لدى القادة العرب عدد لا بأس به من الرجال أصحاب العقول الرشيدة الناجحين في جيلهم إذا لم يفعلوا الأشياء كما نفعلها. بطبيعة الحال هم يفتقرون إلى التجربة والنظرية، باستثناء طبقة الموظفين الأتراك، وهي زعيم بلا رؤية، بسبب قلة التشجيع على دراسة الاقتصادات العملية. مع ذلك، لم أعد أشكك في قدرتهم على تشكيل حكومة في الحجاز، وهي أفضل، في ما يتعلق بمصالح الرعايا، من النظام التركي الذي استبدلوه (إنهم ضعيفون في الموارد المادية وسيظلون كذلك دائماً، لأن عالمهم زراعي ورعوي ولا يمكن أن يكونوا أثرياء أو أقوياء جداً إطلاقاً. ولو كان الأمر خلافاً لذلك، لكان علينا أن نقوّم على نحو أعمق مدى الصوابية في تشكيل قوة جديدة في الشرق الأدنى بمثل هذه المشاعر القومية الجياشة. كما هي الحال، إن ضعفهم العسكري الذي يزعجنا في الوقت الحالي يجب أن يضمن لنا من الآن فصاعداً مزايا لا حد لها من الأموال والأسلحة والذخيرة التي نحن مدعوون الآن للإبقاء عليها).

ينبع، 30 تشرين الأول/ أكتوبر

4. إدارة الشريف حسين

26 تشرين الثاني/ نوفمبر 1916

في حالة الحرب الحرجة التي تمر بها البلاد، لم تظهر سوى الخطوط العريضة لإدارة الشريف. يبدو أن هناك معارضة بين المدينة والريف. فالأسبق يستمر في ظل تبسيط النظام العثماني. أمّا الأخير، فيصبح أبوياً، لأن الشريف يتعامل مع الشيوخ مباشرة بوصفهم مسؤولين أمامه، ولا يتردد في عزلهم واستبدال آخرين بهم من عائلتهم (كما نفعل في بلاد الرافدين) عندما يتبيّن أنهم لا يستوفون الشروط المطلوبة. لقد زاد الشريف صلاحيتهم ومكانتهم وسطاء بين رجال القبائل والسلطة المركزية بدلاً من استنزافها، كما هي الحال في النظام العثماني. بطبيعة الحال، إن حكمهم داخل القبيلة هو أوتوقراطية شكليّة. لذلك تكتنفه الآراء والأعراف القبلية فلا يتعدى كونه مجرد موافقة عامة عملياً.

ولدى الشريف حكام صوريّون في المدن، لكنّ العمل الحقيقي قد يكون في يد مندوب يُعدّ يده اليمنى. ومع ذلك، يجب أن يتصرف بلطف من أجل تفادي إثارة غيرة الرجل المحلي الأقل كفاءة والمتمتع بالاحترام، الذي سيرمي بنفسه في أحضان الأتراك بسهولة. فوجد الرجال الأقوياء أن الحكومة التركية ودودة، لأنّها أتاحت مجالاً للمحاباة. ويبدو أن الشريف عادل بالفطرة.

تم إلغاء القانون المدني التركي. أمّا في المدن، فيُحكَم القضاة الشريعة غير المخففة. وفي المسائل المتعلقة بالقبائل، لا يزال يتعين تسويتها بموجب القانون القبلي، مع الإشارة إلى أن الكلمة الفصل تعود إمّا إلى الشريف وإمّا إلى القائمقام. وفي حال توافر الوقت، يعتزم الشريف توسيع مبادئ الشريعة ونطاقها لتشمل الصعوبات الحديثة في التجارة والمقايضة!

وتم إلغاء تعدد المسؤولين الأتراك. فيتم تسيير العمل في معظم المكاتب بجزء ضئيل من الموظفين القدامى.

إن نظام الضرائب الداخلية التركي معلّق. كان يتم تحصيل الضرائب من حين إلى آخر فقط. ثم عن طريق وحدات تدخّل سريع من الدرك. فكان الانزعاج أكبر من الربح. في الوقت الحالي، تخضع رجولية الحجاز للسلاح أيضاً، وفي النتيجة هي معفاة من الضرائب. ولا تزال نسبة 10% من القيمة الجمركية المضافة على الواردات و5% على الصادرات سارية المفعول. ففي جدة، يُروى أن العائد ليس كبيراً جداً، إذ إن واردات الشريف وافرة للغاية، الأمر الذي يثبط المشاريع الخاصة. أمّا في ينبع، فيبلغ متوسط الإيصالات الجمركية قرابة ستمئة جنيه إسترليني شهرياً، وتغطي ما يتعدّى الرواتب والتحسينات العامة الحالية.

تم الاحتفاظ بـ[15] octroi الحضري.

[15] تعبير فرنسي يعني: رسوم بلدية أو ضريبة مدينة.

وعادة ما تكون الشرطة بمكانة خدم الشريف البيشاويين الخاصين، ويبدو أنها هادئة وكفؤة. لكن العودة إلى الظروف الجهنميّة تعني استعادة السلطة القبلية أو العائلية وانخفاضاً كبيراً في ممارسة الحكومة المركزية. فيُعد الشريف حسين أحد الدارسين للسياسات والأعراف البدوية. وبفضل حكمته المعتادة، أجاز بهدوء استعادتها طالما حافظت على حيويتها. ودوماً كانت الحكومة العليا في المناطق العربية حالة زائدة، لا تزعج الناس إلا عندما تمسّهم.

الموارد المالية

من المحتمل أن يحقق كل من الميناءين، جدة وينبع، عائداً بسيطاً من إيصالات الرسوم الإدارية. فمكة المكرمة والجيش يشكلان نفقات حكومة الحجاز الكثيرة، ولا يمكن تقدير التكلفة الفعلية لكل منهما بعد. أمّا في مكة المكرمة، فكانت نفقات الإمارة قبل الحرب ألف جنيه إسترليني شهرياً. ولقد ازدادت بصورة كبيرة منذ ذلك الحين. إضافة إلى ذلك ثمة نفقات في المدينة. أمّا الآن، فهناك صدقات خيرية كبيرة تحل محل إيصالات الحج المتناقصة.

كان الإنفاق على الجيش باهظاً، إذ يتقاضى راكبو الجمال جنيهين إسترليني شهرياً، وأربعة أو خمسة جنيهات لقاء الجمل وطعامه. أمّا العرب، فيحصلون على قرابة ثلاثة جنيهات شهرياً، ويحصل الجنود على جنيهين شهرياً. فعلى العموم، الرجال مُطعَمون كلّهم، وأسرهم أيضاً.

فالقوات التي تم حشدها فعلياً تتنقّل باستمرار. وستحصل الأسرة على بندقية، ويخدم أبناؤها بالدور، ربما أسبوعاً تلو أسبوع. وفي حال توافر البدلاء، يعودون إلى بيوتهم من أجل كسر الروتين. أمّا المتزوجون من الرجال، فيذهبون لرؤية زوجاتهم من حين إلى آخر. وعندما تشعر عشيرة بأكملها بالتعب، تأخذ قسطاً من الراحة. لهذه الأسباب، إن عدد القوات المدفوعة الأجر أكبر من تلك التي تؤدي الخدمة. وهذا أمر ضروري، لأن الحروب، في حكم العرف القبلي، قصيرة جداً دائماً. كما أن الاحتفاظ بهذه الأعداد في الميدان، كما فعل الشريف على أرض الواقع، أمر غير مسبوق. وغالباً ما تنطوي السياسة أيضاً على دفع أجور أفراد فرقتهم للشيوخ. فلا يعدو كثير من هذه المدفوعات كونه رشى مقنّعة لأفراد مهمّين.

يتلقى الشريف فيصل من والده مبلغاً مقطوعاً قدره ثلاثون ألف جنيه إسترليني شهرياً، مع حرية التصرف. فيحتفظ بقرابة ثمانية آلاف رجل مشاة بهذه الأموال (ثلاثة آلاف في طريق السلطاني والحمراء، وألف في طريف، وثمانمئة بالقرب من بواط، وألف مع سعد غنيم، وألفين في خَيْف حسين) ومع الفائض (ربما ستة آلاف جنيه إسترليني) للتعامل مع جشع القبائل البعيدة. كان ممثلو فقير وبلي ونوري الشعلان بصحبته عندما كنت هناك، وتم بحضورهم جميعاً وضع أسس تفاهم تام على العمل المشترك، عندما كانت قوات الشريف قريبة بما فيه الكفاية لتقديم دعم مجدٍ.

لم يكن لدى سيدي علي مرتّب ثابت لكنّه كان يتلقى من مكة المكرمة ما يطلبه. ويقول إنه لا يقل عن 25 ألف جنيه إسترليني شهرياً، وقد كان 35 ألفاً. ويحتفظ بقرابة ثلاثة آلاف رجل معه، ولديه فرقة مشتركة كبيرة، مهمتها مراقبة دربي الغاير والفرع وطرق حيوية أخرى.

على الأرجح لدى سيدي عبد الله، بصفته أكثر أبناء الشريف دهاءً، المال الذي يريده، مع أنه لم يستطع أن ينفق كثيراً منذ سقوط الطائف. لكن لديه الآن قوة من عتيبة وحرب ومطير تمّت تعبئتها للعمل على الطريق الشرقي.

على العموم، قد يقترح المرء مصاريف الحجاز الشهرية على النحو الآتي:

جنيه
إسترليني

مكة المكرمة	.. ..	5000
جدة... إلخ	.. ..	2000
إمارة مكة	.. ..	3000
سيدي علي	.. ..	30000
سيدي عبد الله؟	.. ..	30000
سيدي فيصل	.. ..	30000

من غير المحتمل أن يصنع الشريف حسين أي اقتصادات حقيقية بالذهب في الوقت الحالي. ويمكن للمرء أن يرى في الأماكن كلها أن المال، والمال فقط، سيمنحنا المتنفس اللازم لتجهيز الجيوش العربية من أجل الاستيلاء على المدينة المنورة.

5. معلومات عسكرية

26 تشرين الثاني/ نوفمبر 1916

قوات الشريف

(أ) الأعداد

أعتقد بأن الشريف قد حشد قرابة 15 إلى 20 ألف رجل اليوم. وهؤلاء موزّعون في القوات المحلية، من أملج إلى القنفذة. فمن المحتمل أن يكون أكبر لفيف من الرجال الثلاثة آلاف الذين كانوا برفقة فيصل، ومَن كان بصحبة الشريف علي في رابغ. وقد يكون لدى الشريف عبد الله المزيد.

(ب) التشكيل

باستثناء الخدم البيشاويين و"الجنود" في رابغ، هذه القوات قبلية بالكامل. تشكل فرقة الهجّانة قرابة 10% منها. أمّا البقية، فهِي من المشاة، وبعضها من

القبائل الصحراوية، وبعض قبائل التلال. لم أرَ كثيراً من القبائل الصحراوية (أو أفكر كثيراً) فيها، لكن استوقفني رجال التلال بوصفهم مادة مناسبة لحرب العصابات. إنهم قناصون شرسون وأكْفاء ونشطون للغاية ومستقلون ومرحون. ولا يخدمون سوى بقيادة شيوخ قبائلهم، وفي قضائهم المحلي أو بالقرب منه فقط. لقد أوقفوا نزاعاتهم الدموية من أجل الحرب، وسيقاتلون جنباً إلى جنب مع أعدائهم القدامى إذا كان لديهم أحد الأشراف في القيادة العليا. إلا في ظروف استثنائية، أعتقد أنهم لن يطيعوا أوامر رجل ينتمي إلى أي قبيلة أخرى. فقلة الانضباط – أو بالأحرى الرادع – تجيز لهم العودة إلى بيوتهم ورؤية زوجاتهم وعائلاتهم عندما يحلو لهم، إذا أتوا ببديلٍ عنهم. في النتيجة، يتنقّل أفراد الجيش باستمرار؛ هذا أمر لا مفر منه في الحرب القبلية.
على الأغلب ثمة شيخ لكل مئة رجل تقريباً. فتُدفع له أجورهم، ويكون مسؤولاً عن إطعامهم وجاهزاً للعمل بقوتهم النظامية عندما يدّعي الأمر ذلك.

(ت) التكتيك

إن الجيوش القبلية مجموعات من القناصين فقط. قبل هذه الحرب، كان لديهم بنادق قديمة بطيئة، ولم يعوا استخدام البندقية المزودة بمخزن بصورة كاملة بعد. ولن يستخدموا الحراب، لكنهم يستمتعون بالقطع بالسيوف. وليس ثمة رجل يثق بجاره تماماً، رغم إخلاص كل واحد منهم التام في معارضته للأتراك. فهذا لن يمنعه من التخلص من ضغينة عائلية في سبيل خذلان عدوه الشخصي. ونتيجة لذلك لا ينبغي الاعتماد عليهم لشن هجوم جماعي. إنهم متنقلون للغاية، وسيتسلقون أو يركضون لمسافة كبيرة ليكونوا في مكان آمن للحصول على تسديدة، ويُفضَّل ألا يزيد مداها عن ثلاثمئة ياردة، مع أنهم أخذوا يستخدمون مناظيرهم على نحو عملي. فهم يسددون جيداً من أمدية قصيرة، ولا يستهلكون كثيراً من الذخيرة عند الاحتكاك بالعدو، رغم وجود قدر كبير جداً من إطلاق النيران في الأفراح في البيوت. ويزوّد فيصل كلاً منهم بخمسين خرطوشة، ويحتفظ بقبضة محكمة على مخزونه، ويمنع الهدر قدر المستطاع.
لدى العرب رعب مزمن من المجهول. وهذا يشمل الطائرات والمدفعية في الوقت الحالي. فصوت إطلاق قذيفة مدفع يدفع كل رجل قادر على سماعها إلى الاختباء. إنهم لا يخافون من الرصاص أو التعرض للقتل. إنها طريقة الموت بالمدفعية التي لا يستطيعون تحملها فحسب. فهم يعتقدون أن البنادق أكثر تدميراً مما هي عليه في الواقع، ولكن من المحتمل استعادة ثقتهم المعنوية وتزعزعها بالسهولة نفسها. إن وجود عدد قليل من البنادق، سواء أكانت فعّالة أم غير فعّالة، في حوزتهم سيشجعهم على تحمل المدفعية التركية. وما إن

يتعرفوا إليها، سيمضي معظم إرهابها. أمّا في الوقت الحالي، فيقاتلون في الليل فقط، الأمر الذي سيجعل نيران البنادق التركية طائشة.

(ث) الاحتمالات

أعتقد أن سرية واحدة من الأتراك، متحصّنة بصورة صحيحة في العراء، ستهزم جيوش الشريف. إن قيمة القبائل دفاعية فقط، ومجالها الحقيقي هو حرب العصابات. فرجالها أذكياء ونشطون للغاية ومتهورون تقريباً، لكنّهم فرديون للغاية لتحمل الأوامر أو القتال بالنسق أو مساعدة بعضهم بعضاً. وأعتقد باستحالة تشكيل قوة منظمة منهم. إن روح مبادرتهم ومعرفتهم الكبيرة بالبلد وسهولة تنقّلهم تجعلهم مرعبين في التلال، ويتمحور ولعهم كلّه حول اقتناص الغنائم. فلا أحد يبزّهم في نسف سكة حديد بالديناميت ونهب قافلة وسرقة الجمال، في الوقت الذي كانت فيه سلطة عربية تمدّهم بالغذاء والمال. فمن المتّبع الاستهزاء بحبهم للراتب لكن من الجدير بالذكر أنه رغم الرشاوى، فإن قبائل الحجاز لا تقدم يد العون إلى الأتراك، وأن أرتال الإمداد بالمؤن الخاصة بالشريف تجوب الأماكن كلها دون مرافقة، وبأمان تام.
لا أعتقد أن الجيوش القبلية ستتفكك ما لم:

(أ) ينقص مال الشريف

(ب) ويحتل الأتراك مصادر مياه بيوتهم وبساتين النخيل

(ت) ويحاولون خوض معركة ضارية (عندما تصيبهم هزيمتهم وخسائرهم بالرعب)

(ث) ويفقد الشريف هيبته بصفته زعيماً عربياً حصرياً.

القوات التركية

(أ) الأعداد

الجيشان لا يختلفان في العدد، مع أن القوة التركية متمركزة والقوة العربية مفرطة في الانتشار.
ثمة اختلاف في طبيعة الجيشين التركي والعربي يكمن في أنه كلما نشرت السابق، أصبح أضعف، وكلما نشرت الأخير، أصبح أقوى. سيستفيد الشريف

من هذه النقطة الآن.

(ب) التشكيل

تضم القوات التركية قرابة ستمئة من المشاة العرب وقرابة خمسمئة (من قبيلة عُقيل) من الهجانة العرب، إضافة إلى ثلاثمئة من رجال قبيلة شمّر من نجد. وبقية رجالها من الأتراك ومشاة جميعهم. وباستثناء فرقة الهجانة ثلّة من الخيّالة ومفارز من راكبي البغال.

إن تركيبتها تجعلها مفتقرة إلى سهولة التنقل، والشمّر هم القوات الخفيفة الوحيدة التي يمتلكونها، القادرة على شن غارات محمولة طويلة الأمد. أمّا (رجال القبائل)، فمن المحتمل ألّا يصمدوا طويلاً.

(ت) التكتيك

حتى الآن قصرَ الأتراك أنفسهم على العمل في السهول تماماً، حيث يتلقون دعماً من مدفعيتهم. فلم يحاولوا مهاجمة التلال بعد.

(ث) الخطط

لدى الأتراك كثير من الغذاء للرجال. على العموم، كان ثمة نقص في التبن، وقلة في الشعير والمياه الكافية. ويمكنهم تخصيص 130 جملاً لكل كتيبة في قوة بئر عباس، وفي الوقت نفسه الحفاظ على قواتهم في بئر درويش.

ليس سهلاً معرفة سبب تأخرهم. فأخذت قضيتهم تفقد زخمها باضطراد بين القبائل الذين يكتسبون أيضاً خبرة في نمط القتال الجديد. وقد تكون الكوليرا في المدينة المنورة خطيرة... أو قد لا تستوفي القبائل احتياطي الأغذية الضخم بالضرورة المطلوب من أجل الزحف على مكة المكرمة، أو قد يهابون قوات إنزالنا في رابغ.

وهم يعلمون أيضاً أنه ما دام جيش فيصل موجوداً – يجب أن يظل موجوداً ما دام يحافظ على مرونته الحالية ويتحاشى اتخاذ إجراء حاسم – سيكون إبقاء طرق مواصلاتهم مع رتل زاحف على مكة المكرمة من المدينة المنورة مفتوحة شبه مستحيل، دون زيادة كبيرة في القوات أو نظام الاستحكام الدفاعي.

أعتقد بإمكانية قوة صغيرة قائمة بذاتها أن تستعيد مكة المكرمة. وإذا كانت القبائل لا تزال تحافظ على ثباتها الحالي، من المستحيل الاحتفاظ بها.

(قوات الشريف الحالية متطوعون قبليون، إذ تتمثّل شمائلهم في سهولة تنقلهم ومعرفتهم بالبلد. في النتيجة، لا يمكننا زيادة أعدادهم ولا متاعهم. فوحدات المدفعية الأجنبية، مثل المصرية، خطيئة. من ناحية أخرى، يجب تعزيز هذه القوات القبلية بالرشاشات الخفيفة التي يتولّونها بأنفسهم. فما هو مطلوب فوراً توفير العديد من مدافع Lewis، وإكسسوار قناصات، وبعض المدافع الجبلية بوصفها تميمة لاستعادة ثقة الشعب. لن تنهي هذه القوة القبلية الحرب إطلاقاً (ما لم يكن لدى الأتراك عدد كافٍ من الرجال للدفاع عن سكة الحديد الخاصة بهم) لأنها لن تكون قادرة على شن هجوم إطلاقاً. فيجب أن نستغلها كساتر نبني خلفه قوة ميدانية للشريف تتمتع بسلاسة الحركة، تكون قادرة على مواجهة قوة تركية ومشاغلتها بتكتيكات حرب العصابات، وهزيمتها تدريجياً. سيتعين تجنيد هذه القوة من أهل المدن والعبيد والقرويين).
(سجال ضد إنزال الأجانب في رابغ).
حرب الحجاز حرب الدراويش ضد القوات النظامية، ونحن إلى جانب الدراويش. فلا تنطبق كتبنا المدرسية على شروطها إطلاقاً. إنها معركة ريف صخري جبلي رديء المياه (بمساعدة حشد متوحش من متسلقي الجبال) ضد قوة تم تحسينها – في ما يتعلق بالحرب المتحضرة – إلى حد كبير من قبل الألمان، إذ كادت أن تخسر كفاءتها بسبب أعمال عنيفة وتمردية.

جدة، 3 تشرين الثاني/ نوفمبر 1916

6. مذكّرات شخصية عن عائلة الأشراف

26 تشرين الثاني/ نوفمبر 1916

يمكن للمرء أن يرى الشريف وأبناءه الثلاثة الكبار أبطالاً بالنسبة إلى البدو. فالشريف حسين (سيّدنا كما كانوا يطلقون عليه) لطيف ظاهرياً ومتفهِّم لدرجة يبدو فيها ضعيفاً تقريباً. لكن هذا المظهر يخفي وراءه سياسة عميقة وماكرة، وطموحات واسعة وبصيرة غير عربية، وقوة شخصية ومثابرة. لم يكن هناك أي جمعية سرية قومية عربية في مكة، لأن الشريف كان يمثِّل الحكم العربي دائماً. وكان نفوذه في القبائل والمناطق الريفية قوياً للغاية لدرجة بات فيها بمنزلة إدارة إضافة إلى أنه أدى دور نصير العرب في المدن ضد الحكم التركي.
كانت ميوله وتعاطفه قبلية دائماً، على وجه الخصوص. فهو ابن لأم شركسية، الأمر الذي جعله يتحلّى بخصال غريبة بالنسبة إلى الترك والعرب في آن معاً. لكنه صمم على طمأنة قلوب البدو بجعل أبنائه مثلهم. ولقد أصر الأتراك على

أن يتلقّوا تعليمهم في القسطنطينية، ووافق الشريف حسين على ذلك عن طيب خاطر. ولقد تلقوا كلّهم تعليماً تركياً من الدرجة الأولى، واستفادوا من معرفتهم بالعالم. ومع ذلك، عندما عادوا من القسطنطينية شباباً مشرقيين يرتدون ملابس غريبة وبآداب سلوك تركية، جعلهم الشريف حسين فوراً يتحولون إلى الأشياء العربية، ويصقلون لغتهم العربية. وآتاهم بأصدقاء عرب. بعد ذلك بقليل، أرسل في طلبهم من أجل تكليفهم قيادة بعض الزمر الصغيرة من الهجّانة العرب الموكلة دوريات حراسة طرق الحجيج المقابلة لجبال عوف. فوافق الأشراف الشبان على الخطة، إذ اعتقدوا بأنها قد تكون مسلية، لكن خابت آمالهم عندما مُنعوا من اصطحاب طعام خاص، أو معدات النوم، أو وسائد للسروج معهم. وما زاد الطين بِلَّة: لم يُسمح لهم بالحضور إلى مكة المكرمة للاحتفال بالعيد، بل تعين عليهم قضاء الموسم كله في الصحراء مع رجالهم، وحراسة الطرق ليلاً ونهاراً، ومقابلة البدو فقط، والتعرّف إلى موطنهم وآداب سلوكهم.

فكلّهم بدو أقحاح الآن، ويتمتعون بحكم تعليمهم بمعرفة المسؤولين الأتراك وخبرتهم أيضاً. ومن سلالتهم الناجمة عن تصالب الدم الشركسي والعربي غالباً يأتي هذا المزيج من الذكاء الفطري والحماسة. وهذا يجعلهم مجموعة عائلية مرعبة تحظى بالإعجاب والكفاءة من فورها. ومع ذلك، تركهم هذا الأمر معزولين في عالمهم بصورة غريبة. على ما يبدو، لم يكن لدى أي منهم كاتم أسرار أو مستشار أو وزير. ومن المشكوك فيه هل أي منهم على علاقة حميمة بالكامل مع الآخر أو مع والدهم الذي يشعرون بالرهبة منه جميعاً.

رغم أنه في السابعة والثلاثين فقط، كان سيدي علي قصير القامة ونحيل، وتبدّى معمّراً قليلاً سلفاً، ومحدباً قليلاً. أمّا بشرته، فكانت شاحبةً إلى حد ما، وعيناه بنيتين عميقتين كبيرتين، وأنفه رقيقاً ومعقوفاً قليلاً، ووجهه متعباً إلى حد ما ومليئاً بالخطوط والفجوات، وفمه رخواً. وأمّا لحيته، فكانت سوداء خفيفة. ولديه يدان حساستان للغاية. أمّا آداب سلوكه، فكانت بسيطة للغاية، ومن الواضح أنه سيّد نبيل وجدانيّ، ويقظ، ودمث، ومن دون قوة شخصية، وعصبي ومتعب إلى حد ما. فضعفه الجسدي يجعله عرضة لنوبات سريعة من الانفعال الرعاشي المصحوبة بحالات مزاجية متكررة من العناد الخجول. على ما يبدو، لم يكن طموحاً من أجل نفسه، لكنّ رغبات الآخرين هيمنت عليه بسهولة شديدة إلى حد ما. إنه مولع بالكتب ومطالعتها، وضليع في القانون والدِّين. ويُثبت نسبه العربي أكثر من أشقائه.

يبلغ سيدي عبد الله من العمر خمسة وثلاثين لكنه يبدو أصغر سناً. أمّا بنيته، فقصيرة وممتلئة، وقوية كالحصان، على ما يبدو. وأمّا عيناه، فكانتا بنيّتين داكنتين فرحتين، ووجهه ناعماً مستديراً، وشفتاه ممتلئتين لكنهما صغيرتان، وأنفه مستقيماً، ولحيته بنيةً. كان يمازح رجال القبائل كأحد شيوخهم بطريقة منفتحة بتكلّف وساحرة للغاية، ودون تمسّكه بالشكليات إطِلاقاً. أمّا في

المناسبات المهمّة، فيزن كلامه بحرص، ويطرح نفسه جدلياً شغوفاً. على الأغلب، لا يتمتع بقدر ذكاء والده وارتجاله. من الواضح أنه يعمل على إرساء عظمة الأسرة، ولديه أفكار كبيرة تشمل بلا شك ارتقاءه الشخصي. وسيكون النزاع بينه وبين فيصل مثيراً للاهتمام. ويعدّه العرب أكثر السياسيين ذكاءً ورجل دولة بعيد النظر، لكن من المحتمل أنّ تكوينه يتحلّى بالصفة السابقة أكثر من اللاحقة.

أمّا سيدي فيصل، فكان طويلاً ورشيقاً وقوياً، وشبه ملكيّ المظهر، وفي الحادية والثلاثين، وسريعاً جداً ولا ينفكّ عن الحركة. وخلافاً لأيّ من أشقائه كان يفرض نفسه شخصياً أكثر بكثير، لأنّه يُجيد هذا الأمر ويستغلّه. أمّا بشرته، فنقية مثل شركسي نقي، وشعره داكن، وعيناه سوداوان زاهيتان مائلتان قليلاً في وجهه، وأنفه قوي، وذقنه قصيرة. فتبدّى كأنه أوروبي، ويشبه نصب ريتشارد الأول Richard I في Fontevraud كثيراً. كان سريع الغضب ومتكبراً وسئماً، وغير منطقي أحياناً، ومراوغاً من غير ريب. يمتلك جاذبية شخصية وحيوية أكثر بكثير من إخوته، لكنّ حكمته أقل. من الواضح أنه كان ذكياً جداً، وربما ليس كثير الشكوك. بالأحرى، كان ضيّق الأفق وعجولاً عندما يتصرف غريزياً لحظياً، لكنّه يتمتع بقوة كافية للتأمّل عادةً، الأمر الذي يجعله دقيقاً في الحكم. ولو أنه تربّى بطريقة غير صحيحة، لبات ضابطاً في ساحة ثكنة. كان معبود الجماهير وطموحاً وعامراً بالأحلام والقدرة على تحقيقها، وصاحب بصيرة شخصية نافذة، ورجل أعمال كفؤاً للغاية.

يبلغ الشريف زيد نحو عشرين عاماً. وطغت عليه سمعة إخوته غير الأشقاء. ووالدته تركية ويقتدي بها. كان مغرماً بالتجوال ولعب الحيل. فلم يتم تكليفه أي لجنة مهمة حتى الآن ولكنه نشط. كان فظاً قليلاً لكن ليس شخصاً سيئاً. تتسم نظرته بروح الدعابة، وربما أفضل اتزاناً قليلاً، لأنّه أقل حدة من أشقائه. وكان خجولاً.

ينبع، 27 تشرين الأول/ أكتوبر 1916

7. القومية بين رجال القبائل

26 تشرين الثاني/ نوفمبر 1916

أذهلني الرأي القبلي في الحجاز بوصفه قومياً بكثافة وأعقد من المظهر الذي يظهر فيه رجال القبائل. يصعب الحصول على هذه الأفكار من المثقفين في المدينة، لأن جدة ومكة المكرمة ليستا عربيتين في تكوينهما، بل هما مجموعات من الجاويين والسودانيين والهندوس والأتراك والبخاريين غير

المتعاطفة مع المُثُل العربية. وتعاني هذه المجموعات في الوقت الحالي إلى حد ما من قوة المشاعر العربية التي تخلّصت من الضغط التركي أخيراً فلا يمكن السيطرة عليها تماماً.

في البحث عن السبب في هذا النمو المفاجئ للشعور القومي، تم إبلاغي أن الدعاية الألمانية كانت عاملاً مسهماً ومهماً، إذ بشّر الألمان بالجهاد في الأشهر القليلة الأولى من الحرب، إلى أن رأوا إخفاق الفكرة. ثم انتقلوا فوراً إلى قاعدة القومية، وحاولوا إيقاظ الإحساس العثماني الكامن (في رأيهم) في الأقاليم. فكانوا يعلّمون أن الألمان ألمان والبريطانيين بريطانيون. في النتيجة، كان يتحتّم على العثمانيين أن يكونوا عثمانيين، ويثبتوا وجودهم المستقل باسم مبدأ الجنسية. كان مصير الأرمن في القراءة التركية لذلك الدرس... كانت انتفاضة الحجاز رد الفعل العربي على هذا الأمر والتأثيرات الأخرى. فوجدت الغريزة (يعتقد العربي نفسه متفوقاً على جميع الأعراق الأخرى)، والمال، والتوجيهات، ونموذج عائلة الشريف حسين، حليفاً غير متوقع في الدعاية الألمانية وعقيدة الترك الجدد والطورانية الجديدة.

أياً كان السبب ينطلق الشعور العربي في الحجاز من الوطنية الكاملة بين الأشراف المثقفين وصولاً إلى التعصب العنصري عند الجهلة. فالأمر الوحيد الذي اقتنعت به القبائل هو أنها أقامت حكماً عربياً. في النتيجة فإن كلاً منها ممثّل فيه. وتتحسر البلدات على تقاعس الحكم العثماني المعرقِل وشعوره بالرضا، أو على السكينة المنتظمة لحكمنا، فالقبائل تعي أنها مستقلة، وتهدف إلى التمتع باستقلالها. ولن يترتب على ذلك فوضى، إذ سيتم التشديد على الرابطة الأسرية ونظام المسؤولية القبلية، لكنه يستلزم زوال السلطة المركزية العملي في الشؤون الداخلية أو إلغاءها. فقد يكون للشريف سيادته السياسية في الخارج، ويجب أن يتمتع بها بالقدر الذي يستطيع فيه رجال القبائل ضمانها، لكن تقع مسؤولية تسوية شؤونهم الداخلية على عاتق شيوخ قبائلهم. قال أحد الأشراف: "هل يتعين على دمشق أن تحكم الحجاز أم يمكننا أن نحكم دمشق؟" ويصعب تحديد المشكلة الكبرى. مع ذلك، هم لن يسمحوا بتحديدها لاتخاذ قرار، لأن فكرتهم عن القومية هي استقلال القبائل والرعايا، وفكرتهم عن الاتحاد القومي هي مقاومة مشتركة وعرضية لدخيل. إن السياسة البناءة، والدولة المنظمة، والإمبراطورية التوسعية، ليست فوق طاقاتهم فقط، بل هي لعنة على غرائزهم. فهم يقاتلون من أجل التخلص من الإمبراطورية وليس الظفر بها. والوحدة الوحيدة الممكنة هي تلك التي يفرضها النفوذ أو السيطرة الأجنبية عليهم. فما لم نصنع، نحن أو حلفاءنا، إمبراطورية عربية فعالة، فلن يكون هناك سوى فسيفساء متنافرة من الإدارات الإقليمية.

يرفض العرب بشدة أي غطرسة من هذا القبيل للحق الأجنبي في تنظيمهم. "يسعدنا أن نكِون أصدقاءكم، ونحن ممتنّون للغاية لما قدمتموه. لكِن تذكّروا،

من فضلكم، أننا لسنا رعايا بريطانيين. ولا بدّ أن نشعر بارتياح أكبر إذا لم تكونوا حليفاً غير متكافئ للغاية". كان فيصل يعني أن حساسية رجال القبائل العربية لأي اقتراح من طرفنا يتعلق بالشؤون الداخلية لا يُنسب إلى الإساءة العقلانية، بل إلى الوعي بالضعف الجسدي والمادي. فسيكون حكمهم أشبه بمزاج كسيح إلى أن يصبح أكثر ثقة بنفسه.

بصفتي السورية المفترضة، أشرت إلى بعض التعاطف في عمليات الإعدام التي نفذها جمال باشا بحق زعامات دمشق العرب. ومَقَتَ الأشراف، ومن كانوا على اطّلاع على التاريخ الحقيقي، هذا التصرّف بشدة. أمّا الآخرون، فقالوا: "لكن جمال باشا نشر وثائق تُبيّن أن هؤلاء الرجال باعوا بلادهم للفرنسيين والإنكليز. فلو لم يُجهز عليهم، لكان من واجبنا نحن العربَ أن نفعل فعلته".

على ما يبدو، أخذ الشعور يزداد حدة باتجاه الشمال. كانت قبيلة حرب أقل حماسة من قبيلة جهينة. وكانت جهينة أقل شوفينية من بلي. أعتقد أن تراجع بلي عن الشريف لم يكن بسبب حبها للترك، بل خشيتها أن يكون الشريف يريد البريطانيين.

أمّا بشأن التعصب الديني، فلم أجد سوى أثر طفيف. لقد رفض الشريف بعبارات صريحة إضفاء لمسة دينية على تمرده. فالقبائل تعي أن الأتراك مسلمون، وتعتقد أن الألمان أصدقاء حقيقيون للإسلام. فهم يعلمون أننا مسيحيون، وأننا أصدقاؤهم. وفي هذه الظروف، لن ينفعهم دينهم كثيراً، وقد وضعوه جانباً. إذا كان "المسيحي يقاتل المسيحي، فلماذا لا يفعل المسلمون الشيء نفسه؟ ما نبتغيه هو حكم ينطق بالعربية ويسمح لنا بالعيش بسلام. أمّا نحن، فنكره هؤلاء الأتراك أيضاً".

8. قوات الحجاز التركية وتعزيزها

26 تشرين الثاني/ نوفمبر 1916

في 9 حزيران/ يونيو 1916، كان ثمة جزء من كتيبة من الفوج 129 في المدينة المنورة، وحاكم العلا العسكري، ومفرزة اليمن من بعثة ستوتسينغن Stotzingen، وبعض القوات المنقولة بالقطارات، إضافة إلى رجال مدفعية حصن قلاع المدينة المنورة.

عندما وصلت أنباء الثورة، أرسلت الحكومة التركية كتيبتين من الفوج 130 كانتا مرابطتين في طرطوس ستة أشهر من أجل حراسة جزيرة أرواد، وأجزاء من الفوجين 42 و55 من الفرقة 14 اللذين تم اعتراضهما في حلب وهما في طريقهما إلى القوقاز. كما تم إرسال بعض مفارز مدفعية وفنية. وتمت إعادة

تشكيل الوحدات دون القوة المطلوبة من مفرزة اليمن التي على ما يبدو تم تفكيكها بالكامل في هذه العملية.

أُطلق على هذه القوة قوة حملة الحجاز بقيادة جمال باشا العليا. ويتولّى فخري باشا القيادة في المدينة المنورة، وبصري باشا في قطاع العلا. ففخري تركي من المدرسة ما قبل الألمانية، ولديه خبرة إدارية طويلة. وكان منفِّذ مجزرة أضنة عام 1909 والشؤون الأخيرة في زيتون وهجين. أمّا بصري، فكان حاكم المدينة المنورة العسكري التركي، ومسؤولاً محبوباً.

يبدو التشكيل الحالي للقوة وتوزيعها على النحو الآتي تقريباً:

المدينة المنورة

الضابط القائد، عبد الرحمن بك.

الكتيبة الرابعة من الفوج 131. وحدة درك من إقليم حلب قوامها قرابة ستمئة تركي.

الكتيبة الأولى من الفوج 129. كتيبة رمزية من مفارز الفوج واحتياطيه قوامها قرابة سبعمئة. ربما 80% منهم من الأتراك.

فوج الهجانة. قوامه قرابة خمسمئة تركي يقومون بدوريات في بئر درويش.

سرية الرشاشات رقم 79. مزوّدة بأربعة رشاشات. يتم التنقل فيها على البغال (منظومة). الأفراد: على الأغلب من العرب جزئياً.

مدفعية الحصون. أتراك. قلاع حجرية شتّى مزودة بمدافع ميدان. وثلاث سريّات مهندسين.

وهم أتراك منقولون من فرق المهندسين 47 و48 و49 على التوالي.

قضاء بئر درويش

الضابط القائد، غالب بك.

الكتائب الأولى والثانية والثالثة من الفوج 5. معظمها من الأتراك. ربما قوام الكتائب ثمانمئة رجل.

الكتائب الثانية والثالثة من الفوج 42. معظمها من الأتراك. وربما قوامها ثمانمئة إلى تسعمئة رجل.

الكتيبة الثالثة من الفوج 13. غالبية كتيبة نقل الجمال من العرب.

سرّيتا مشاة عسكرية محمولة على البغال، من الأتراك.

فوج الهجانة. مهمته الدوريات في بئر الروحاء.

بطارية مدفعية واحدة، مدفعية الهجانة الجبلية. فوج المدفعية 22.

بطاريات مدفعية الميدان؟

قطاع الطائرات. ثلاث طائرات، اثنتان منها على الأرجح خارج الخدمة. وقد تأتي الطائرة الرابعة.

قضاء بئر الروحاء

الضابط القائد، أمين بك.

الكتائب الأولى والثانية من الفوج 130. قوامها قرابة سبعمئة، وتحتوي كل منها على قرابة 30% من العرب.
فرقة الهجانة. قوامها ثلاثمئة رجل من عرب شمّر.
سرية استخبارات عسكرية محمولة على البغال.
ثلاثة مدافع جبلية.
مدفعان ميدانيان.
قطاع اللاسلكي. جهاز على ثلاث عربات. يتم مدّ الأسلاك منها إلى عمود يبلغ ارتفاعه 25 قدماً، وعلى بعد مئة ياردة.

خطوط وحدات الاتصال

سكة الحديد
فوج حراسة العلا. قوامه ثمانمئة رجل.
فوج الهجّانة. H. W. Bueir مزوداً بسرية ومدفعين. سرية في أبو النعم وأخرى في بواط (مدفعان).
العلا
كتيبة واحدة من الأتراك. ربما الكتيبة الأولى المفقودة من الفوج 42 هي هجّانة عُقيل من العرب.
الوجه
كتيبة واحدة من الدّرَك. قوامها ثمانمئة من الأتراك وهجّانة عُقيل من العرب.
قد تكون الأرقام الإجمالية على النحو الآتي:

	راجل	خيّال
الوجه	800	400
العلا	800	300
سكة الحديد	900	600
بئر راحة	2000	400
بئر درويش	4500	700
المدينة المنورة	1300	600
	10300	**3000**

كان ثمة قرابة ألفي جمل بين المدينة المنورة وبئر درويش، وسُمح للكتيبتين في بئر عباس بـ130 جملاً لكل منهما من أجل الحصول على الغذاء والماء والذخيرة ونقل الأمتعة. كانت المياه عنصراً قليلاً جداً، إذ كانت هناك إمدادات محلية، والرجال يحصلون على مَطْرة يومياً فقط.

التعزيز المستطاع

من المحتمل أن تكون الآراء التركية والألمانية بشأن أهمية عمليات الحجاز متباينة. فيرى الأتراك أن سمعتهم القومية، التي عززتها نجاحاتهم الأولية التي حققوها علينا، معرضة للخطر بسبب استمرارية الشريف. وقد يعتقد الألمان أن الدفاع عن معان أسهل من المدينة المنورة. وقد تكون المبالغة في تقدير النفوذ الألماني في مجلس الحرب التركي محفوفة بالمخاطر. فمن الصعب توجيه المسؤول التركي أو قيادته، شأنه شأن أي شخص على وجه البسيطة. ولدى مستشاريه الألمان، بلا شك، كثير من الثورات والعقبات في طريقهم.

أمّا العامل الناظم الآخر، فلا بدّ أن يكمن في القدرة الاستيعابية لسكة حديد الحجاز. فهذه نقطة عويصة تقتضي معالجة شاملة ومواد كاملة غير متوافرة بعد.

يتكون الجيش التركي اليوم من اثنين وأربعين فرقة، وقوة المدينة المنورة. تبلغ القوة الورقية للفرقة ألفي بندقية، ونادراً ما تتجاوز القوة الفعلية لبنادق الفرقة الأصلية تسعة آلاف. وقد يتراوح تسليح الفرقة المشاركة في عمل عسكري من ثلاثة آلاف بندقية صعوداً. فضعف احتياطيّ تركيا يمنعها من تعويض خسائرها. يبدو أن قوة جيوشها الإجمالية بالبنادق اليوم أقل من 350 ألفاً، ومستودعاتها خاوية تقريباً. لقد تحولت إلى نشر تقارير تفيد بأنها وجدت عدد سكانها أكبر مما توقعته، وفي النتيجة، إن احتياطات كبيرة من اليد العاملة متاحة عندما تأتي اللحظة الحاسمة. لسوء الحظ، انتزع كثير من قوة هذا الاكتشاف الجديد عبر تخفيضها المتزامن لاثنتي عشرة فرقة (كان قوامها 114 كتيبة من ثمانمئة رجل لكل منها في 1915) إلى اثني عشر فوجاً يتألف كلّ منه من ثلاث كتائب قوامها ثمانمئة إلى ألف رجل.

أمّا انتشار الجيش التركي الآن، فهو على النحو الآتي: ثماني عشرة فرقة ضد الروس في أرمينيا، وخمس في بلاد الرافدين وبلاد فارس، وست في سوريا، وثلاث في جنوب الجزيرة العربية، وواحدة في إزمير، وتسع في أوروبا. أمّا تلك الموجودة في أوروبا، فاعتادت التمركز في تراقيا وتشكيل جيش احتياطي، إلى أن أجبرت متطلبات حلفائها الأتراك على تشتيت واحدة إلى بلغاريا، واثنتين إلى غاليسيا، واثنتين أو ثلاث إلى دبروجة؛ بات لديهم اليوم واحدة فقط

في القسطنطينية وثلاث أو اثنتان في الدردنيل للإفادة منها في المزيد من الجهود العسكرية.

إذا كان لدى تركيا احتياطي إستراتيجي اليوم، قد يبدو أنه في الجيش السوري، وهو المجموعة الكبيرة الوحيدة من القوات التي ليست على اتصال فعلي مع العدو. من المرجح أيضاً أن يُرسل الجيش السوري، كونه بقيادة جمال باشا، تعزيزات إلى الحجاز. وعليه، إن لوضعه أهمية مباشرة في عمليات الحجاز.

يمتد القطاع العسكري للجيش (السوري) الرابع من طوروس إلى المدينة المنورة، والفرق المكونة له هي: 3 و23 و27 و41 و43 و44. وتم تقسيم سوريا إلى مناطق فاصلة، وجعل كلّ قائد مسؤولاً عن جزء من الساحل.

أمّا في القطاعات الشمالية، فكانت القوات أكثف. فمن مرسين إلى حلب، تُعدّ سوريا طريق المواصلات بالنسبة إلى جيش القوقاز الجنوبي، وبلاد الرافدين، وبلاد فارس، إضافةً إلى سيناء والجزيرة العربية. وتمتد سكة الحديد التي تعتمد عليها هذه الجبهات بالقرب من البحر، وتجعل عوامل التضاريس الهجوم عليها سهلاً. ونتيجة لذلك تقوم الفرقة 23 (المؤلفة من فوجين، ربما قوامهما خمسة آلاف رجل إجمالاً، ومن الأتراك بصورة رئيسية) بمهمة الحراسة من مرسين إلى أضنة بمؤازرة قوامها الرئيس في طرسوس. أمّا الفرقة 44 (بكامل جهوزيّتها، وربما قوامها تسعة آلاف رجل، ويُشكّل الأتراك 90% منها) ومقرّها في مدينة أرزين، فتتسلّم المهمة منها بمحيط رأس خليج الإسكندرون تقريباً وصولاً إلى حلب. فالإسكندرون نفسه، وحلب، والجزء الرئيسي من سوريا، وصولاً إلى فتحة طرابلس–حمص، تقع في أرجاء الفرقة 41 (ربما قوامها ثمانية آلاف رجل، ويُشكّل الأتراك 70% منها) التي تتمركز قوتها الرئيسية في منطقة بيلان. وإلى الجنوب من الفرقة 41، ترابط الفرقة 43 مع فوج مستقل (67) في لبنان، والموكلة مهمة تغطية دمشق، لكننا لا نعرف عنها سوى القليل لدرجة أننا نشك في جهوزيّتها. فمن المحتمل أن تكون الفرقة تركية على نحو رئيسي، لكنّ قوام الفوج 67 من العرب إلى حد كبير. في النتيجة، يوجد في حوران احتياطي من القوات بعضها كتائب مشاة، وبعضها من قوات السّخرة، أرسلت بلا شك من أجل ترويع الدروز، ولتبسيط مشكلة إطعامهم أيضاً. ولا بدّ أن قوامها أربعة أو خمسة آلاف. أمّا الفرقة 27 (قوامها ثمانية آلاف، بما فيها كثير من العرب)، فكانت في قضاء حيفا، تتحرك جنوباً، على ما يبدو، لإحياء الفرقة الثالثة (قوامها ستة آلاف، من الأتراك جميعهم) في سيناء. وكانت الفرقة 27 حامية سيناء، ثم أفسحت المجال للفرقة الثالثة التي فقدت نحو 50% من عناصرها المؤثرة في قطية، من أجل خضوعها للدعم والإصلاح بمحيط قضاء الناصرة الخصب والهادئ.

لذلك، يُعدّ مصطلح "الاحتياطي الإستراتيجي"، المطبق مبدئياً على الجيش التركيِ في سوريا وحده، وهماً إلى حد ما، لأن الحامية السورية تؤدّي دِوراً

أساسياَ إمّا في الدفاع عن خط المواصلات الرئيسي (ثلاث فرق) من أجل السيطرة على السكان المتذمّرين (فرقة واحدة، وفوج واحد، والقوة المركبة في درعا)، وإمّا مقاومة جيش القناة البريطاني (فرقة في الميدان وأخرى احتياطية).

لا يمكن الاستغناء عن الفرقتين 27 و3 – بالنسبة إلى الأتراك – ولا يكاد يمكنهما تحمل إرسال مجندين كثر إلى المدينة المنورة. فرغم ضعف الرابط السككيّ مع دمشق، وفي الوقت الذي تحتاج فيه الحجاز إلى قطار يومي، قد يجعل تعزيزها بصورة كبيرة أمراً غير حكيم. فالقوة في لبنان ضرورية أيضاً، ولا بدّ لسياسة الشريف مع دروز حوران والعرب أن تُبقي قوة درعا مكانها. يعتمد الاحتفاظ بالفرق 23 و41 و44 في محيط خليج الإسكندرون على الرأي الذي خامر أركان الحرب التركية حول ضرورة حراسة هذه النقطة الأضعف على طريق مواصلاتها من القوقاز وبلاد الرافدين وسوريا بوصفها نقطة يؤدي إنزال الحلفاء فيها إلى تدمير الحملات الثلاث كلّها بضربة واحدة.

9. جيش الشريف فيصل

11 كانون الأول/ ديسمبر 1916

في نهاية تشرين الثاني/ نوفمبر، قرر فيصل تشكيل قوة مشاة نظامية على غرار ما اقترحه عزيز المصري على الشريف علي. كان من المقرر ألّا تتكون الكتائب من البدو، بل من فلاحيهم وفقرائهم وعبيدهم. وكان من المقرر تشكيلهم في ثماني كتائب قوام كلّ منها ستمئة رجل. وبحلول 28 تشرين الثاني/ نوفمبر، كان كثير منها قد تجاوز قوام أربعمئة رجل سلفاً. أمّا التنظيم الداخلي، فيتكون من عشرين رجلاً بقيادة واحد من قبيلة بني الريس، وخمسة من قبيلة بني الريس (مئة رجل) بقيادة كلّ "شريف". وعشرة "أشراف" لكلّ كتيبة.

أمّا الكتائب التي أسهمت، فهي على النحو الآتي:

1. هذيل (مكة)
2. ابن شفيع (جهينة)
3. رفاعة (جهينة)
4. ولد سالم (حرب)
5. البيشاويّون (عسيريين من وادي بيشة)
6. الأشراف (جهينة)
7. ولد محمد (حرب)
8. مرتّبات من عُقيل وآخرين.

10. يوميات رحلة ثانية

26 كانون الأول/ ديسمبر 1916

غادرنا ينبع السبت الموافق 2 كانون الأول/ ديسمبر قرابة 4.30 عصراً بصحبة عبد الكريم والشريف وأمير قبيلة جهينة، الشقيق الأصغر لمحمد علي البيداوي. إنه ابن امرأة زنجية داكنة جداً، تبلغ ستة وعشرين عاماً. من الواضح أنها نصف أفريقية لكنها تنبض بالحياة ونشطة وتتحلى بروح دعابة بذيئة بقدر ما هي عفوية. إنه فارس هائل يقطع الرحلات على الجمال بثلاثة أضعاف السرعة العادية، ومناهض للترك بشدة. كان يرافقه ثلاثة رجال أو أربعة، وقضينا رحلة سريعة ومرحة للغاية. تابعنا الرحلة ركوباً فوق السهل مباشرة حتى 7.30 مساءً. عندئذ توقفنا حتى التاسعة مساءً لتناول القليل من الخبز وشرب القهوة، بينما كان عبد الكريم ورجاله يهازلون بعضهم بعضاً في موقع الجد ويتبادلون المقالب. فكان كل شيء تلقائياً جداً، ودمثاً للغاية، لكنّه لم يكن رصيناً إطلاقاً.

بعد انطلاقنا من جديد، أوصلتنا رحلة مدتها ساعة إلى نهاية سلسلة منخفضة من التلال (الصخور والرمال) التي تقطع السهل الذي تقع فيه ينبع من وادي ينبع. ويمر طريق بئر سعيد جنوب هذا السلسلة بمحاذاة تهامة. فتحول طريقنا الحالي إلى وادي العقدة، وهو وادٍ رملي متعرج ضيق بين التلال. ولقد غمرته المياه أخيراً. في النتيجة، كان السير جيداً. أعتقد أنه حتى في الأوقات العادية قد تتخطى السيارة ذلك. وفي تمام الحادية ظهراً، وصلنا مستجمع المياه الواقع على الطرف الأيسر من الطريق بجانب خزان قديم يُطلق عليه "سبيل" فقط. ثم انطلقنا إلى قرية نخل مبارك التي بلغناها في 11.30 مساءً.

عندما اقتربنا، رأينا لهيب كثير من الحرائق ودخانها من خلال أشجار النخيل، وكان الوادي كلّه مليئاً بالصراخ وصوت طلقات البنادق ورغاء الجمال. عبرنا تخماً من البساتين وصعدنا شارعاً ضيقاً، ودفعنا باب البيت المهجور الأول الذي وصلنا إليه، وأدخلنا جمالنا لإخفائها، بينما خرج عبد الكريم بهدوء إلى الشارع متجهاً نحو الضوضاء من أجل تبيّن ما كان يحدث. ثم عاد بعد نصف ساعة ليقول إن فيصل قد وصل للتو القرية قادماً من بلدة السويق مصحوباً بهجّانته، وبوجوب ذهابي لرؤيته فوراً. لذلك، أخرجنا الجمال وامتطيناها مرة أخرى، وعبرنا الممر الضيق بين البيوت وجدار حديقة غائرة على اليمين، واخترقنا حشداً كبيراً من العرب والجمال، الأمر الذي أدّى إلى اختلاط الحابل بالنابل. فجُنّ جنونهم كلّهم.

في نهاية الممر الضيق، وصلنا فجأة إلى سرير وادي ينبع حيث يجري بين بساتين النخيل في قرية نخل مبارك وقرية بروقة من جهة، وتلال وادي

الصفراء من جهة أخرى. كانت فسحة واسعة ورطبة جداً، لأن المياه غمرتها للتو. يوجد فيها القليل من أشجار الطرفاء والأشواك لكنّها الآن مليئة بجيش فيصل من جانب إلى آخر. وثمة مئات من نيران مجموعات الحراسة مشتعلة، والعرب حولها يعدّون القهوة، أو يأكلون، أو ينامون فحسب، ما استطاعوا إليه سبيلاً وسط هرج الجمال ومرجها. لم أرَ قط هذا العدد الكبير من المنهمكين أو المضطجعين هنا وهناك في أرجاء موقع المعسكر كلّها. كان يُتوقّع قدوم المزيد، إذ كان كبار السن يقفزون فرحاً للانضمام إليهم. وكان يتم تسيير الدوريات، وإفراغ القوافل، كما كان هناك عشرات البغال المصرية تقفز بظهورها إلى الأعلى وسط المشهد.

شققنا طريقنا وسط هذا الضجيج كلّه، وأنَخْنا جمالنا أمام الشريف فيصل الذي كان جالساً على سجادة في سرير الوادي يقرأ التقارير ويكتب الأوامر في ضوء المصباح. كان الليل ساكناً تماماً. وكان بصحبته شريف الأشراف، قائمقام إمارة مكة والطائف، والرجل الثاني في القيادة، ومولود بن مخلص، أحد مساعديه العسكريين في الموصل. لقد استقبلني بحفاوة، واعتذر عن سوء الإقامة، التي لم تتحسن بعد دقيقة واحدة، عندما انفكّت بالات التبن العائدة لجمل نقل أمتعة خلف رأس فيصل، وغمرنا والشريف والمصباح سيل من التبن بصورة مؤقتة. فجالسته واستمعت للأخبار والالتماسات والشكاوى والصعوبات التي يتم إحضارها وتسويتها أمامه. كان الموقف أن الأتراك، بعد إخلاء زيد من وادي الصفراء، تقدموا بسرعة كبيرة نحو الواسطة وبئر سعيد. وكانوا يهددون بالزحف بسرعة على ينبع أو نخل مبارك، إمّا للقضاء على فيصل وإمّا لعزل قواعده البحرية. وأخذ نظام تجسس فيصل بالانهيار، وكانت معظم التقارير المتناقضة وغير النزيهة الآتية من كلّ حدب وصوب تتحدث عن قوة الأتراك وتحركاتهم. وفي غياب الأخبار، انتقل فجأة إلى هذا المكان مصحوباً بقرابة ألفي رجل من الهجّانة وألفين من المشاة لحراسة طرق ينبع، وقد دخل المنطقة قبل ساعة من وصولي.

جلسنا على البساط نتبادل أطراف الحديث حتى 4.30 صباحاً. وبات الجو بارداً للغاية، وارتفعت رطوبة الوادي عبر السجادة ونفذت إلى عباءاتنا. وتشكّل ضباب أبيض ببطء فوق المعسكر بأكمله، إذ أصبح هادئاً بصورة تدريجية مع خلود الرجال والجمال للنوم وانطفاء النيران. فإلى شمالنا مباشرة، ظهر الطرف الشرقي لجبل رضوى الذي يبدو أكثر انحداراً ووعورة عن قرب مما هو عليه من البحر، من بين الضباب واضحاً تماماً تحت ضوء القمر. وفي نحو 4.30، قرر فيصل وجوب خلودنا إلى النوم. فأكلنا نصف دزينة من التمور، وتمددنا على البساط الرطب نفسه الذي كنا نجلس عليه. فما إن خلد إلى النوم، حتى أتى رجال البيشة وفرشوا عباءاتهم عليه.

استيقظنا في 5.30 (كان الجو بارداً جداً لفعل أي شيء آخر)، وأضرمنا النار بأغصان النخيل لتدفئة أنفسنا. كان الرسل لا يزالون يتوافدون من الجهاتِ

كلّها، ولم يكن المعسكر بمنأى من الذعر. فقرر فيصل التحرك بعد ذلك جزئياً لتجنب احتمال الاجتراف بفعل الأمطار الآتية، وجزئياً لشغل عقول رجاله. وعليه، بدأ الجميع الامتطاء فوراً، وانطلقوا يمنةً وشمالاً تاركين طريقاً لفيصل للركوب. فجاء على صهوة جواد وشريف الأشراف على بُعد خبب خلفه. ثم جاء حامل لوائه (عربي هائج رائع مع جدائل شَعْر منمّقة كثيرة) على جمل، متبوعاً بحشد الأشراف والشيوخ وعبيد البيوت كلّهم – وشخصي – بطريقة متهورة. كان هناك قرابة ثمانمئة مرافق شخصي في ذلك الصباح.

تجوَّل صعوداً ونزولاً باحثاً عن موقع للمعسكر. وتوقف أخيراً على الضفة الأخرى لوادٍ جانبي صغير (الطريق إلى ينبع يمتد إلى وادي ينبع من الغرب، شمال قرية نخل مبارك فحسب. أمّا على الضفة الجنوبية لهذا الوادي الذي جعلتُ سريره مهبطاً، فكان ثمة سفح مرتفع، تدعمه بعض الروابي الصخرية الصغيرة، إذ نصب فيصل معسكره تحتها). كان هناك قرابة عَشْر خيام للمقرات، وكان للمصريين خيامهم أيضاً. وعليه، سرعان ما بدا المكان كأنه خلية نحل.

مكثنا هنا يومين قضيت معظمهما في خيمة فيصل. وهكذا اكتسبت خبرة معينة في أسلوبه في القيادة. كانت الظروف صعبة للغاية، ومن الواضح أن معنويات رجاله تعاني بشدة جراء التقارير المرعبة الواردة، وانشقاق قبيلة حرب الشمالية. فكان فيصل يقاتل طوال هذين اليومين لرفع معنوياتهم. ويمكن لأي رجل واقف خارج خيمته مراجعته بمجرد إخطاره. ولا يُقاطع ملتمساً أثناء الحديث إطلاقاً. وهو يسمع كل قضية، وإذا لم يحلها بنفسه، يستدعي أحد موظفيه لتسويتها له. وكان صبره شديداً، وضبط نفسه رائعاً إلى حد ما. فعندما دخل رجال زيد من أجل شرح القصة المخزية حقاً لمباغتتهم وانسحابهم، سخر منهم بلطف، واستهزأ بهم، ومازحهم لأنهم فعلوا هذا أو ذاك، ولتكبّدهم مثل هذه الخسائر أو لمعاناتهم كثيراً. ولديه صوت صادح قوي جداً، ويستخدمه بعناية في إلقاء الخطب على مسمع رجاله. وهذا ما يفعله بأوسع اللهجات البدوية. وسمعته يتحدث إلى شيوخ قبيلة رفاعة، عندما أرسلهم للاعتصام في السهل في هذا الجانب من بئر الفقير. فأبلغهم بهدوء بأن الأتراك قادمون، وعليهم صدّهم ونصرة الله، مضيفاً أنه يأمل ألّا يخلدوا إلى النوم. فكان الرجال الأكبر سناً متحمسين بصورة خاصة، وبعد أن قالوا إن الله سينعم عليه بالنصر، ثم بنصرين، قضوا بوجوب إطالة حياته كي يتمكن من تحقيق عدد غير مسبوق من الانتصارات.

على العموم، كنت أعتقد بأن معنويات المشاة جيدة إلى حد ما، ومعنويات قبيلة جهينة مهزوزة؛ لم يكن أي من الطرفين مبتهجاً للغاية مثل قبيلة حرب. وكانت جهينة في الحمراء في الشهر السابق.

في ما بعد الظهر، تجولت في محيط نخل مبارك وبروقة، وهما قريتان طينيتان صغيرتان وادعتان، وشوارعهما ضيقتان للغاية، ومبنيتان على تلال

ترابية عالية تحيط بحدائق النخيل. تقع نخل في الشمال، وبروقة على بُعد 150 ياردة جنوبها عبر وادٍ شائك. أعتقد أن لدى كل منها نحو ثلاثمئة إلى ستمئة بيت لكن الفصل في هذا الأمر صعب للغاية. يبلغ ارتفاع التلال الترابية حول القريتين خمسين قدماً في بعض الأماكن، وتتشكّل من الأتربة المحفورة من الحدائق التي تقسمها أسيجة من سعف النخيل أو جدران من الطين إلى قطع أرض ضيقة يرويها جدولان أو ثلاثة ضيقة تجري فيها المياه العذبة. ويُعدّ النخيل، الذي يزرع بانتظام ويجري الاعتناء به جيداً، المحصول الرئيسي. لكن يُزرع الشعير والفجل والكوسا والخيار والحِنّاء بين جذوع الشجر. أمّا العنب، فيتوافر في القرى الواقعة في الجزء العلوي من وادي ينبع.

كانت المناظر من الروابي الصغيرة الواقعة خلف معسكرنا رائعة جداً. وجبل رضوى يتجه شمالاً، أو الطرف الجنوبي الشرقي منه، بمقدار عشرين درجة. ويبدو أنه كان على بعد نحو خمسة عشر ميلاً. وجزء منه أو آخر مغطّى بسحب ماطرة طوال الوقت الذي كنت فيه هناك. وشكل الجزء اللافت للنظر في كل منظر. فوادي ينبع نفسه سهلٌ عريض تكسوه الأشجار، وتتخلّله صخور غريبة الألوان والشكل تبرز من سريره من وقت إلى آخر. يبدو أن عرضه يبلغ قرابة ميلين، ويمتد أربعين درجة من الشمال إلى مفترق الطرق حيث ينصرف رافد البقاع عن النهر الرئيسي. وقرية البقاع نصفها لقبيلة حرب ونصفها الآخر لجهينة. أمّا قرى النجيل ومدسوس وعين علي وشعثا، فتابعة لقبيلة حرب بالكامل. يبدو أن بقية الوادي تابع لجهينة. وبئر سعيد تابع لقبيلة حرب، والحفيرة لجهينة. وتقع القرى الموجودة في السرير الرئيسي لوادي ينبع كلّها على جانبه الشمالي. ويتدفق الماء من الينابيع إلى القرى في قنوات صغيرة تحت الأرض مبطنة بالحجارة.

بعد مفترق الوادي، كان من الواضح أن الريف أخذ بالارتفاع بسرعة وبات كثير التلال. فالمنطقة الواقعة خلف بواط مرتفعة للغاية. وتقع بواط نفسها على مستجمع المياه في وادي ينبع ووادي الحمض، وتبعد قرابة اثني عشر ميلاً غرب محطة بواط.

يقع وادٍ طويل عميق بين بروقة وبئر سعيد. وثمة مستجمع مياه غير ملحوظ في مكان ما وسطه، في بئر الفقير، وهو بئر محاط ببساتين الأكاسيا والطرفاء الكثيفة. فعلى يسار هذا السهل أو الوادي، توجد سلسلة التلال الضخمة المتاخمة للحافة الغربية من وادي الصفراء. أمّا على اليمين، فيقع جبل الفجيج. وباتجاه بئر سعيد ثمة كثبان رملية مرتفعة قليلاً.

في البداية، يمتد وادي ينبع نفسه شمالاً ثم غرب الفجيج، إلى قرية الملحة والبحر بالقرب من مساحلي. لم يبقَ فيه ماء عذب إطلاقاً، بدءاً من نخل مبارك وانتهاءً بالحفر المائية الضحلة في مساحلي. وتتكون ضفته اليمنى من سلسلة من التلال المنخفضة التي يتدفق منها وادي العقدة.

بعد الانتهاء من المهبط، قررت العودة إلى ينبع فوراً لإرشاد الطائرات الموجودة على الأرض بوجوب استطلاعه. وعليه، غادرت في 9.15 مساءً في 4 كانون الأول/ ديسمبر خيمة فيصل على جمله الذي أتيت عليه أيضاً. لقد دفع ثلاثين جنيهاً إسترلينياً لقاء ذلك، إذ كان دابّة رائعة. وبسبب الخوف من الدوريات التركية، غادرنا طريق العقدة، وسرنا عبر رؤوس روافده من الشمال عبر طريق معبّد جيد للغاية ومريح إلى وادي مصادر، الأمر الذي قادنا إلى السهل البحري في الزويد، وهي منطقة مزروعة على ما يبدو. رافقني بدر بن شفيع، ولم نتوقف في أي مكان. فبعد ثلاث ليالٍ ساهرة، إضافةً إلى تحذيرات وجولات مستمرة خلال تلك الأيام، وصلنا ينبع 3.30 صباحاً منهكَيْن.

11. بداية ثورة الحجاز

26 كانون الأول/ ديسمبر 1916

كان وصف سيدي فيصل لبداية الانتفاضة العربية، كما تم تداولها في محادثة مع النقيب توماس إدوارد لورانس في كانون الأول/ ديسمبر 1916، مقتضباً على النحو الآتي:

عندما تصوّر شقيقه عبد الله الأمر لأول مرة، كان يعتقد أن الحجاز قادر على مواجهة تركيا بمساعدة الجيشين السوري وبلاد الرافدين، وبمساعدتنا الدبلوماسية. ولكن تم تأجيل المخطط بسبب تصوّر فيصل أن تركيا قوية جداً بالنسبة إليهم. وعندما اندلعت الحرب الكبرى، قضى الشريف حسين بأن هذه فرصته. فأرسل فيصل إلى دمشق لتهيئة الظروف لانتفاضة في سوريا. وجد الأخير أن التوقيت غير مناسب، وأبلغ والده أن مزيداً من التأخير ضروري. قال عبد الله لوالده إن فيصل خائف، وصدر أمر بالثورة في حزيران/ يونيو. كان الشريف يضبط البدو بضعة أشهر ويطلب منهم تجنب التحرك إلى أن يأمرهم بذلك.

12. الزحف العربي على الوجه

6 شباط/ فبراير 1917

عندما وصل المسعى في منطقة المدينة المنورة–الحمراء إلى طريق مسدود في تشرين الأول/ أكتوبر 1916، طرحت الفكرة الجديدة للهجوم على العمق التركي في العلا عن طريق الوجه. وتمثّل الوضع في الجنوب في تشبّث

الأتراك في المدينة المنورة بشدة تحسباً لشن هجوم مباشر من القوات العربية، وسيطرة فيصل على تلال الخَيْف–الملاف بقوة تحسباً لشن هجوم مباشر من القوات التركية. أمّا في مؤخرة القوات، وشبه حصاره في رابغ، فكان رهان سيدي علي على جيشه صفقة غير رابحة.

قرر فيصل خوض الحملة الشمالية إلى الوجه، وفعل ذلك بنفسه. فأتى بسيدي زيد إلى وادي الصفراء، ونقل إليه قوات قبيلة حرب وقبيلة جهينة الجنوبية كلها. ثم انسحب إلى وادي ينبع لإعداد قوة من قبيلة جهينة الشمالية من أجل الزحف على الوجه.

بينما كان في وادي ينبع في أوائل كانون الأول/ ديسمبر، حدث ما لم يكن متوقعاً. بات العرب بقيادة سيدي زيد متقاعسين، وتركوا طريقاً فرعياً بالقرب من الخالص دون حراسة. فتوغلت دورية مشاة تركية محمولة على طوله وصولاً إلى وادي الصفراء بالقرب من الخَيْف. ولدى سماع العرب في الخطوط الأمامية نبأ توغل هذا العدو ستة أميال في مؤخرة قواتهم، هبّوا لنجدة عائلاتهم وممتلكاتهم في القرى المعرضة للخطر. وحذت قوة زيد الرئيسية حذوهم. أمّا زيد نفسه، فولّى الأدبار إلى ينبع بسرعة جهنمية. فاحتل الأتراك المذهولون الحمراء وبئر سعيد دون مقاومة.

جعل هذا الوضع تقدّم فيصل شمالاً مستحيلاً. فانتقل إلى نخل مبارك مصحوباً بقواته وبقايا جيش زيد التي ما زالت ترتعد فرائصها. وبعد أيام قليلة من الحماسة، خاض معركة طويلة الأجل ضد استطلاع تركي قوي. في هذا الصدد، وجد قواته معدومة في نواحٍ كثيرة: صمد وسطه وميمنته وصدّوا العدو. أمّا الميسرة (جهينة)، فانكفأت خلف وسطه فجأة دون ضغط معادٍ. وكان يتوجّس من الخيانة، وأمر بالانسحاب العام في ينبع، مصدر المياه اللاحق. رفضت الميسرة المتقهقرة الانسحاب، وأبدت مقاومة شرسة مستقلة ضد الأتراك أربعاً وعشرين ساعة أخرى. ثم عاودت الانضمام إلى فيصل في ينبع. وأوضحت أن الانسحاب أثناء المعركة كان لإيجاد فرصة لإعداد فنجان قهوة دون إزعاج.

بعثت هذه الأحداث روح الحياة في جيش سيدي علي في رابغ، إذ بدأ بتقدم مفاجئ من جانبه نحو بئر ابن حصاني، رغم مناشدات فيصل بضرورة الانتظار إلى أن يصبح في وضع يسمح له بدعمه بقوة من ينبع. واستمر علي في حراكه. وفي النهاية، جمع فيصل ما استطاع إليه من الرجال، وقصد نخل مبارك مرة أخرى على جناح السرعة. وكان يستعد لتوجيه ضربة إلى الخَيْف والحمراء تتزامن مع وصول علي إلى بئر ابن حصاني عندما وردته أنباء تفيد انسحاب قوات علي ستين ميلاً لدى سماعها تقريراً (كاذباً) عن انشقاق قبيلة صبح. في النتيجة، انسحب مجدداً إلى نخل مبارك وهو في حالة غضب شديد للغاية.

لم يبدُ الزحف على الوجه الآن مجرد وسيلة مقنعة لضمان حصار المدينة المنورة، ولكنه أصبح ضرورة ملحة لمنع زحف تركي على مكة المكرمة. وصل العقيد ويلسون ينبع، وفرض المسألة على الشريف فيصل الذي وافق عليها تماماً. لكنه أشار إلى أن قوة رابغ أثبتت عقمها، والأتراك في الحمراء كانوا منفتحين على الهجوم على رابغ أو ينبع كما يحلو لهم. أمّا الآن، بعد أن فقد زيد مصداقيته، وأظهر علي ضلعاً قاصراً، لم يستطع المخاطرة بمغادرة المنطقة بنفسه. ففي هذه الظروف، أعطى العقيد ويلسون فيصل ضمانه الشخصي بأن حامية رابغ (بمساعدة البحرية البريطانية) ستكون قادرة على صد أي هجوم تركي إلى أن يحتل فيصل الوجه. ولم تكن ثمة وسيلة لإعطاء المنعة لهذا الضمان، لكنه بدا مخاطرة معقولة وضرورية، لأنّه لم يكن في مقدور فيصل التحرك شمالاً من دونه. وعزز العقيد ويلسون موقفه بعد بضعة أيام بإرسال أوامر مباشرة من شريف مكة المكرمة إلى فيصل للتوجّه إلى الوجه من فوره.

أمّا العامل العربي الآخر بين أيدينا، فتمثّل في الشريف عبد الله الذي يتمتع بسمعة لا تشوبها شائبة وقوة لوجوده في شمال شرق المدينة المنورة، وهي منطقة ذات أهمية عسكرية ثانوية للغاية. وأشار فيصل إلى مدى فعالية عبد الله إذا نقل إلى وادي العيص، وهو حصن طبيعي على بُعد مئة كيلومتر عن المدينة المنورة على خط سكة الحديد. ففي ذلك المكان، سيتخطّى خطوط مواصلات المدينة المنورة، ولن يكون هناك تقدم تركي نحو مكة المكرمة أو ينبع أو حتى رابغ إلى أن يتم خلعه، وسيتعين سحب القوات من الغاير والحمراء لإزاحته، لأن دفعة سيناء المتزامنة للحملة العسكرية المصرية استبعدت التعزيزات من الشمال. فاقتنع فيصل بالفكرة، وأرسل الشيخ رجا بن خلوي لتسليم المخطط لعبد الله فوراً.

مع ذلك، نظراً إلى الوضع في رابغ، بدا للعقيد ويلسون وجوب زحف فيصل على الوجه في أقرب وقت ممكن. لذلك، تم إعداد التحضيرات للبدء بالعملية قبل وصول الرد من عبد الله. فكان فيصل متوتراً جداً خلال هذه المدة. كانت العملية تتضمن التفافاً على الخاصرة بطول مئتي ميل تقريباً بالتوازي مع الاتصالات التركية، من قبل قوة مقاتلة ضعيفة تاركةً قاعدتها (ينبع) غير محمية تماماً، ومخليةً موقعها الدفاعي الوحيد المحتمل (وادي ينبع) في مواجهة قوة معادية في وادي الصفراء تعادل قوتها قوة فرقة عسكرية تقريباً، ولا تبعد سوى ثلاثين ميلاً عبر ريفٍ سهلٍ. فلم تكن المناورة واردة إطلاقاً إلا بالتحكّم المطلق في البحر والتعاون الدؤوب في نقل الذخيرة والمؤن التي قدمها إلى فيصل ضابط بحري كبير من مرتبات دورية البحر الأحمر. يبدو أن الوضع في ينبع غير آمن لدرجة تم فيها إفراغ ما تيسّر من البنادق والذخيرة كلّها من مخازن المدينة قبل مغادرتنا.

لحسن الحظ، وافق الشريف عبد الله على مخطط وادي العيص، وقال إنه سيصل هناك في 11 كانون الثاني/ يناير. وعليه، حدد فيصل يوم 20 كانون الثاني/ يناير موعداً مؤقتاً لهجومه على الوجه. في الواقع، لم يتمكن عبد الله من بلوغ وادي العيص حتى 17 كانون الثاني/ يناير. ولم يصل فيصل إلى الوجه حتى 25 كانون الثاني/ يناير.

فلاحتلال الوجه أهمية كبيرة، لأنّه يعني إطالة أمد الجبهة العربية على طول سكة حديد الحجاز بأكثر من مئتي ميل، والانضمام إلى قضية الشريف بشأن قبيلة بلي، ثم قبيلتي بني عطية والحويطات لاحقاً. وتكمن قيمتها العسكرية المباشرة في أنها القاعدة الوحيدة الممكنة للعمليات ضد العلا، بوصفها نقطة حيوية للمواصلات السككية بين سوريا والمدينة المنورة، وقاعدة مستقبلية.

أتاح احتلال الشريف عبد الله وادي العِيص تحرك فيصل شمالاً إلى الوجه. وتم ضمان احتلال عبد الله بصورة غير مباشرو عبر العمليات في العريش ورفح.

13. جيش الأشراف الشمالي

6 شباط/ فبراير 1916

ابتعد فيصل عن العويص (ستة عشر ميلاً شمال ينبع) باتجاه الوجه مصحوباً بالقوة الآتية:

وحدة متطوعي قبيلة جهينة

الوحدة العسكرية	خيّالة	مشاة	الضابط القائد
أشراف	276	296	الشريف محمد علي أبو شريان
قوفه	690	854	الشريف عبد الكريم
عروة	244	298	الشريف جابر العياشي، جريبة بن ربيعة، المعزي
الزوايدة	260	80	علي سيّد، مفلح الحنشة، ثالي العريفي
بني إبراهيم	916	800	محمد بن جبارة، عبد الرحمن، أبو رقبة

رفاعة	261	836	عودة بن زويد
سنان	150	100	
	279 1	**3264**	

رجال قبائل حرب

ولد محمد	7 6	21 2	صالح الجداع

وحدات أخرى

كتيبة ابن شفيع	95	40 0	محمد بن شفيع
حرس عقيل وعتيبة	800	40 0	عبد الله بن دخيل، الشريف أحمد بن هزاع
مشاة محمولة على البغال		10 0	مولود بن مخلص
بطارية مدفعية جبلية	42.95 مدافع سريعة الرمي		راسم
رشاشات	10 (= سريّتان ونصف)		عبد الله

والتحق بفيصل بالقرب من الوجه ما يأتي:

رجال قبيلة جهينة

المراوين	80 0	50 0	سعد غنيم، محمد غنيم

السمرة			
الحمدة	400	308	مرزوق التخيمي
الفوايدة			

ونقلت السفينة الناقلة للجند HMS Hardinge الأعداد الآتية:

150 من شرطة بيشة	الشيخ عامر
450 من مشاة قبيلة جهينة، وهم ينتمون إلى وحدة بني شفيع بصورة رئيسية	صالح بن شفيع

وهذا يجعل قوام جيش الشمال بأكمله 5162 خيّالاً، و5084 من المشاة (إجمالي 10246 رجلاً)، مزوداً بأربعة مدافع سريعة الرماية وعشرة رشاشات.

وتألفت القوات التي تركها فيصل في منطقة ينبع من الآتي:

عِنِزَة		
ولد سليمان	550	تم إرسالها إلى وادي العِيص
جهينة		
بني كلب	250	بواط
حرب (بني سالم)		وادي الصفراء

		الضابط القائد
صبح	1200	عبد المعين بن عاصي، سليمان التياهة، نصار بن واهس
الصميدات	300	عساف (الأسمى من بين بن سالم كلّهم)

المحاميد	600	حطيحط
الحوازم	1300	سلمان، جبر بن حميد، مستور بن عايض
الظواهر	300	سليمان، عفنان
السرحة	400	ناصر بن درويش
بني عمر	500	أبو بكر بن مطلق
الصخارنة	800	ناجي بن ربيعة، فيصل بن أحمد
الفضلة	200	رباح، عطية الله
الرحلة	900	محمد بن نافع، مبروك
الذكري	300	بركات
الردادة	600	شتيوي
الحجلة	550	
في ينبع	500 رجل من الهذيل وبضعة رجال من بيشة.	

بحصيلة قدرها 9250 رجلاً تقريباً.

فمن بين القوة المذكورة، منذ الاحتلال التركي لوادي الصفراء، يمكن الاعتماد على قرابة ستين بالمئة منها فقط بوصفها فعالة. قُطعت طرق مواصلات بعض الوحدات الكبيرة عن ينبع وسُلمت للشريف شرف، مزوداً بأوامر تخوّله فعل ما في وسعه لحشدها مرة أخرى. فاستسلم عدد قليل من الحوازم والشيخ خلف للأتراك. أمّا البقية (نحو 96%)، فانسحبوا إلى تلالهم مع بنادقهم، وكانوا متحفزين للدفاع، بانتظار تلقيهم الأوامر، أو إذا كانوا على طرق المواصلات التركية، لنفذوا غارات على قوافل الجمال والمواقع المحلية.

14. أمْر فيصل بالزحف

6 شباط/ فبراير 1917

(1) من ينبع إلى أملج

انتقل فيصل من وادي العويص إلى وادي الأخضر (من أجل المياه)، ومن هناك إلى وادي نبط (من أجل المياه)، ثم إلى أملج. استغرقته الرحلة خمسة أيام، وهي واحدة من ثمانين ميلاً فقط، وواجه صعوبة كبيرة بسبب نقص المياه. وبسبب صعوبات الوضع المحلي في ينبع، لم أتمكن من قطع هذه المسافة مع الجيش، ولا يمكنني إعطاء تفصيلات عن الطريق.

أعطيت القوات مؤونة ستة أيام، وأمرت بحمل غالونين من الماء لكل رجل. وكان ترتيب المسير يقتضي تقسيم القوة إلى تسعة أقسام تكون كل منها بقيادة شريف أو شيخ مهم. وفُرِض عليهم السير على حدة إلى أملج، والتمركز هناك. في الواقع، تبيّن أنه لا توجد مياه في أملج. لذلك أقام فيصل في بئر الوحيدي، على بعد خمسة أميال شمال شرق المدينة. ووصل المكان في 14 كانون الثاني/ يناير. وانضمت إليه وحداته الأخرى تدريجياً في الأيام الأربعة اللاحقة، واستقرت في حفر المياه المتاحة كلّها في القضاء.

(2) من أملج إلى الوجه

كان الجزء الأخطر في المسير من أملج إلى الوجه. وأفضل طريق للجمال من أجل مصادر المياه هو على الساحل المؤدي إلى وادي ظلم، ثم إلى أبو زريبات. لكن عيب الطريق يكمن في أن الأميال الستين بين سمنة وأبو زريبات لا ماء فيها بصورة دائمة. لهذا يجري اختيار طريق داخلي من سمنة إلى الخَيْف وطوالة وأبو زريبات، حيث توجد مياه آبار في كل محطة. أمّا بين ينبع والوجه، فلا يوجد نبع واحد للمياه الجارية. وتعتمد الآبار بصورة جوهرية على هطول الأمطار الذي ظل شبه معدوم خلال السنوات الثلاث الماضية. ونتيجة لذلك قليل من المياه متاح في أي مكان، كما يشكّل توريد الأعلاف صعوبات خطيرة. لا يوجد رعي تقريباً (على أي حال، لا يمكن للجمال العاملة أن تعيش بالرعي وحده)، وقد بلغ التبن المجفف أسعاراً غير مسبوقة، إذ يكلّف مكيال محلي معين من التبن، من شأنه أن يكفي راحلة يوماً واحداً، ستة شلنات وثمانية بنسات الآن. لا يدفع فيصل سوى ستة جنيهات إسترلينية في الشهر لقاء استئجار الجمال. ونتيجة لذلك كانت الدّواب كلّها تعاني من نقص التغذية، الأمر الذي أدى إلى نفوق عدد لا بأس به خلال مسيرنا بسبب الضعف الجسدي فحسب. فالعرب يشملونها بعنايتهم قدر الإمكان، والمرض بينها طفيف. لكن أصاب قدرتها على الحمولة الضعف، وبات عددها محدوداً أيضاً. ومن أجل نقل جيشه المكون من أربعة آلاف جمل وأربعة آلاف مشاة (تم تنظيم الجيش على أساس الراكب على السرج الخلفي والراكب الموجِّه لكل

جمل) والمدافع الجبلية والمدافع الرشاشة وقوات المشاة المحمولة على البغال، كان لدى فيصل 380 جملاً محمَّلاً بالمؤن والعتاد كلياً. فكان يحمل عليها طعاماً يكفي ثمانية أيام، وماءً يكفي 36 ساعة، وخمسمئة طلقة ذخيرة من عيار2.95، واحتياطياً صغيراً من ذخيرة الأسلحة الخفيفة، إضافة إلى ما يزيد عن مئة ألف طلقة لمدافع رشاشات السرايا.

سنفهم مما سبق أن الاحتياجات المادية لجيش عربي (حتى عندما تكون بحجم جيش فيصل وتعقيده) هي أقل بكثير من احتياجات القوة التركية أو الأوروبية. كانت بطارية مدفعية فيصل الجبلية، في أيدي أفرادها المصريين، بحاجة إلى 360 جملاً لنقلها بصورة صحيحة. وما إن تم استبدال المصريين بالأعراب، تحركت بطارية المدفعية بـ32 جملاً في مسير مدته يومين، وتبيّن في رحلة الأيام الأربعة عشر هذه أن دون ثمانين جملاً كافية. تم نقل كمية من الذخيرة نفسها في كلتا الحالتين. وتناهى إلى مسمع فيصل عند بئر الوحيدي عن تشكل برك مطرية عابرة في مكانين على الطريق الساحلي، وقرر أن يسلك هذا الطريق إلى أبو زريبات مع حارسه الشخصي وثلاث فرق أخرى من الجيش. وأمر الباقين بالسير بمحيط الخَيْف وطوالة. تبيّن أن العرب المحليين (موسى جهينة) الذين كان علينا الاعتماد عليهم للحصول على المعلومات المحلية وكمرشدين غير جديرين بالثقة. فلم يكونوا قادرين على تحديد مردود أي بئر بالفعل إطلاقاً، أو مكان الآبار وبُعدها. إن أعداد جيوش فيصل أكبر بكثير من أي شيء عبّرت عنه الحرب القبلية، وليس لدى قبيلة جهينة – كونها أميّة – وحدة زمنية أصغر من اليوم، أو مسافة أطول من الباع وأقصر من المرحلة (المرحلة مسير من ست ساعات إلى 16 تبعاً لمبتغاك وجملك)، ولا تستطيع أن تدرك عدداً أكبر من الأرقام. على الأغلب، يُعاق التواصل بين وحدات القوات العربية بسبب فقدان شخص في القوة يجيد القراءة والكتابة. في هذه الظروف، حدث قدر كبير من التأخير والفوضى والخطر الفعلي بسبب نقص الماء والغذاء في مسيرنا، الذي كان من الممكن تفاديه لو سمح الوقت باستكشاف سابق للطريق. فبقيت الدواب بلا طعام يومين ونصف يوم، وقطع الجيش الأميال الخمسين الأخيرة وفي جعبته نصف غالون من الماء لكل رجل وبلا طعام. على ما يبدو، لم يؤثر هذا الأمر بأي حال في معنويات الرجال، إذ كانوا يسيرون نحو الوجه فرحين منشدين وينفذون هجمات وهمية. لم يؤثر هذا الأمر في سرعتهم أو طاقتهم بأي حال. مع ذلك، قال فيصل إن تأثيرات هذا الأمر السلبية ستظهر عليهم في ست وثلاثين ساعة أخرى من الظروف نفسها.

15. أخبار نجد

6 شباط/ فبراير 1917

تستند المعلومات الآتية حول المسائل العربية المركزية، ماضياً وحاضراً، إلى مذكّرات محادثة مع الشريف فيصل.

"منذ قرابة خمس سنوات خلت، بدأ ابن سعود باستمالة (بحجج مختلفة) بعض قبيلتي البقوم وسبيع إلى جانبه، وهدد الطائف. أثار هذا الأمر شريف مكة الذي اتخذ إجراءات مضادة فعالة. ونتيجة لذلك، تم إرسال سعد بن سعود لترتيب شروط السلام. فبموجب التحكيم، تم الاعتراف بملكية بن سعود لوادي الدواسر بأكمله (إلى أن بات وادي رنية)، وباتت أودية الخرماء وبيشة ورنية في عهدة الشريف. وتمت مبايعة ابن سعود حاكماً على قبيلة قحطان كلها، والشريف حاكماً على قبيلة عتيبة. لكنّ مشكلة عتيبة تكمن في أنها تعود في نسبها إلى الحجاز الذي انتقل إلى نجد أخيراً. فلا بدّ أنها تابعة لابن سعود من الناحية الجغرافية، لكنّها تابعة للأشراف بحكم النسب والعرف. فقبل عامين، عاود ابن سعود نشاطه، وأرسل مندوبين إلى قبيلة عتيبة والقبائل الأخرى. متجهاً شرقاً أبعد من أي وقت مضى، خرج الشريف عبد الله وجاب الديرة كلها، ونال مبايعة عتيبة مجدداً".

ينظر فيصل إلى ابن سعود بوصفه قوياً للغاية، ولكن داخلياً فقط، لأن قواته ليست منظمة ولا يستطيع التحرك خارجياً بقوة كبيرة.

تمّ إبلاغ فيصل بوضع ثلاثمئة تركي مزوّدين بمدفعين جبليين بقيادة ابن رشيد في حائل. فهم لا يحظون بشعبية، وقد انتهت الاضطرابات المحلية في حائل أخيراً بمقتل اثنين منهم.

تسري الإشاعات بين قبيلة عقيل عن الشجار بين الشيخ جابر وابن سعود، الذي قُتل فيه جابر. على ما يبدو، كان جبل شمّر مصدر الشائعات.

إن قبيلة سنحان القحطانية شرسة، إذ يعقد الفتيان حبلاً حول أعناقهم، ولا ينزعونه إلى أن يقتلوا رجلاً في المعركة.

16. بصحبة الجيش الشمالي

15 شباط/ فبراير 1917

أحداث الطريق

في 2 كانون الثاني/ يناير 1917، غادرت ينبع وعبرت السهل إلى مصب وادي العقدة في غضون خمس ساعات. واستغرقت المسافة من مصب وادي العقدة إلى مستجمعات المياه في حوض وادي ينبع ساعة واحدة، ومن هناك

إلى قرية نخل مبارك ساعة واحدة. تم قطع مسافة المِشْية بمعدّل أربعة أميال في الساعة. كان الثلث الأدنى من صعود وادي العقدة فوق الرمال الرطبة وبطيئة الحركة. أمّا الأجزاء العلوية، فكانت أصلب وأفضل. كان الانقسام منخفضاً وسهلاً، ويتجه إلى الشرق في الحال، وصولاً إلى وادٍ مفتوح واسع، قادم من الميسرة مصحوباً بتلالٍ منخفضة جداً من الجانبين (جبل العقدة؟)، ينعطف الطريق أسفلها رويداً إلى داخل قرية نخل مبارك. ويقع "السبيل" على بعد أربعمئة ياردة شرق مستجمع المياه.

بدا الطريق المؤدي إلى قرية نخل جميلاً جداً اليوم. وأدت الأمطار إلى نمو رقيق من الأعشاب في التجاويف والأماكن المسطحة كلّها. فأخذت أنصال المرج الغضّة للغاية تنبثق من الأحجار كلّها، فإذا نظرنا إليها من ارتفاع ومسافة طفيفين، ثمة ضباب نابض بالحياة من اللون الأخضر الفاتح هنا وهناك على سطح الصخور ذات اللون الأزرق الداكن والأحمر البني. أمّا في بعض الأماكن، فكان النمو قوياً جداً، الأمر الذي شكل مرعى لجمال الجيش.

وجدت فيصل مُعسكِراً في خيام في قرية نخل مبارك. كان هو نفسه يقيم في خيمته الخاصة، آخذاً العدّة للخروج لاستقباله. ومكثت معه في ذلك اليوم، فيما ترددت شائعات عن إخلاء القوات التركية وادي الصفراء. وأفاد أحدهم أن وحدات معسكر كبير يمتد من بئر شريوفي إلى بئر درويش في طريقها إلى المدينة المنورة. وكان آخر قد رأى قوة كبيرة من الهجانة والمشاة تتجه شرقاً متجاوزة الخَيْف أمس. فقررنا إرسال كشّاف إلى الحمراء للحصول على الأخبار.

في 3 كانون الثاني/ يناير، اصطحبت 35 من المحاميد وعبرنا سهلاً مملاً مزروعاً بالأشواك والطرفاء متجاوزين بئر الفقير (لم يُرَ) إلى بئر واسط، وهو المعروف قديماً باسم الخليعات أثناء رحلتي الأولى. وانتظرنا هناك حتى المَغرِب، ثم ذهبنا إلى بئر مُرّة، وتركنا جمالنا مع عشرة رجال، وتسلّق بقيتنا التلال شمال طريق الحجيج وصولاً إلى جبل ظهران، الأمر الذي كان مؤلماً، لأن التلال كلها مشكّلة من طبقات شبيهة بحدّ السكين، وممتدّة في خطوط مستقيمة من القمة إلى الوادي غالباً. فيمنحك الجبل وفرة من الأسطح المتصدّعة، لكن لا صوت يأسرك، لأن الطبقات متشقّقة بدقة متناهية لدرجة أن أي جزء من تجويفها سيخرج في يدك تقريباً.

كانت قمة جبل ظهران باردة وضبابية. فعند الفجر، هيّأنا أنفسنا للتخلّص من شقوق الصخور، وأخيراً رأينا ثلاث خيام مخروطية منصوبة تحتنا إلى الميمنة، خلف جرف في ذروة المعبر، وعلى بعد ثلاثمئة ياردة. لم نتمكن من الالتفاف عليها للحصول على منظر منخفض، ولذلك رمينا بضع طلقات اخترقت قممها. وقد أدى هذا إلى ظهور حشد من الأتراك من الجهات كلّها. فقفزوا إلى الخنادق وحفر البنادق على جانبي الطريق، وكان القبض عليهم صعباً للغاية. أعتقد أنهم تكبدوا بعض الخسائر، لكنني لم أستطع التأكد من ذلك. فكانوا

يطلقون النار في الاتجاهات كلّها ما عدا نحونا. وكان النزاع في الوادي الضيق فظيعاً لدرجة أنني توقعت قدوم قوة الحمراء. ونظراً إلى أن الأتراك كانوا يفوقون قوتنا بنسبة 10 لكل واحد منا، فقد جعل هذا الأمر هربنا صعباً. وعليه، عدنا أدراجنا ونزلنا وادياً باندفاع، وكدنا نستقر فوق اثنين من الأتراك الخائفين للغاية، اللذين ربما كانا في مخافر أمامية، أو ربما يؤديان مناوبتهما الصباحية الخاصة. فلم أرَ رجالاً أخشن منهما، سوى متشرد بريطاني، واستسلما في الحال. أخذناهما معنا، وانطلقنا في الوادي خمسمئة ياردة أخرى. ومن ذلك المكان، رمينا بضع طلقات على الأتراك الذين، على ما يبدو، تثبّتوا منها، وترجّلنا ونزلنا رويداً إلى بئر مُرّة بحلول 6.30 صباحاً. كان الأسيران ينطقان بالتركية فقط، ولذلك أركبناهما وهرعنا إلى قرية نخل بحثاً عن مترجم. قالا إنها السرية الخامسة من الكتيبة الثانية في الفوج الخامس المرابط في ظهران. أمّا بقية الكتيبة وسريتان من الكتيبة الأولى، فموجودة في قرية الحمراء. وأمّا سرايا الكتيبة الأولى الأخرى في الفوج الخامس والخمسين، فتحرس درب الخَوِيّ من الحمراء إلى بئر ابن حصاني. والكتيبة الثالثة من الفوج الخامس موجودة في بئر درويش. وكان توفيق بك الضابط القائد في الفوج الخامس والخمسين.

في قرية نخل مبارك، وجدت رسائل من النقيب وارين Warren تقول إن زيد لا يزال في ينبع، وإن سفينة نقل الجند Dufferin ستنتظر في شرم ينبع إلى حين قدومي. وبينما كان فيصل يقصد وادي عويص، غيرت جملي وركبت معه ومع الجيش إلى ذروة وادي مصادر بحلول الثالثة بعد الظهر. كان ترتيب المسير رائعاً إلى حد ما ومبهرجاً. فيصل في المقدمة باللباس الأبيض، وشرف على يمينه مرتدياً كوفيّة حمراء وسترة وعباءة مصبوغتين بلون الحناء. أمّا أنا، فكنت على يساره مرتدياً الأبيض والأحمر. وخلفنا ثلاث رايات من الحرير البنفسجي مطرّزة بالذهب. كان خلفهم ثلاثة طبّالين يعزفون الإيقاع العسكري، وخلفهم مرة أخرى كتلة جامحة متوثّبة من 1200 جمل من الحرس الشخصي، فالمكان يغصّ بهم كلّهم بأقصى قدر ممكن يستطيعون الحركة فيه. والرجال يرتدون تشكيلة من الملابس الملونة، والجمال متألقة في زينتها، والحشد كله ينشد بأعلى صوته أغنية حربية تتغنّى بفيصل وعائلته. فبدا المشهد كأنه نهر من الجمال، لأنّنا ملأنا الوادي حتى قمم ضفافه، وانهلنا على طول نهر يبلغ طوله ربع ميل.

ودّعت فيصل عند مصب وادي مصادر، وانطلقت بسرعة عبر السهل المفتوح إلى ينبع بحلول السادسة مساءً. كنت راكباً جمل فيصل الرائع، وعليه تمكنت من قطع مسافة 22 ميلاً بسهولة إلى حد ما. ومما يبعث على الارتياح أنني وجدت أن سفينة نقل الجند Dufferin قد قصدت رابغ سلفاً برفقة زيد. في النتيجة، وفّرت على نفسي عناء عشرة أميال أخرى إلى شرم ينبع.

القوات العربية

على الأغلب، كانت القوات في نخل مبارك من الهجّانة. وتبعاً لأرقام فيصل، أكثر من 6000 رجل، لكن معسكراتهم كانت منتشرة على مدى أميال من الوادي وروافده، ولم أتمكن من رؤيتهم كلّهم. أمّا مَن رأيتهم حقاً، فكانوا هادئين، وفكرت في حسن نيّة. وقد خدم بعضهم ستة أشهر أو أكثر، وفقدوا حماستهم، لكنهم اكتسبوا خبرة في المقابل. فلا يزالون يحتفظون بغريزتهم القبلية من أجل استقلالية الأوامر، لكنهم أخذوا يُقلعون عن إهدار الذخيرة، وقد حققوا نوعاً من الروتين في مسائل التخييم والمسير. وعندما يقترب الشريف منهم، يصطفّون، وينحنون، ويلثمون أذرعهم لأداء التحية الرسمية. فهم لا يزيّتون بنادقهم – لأن الرمال تسدّها بعد ذلك، على حد تعبيرهم، وليس لديهم زيت في متناول اليد – لكن معظم البنادق في حالة جيدة، وبعض الرجال يجيدون الرماية. لقد باتوا وحدات منفصلة، لكنها متماسكة، بقيادة شيوخهم. ونظراً إلى ازدياد بُعدهم عن الأوطان، أصبح إقبالهم على الخدمة أكثر انتظاماً مما كان عليه. فضلاً عن ذلك باتوا يتقبّلون فكرة الرحيل عن ديارهم الخاصة، ويأمل فيصل في اصطحابهم كلّهم تقريباً إلى الوجه. فهم ليسوا مرعبين لأنهم لا يمتلكون روحاً مشتركة أو انضباطاً، أو ثقة متبادلة. أمّا رجل لرجل، فهم جيدون. أودّ أن أقترح أنه كلما صغر حجم الوحدة العاملة، كان أداؤها أفضل. فألف منهم في الغوغاء سيكونون غير فعالين ضد ربع عددهم من القوات المدربة، لكن سيعادل ثلاثة أو أربعة منهم، في وديانهم وتلالهم، اثني عشر جندياً تركياً. أمّا عندما يجلسون بهدوء، فيتوترون ويتشوقون للعودة إلى بيوتهم. وفيصل ذاته يعجز عن السيطرة على نفسه في الظروف نفسها. مع ذلك، عندما يكون لديهم كثير من العمل، ويتجولون في وحدات صغيرة لمناوشة الأتراك هنا وهناك، ويتراجعون دائماً عندما يتقدم الأتراك، ويظهرون في اتجاه آخر بعد ذلك مباشرة، فعندئذ يكونون في أوج سعادتهم، ولن يسببوا القلق للعدو فقط، بل الحيرة أيضاً. فسرّية المشاة المحمولة على البغال واعدة جداً. لقد حصلوا على مولود، ضابط سلاح الخيّالة الأسبق، لتدريبهم، وظهرَ في مظهر مشرّف سلفاً. كانت وحدات المدافع الرشاشة مخيبة للآمال. يقولون إن المتطوعين المصريين يعملون على تحسينها ومفارز المدفعية.

حياة المعسكرات

كان روتين المعسكر في المقر الرئيسي على النحو الآتي: في الخامسة صباحاً، يصعد "إمام" الجيش إلى أعلى قمة ويؤذّن للصلاة. لديه صوت عجيب،

ويوقظ كل إنسان ودابّة في المعسكر. وبعده مباشرة، يؤذّن إمام فيصل الشخصي بلطف وبصورة موسيقية بجوار خيمته. وبعد بضع دقائق، يتم إحضار فنجان من القهوة الحلوة لكلّ منا (لدى فيصل خمسة عبيد). وفي السادسة صباحاً أو بعد ذلك بقليل، نذهب لتناول الإفطار مع فيصل في خيمته، حيث لديه سجادتان عصريتان لكنهما ليستا باليتين، وسجادة صلاة بلوشية قديمة. قد يشمل الإفطار في لحظات مواتية كعك مكة المكرمة والذرة المطبوخة إضافةً إلى التمور. بعد الإفطار، يتم إعداد كأسين صغيرتين من الشاي الحلو لكل واحد منا. أمّا بعد الإفطار إلى الثامنة صباحاً، فيعمل فيصل مع أمين سره، أو يناقش الأمور في خيمته مع أشخاص مهمّين على انفراد. وفي الثامنة صباحاً، يُجري لقاءات في خيمة ديوانه المفروشة ببساطين سيئين. وتمثّل الروتين في جلوسه في نهاية الديوان على أحد الأطراف، ويجلس الزائرون أو الملتمسون أمام الخيمة في نصف دائرة إلى أن ينادي عليهم. فتتم تسوية المسائل كلها على نحو وجيز جداً، ولا يُؤجل أي أمر إلى وقت لاحق. أمّا في 11.30 صباحاً، فيستيقظ ويعود إلى خيمة المعيشة، حيث نجتمع لتناول طعام الغداء بعد ذلك بقليل. بالحديث عن الغداء مجدداً، يتكون، في الأيام السعيدة، من أطباق شتى: براعم شوكية مطهية، وفاصولياء أو عدس، مع الخبز، وبعد ذلك أرز أو كعك العسل. فكما يحلو لهم، هم يأكلون بالأصابع أو الملاعق. ويصبح الحديث مقتضباً بعد الغداء، بينما يتم إحضار القهوة والشاي الحلو. ثم إلى الثانية بعد الظهر يكتب فيصل الرسائل أو يمليها، أو ينام. ومن الثانية بعد الظهر إلى 4.30 عصراً، يجلس مرة أخرى في خيمة الاستقبال ويسوّي قضايا ما بعد الظهر. وغالباً ما يتجول أو يجلس في الخارج ويتحدث إلى عدد قليل من الزعامات من 4.30 إلى المغرب (الخامسة مساءً). ومن الخامسة إلى السادسة مساءً، يُجري مقابلة خاصة في خيمة المعيشة مع الناس المهمّين، ويناقش الاستطلاع والمهمات الليلية، لأن معظم العمل الميداني تحت جنح الظلام. وحوالى السادسة مساءً، تحضر وجبة العشاء، مثل الغداء، لكن مزودة بقطع كبيرة من لحم الغنم تتوج منسف الأرز. يتبع ذلك كؤوس من الشاي المحلى بالسكر دورياً إلى حين الاستسلام للنوم الذي قد لا يكون إلّا في ساعة متأخرة. هو يقابل أنواع البشر كلها في هذا التوقيت. فعبيده يأتون بهم واحداً تلو الآخر طبقاً لطبيعة أعمالهم. وإذا لم يكن هناك كثير من الأعمال، يُرسل وراء شيخ محلي ما، ويناقش معه أحوال البلاد والطرق والتاريخ القبلي وما إلى ذلك، أو يروي لنا قصصاً عما رآه في سوريا، أو التاريخ السري التركي، أو شؤوناً عائلية فحسب.

مفاوضات فيصل

أشار فيصل في حديثه ذات يوم عن اليمن، كما يطلقون على أي شيء يقع جنوب مكة المكرمة وجدة، إلى حصافة القبائل الجنوبية ودماثتها، مقارنة بقبائل حرب وجهينة وعتيبة في الشمال. وقال إنه لم يكن سهلاً على معارفه من العرب تولّي السلطة والحكم. فلسجن ضابط، ما كان على شيخه سوى أن يربط خيطاً رفيعاً حول عنقه ويعلن عقوبته، وسيتبعه الرجل من الآن فصاعداً بتأكيدات لبراءته والتماسات لإطلاق سراحه. ومن العادات الجيدة الأخرى تسمية الأولاد من الصبية أو البنات باسم الضيف المفضل. وعليه ينتمون حرفياً إلى كفيلهم الذي يمكنه تنظيم تصرفاتهم كما يحلو له، مع استبعاد سلطة الأهل، حتى أنهم يتحملون مسؤوليتهم الجزئية عن حالات الثأر بشأن والدهم الأصلي. لقد أمضى أشهراً عدة في الجنوب بين الطائف وبارق وفي الداخل وصولاً إلى أبها. ويقول إن قبائل من الصبية بأكملها تسمى فيصل، ولهذا الأمر تأثير شخصي واسع فيهم وفي آبائهم بصورة غير مباشرة. وأمضى أربعة أشهر في تحصين محايل من أجل الأتراك على وجه الخصوص، ومصادقة سليمان بن علي وعائلته. ويقول إنه يتعهد، في حال منحه إجازة مدتها عشرة أيام، باستنهاض كل مقاتل في عسير ضد محيي الدين. أمّا أبها، فيقول إنها ليست مرعبة بالنسبة إلى قوة مهاجمة ببطارية مدفعية ميدانية. فالعائق الحالي للعمل يكمن في عدم امتلاك ناصر وزناً وأهميةً بما يكفي لمعادلة الإدريسي. وتعتقد القبائل كلّها أن الإدريسي سيشجع شيوخه الودودين على مهاجمتهم في مؤخرة القوات، إذا تحركوا جهاراً ضد الأتراك. فوجود فيصل أو عبد الله سيبدد هذه المخاوف.

يقول فيصل إن عبد الله راقٍ في الذوق وميّال إلى الكسل، رغم سرعته في الحركة.

أبلغ ستوتسينغن فيصل في دمشق أنه من المقرر شحن الأسلحة والذخيرة من اليمن عبر الحبشة، وبداية الحرب ضد الأجانب في ذلك البلد. وهو نفسه كان ذاهباً إلى شرق أفريقيا الألمانية بعد ذلك.

ظهر فروبينيوس Frobenius (يطلق على نفسه اسم عبد الكريم باشا) في جدة ذات صباح قادماً من الوجه عن طريق البحر بعد مدة وجيزة من بدء الحرب. كان فيصل في جدة، وردّه عن مكة المكرمة. وثناه النشاط البحري البريطاني عن المضي جنوباً. في النتيجة، أحضر له فيصل قارباً، وزوّده بخطاب توصية، وأعاده شمالاً مرة أخرى. لكن عندما وصل رابغ، شكّ حسين مبيريك فيه واحتجزه في الحصن. فواجه فروبينيوس بعض الصعوبة في الخروج، وقدم شكاوى كثيرة عن معاملته عندما عاد إلى سوريا.

في آذار/ مارس 1916، اصطحب جمال باشا فيصل إلى السينما بدمشق. كان الفيلم يعرض الأهرامات، وعلى قمتها علم بريطانيا، وتحتها أستراليون يضربون الرجال المصريين ويغتصبون النساء. وفي الواجهة فتاة مصرية في وضع تضرّع. أمّا المشهد الثاني، فكان يعرض صحراء مع قوافل هجن وكتيبة

مشاة تركية تسير إلى ما لا نهاية. وعاد المشهد الثالث للأهرامات بظهور مفاجئ للجيش العثماني في استعراض عسكري، ومقتل الأستراليين واستسلام الجنرال ماكسويل Maxwell، وفرحة مصر، ونزع العلم البريطاني عن الأهرامات، واستبدال العلم التركي به. فقال فيصل لجمال: "لماذا أستمر في إزعاج أبي ونفسي من أجل المجندين لجيشك إذا كان هذا الفيلم حقيقياً؟" فردّ جمال: "حسناً، أنت تعلم أنه يشجع الناس. ونحن لا نتوخى ولا نسعى لغزو مصر بعد. فتكمن السياسة الخارجية في إبقاء القوات البريطانية هناك بأقل تكلفة علينا. وقد وعدتنا ألمانيا بأن يكون غزو ألمانيا لمصر وإعادتها إلى الإمبراطورية العثمانية الفصل الأخير من الحرب. فبموجب هذه الشروط، وافقت على الانضمام إليها بالسلاح".

جاء أوبنهايم Oppenheim لرؤية فيصل في القسطنطينية في أوائل 1915. وقال إنه يريد شنّ حالات تمرّد. وسأله فيصل عن طبيعة التمرد وأسبابه. فقال أوبنهايم سيكون هناك حالات تمرد من المسلمين ضد المسيحيين. وقال فيصل إن الفكرة سديدة. من أين كان يقترح أن يبدؤوها؟ فردّ أوبنهايم: "في الأماكن كلها"، في الهند ومصر والسودان وجاوة والحبشة وشمال أفريقيا. قال فيصل إنهم قد يفكّرون في الهند أولاً. لكن ثمة صعوبة فنية بسبب نقص الأسلحة. فقال أوبنهايم إنه سيتم تدارك ذلك ببعثة ألمانية–تركية إلى بلاد فارس. وسأل عما إذا كان الشريف مستعداً للتعاون مع الجمعيات الهندية المسلمة. وقال فيصل إن والده يرغب في معرفة إن كان المسلمون الهنود سيصبحون مستقلين وأسياد، أم سيحكمهم الهندوس، أم ستؤول الهند إلى قوة أوروبية أخرى؟ قال أوبنهايم إنه لا فكرة لديه، فمن السابق لأوانه التفكير في المستقبل إلى هذا الحد. أمّا فيصل، فقال إنه يخشى أن والده يود معرفة كل شيء، رغم ما قيل. فقال أوبنهايم: "حسناً، ماذا عن مصر؟ يمكننا الترتيب لمنح عائلتك منصباً هناك عند الاستيلاء عليها". وكان فيصل يستشهد بـ**القرآن** رغم استخفاف المصريين. وقال إنه كان في مصر في الأوان الأخير، وقد عرض الحزب القومي عليه التاج (وقع هذا الأمر في ميناء بيرايوس). وكان المصريون مهووسين بالطقس وليس لديهم أي مبدأ سياسي سوى التأفّف. وكانوا عاقدين العزم على المتعة والحصول على المال فقط. فأي مصري كان يتحدث عن إثارة تمرد في مصر إنما يحاول أن يسرقك على الحساب. فقال أوبنهايم: "إذاً، حسناً، السودان؟" ردّ فيصل: "نعم أنت على حق. يوجد في السودان مادة تسبب تمرداً حقيقياً، لكن هل تعرف السودان؟" قال أوبنهايم: "لماذا؟" فأجابه فيصل: "إنهم زنوج جاهلون، مسلحون برماح عريضة الأنصال وأقواس ودروع. فمن يحاول تأليبهم على الإنكليز وبنادقهم ومدافعهم الرشاشة ليس مسلماً جيداً. ومع ذلك، الرجال من المعادن الثمينة. أعطني السلاح والمال وقيادة البحر الأحمر ستة أسابيع تقريباً، وسأكون حاكماً عاماً على السودان". لم يتحدث أوبنهايم معه منذ ذلك الحين إلا قليلاً.

في كانون الثاني/ يناير 1915، تواصل ياسيم وعلي رضا وعبد الغني وآخرون مع شريف مكة واقترحوا عليه تمرداً عسكرياً في سوريا. فأرسل الشريف فيصلَ للوقوف على الأمر. فوجد الفرق 25 و35 و36 جاهزة للثورة، لكن الرأي العام أقل جهوزية. أمّا الرأي العام في الدوائر العسكرية، فيقضي بانتصار ألمانيا في الحرب بسرعة كبيرة. وذهب إلى القسطنطينية، وكان ينتظر إلى حين انفجار الدردنيل كالصاعقة. ثم عاد إلى دمشق، معتبراً التوقيت مناسباً. لكنه وجد الفرق المنظمة جيداً منفرطة العقد وأنصاره مشتّتين. لذلك، اقترح على والده إرجاء الأمر إمّا إلى أن يتم التواصل مع إنكلترا فعلياً – لقد تكبدت تركيا خسائر فادحة – وإمّا إلى أن يتحقق إنزال الحلفاء في الإسكندرون.

17. سوريا: المادة الخام

12 آذار/ مارس 1917

سوريا مقسمة من الناحية الجغرافية إلى حد كبير. فالانقسام الطولي الأول والأكبر يتكون من الجبال التي تمتد مثل العمود الفقري الوعر شمالاً وجنوباً بالقرب من البحر، وتعزل شعوب الساحل عن شعوب الداخل. وينطق أهل الساحل بلغة عربية ونبرة مختلفتين. إنهم يعيشون في منازل مختلفة، ويأكلون طعاماً مختلفاً، ويكسبون رزقهم بطريقة مختلفة. فهم يتحدثون، على مضض، عن "الداخل" بوصفه قفراً مليئاً بالدماء والرعب.

مرة أخرى ينقسم الداخل طولياً: الفلاحون في وديان الأردن، أمّا فلاحو الليطاني والعاصي، فهم أكثر استقراراً وازدهاراً في البلاد. وما يقع وراءهما هو التنقّل الغريب لسكان الأراضي الحدودية، الذين يترجّحون شرقاً أو غرباً من فصل إلى آخر. فيعيشون على ذكائهم فقط. ويقضي عليهم الجفاف والجراد وغارات البدو. وإذا أخفقت هذه الأمور، تكمل عليهم حالات ثأرهم الشخصية التي لا مفر منها.

يتم إلغاء كل هذه التقسيمات المناطقية الرئيسية الشمالية والجنوبية وتقسيمها إلى مقاسم متناقضة. إذا أردنا تقدير تركيبة سوريا السياسية، من الضروري تعداد بعض رؤساء هذه المقاسم.

فالحد الفاصل بين الخطاب العربي والتركي يتبع، ليس على نحو غير ملائم، طريق الحافلات من الإسكندرون إلى أعزاز، ثم سكة حديد بغداد إلى جرابلس. أمّا من الغرب، فيبدأ بين النصيريين، وهم أتباع عبادة غريبة لمبدأ خصيبي وثني محض ومناهض للأجانب ولا يثق بالدين الإسلامي، ولكنهم انجذبوا إلى المسيحية في الوقت الحالي بسبب الاضطهاد المشترك، فالطائفة في حد ذاتها تنبض بالحياة للغاية، وعشائرية في المشاعر والسياسة

كما يُتوخى من طائفة ما. فلن يخون نصيري نصيرياً آخر، ونادراً ما يخونون مسلماً ومسيحياً. وقراهم مزروعة في بعض الأماكن أسفل التلال الرئيسية من المصيص إلى طرطوس وفتحة طرابلس، وشيوخهم هم عيسى والعجوز معروف. وينطقون بالعربية فقط، ولقد عاشوا هناك منذ بداية التاريخ الإغريقي، على أقل تقدير. فيبتعدون عن السياسة، ويدعون الحكومة التركية وشأنها على أمل المعاملة بالمثل.

وتختلط بين النصيريين طوائف من المسيحيين السوريين. وكانت مجاميع من الأرمن، الذين كانوا ينطقون بالتركية، لكنهم لن يعاشروا الأتراك، مستقرة جنوب نهر العاصي. أمّا في الداخل، جنوب حارم، فيستقر الدروز (العرب) والشركس. فهم يميلون إلى غزو من حولهم. وأمّا الأكراد المتحدثون بالكردية والعربية، فيستقرون في الشمال الشرقي منهم، وهم مستوطنون على مدار الأجيال، ويتزوجون بالعرب ويتبنون سياساتهم. إنهم يكرهون المسيحيين الأصليين إضافةً إلى الأتراك والأوروبيين. ويأتي وراء الأكراد بعض اليزيديين المتحدثين بالعربية لكنهم يحاولون في عبادتهم دائماً تهدئة روح الشر، مصحوبة بإعجاب مشوه بالطيور البرونزية الخام. وبعد اليزيديين تقع حلب، وهي مدينة ربع مليون نسمة، ونموذج للأعراق والأديان كلها. تمر شرق حلب لمسافة ستين ميلاً عبر العرب المستقرين الذين يصبح لونهم وآدابهم قبلية أكثر فأكثر كلما اقتربت من حافة الزرع، إذ ينتهي شبه البدوي ويبدأ البدوي.

إذا أخذتم مقطعاً آخر عبر سوريا، بدرجة أكبر إلى الجنوب، فإنكم تبدؤون ببعض تجمعات المسلمين الشركس بالقرب من البحر. إنهم يتكلمون العربية الآن، وهم عرق بارع لكنه مشاكس، ويعاديهم جيرانهم العرب بشدة. أمّا المناطق الداخلية، فمناطق محفوظة للإسماعيليين. وثمة مشهد غريب يقع خلف مناطق الإسماعيليين يتمثّل في قرى عرب القبائل المسيحية وبعض العادات شبه البدوية بقيادة شيوخهم. وخلافاً لإخوتهم المتذمرين في التلال إنهم مسيحيون حازمون للغاية. فهم يعيشون كما يعيش أهل السنة من حولهم، فيرتدون ملابس ويتكلمون مثلهم، ويقيمون أفضل العلاقات معهم. وإلى الشرق من هؤلاء المسيحيين فلاحون مسلمون شبه رُحّل، وبعض قرى الإسماعيليين المنبوذين، على الحافة القصوى من الزرع، إذ انزووا بحثاً عن سلام نسبي. فلم يبقَ بعيداً عنهم سوى البدو.

فلنتناول قطاعاً بدرجة أدنى قرب عكا. يوجد أولاً العرب السنة، ثم الدروز، ثم المتاولة وصولاً إلى وادي الأردن الذي يقع بالقرب منه العديد من المستوطنات الجزائرية المشبوهة بشدة، والمختلطة بقرى يهود فلسطينيين أصليين. أمّا الأخيرون، فهم عرق مثير للاهتمام. وهم يتكلمون العربية، والعبرية بصورة جيدة. لقد طوروا مستوى وأسلوباً للعيش مناسبين للبلد. ومع ذلك، هو أفضل بكثير من آداب العرب. إنهم يزرعون الأرض، وشديدو التواضع، لأن مثالهم سيكون نموذجاً رائعاً للمستعمرات الأجنبية (المستوحاة من ألمانيا)

لليهود العاملين في الزراعة، الذين يقدمون طرائق غريبة في الزراعة والمحاصيل، والبيوت الأوروبية (المشيدة بتبرعات خيرية)، لدولة مثل فلسطين، وفي الوقت نفسه صغيرة جداً وفقيرة جداً لتستحق الجهود المبذولة على هذا النطاق. فقد تسدد المستعمرات اليهودية في شمال فلسطين تكاليفها، لكنها لا تعطي عائداً متناسباً مع إنفاقها الرأسمالي. ومع ذلك، هم صادقون في مساعيهم تجاه الاستعمار، ويستحقون التكريم، مقارنة بالمستوطنات الأكبر للمهاجرين العاطفيين في جنوب فلسطين. محلياً يجري التسامح معهم أكثر من اللازم. فلا يجد المرء حول الجليل الكراهية الدفينة للمستعمرين اليهود وأهدافهم بوصفها سمة بغيضة في منطقة القدس. وتصادفك عبر السهل الشرقي (العرب) اللجاة، وهي متاهة من الحمم البركانية المتصدعة، حيث كان يتجمّع الرجال السوريون الضعاف والمتعبون كلّهم لأجيال لا تعدّ ولا تحصى. ويعيش أحفادهم هناك في قرى ثرية خارجة عن القانون، وبمنأى من الحكومة والبدو، ويعملون على حل نزاعاتهم الداخلية الشخصية وقت الفراغ. وإلى الجنوب منهم حوران التي يسكنها العرب والدروز.

يبدأ القطاع الأدنى درجة باليهود الصهاينة الألمان، المتحدثين بعبرية هجينة ويديشية ألمانية، بوصفهم أشرس من يهود العصر الروماني، وغير قادرين على تحمل أي شخص بالقرب منهم ليس من عرقهم. فبعضهم معنيون بالزراعة، ومعظمهم من أصحاب المتاجر، وهو الجزء الأغرب والأقسى من مجموع سكانه. ووراء هذا النطاق، توجد تجمّعات من المسيحيين القبليين أو القرويين المحترمين، وهم على غرار أتباعهم في الدِّين في وادي العاصي أمثلة خجولة على ولائهم للبلاد. ويوجد بينهم، وإلى الشرق منهم، عرب شبه رحل وبدو من أتباع دين الصحراء، يعيشون على خوف جيرانهم المسيحيين وسخائهم. فوطّن الحكم العثماني المهاجرين الشركس على امتداد نطاق واسع من هذه الأرض المتنازع عليها. وهم يتشبثون بأرضهم بحدّ السيف وبفضل الأتراك فقط. ولذلك هم أوفياء لهم.

لا تكمل هذه الأعراق والأديان الغريبة حكاية أعراق سوريا. لا تزال هناك المدن الست الكبرى: القدس وبيروت ودمشق وحماة وحمص وحلب، التي يجب الاعتداد بها بمعزل عن قوم البلاد في بيان مآل سوريا.

القدس مدينة يقصدها المسيحيون والمسلمون لأداء مناسك الحج. ويتطلع اليهود إليها من أجل المستقبل السياسي لعرقهم. كانت قوى الماضي المتحدة قوية فيها لدرجة أن المدينة لم تعد تملك حاضراً.

أمّا بيروت، فعصرية بأسرها. وكما حال لغتها، سيكون كل شيء فيها فرنسياً هجيناً في الشعور باستثناء مرفئها الإغريقي وجامعتها الأميركية. والرأي العام فيها هو رأي التجار المسيحيين الذين يعيشون بالمقايضة لأن بيروت بحد ذاتها لا تنتج شيئاً. وبعد التجار، يكمن مكوّنها الأقوى في طبقة المهاجرين العائدين

الذين يعيشون على مدخراتهم المستثمرة في سوريا التي تشبه في نظرهم جادة واشنطن حيث "حققوا نجاحاتهم". وتُعد بيروت بوابة سوريا المزودة بمصفاة مشرقية تنفذ عبرها التأثيرات الأجنبية البالية إلى سوريا. فهي تُمثِّل سوريا بقدر ما تمثِّل سوهو Soho البلدان المكونة للمملكة المتحدة. مع ذلك، كان في بيروت، بموقعها الجغرافي ومدارسها والحرية الناجمة عن التواصل مع كثير من الأجانب، نواة من الناس المسلمين يتحدثون ويكتبون ويفكرون مثل الموسوعيين النظريّين الذين مهدوا الطريق للثورة في فرنسا، والذين تغلغلت كلماتهم إلى أجزاء من الداخل، إذ كان التصرف يصبّ في مصلحتهم. فلا بدّ من الاعتداد ببيروت من أجلهم (كثير منهم شهداء الآن، من وجهة نظر العرب)، ومن أجل قوة ثروتها، وصوتها العالي والحاضر الخارق.

دمشق وحمص وحماة وحلب هي أربع مدن قديمة تفتخر بها سوريا. تمتد مثل سلسلة على طول وديان الداخل الخصبة، بين الصحراء والتلال. وبسبب موقعها، تضرب عرض الحائط بالبحر وتتجه شرقاً. إنها عربية وتعرف أنفسها حقّ المعرفة.

أمّا دمشق، فهي سيّدة سوريا القديمة المحتومة. وإنها مقر الحكم العلماني والمركز الديني، وتبعد ثلاثة أيام فقط عن المدينة المقدسة بقطارها. وشيوخها قادة رأي، و"مكيّون" أكثر من غيرهم في أماكن أخرى. ستبدأ دمشق الحراك قبل أي جزء من سوريا. فجعلها الأتراك مركزاً عسكرياً لهم، وهذا ما فعلته المعارضة العربية بصورة طبيعية تماماً، أو كما أرسى أوبنهايم والشيخ شاويش وجودهما هناك. فدمشق منارة ينجذب إليها العرب على نحو طبيعي، وهي مدينة لن يسهل إقناعها بخضوعها لأي سلالة أجنبية.

حماة وحمص بلدتان تكره إحداهما الأخرى. فالجميع فيهما يصنّع أشياء مثل القطن والصوف في حمص، بصورة عامة، والحرير والديباج في حماة. وكانت صناعاتهم مزدهرة ومتنامية. فسارع التجار إلى الإفادة من المنافذ الجديدة أو تلبية أذواق جديدة. واستخدمت شمال أفريقيا والبلقان وسوريا والجزيرة العربية وبلاد الرافدين موادهم. لقد بيّنتا قدرة سوريا الإنتاجية دون توجيه من الأجانب، كما أثبتت بيروت فهمها التجارة. ومع ذلك، في حين جعل ازدهار بيروت منها مشرقية، عزز ازدهار حمص وحماة نزعتهما المحلية، وجعلهما محليتين كلياً، وبغيرة أكثر من أي مدينة سورية أخرى. يبدو كأن الإلمام بالمنشآت والطاقة قد أظهر للناس هناك أن آداب آبائهم لا يُعلى عليها.

أمّا حلب، فهي أكبر مدينة في سوريا، لكنها ليست جزءاً منها، ولا من تركيا، ولا من بلاد الرافدين. إنها بالأحرى نقطة تلتقي فيها كل الأعراق والمذاهب واللغات في الإمبراطورية العثمانية وتتعارف فيها على بعضها بعضاً بروح التراضي. لقد غرس صراع الخصائص المتنوّعة، الذي يجعل شوارعها منظار النماذج المتغيّرة، في الحلبيّ نوعاً من التأمل يصوّب فيه ما هو جائر في الدمشقي. ولقد اشتركت حلب في كلٍ من الحضارات التي تدور حولها،

والنتيجة تبدو قلة الحماسة في ما يفعله أهلها كلهم. ومع ذلك، هم يتفوقون على باقي سوريا في معظم الأمور. إنهم يقاتلون ويتاجرون أكثر، وهم أكثر تعصباً وشراسة، ويصنعون أجمل الأشياء، لكن ذلك كلّه بقلة يقين تجعل قوتهم العظيمة عقيمة. ومن المألوف في حلب حيث يرتفع الشعور الإسلامي وجود مزيد من الزمالة بين المسيحيين والمسلمين والأرمن والعرب والأكراد والترك واليهود أكثر من أي مدينة عظيمة أخرى في الإمبراطورية العثمانية، ومزيد من الود، وإن كان بتصرّف أقل، تمنحه جهة المسلم العادي للأوروبيين. ستبقى حلب بعيدة من العمل السياسي برمته لولا تأثير الأحياء العربية الكبيرة غير المختلطة التي تقع في ضواحيها مثل قرى نصف رُحّل متضخمة. فتلك القرى، بعد حي الميدان الدمشقي، هي الأكثر قومية من أي جزء من البلدات. وتصبغ حدة شعورها العربي بقية المواطنين بلون القومية، وهو أقل حيوية بكثير من إجماع في رأي دمشق.

تكمن مواد سوريا الخام، بالنسبة إلى رجل دولة، في المذاهب والأعراق المذكورة، وفي غير المحصيّ منها. وتجدر الإشارة إلى أن الفروق سياسية أو دينية. فتشبه الشعوب بعضها بعضاً إلى حد ما من الناحية الأخلاقية، مع تدرّج ثابت بدءاً بالحساسية العصابية على الساحل وانتهاءً بالحياء في الداخل. إنهم سريعو التفكير، ومعجبون بالحقيقة (لكن ليسوا باحثين عنها)، وراضون عن أنفسهم، وقادرون على فهم الأفكار المجردة (مثل المصريين)، لكنهم غير عمليين، وهم كسولون عقلياً لدرجة يصبحون فيها سطحيين. وتكمن رغبتهم في أن يُتركوا وشأنهم لينشغلوا بشؤون الآخرين. فهم خارجون عن القانون منذ الطفولة، ولا يطيعون آباءهم إلا إذا كانوا يخشون التعرض للضرب، والأمر ينسحب على حكومتهم لاحقاً للسبب نفسه. مع ذلك، ثمة قليل من الأعراق تكنّ احتراماً أكبر للقانون العرفي من أعراق المرتفعات السورية. فيريدون شيئاً جديداً كلّهم، لأن شغفهم بالسياسة ناجم عن اندماج سطحيتهم بخروجهم على القانون. وإنهم ناقمون على حكومتهم كلّهم، لكن قلّة قليلة منهم تنسّق أفكارها بأمانة بشأن ما تبتغيه. فيُطالب بعضهم (معظمهم من المسلمين) بمملكة عربية. أمّا بعضهم الآخر (معظمهم من المسيحيين)، فيطالبون بحماية أجنبية ذات توجّه ثيليمي إيثاري يسدي امتيازات دون التزامات. ويطالب آخرون بالحكم الذاتي من أجل سوريا.

الحكم الذاتي كلمة مفهومة، لكن سوريا ليست كذلك، لأن كلمتي سوريا وسوريّ مصطلحان أجنبيان. فما لم يتعلم الإنكليزية أو الفرنسية، ليس لدى ساكن تلك المناطق كلمة لوصف بلده كلها. فسوريا بالتركية (الكلمة غير موجودة بالعربية) هي ولاية دمشق. والشام بالعربية هي مدينة دمشق. فيسمّي الحلبي نفسه حلبياً دائماً، والبيروتي بيروتياً، وهكذا وصولاً إلى أصغر القرى.

يشير هذا الفقر الفعلي إلى حالة سياسية. ولا يوجد شعور قومي. فبين البلدة والأخرى، والقرية والأخرى، والأسرة والأخرى، والعقيدة والأخرى، توجد حالات غيرة عميقة يغذيها الأتراك بصورة متواصلة لجعل الاتحاد العفوي مستحيلاً. وتُعد القرية بزعامة شيخها فقط أكبر كيان سياسي محليّ في سوريا المستقرة، والقبيلة بزعامة شيخها في سوريا الأبوية. لا يتم اختيار تلك الزعامات رسمياً، بل برأي العائلات المستحقّة، ويحكمون بالأعراف والتوافق. فالدستور الذي يستظلّون به يمثّل برمّته بيروقراطية الترك المصطنعة، والمفروضة بالقوة، والمستحيلة إذا اقتضى تنفيذها تبعاً لمخططها الورقي. أمّا من الناحية العملية، فهي إمّا جيدة إلى حد ما، وإمّا سيئة للغاية، وفقاً إمّا لضآلة الأدوات البشرية التي تعمل عبرها، وإمّا لزيادتها.

يبدو أن الزمن قد أعلن أن الاتحاد المستقل يتجاوز نطاق صلاحيات مثل هذا الشعب. ففي التاريخ، كانت سوريا دائماً المعبر بين البحر والصحراء، وتربط أفريقيا بآسيا، والجزيرة العربية بأوروبا. لقد كانت بمنزلة حلبة ملاكمة للشعوب العظيمة المحيطة بها، وتابعة بالتناوب لآسيا الصغرى، أو مصر، أو اليونان، أو روما، أو الجزيرة العربية، أو بلاد الرافدين. وعندما حصلت على استقلال مؤقت بسبب ضعف جيرانها، حلّت نفسها بعنف إلى "ممالك" شمالية وجنوبية وشرقية وغربية متنافرة، مع المناطق والسكان في أفضل حالاتها في إقليم يوركشاير، وأسوئها في إقليم روتلاند، لأنّه إن كانت سوريا بلداً تابعاً بطبيعتها، فهي بحكم العادة بلد الثورات والتمردات أيضاً.

بطبيعة الحال، إن المقترحات لجعل سوريا دولة عربية أو أجنبية محمية بعيدة كل البعد عن قلوب فريق "الحكم الذاتي"، لكنّ القناعة بانقساماتها الداخلية، والإشارات الواضحة على أن جيران سوريا لن يكونوا من النوع الضعيف الذي يمكّنها من انتزاع استقلال مؤقت، قد استمالت تلك البيئة المحلية لجعل مثل هذه المقترحات موضع اهتمام وتداول باستمرار.

بحكم المصادفة والزمن، تغلغلت العربية إلى البلاد تدريجياً إلى أن باتت الآن اللغة الوحيدة المستخدمة تقريباً، لكن هذا لا يعني أن سوريا بلد عربي أكثر من مصر. فعلى ساحل البحر ليس ثمة كثير من المشاعر أو التقاليد العربية، إن وجدت. أمّا على حافة البادية، فثمة كثير منها. في الواقع، قد يكون هناك شيء يمكن قوله عن الاقتراح من الناحية العرقية – رغم الجغرافيا والاقتصاد –

بوضع المنطقة الساحلية بقيادة حكومة، والمنطقة الداخلية بقيادة حكومة أخرى.

مهما كانت حدود السياسة المستقبلية، يصعب الطعن في أن حكومة عربية في سوريا اليوم أو غداً، شأنها شأن حكومة أوروبية، ستكون مفروضة كما كانت الحكومات العربية السابقة. فالأمر المهم هو معرفة الأساس المحلي، إن وجد، لمثل هذه الحكومة؛ يجد المرء أنه سيتم دعمه على جبهتين كلتاهما موجودة في كلمة "عرب" التي على ما يبدو تضرب على وتر حساس في بعض العقول البغيضة. فلذلك، يرى المسلمون، الذين لغتهم الأم العربية، أنفسهم شعباً مختاراً. فالقومية التي كان ينبغي منها الارتباط بالأرض أو العرق قد تم تحريفها لتناسب اللغة. ووحّد موروث **القرآن** والشعراء الكلاسيكيين الشعوب المتحدثة بالعربية. أمّا الدعامة الثانية لنظام حكم عربي، فتكمن في التشويه الباهت لأمجاد وفتوحات الخلافة العربية القديمة التي استمرت في الذاكرة الشعبية عبر قرون من سوء الحكم التركي. مصيبة هذه الأفكار أنها تستطيب **ألف ليلة وليلة** بدلاً من التاريخ الرصين، الأمر الذي يجعل العرب مقتنعين بأن ماضيهم كان أعظم من حاضر الأتراك العثمانيين.

خلاصة القول: تثبت مراجعة المكونات الحالية لسوريا أنها فسيفساء عرقية ودينية ملونة بوضوح اليوم كما كانت مشهورة في الماضي. إن أي محاولة واسعة للاستقلال الذاتي ستنتهي بشيء مُرقّع ومُقسَّم، وإخضاع شعب غرائزه دوماً ميّالة إلى الحكم الذاتي المحدود. من الواضح على حد سواء أن السخط الغاضب الذي يعتز به السوريون من الإدارة التركية الحالية شائع بما فيه الكفاية لجعل حراك عام خاطف نحو عامل جديد وارداً، إذا تبيّن أنه يوفر فرصة لتحقيق مُثُل القومية المركزية التي يدعو إليها موسوعيّو بيروت ودمشق من الجيلين الماضيين. ولا يمكن كبح ميول الطوائف والشعوب السورية المنشقة على نحو كافٍ لمنع الفوضى المدمرة إلا بتدخل عامل جديد، قائم على قوة خارجية أو على أساس غير سوري. وكلما كانت هذه الحكومة الجديدة فضفاضة وغير رسمية وغير مكتملة، تقل خيبة الأمل الحتمية التي تعقب تأسيسها، لأن المثل الأعلى الحقيقي لسوريا ليس إدارة فعالة، بمعزل عن العنصر المسيحي الصغير، بل العنيف. لكنّ الحد الأدنى من السلطة المركزية لضمان السلام، والسماح بالتنمية غير الخاضعة للرقابة التي ستجد في سوريا المسلمة أي أساس جاهز بالفعل أو مجموعة كبيرة من أتباعها، هي سلطة سنية تحكي بالعربية، وتتظاهر بإحياء العباسيين أو الأيوبيين.

18. محطات جغرافية وأسَر أشرف

12 آذار/ مارس 1917

وادي الحمض

يُعدّ الوادي السفلي لوادي الحمض منخفضاً يبلغ عرضه عشرة أميال. فكتب النقيب لورانس: "دخلنا الوادي نفسه الثالثة بعد الظهر. لقد تبيّن أنه سرير هائل من الروابي الرملية التي يبلغ ارتفاعها بضعة أقدام تقطعها قنوات ضحلة لا تحمل أي علامات على أي سيل عام، رغم أن زخّات المطر المحلية تملأ إحداها أو الأخرى بشكل متكرر وواضح. فالقنوات والروابي مفرطتان في النمو على حد سواء ومصحوبتان بنمو أكثف لشجر الإيثيل والطرفاء الذي يمكن تخيله. كان من الصعب علينا إجبار جمالنا على العبور في بعض الأماكن. أمّا السرير، فكان يبلغ عرضه ميلاً تقريباً، ويمتد من مئة درجة شرقاً إلى ثلاثمئة درجة غرباً، وقد قطعناه بشكل غير مباشر حتى 3.30 بعد الظهر، عندما مررنا ببركة مياه يبلغ طولها نحو ثمانين ياردة، وعرضها خمس عشرة ياردة، وعمقها قدمين في قاع طيني. وبعد مئتي ياردة، بلغنا جرف الصوان الأجرد لضفة بلي من الوادي، التي تمتد كسهل فارغ إلى سفح جبل رعل شديد الانحدار، على بعد أربعة أميال أو خمسة. وتقع بركة المياه على بعد أمتار قليلة من بئر أبو زريبات، وتوفر إحداها المياه على مدار السنة".

وادي العِيص

قال فيصل للنقيب لورانس إن الطريق المؤدية إلى وادي ينبع وصولاً إلى سكة الحديد في محطة بواط كانت صعبة للغاية بالنسبة إلى الجمال المحمّلة. فثمة طريق من قرية بواط إلى وادي العِيص، وطريق آخر من خَيْف حسين في وادي ينبع إلى بئر الفويسة، عن طريق رأس El-Magrah [16]، بين جبل رضوى وجبل الطريف، ومن هناك فوق حرّة تؤدي إلى العين، بالقرب من قرية المربع في وادي العيص. وتقع قرية المربع على مسافة رحلة يوم طويل من سكة الحديد، ويُروى أنها آخر واحة في وادي العِيص. وتستمر ينابيع المياه والمزارع لرحلة يوم واحد على ظهور الجمال غرب المربع، ووادي العِيص نفسه ليوم آخر بعد ذلك، وصولاً إلى معبر مرتفع بين جبل التوبة وجبل المريطبة، وهو على بُعد يوم واحد من وادي الغرس وأملج. فهذه المعابر (إضافة إلى وادي الحمض) هي الطرق الوحيدة المؤدية إلى وادي العِيص الذي يحده من الجانبين تلال وحرار وعرة. ويوجد كثير من الينابيع وآبار المياه، لكن البساتين أفقر من تلك الموجودة في وادي ينبع.

16 آثرنا أن نبقي بعض الأسماء التي ذكرها لورانس بلغته كما هي لأننا لم نجد تعريباً لها يحدد بدقة المكان الذي يقصده، وذلك تلافياً للوقوع في خطأ بناءً على تهجئة غير صحيحة. (الناشر)

وادي العقيق

أبلغ فيصل النقيب لورانس أن وادي العقيق، الذي يرتفع بين الليث والطائف، وينساب عبر الطائف، يصبح وادي شيبة بالقرب من حرّة عند موطن قبيلة مطير، ويجري في النهاية بين أُحُد والمدينة المنورة، كوادي العقيق، إلى وادي الحمض. ونظراً إلى أن المسافة المباشرة من الطائف إلى المدينة المنورة تبلغ قرابة ثلاثمئة ميل، لا بدّ لهذا الوادي، الذي لم يُكتشف حتى الآن، أن يكون من أهم القنوات في الجزيرة العربية. ومن المعروف أن الدرب الشرقي، من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، يعبره عند قرية البركة، على بعد نحو ثمانين ميلاً شمال شرق مكة المكرمة. ولكن رغم أن هذا الطريق قد يصل إلى مساره مرة أخرى أكثر من مرة، فإن التقارير (مثل تقارير [17] Burtons) تفيد أنه لا يتبع الوادي باستمرار. ويظهر وادٍ يحمل الاسم نفسه مرة أخرى جنوب غرب المدينة المنورة في روايات عن مواكب الحجيج بين المدينة المنورة وبئر عباس. قد يكون هذا هو الطرف الأدنى من وادي العقيق الأصلي قبل اندماجه بوادي الحمض مباشرة.

17 هو مستكشف وجغرافي ومغامر ودبلوماسي وأديب ومستشرق إنكليزي. قام ببعثات للكشف عن منابع النيل. وكان جاسوس بريطاني ضد مصر وباقي الدول الأوروبية. ومن مغامراته التنكر بزي تاجر مسلم من أجل التردد على البازارات والعودة بتقارير تفصيلية. (م.)

أسْر أشرف بك

التقى أشرف بالمصادفة نحو الثانية بعد الظهر في ريف سهل في بقعة تسمّى Gambila، على بعد قرابة ست ساعات من خيبر. وانطلق بسرعة، قبل أن يتمكن من النزول أكثر من ستين طلقة أو سبعين بمدفعته الآلية. وخسر العرب أربعة قتلى وأربعة جرحى وأسروا مجموعته بالكامل. وكان يحمل رسائل إلى ابن رشيد وابن سعود واليمن، وعشرين ألف جنيه إسترليني من الذهب، وهدايا من السجاد والملابس، ورشاشاً مزوداً بخمس سبطانات احتياطية وخمسين ألف طلقة، وعلبة مسدسات Mauser... إلخ.

بعد ذلك، عبر عبد الله سكة الحديد بين جدة وإسطبل عنتر دون أن يرى أي دوريات معادية، وترك رسالة إلى فخري بين المعادن يروي فيها عملية القبض على أشرف. فقوته تشمل قبائل مطير وعتيبة والبقوم وعِنِزَة. وقد أشرك في العملية عدداً قليلاً من مرتزقة حطين. أمّا القوة المتبقية في الحناكية، فقوامها ثلاثمئة رجل. تبدو الصحراء في حالة تنبض بالحياة للغاية، ولا شيء يمرّ دون

سلب. فأخذت قوافل نجد تقصد مكة المكرمة بدلاً من المدينة المنورة من أجل تفادي منطقة الخطر.
أرسل عبد الله إلى فيصل خنجر الشريف المبهرج المصنوع في المدينة المنورة كتذكار (قدمه فيصل هدية إلى العقيد ويلسون لاحقاً). وكان ثمة ابتهاج كبير في جيش فيصل طوال الليل. ونظم شاعر المقر الرئيسي (هو قسيس أيضاً، وبصفته مؤذّناً، وموقظ القوة العام) قصيدة غنائية مشرّفة في 16 دقيقة. فلخصت القصيدة الوضع لمصلحة عبد الله لكنّها قالت إن فرص فيصل آتية.

19. غارات على سكة الحديد

13 أيار/ مايو 1917

1. من أبو مرخة إلى أبو النعم

مكثت في معسكر سيدي عبد الله من 5 آذار/ مارس إلى 26 آذار/ مارس. وانطلقنا الإثنين الموافق 26 آذار/ مارس 7.50 صباحاً إلى سكة الحديد في أبو النعم. كان بصحبتي الشريف فوزان (الحُرَّث، أمير المضيق)، وشريف بني سليمة (عبد الله)، وسيدي راحو (ضابط جزائري في الخدمة الفرنسية)، ومحمد القاضي (من قبيلة جهينة). انضم إلينا بعد قليل مفضّل، أحد شيوخ قبيلة السلقا من عنِزَة. وكان قوام القوة الكلية قرابة ثلاثين رجلاً. عندما استدرنا قليلاً إلى اليسار، بعد الالتفاف حول مصب وادي طليح القادم من الشمال الغربي، نزلنا وادي العيص إلى 8.50 صباحاً. وفي 9.20 صباحاً، عبرنا إلى ضفة الوادي اليمنى الواقعة تحت جدار صخري. وفي 9.30، بلغنا زاوية، وانعطفنا كثيراً إلى اليمين. فهذه هي قرية المراح. وفي تمام العاشرة صباحاً، استدرنا إلى اليسار قليلاً وخرجنا من المضائق النهرية إلى سهل عريض شكّله التقاء الوديان من اليمين إلى اليسار. فكان بئر بن عمري أمامنا مباشرة، بعمق نحو عشرين قدماً. كانت المياه آسنة لكنها غزيرة. أمّا التلال على اليمين، الواقعة خلف منعطف الوادي، فكانت مرتفعة. وفي 10.40 صباحاً، توقفنا تحت شجرة سدر كبيرة، وقضينا منتصف النهار هناك. فأثبت وادي العِيص أنه غني بأشجاره الشوكية وكلئه. كانت تهب ريح شرقية باردة هناك والوادي مليئاً بالفراشات البيضاء وروائح الزهور.
امتطينا جمالنا مرة أخرى في 3.40 و3.50 بعد الظهر. بلغنا جداراً قديماً يحرف مجرى الوادي إلى ضفته اليسرى، ويحمي مصطبة أرضية بارتفاع خمسة أقدام على جانبه الجنوبي من الفيضانات. تم بناء الجدار من طوب غير متجانس منتخب تبلغ مساحة كل منها نحو قدم مربع، ومُدمَّكة بشكل مقبول.

يبلغ طوله قرابة ميل ونصف، وصلب إلى حد ما. ويبلغ ارتفاعها الأقصى في الوقت الحالي نحو أربعة أقدام، ولكن يجب أن ينخفض بعمق كبير دون سرير الوادي من أجل مقاومة الفيضانات. يوجد على المصطبة، التي يشطرها الجدار ويبلغ عرضها نحو أربعمئة ياردة، بقايا حقول وأساسات بيوت وحوض ماء كبير محفور، من أحجار بناء سليمة. وفي 4.10 عصراً، غادرنا وادي العِيص الذي انعطف شمالاً على يسارنا باتجاه قرية المربع. وصعدنا وادياً ضيقاً يؤدي إلى جبل السرد. وفي 4.45 عصراً، مررنا بوادٍ على اليمين. ووصلنا في 5.5 مساءً مستجمع مياه طبيعياً، وعبرنا قمم وادٍ جارٍ شمالاً إلى وادي العِيص. وفي 5.15 مساءً، عبرنا مستجمع مياه ثانٍ، وهو طبيعي أيضاً، ونزلنا في وادٍ صغير يؤدي إلى وادي سروم في 5.25 مساءً. فعسكرنا هنا ليلاً، ننهل من غدير سروم (موية الحُفيَّة)، على بعد عشر دقائق من سفوح التلال شرقنا.

الثلاثاء، 27 آذار/ مارس

انطلقنا في 5.35 صباحاً وعبرنا الموقّد إلى الطرف الشمالي من جبل السرد، وصعدنا صعوداً وهبوطاً في أول مسار حاد شديد الانحدار (هناك طريق أفضل بكثير للبنادق، عشر دقائق جنوب طريقنا فوق جبل السرد). قادنا هذا إلى وادٍ عميق عبرناه، ومن هناك عبر وادٍ ثانٍ (سيل الحويطي) وفاصل منخفض، على وادٍ جانبي، وصلنا فيه إلى مرتفع آخر شديد الانحدار في 7.30 صباحاً، ونزولاً سيئاً إلى وادٍ ضيق طويل وعِرٍ يؤدي نزولاً إلى وادي الطَّراة الذي يدخل وادي الحمض مقابل مصب وادي تبالة. وصلنا غرب الطَّراة في 7.45 صباحاً، وعسكرنا في 8.25 صباحاً بالقرب من بئر البوير. فوادي الطَّراة سهل يتجه إلى الشمال الغربي، مليء بالأشجار والأعشاب، ذو سطح رملي، شطرته السيول إلى حد كبير. كان أحدها قد ملأ البئر هذا العام، لكن برك المياه موجودة بكثرة في التلال، إذ لا تعاني الخيام العديدة في الوادي من نقص في المياه. فوادي الطَّراة هو أفضل طريق يؤدي إلى وادي ينبع، ورأس الفرع (خَيْف حسين) على بُعد ركوب نحو يومين على ظهر الجمال من هذا المكان. فالتلال المنبسطة القمم والمستقيمة الحفافات على ضفة الوادي الشمالية هي جبل المريطبة. أمّا الوادي، فهو ديرة عروة.

انطلقنا مجدداً في 4.20 عصراً. وفي 5.5 مساءً، انعطفنا ستين درجة باتجاه أحد الأودية. وانعطفنا في 5.20 مساءً قرابة 120 درجة، وفي 5.30 مساءً ستين درجة مرة أخرى باتجاه مجرى وادي طرة العلوي، وهو طريق سلس عريض، مدة نصف ساعة إلى أن ضللنا الطريق، وتجولنا بمحيط سفوح التلال عبر مستجمع المياه في وادي الطَّراة وشرق وادي Meseiz، مثل أفعى فيرجيل Virgil المعوقة، حتى 6.40 مساءً. وكان مرشدونا مخطئين في نقلنا (لنكون

بالقرب من بعض الخيام) بعيداً جداً شمالاً من دخولنا الأول إلى سهل الطّراة. فالطريق الأسرع والأفضل هو عبر عين الطّراة مباشرة، ووصولاً إلى رافد الوادي الشرقي الذي يؤدي إلى مستجمع المياه مباشرة.

الأربعاء، 28 آذار/ مارس

ركبنا جمالنا في 5.5 صباحاً متجاوزين الطرف الشمالي لجبل الطريف، ونزلنا إلى غرب وادي Meseiz، وهو مجرى عميق واسع من الحصى والأحجار، وذو أخاديد عميقة بفعل المياه، وغير صالح لحركة المرور على عجلات، وصولاً إلى سهل الجرف الكبير، الذي يعبره وادي Meseiz شرقاً للانضمام إلى وادي Gussed المنحدر شمالاً من جبل الأجرد. وفي 6.15 صباحاً، وصلنا منطقة الجرف، واتجهنا شرقاً، بموازاة جبل عنتر، وهو صخرة برجية بقمة مشطورة جاثمة على مخروط صارخ على بعد نحو عشرة أميال من الجنوب. ويقع جبل جدة، وهو مجموعة من المسالّ، على بعد قرابة ستة أميال من وادي Gussed أسفل أبو الحلو. واتجهنا تسعين درجة حتى السابعة صباحاً، ثم 140 درجة حتى 7.40 صباحاً، ورابطنا تحت شجرة في وادي Gussed. إنه خصب جداً بطريقة مفرطة، كما حال الجرف كلّه في واقع الأمر. وكنا نرابط في الطرف الجنوبي تقريباً من لسان التلال التي تعزل سهل الجرف عن وادي الحمض. أمّا جنوباً، فيؤدي سهل الجرف إلى El-Magrah، حيث تسلكه سكة الحديد إلى مستجمع المياه بالقرب من جبل باير، وينزل المرء للانضمام إلى وادي الحمض في أبو النعم؛ ووادي الأغوات الخاص بنا الذي يرتفع قليلاً إلى الغرب، في سفوح تلال جبل الأجرد (حيث المياه في حفر ضحلة)، يجري شمالاً للانضمام إلى وادي الحمض بالقرب من جدة، بعد تشكيل حفرة مياه أبو الحلو لدى مروره عبر التلال. أمّا جبل الطريف، الامتداد لجبل الأجرد، فيُشكل جداراً مُصمتاً لتل يؤدي إلى بواط. فبالنسبة إلى الجمال المتجهة إلى الوديان الواقعة وراءه، لا طريق يؤدي إليه سوى معبر عسير جنوب معسكرنا.

قصدنا بعد الظهر أبو النعم، الواقعة خلف المعسكر مباشرة، وتفقّدنا سكة الحديد والمحطة على بعد 6000 ياردة، إذ تحتوي مبنيين من طابقين كبيرين من البازلت والإسمنت وبرج مياه دائري، وبيت صغير في الغرب. كان هناك كثير من الخيام المخروطية وخيام الإيواء بمحيط البيوت. كان المحيط محصّناً جداً، لكن لم تكن هناك أسلحة مرئية، ولم نشاهد سوى قرابة ثلاثمئة رجل. فانطلقت آلية باتجاه الشمال، وعلى متنها رجل واحد فقط، إلى الجسر فوق وادي الحمض الذي هاجمه دخيل الله. كان جسراً كبيراً مكوَّناً من نحو عشرين قنطرة من الحجر الأبيض، وبعض الملاجئ متاخمة له. كان على قمة تلّة حالكة السواد شمال الجسر عشرات الخيام البيضاء، والضباط الأتراك يسترخون

على الكراسي بجانبها. في الثانية بعد الظهر، وصل قطار من الجنوب (بقاطرة جرٍّ خلفية) وعلى متنه أربعة صهاريج مياه (خزانات حديدية بدائية الصنع محمولة على شاحنات)، وأربع عربات بضائع مغلقة. بعد التزوّد بالمياه، انطلق شمالاً. كانت محطة إسطبل عنتر واضحة للعيان على رأس El-Magrah، لكن كانت جدة خلف التلال. وبعد إرسال القناصين إلى إسطبل عنتر وجدة لوقف الدوريات الليلية، عدنا إلى المخيم عند المغرب. كان الأتراك نشطين للغاية ليلاً في المدة الأخيرة، لكنّنا نجحنا في حصرهم في المخافر بالوسائل البسيطة المتمثلة في إطلاق النار في الهواء بالقرب من المخافر ليلاً. لقد كانوا يتوقعون هجوماً، وفي النتيجة، حشدوا الرجال في المقر العام وتقلّدوا السلاح في الخنادق طوال الليل.

الخميس، 29 آذار/ مارس

استيقظنا 5.20 صباحاً. وكان الجو بارداً جداً ومصحوباً بهبوب رياح فجر متواصلة على سهل الجرف تصفر في الأشجار الكبيرة المحيطة بمعسكرنا. فقضينا معظم اليوم نتغنّى بأبو النعم من أعلى التل. وكانت الحامية تجري استعراضاً عسكرياً، وقد أحصيناها بـ390 عنصر مشاة وخمس وعشرين معزة. لم يكن ثمة جمال أو خيول باستثناء اثنين أو ثلاثة بالقرب من البئر الذي استولينا عليه لاحقاً. وقدم قطار من الشمال وآخر من الجنوب. أمّا القادم من الجنوب، فتابع الرحلة وكان على متنه أمتعة ونساء. وأمّا القطارات الشمالية، فكانت تبقى طوال النهار والليل في المحطة. في منتصف النهار، سمعنا من الشريف شاكر الذي كان على رأس الفرقة الرئيسية (كنا نمثّل الاستطلاع فقط) أنه سيصل عند المغرب. تجولنا عبر سهل الجرف إلى آخر تلال أبو النعم إلى أن وجدنا ما بدا أنه موقع جيد لنصب المدافع، على بعد قرابة ألفي ياردة غرب المحطة. فلم تكن هناك مواقع تركية أمامية، باستثناء تلك الموجودة على الجسر. أمّا خلف المحطة، فيوجد تل شديد الانحدار، في جبل النصلة، على بعد أربعمئة ياردة. وقررنا تمركز أربعمئة رجل فيه من أجل مباغتة الأتراك في المؤخرة.

كانت التلال المحيطة بنا مثل تلال الحجاز الشرقية. فكانت من الحجر اللامع، الذي أحرقته الشمس، والرنّان للغاية عند طرقه، والمنشطر إلى الأحمر أو الأخضر أو البني حسب الحالة. والجزء العلوي من التل هو ذروة ناجمة عن نتوء قاعدة صخرية. أمّا ركام الصخور في نهاية المنحدر، فكان صلداً، ومرصوصاً بتربة رقيقة لكنها متحركة وتنزلق على السفوح. فتنبت منها شجيرات شوكية متفرقة، وأعشاب دائمة. ويفرع عن العشب الأكثر شيوعاً، الذي ينمو إلى مستوى الركبة المرفوعة الملامسة لراحة اليد، عشرات

النصول ذات الألوان الفستقية من جذر واحد. أمّا على القمة، فكانت المسامع تصفر بين كثير من العيدان المكسوة بالريش في المنحدر الفضيّ. فبوجود هذه الأعشاب وعشب أقصر، بعمق الكاحل، يحمل رأسَ فرشاةِ قَنَانٍ من الرمادي الباهت، تكتسي سفوح التلال بترسبات كلسية بيضاء، وتتراقص بمرح بفعل الرياح. لا يمكن أن يُطلق المرء عليها خُضرة غنّاء لكنها مرعى ممتاز. وتوجد في الوديان باقات كبيرة من عشب خشن يصل ارتفاعه مستوى الخصر، ولونه أخضر فاتح إلى أن يتلاشى إلى أصفر محروق، وينمو بكثافة في الرمال أو الحصى المبطنة بالمياه كلّها. كما يوجد بين هذه الباقات أشجار شوكية يتراوح ارتفاعها من ثمانية أقدام إلى أربعين، وأشجار السدر بشكل أقل تواتراً، الأمر الذي يوفّر ظلاً كثيفاً وفاكهة سكرية جافة. فبإضافة بعض أشجار الطرفاء البنية، والنباتات الصحراوية، ومجموعة كبيرة ومتنوعة من الأعشاب والزهور الخشنة، وكلّ شيء لديه أشواك، ستستنفد غطاء الحجاز النباتي الطبيعي. أمّا على سفوح التلال الشديدة الانحدار فقط، فتوجد نبتة صغيرة، حمّيضة، ذات أوراق خضراء لحمية على شكل قلب، ونبتة من الزهرة البيضاء أو الحمراء. وفي طعم أوراقها حموضة ممتعة تُطفئ الظمأ.

وصل شاكر في الخامسة مساءً وبصحبته ثلاثمئة رجل فقط ورشاشان ومدفع جبلي ومدفع Howitzer جبلي. جعل نقص المشاة مخطط الاستيلاء على المحطة في مؤخرة القوات مستحيلاً، لأنّه كان سيترك المدافع دون إسناد. لذلك، غيّرنا آراءنا، وقررنا المضي بعمل مدفعي فقط. فأرسلنا مجموعة الديناميت إلى شمال المحطة لقطع القضبان والتلغراف عند الفجر. وانطلقتُ في الثامنة مساءً مع سرية من قبيلة عتيبة مزوّدة بمدفع رشاش من أجل زرع لغم وقطع الأسلاك بين أبو النعم وإسطبل عنتر. فأرشدنا محمد القاضي بصورة جيدة للغاية، ووصلنا السكة في 11.15 مساءً، في مكان تؤمِّن فيه مجموعة من الشجيرات وسرير وادٍ رملي بعمق أربعة أقدام على بعد خمسمئة ياردة غرب السكك غطاءً للمدفع الرشاش. فزرعت لغماً وقطعت السلك. وفي الحادية صباحاً، عدت أدراجي قاصداً الفرقة الرئيسية مع بعض الرجال من قبيلة عقيل، لكن بسبب حوادث مختلفة، لم أدخل المكان حتى الخامسة صباحاً، ولم أتمكن من التقدم إلى موقع المدفعية حتى 6.30 صباحاً. وجدت المدافع جاهزة تماماً، وقصفنا المحطة حتى العاشرة صباحاً، عندما اكتشف شاكر أن مشاة عتيبة ليس لديهم ماء، وانكفأنا إلى وادي Gussed دون مضايقات. في الغالب، لا يمكن الحصول على قِرَاب الماء في شرق الحجاز، الأمر الذي يجعل بقاء قوة عربية قوامها أكثر من اثني عشر رجلاً في القتال مدة نصف يوم صعباً.

كان من نتائج القصف الإطاحة بالطوابق العلوية من المباني الحجرية الكبيرة على الطوابق الأرضية التي قيل أنها تحتوي على مخازن وخزانات مياه. لم نتمكن من هدم الطوابق الأرضية. فتم ثقب خزِان المياه (المعدني) وفقد

شكله، وانفجرت ثلاث قذائف في غرفة الضخ وأسقطت معظم الجدار. لقد دمّرنا البيّارة فوق البئر، وأحرقنا الخيام وأكوام الحطب، وتمكّنا من تحقيق إصابة في العربة الأولى من القطار في المحطة. أدى ذلك إلى إضرام النار فيها، وامتد اللهب إلى العربات الست المتبقية التي لا بد أنها كانت تحتوي مخازن قابلة للاشتعال لأنّها احترقت بشدة. كانت القاطرة خلف المبنى الشمالي، فارتفع بخارها وانطلقت (خلفاً) باتجاه المدينة المنورة. وعندما مرت فوق اللغم، فجّرها، تحت الهياكل الأمامية (أي بعد فوات الأوان). مع ذلك، خرجت عن مسارها، وكنت آمل أن أرى المدفع الرشاش يستهدفها. لكن اتضح أن رجال المدفعية تركوا مواقعهم للانضمام إلينا في هجومنا على المحطة. وهكذا تمكّن الرجال السبعة من "رفع" القاطرة ووضعها على السكة مجدداً في غضون نصف ساعة (كانت العجلات الأمامية خارجة عن مسارها فقط) وانطلقت نحو إسطبل عنتر، بوتيرة بطيئة، مجلجلة بصورة مروعة.

استسلم طرف المحطة الشمالي الآن، وأخذ قرابة مئتين من الحامية في الطرف الشمالي يندفعون ويتقاطرون قاصدين التلال (في جبل النصلة) واحتموا هناك. فتفقّدت الأسرى (عددهم 24 سورياً من الفوج 130)، وعربة فرامل القطار أيضاً. كان الهيكل الصندوقي مبطّناً بألواح متقابلة، على مسافة أربع بوصات تقريباً ومحشوراً بالقرب من أرضية إسمنتية (متشققة) مسقوفة بلوح خشبي، لكنه كان يحترق بشدة. كان الأتراك قريبين جداً بالنسبة إليّ، الأمر الذي حال دون حصولي على تفصيلات دقيقة.

أطلقنا ما مجموعه خمسين دفعة (قذائف شظايا) من مسافتي 2200 وتسعمئة ياردة وقرابة عشرة أحزمة من ذخيرة الرشاشات. وأبلغ الفارّون عن مقتل ثلاثين (أمّا أنا، فرأيت تسعة فقط) وجرح 42. لقد قبضنا على فرس أصيلة لعلي ناصر ("باب العرب" المصري في المدينة المنورة) واثنين من الجمال من البيّارة، ودمرنا كثيراً من قضبان السكة. أمّا خسائرنا، فتمثلت في إصابة رجل واحد بجروح. ولو كان هناك ما يكفي من المشاة العرب لاحتلال جبل النصلة الذي كان يشرف على الخنادق على بعد أربعمئة ياردة (الرمي من علو)، أعتقد أنه كان في إمكاننا الاستيلاء على الحامية بأكملها. لم يُطلب من قبيلة عتيبة فعل الكثير، ولا أعتقد أنها كانت ستفعل إذا طُلب منها ذلك. أمّا جهينة ورجال المدفعية، فتصرفوا على نحو جيد جداً، وأعتقد أن الهجوم – بوصفه تجربة – سوّغ نفسه. فكان له تأثير، في الأيام الثلاثة اللاحقة، في إقناع الأتراك بإخلاء كل موقع أمامي ومعقل على السكة، وحصر الحامية في محطات السكك الحديدية المختلفة. هذا التصرّف سهّل عمل مجموعات الديناميت.

الجمعة، 30 آذار/ مارس

عدنا إلى سهل الجرف، وعسكرنا في منتصفه من 12.30 ظهراً إلى الثالثة بعد الظهر. ثم ركبنا جمالنا قاصدين وادي Meseiz (انعطفنا غرباً وجنوباً بصورة تدريجية) إلى أن بلغنا مستجمع المياه في 15.5 بعد الظهر. وفي 5.30 مساءً، عبرنا خط تقسيم المياه إلى غرب الطَّراة، وتابعنا ركوبنا حتى 6.30 مساءً، عندما عسكرنا في عين الطَّراة حيث يدخل وادي الطُّراة الشرقي إلى سهل بئر الفويسة الكبير. كان المسير سريعاً جداً (مثل كل مسيرات شاكر). ومياه وادي العين جيدة جداً وغزيرة إلى حد ما.

السبت، 31 آذار/ مارس

غادرنا العين في 5.45 صباحاً، وتابعنا مسيرنا عبر السهل على طرف الوادي وعبر معبر طبيعي (إلى اليمين) يؤدي إلى سيل الحويطات. فمن هذا المكان، سلكنا الطريق الجنوبي السهل إلى الموقّد، وتوقفنا من 8.30 صباحاً حتى 3.45 بعد الظهر في وادي سروم، ثم توجهنا إلى بئر بن عمري في 5.45 مساءً، وعسكرنا هناك.

الأحد، 1 نيسان/ أبريل

امتطينا جمالنا من بئر العمري لنعسكر في أبو مرخة من السادسة صباحاً إلى 8.30 صباحاً. فتستغرق المسافة من أبو مرخة إلى أبو النعم 14 ساعة و20 دقيقة، ومن أبو النعم إلى أبو مرخة 13 ساعة و15 دقيقة.

2. من أبو مرخة إلى المدرج

بعد عودتي من أبو النعم برفقة الشريف شاكر، توقفت وقتاً قصيراً مع سيدي عبد الله. وفي الإثنين 2 نيسان/ أبريل، سرنا في 2.20 صباحاً قاصدين سكة الحديد شمال منطقة هدية. اصطحبت معي دخيل الله القاضي مع أربعين من قبيلة جهينة، إضافة إلى سلطان العبود (عتيبة) والشريف عبد الله والشريف عجب (ولدا حمزة الفار) ومحمد القاضي. ثم جاءنا مدفع رشاش مع ستة رجال وسبعة جنود مشاة (سوريين) أيضاً، إذ كنت أتوخى إخراج قطار عن سكته بواسطة لغم Garland، ثم مهاجمته من موقع مدفع رشاش مُعدّ مسبّقاً. ورافقنا الشريف شاكر في نصف الساعة الأولى.

تابعنا سيرنا في وادي العِيص عبر الطريق نفسه الذي سلكناه إلى أبو النعم وصولاً إلى موقع القرية 6.20 مساءً. فبدلاً من مغادرة وادي العِيص في هذه

المرحلة انعطفنا شمالاً مع الوادي، وعسكرنا في السابعة مساءً مقابل أمغر السمن، تحت التلال على ضفة الوادي اليسرى.

الثلاثاء، 3 نيسان/ أبريل

سرنا في 5.20 صباحاً فوق الوادي بزاوية خمسين درجة حتى 5.35 صباحاً، ثم انتقلنا بزاوية عشرين درجة في منحنى حتى السادسة صباحاً قاصدين جبل شمالات مباشرة، وهو كتلة كبيرة تحرف الوادي غرباً. وفي 5.40 صباحاً، كنا مقابل مصب وادي سروم. وفي 5.5 صباحاً، مررنا ببئر بدر على يسارنا. وفي السادسة صباحاً، كنا في مواجهة نقطة جبل شمالات، والوادي الذي كان واضحاً وواسعاً وحصوياً وضيقاً. أمّا في 6.30 صباحاً، فظهر وادي غدير على اليسار (أسرع طريق إلى أبو مرخة، لكنه شديد الانحدار). وفي 6.40 صباحاً. كنا أمام بئر بَدْعة، عند مصب سيل بدية على يسار طريقنا. يرتفع سيل بدية بالقرب من سيل عثمان. وأخذ الوادي يتسع الآن، وبات مليئاً بالأشجار الكبيرة، وأكثر خضرة من أيّ وادٍ رأيته في الحجاز. لقد فاض مرتين هذا العام، ويوفر مراعيَ رائعة. كنا الآن نتجه نحو أربعين درجة. وفي 7.15 صباحاً، وصلنا بئر المريع، في جزء واسع من وادي العيص حيث بات سهلاً صغيراً وجميلاً جداً. ثم انعطفنا ستين درجة وسرنا عبر الوادي حتى 7.45 صباحاً، عندما توقفنا مقابل مصب سيل الحويطي (من جبل السرد). سرنا مرة أخرى في 1.15 بعد الظهر. وفي 1.45 بعد الظهر، بلغنا ربيان، البئر الأخير في وادي العيص. فالبئر مبطن بحجر خشن ويبلغ قطره نحو عشرة أقدام وعمقه خمسة عشر قدماً. وماؤه آسن جداً إلى حد ما. يترك وادي العيص التلال عند هذه النقطة، ويدخل سهلاً مفتوحاً كبيراً ومرصعاً بتلال منخفضة. هذا السهل هو السرير المشترك (أو الأسرّة الموحدة)، من بين أمور أخرى، لوادي العيص، ووادي الحمض، ووادي تبالة، ووادي الطراة، ووادي الجِزل (الجِزل أو القِزل لأن القاف تُلفظ جيماً في قبيلة جهينة ووادي بِلي الشرقي). أمّا في الشمال، فيحد السهل وادي Gussed على ضفة بِلي في وادي الحمض. وأمّا في الغرب، فيحده وادي العيص عبر جبل جاسم، جنوب وادي العيص عبر جبل المريطبة، وصولاً إلى جبل الطريف وجبل الأجرد. أمّا من الشرق، فيحد السهل جبل نهر، وضفة وادي الجِزل الشرقية، ثم المريخات، وجبل الجندل، وجبل النصلة. أمّا من الجنوب، فيمتدّ إلى سهل الجرف وEl-Magrah، ويظهر جبل عنتر بوضوح من مصب وادي العيص، مشكلاً حدّ السهل الجنوبي، على بعد أميال باتجاه المدينة المنورة.

عندما امتطينا رواحلنا في 2.10 صباحاً، تركنا الطريق المباشر قليلاً، وسرنا قليلاً نحو الشمال الشرقي. وفي 2.40 صباحاً، غادرنا وادي العيص، وعبرنا ضفة منخفضة تؤدي إلى وادي الفرشة الموازي حيث يوجد العديد من خيام قبيلتي

حرب وعنِزَة، ودخلنا ديرة جهينة بموجب تصريح بغية رعي الجمال. فعسكرنا بالقرب منها في 3.20 بعد الظهر (ورفضت استضافتنا).

الأربعاء، 4 نيسان/ أبريل

امتطينا رواحلنا في 5.30 صباحاً، وعبرنا سرير وادي الطُّراة في 6.15 صباحاً، ووادي الحمض في 6.45 صباحاً. كان وادي الحمض مليئاً بشجر السلام كما الحال في أبو زريبات، ولديه السرير المستدير نفسه، مع بقايا رملية فوقه. لكنّ عرضه كان نحو 200 ياردة فقط، وضحلاً. توقفنا في الثامنة صباحاً في وادي تبالة الذي كان نوعاً من الحدائق البرية الوفيرة بالأعشاب والشجيرات التي أسرّت الجمال. كان الطقس حاراً جداً، الأمر الذي جعل السير على الأرض الرملية حافي القدمين تحت الشمس الحارقة مستحيلاً. فالعرب لديهم نعال مثل الاسبستوس، ولا يتذمرون إلا من دفء الهواء. كان هناك رعد طوال البارحة، وزخات متفرّقة الليلة الماضية واليوم. أمّا جبل السرد وجبل جاسم، فكانا مدّثرين بأعمدة وصفائح من بخار أزرق غامق وأصفر بدا ساكناً وصلباً. سرنا عبر غرب وادي تبالة مرة أخرى في 1.20 بعد الظهر. ولاحظنا قرابة 1.40 بعد الظهر أن جزءاً من السحابة الصفراء القادمة من جبل السرد كان يقترب منا، عكس هبوب الرياح، الأمر الذي أثار عشرات الزوابع الغبارية أمامها. كما ولّدت شاهقين غباريين – عمودين ضيقين ومتماثلين ثابتين مثل المداخن – أحدهما على اليمين والآخر على اليسار من تقدمها.

عندما اقتربت منا، تغيرت الرياح التي كانت تحرقنا من الشمال الشرقي فجأة، وأصبحت باردة ورطبة بشدة من الجنوب الغربي. وازدادت حدة عنفها بصورة كبيرة، وفي الوقت نفسه، اختفى ضوء الشمس وأصبح الهواء كثيفاً ومغرة صفراء. بعد نحو ثلاث دقائق، واجهتنا غمامة من العجاج الداكن (أعتقد أن ارتفاعها نحو 1500 قدم)، وثبت أنها طبقة من الغبار، وحبوب كبيرة من الرمال، تترجّح وتتقلّب بعنف مع نفسها، وفي الوقت نفسه، تتقدم شرقاً قرابة أربعين ميلاً بالساعة. كان لرياح الزوبعة تأثير أغرب. لقد مزقت عباءاتنا عن أجسادنا، وقلبت جمالنا في بعض الأحايين، وأحياناً كانت تجمعها معاً في دوامة، وتقتلع الشجيرات الكبيرة، وباقات العشب، والأشجار الصغيرة من الجذور، في سحابة كثيفة من التربة حولها، وتدفعها باتجاهنا، أو تهشّمها فوق رؤوسنا، وبقوة خطيرة في بعض الأحايين. فلم تحجب عنّا أي شيء إطلاقاً. كان ممكناً دائماً رؤية سبعة أقدام أو ثمانية من كل جانب، ولكن كان النظر إلى الخارج أمراً خطيراً، لأن المرء لم يعرف إطلاقاً هل سيواجه شجرة طائرة، أو دفعة من الحصى، أو عموداً من الغبار.

استمرت هذه العاصفة الرملية 18 دقيقة، ثم توقفت فجأة كما هبّت. وبينما كنا وملابسنا وجمالنا ملتحفين بالغبار واللون الأصفر من الرأس حتى أخمص القدمين، هطل المطر مدراراً، وأغرقنا بالوحل حتى النخاع. وغيّرت الرياح وجهتها نحو الشمال، واخترق المطر عباءاتنا تماماً، وجعل الدم يتجمّد في عروقنا. في الثالثة بعد الظهر، عبرنا السهل ودخلنا وادي ضيقة الأجرد، الذي يخترق طريق جبل الجندل في نهايته الجنوبية، من سكة الحديد إلى الحمض. إنه عريض إلى حد ما في البداية، ورملي، بجدرانه الصخرية شديدة الانحدار. وتابعنا سيرنا حتى الرابعة عصراً، وتركنا جمالنا في وادٍ جانبي، وتسلّقنا تلة لنرى السكة. وكانت التلة من الصخر الأجرد. وبسبب البرد الرطب والمخدّر للإحساس، فقد خادم سلطان العبود (عتيبة) أعصابه، ورمى بنفسه فوق صخرة شاهقة، وحطم جمجمته. فكان ضحيتنا الوحيدة في الرحلة.

عندما وصلنا قمة التلة، كان الطقس كثير الضباب فلا تمكن رؤية سكة الحديد. لذلك، عدتُ إلى الجمال، وارتجفت بجانبها ساعة أو اثنتين. لقد صادفنا رجلاً راكباً راحلة، وتبادلنا إطلاق النار بصورة غير مجدية، وانزعجنا من ذلك. فالمفاجأة ضرورية، وكان بإمكاننا سماع أبواق المدرج تعلن التذكير بالعشاء في المحطة، الأمر الذي كان مزعجاً أيضاً. مع ذلك، جاءت المتفجرات مع بقية الفرقة في التاسعة مساءً، وانطلقتُ بصحبة سلطان ودخيل الله ومحمد القاضي لمهاجمة السكة.

تأخّرنا بعض الوقت في العثور على موقع لنصب المدفع الرشاش، لأن سكة الحديد تمتد في الأماكن كلها بالقرب من تلال الوادي الشرقية، ويبلغ عرض الوادي نحو 3000 ياردة. ومع ذلك، وجدنا في النهاية مكاناً مقابل الكيلومتر 1121. ففي الثانية عشرة ظهراً، زرعتُ لغماً (مزوّداً بصاعق مركزي، إضافة إلى عبوات قاطعة للقضبان على بُعد 15 ياردة شماله وجنوبه على التوالي) بصعوبة بسبب المطر. استغرق الأمر الانتظار حتى 1.45 صباحاً من أجل إخفاء آثار الحفر. فغادرنا الضفة بأكملها، والسهل الرملي من كل جانب، إذ كان مغطى بآثار أقدام ضخمة كأن قطيعاً من الفيلة قد رقص عليها، وخلّفنا آثار يمكن لأعمى أن يشعر بها. ومع ذلك، أزلتُ معظم الآثار الموجودة على حافة الجسر نفسه عن طريق المشي فوقها بالأحذية صعوداً ونزولاً. فلا يمكن تمييز هذه البصمات عن آثار الأقدام اليومية للدورية التي تتفقّد السكة.

عدنا إلى الموقع الجديد في 2.30 صباحاً (ما زال الجو ماطراً وعاصفاً وبارداً جداً)، وجلسنا على الحجارة حتى الفجر، عندما جاءت الجمال والمدفع الرشاش. أرسل دخيل الله، الذي كان مرشداً وقائداً طوال الليل، دوريات وحراساً وقوات متقدمة في الاتجاهات كلّها، وتسلّق قمة تلة بنفسه يحمل منظاراً لمراقبة السكة. لحسن الحظ، أشرقت الشمس، الأمر الذي مكّننا من تنشيف ملابسنا والحصول على الدفء. وبحلول منتصف النهار، بدأنا نلهث

مجدداً بسبب الحرارة. فالقميص القطني لباس عملي، لكنه غير قابل للتكيف مع مثل هذه التغيرات المفاجئة في درجة الحرارة.

الخميس، 5 نيسان/ أبريل

في السادسة صباحاً، جاءت مركبة وعلى متنها أربعة رجال ورقيب كأحد الركاب من محطة هدية (حريميل) إلى محطة المدرج مارةً فوق اللغم دون توقف. وخرج فريق عمل من ستين رجلاً من المدرج، وبدأ استبدال خمسة أعمدة تلغراف بالقرب من المحطة تم تدميرها في اليوم السابق للعاصفة الرملية. وفي 7.30 صباحاً، سارت دورية مكونة من أحد عشر رجلاً جنوباً على طول السكة، إذ تفقد اثنان كل سكة بدقة، أحدهما يسير على طول الضفة الموكلة إليه، ثم على مسافة خمسين ياردة من ميمنة السكة وميسرتها بحثاً عن آثار. ووجدوا في الكيلومتر 1121 كثيراً منها، وركزوا على الطريق الدائم، وتجولوا صعوداً ونزولاً، وخدشوا حصى رصف السكة، وفكروا مدة طويلة. ثم ذهبوا بالقرب من جبل السويق، وتبادلوا التحية مع دورية منطقة هدية. وفي 8.30 صباحاً، جاء قطار من تسع عربات محملة بالنساء والأطفال والأثاث المنزلي من منطقة هدية، ومرّ فوق اللغم دون أن يُفجرّه، وهذا بمنزلة تفريج بالنسبة إلينا، لأنّهم لم يكونوا الجائزة التي نتوخّاها.

كان أفراد قبيلة جهينة متحمسين للغاية عندما جاء القطار، واندفع جميعهم إلى مرصد دخيل الله، حيث كنا موجودين، لرؤيته. صُممت محارسنا الحجرية المنيعة لتتسع لخمسة أشخاص فقط، إذ أصبحت قمة التل فجأة عامرة بالناس. فشكل هذا الأمر ضغطاً كبيراً على أعصاب العاملين في محطة المدرج التي استدعت فريق عملها، وفتحت نيران بنادق سريعة علينا، على بعد قرابة خمسة آلاف ياردة. شُجعت منطقة هدية (أو بالأحرى مخفرها الأمامي الواقع على قمة تل) على المشاركة. ونظراً إلى أنهم كانوا على بعد نحو مئتي ياردة، احتفظوا بنيرانهم، لكنهم كانوا يعزفون خياراتهم على البوق من 8.30 صباحاً حتى الرابعة عصراً.

هذا الكشف عن أنفسنا يضعنا في موقف مؤسف. كنتُ وأفراد الجهينة على الجمال. في النتيجة، كنا في مأمن، لكن المدفع الرشاش كان Sledge–Maxim (ألماني) وثقيلاً جداً. كان محمولاً على بغل، ولا يكن بإمكان البغال تقريباً السير. كان موقعنا بين المدرج (مئتي رجل) وهدية (ألف ومئة رجل)، مع وجود هدية في وادي تبالة، خلف ظهورنا. كنت خائفاً من محاولتهم عزلنا في مؤخرة القوات، وبعد استشارة دخيل الله، عبرنا المدرج إلى قمة وادي أم الرخام الذي يمتد إلى تبالة شمال جبل الجندل، وأعدنا البغال إلى وادي العيص بمواكبة من خمسة عشر فرداً من قبيلة جهينة. لو هاجمنا الأتراك، ما كان

العدد القليل من أفراد جهينة الموجودين معي كافياً لتغطية انسحاب المدفع، إذ كان رجال المدفعية خيّاطين مكيّين، غير متمرسين في التعامل مع هذا الأمر.

ثم عدت ودخيل الله وسلطان محمد إلى قمة وادي ضيقة، وعسكرنا في 9.40 صباحاً تحت بعض الأشجار الظليلة الجيدة، التي يمكننا من خلالها رؤية السكة. على ما يبدو، أزعج هذا الأمر الأتراك الذين كانوا يطلقون النار علينا وينفخون في البوق علينا باستمرار، حتى نحو 4.30 عصراً. فلم يمر قطارات خلال هذا الوقت، وأتخيل أن وجودنا أعاق حركة المرور، لأن قاطرة وحيدة قدمت من الشمال إلى محطة المدرج. وكان ثمة دخان كثيف قادم من محطة هدية أيضاً.

توقفت الضوضاء التركية في 4.30 عصراً. فامتطينا رواحلنا في الخامسة عصراً، وتحرّكنا ببطء عبر السهل باتجاه السكة. وجددت موجة من نيران البنادق (على بعد 4000 ياردة، دون وقوع أضرار) الأجواء في محطة المدرج، وانطلقت أبواق محطة هدية كلها من جديد. كان دخيل الله منشرح الصدر. فذهبنا إلى الكيلومتر 1121 مباشرة، وأنخنا الجمال بجانب السكة، بينما أذّن دخيل الله (تمتع ورعه القوي بروح الدعابة) للصلاة، وأَمَّ صلاة المغرب بين القضبان. وبمجرد حلول الظلام، بات الأتراك هادئين. فنبشت اللغم (إجراء مقيت، فزرع لغم Garland عمل محفوف بالمخاطر، لكن لا بدّ أن الخربشة على طول السكة لمسافة مئة ياردة مفروشة بالحصى بحثاً عن صاعق متصل بـعبوتين قويتين مهنة لا يشملها التأمين). تبيّن لي أنه غاص 1.58 مليمتر، ربما بسبب الأرض الرطبة. فاستبدلناه، ثم فجّرنا عدداً من العبوات على طول القضبان بيننا وبين محطة المدرج بتأثير كبير. لقد قطعنا أيضاً قدراً كبيراً من أسلاك التلغراف وعدداً من الأعمدة، ونزلنا وادي ضيقة مجدداً في 7.30 مساءً. وفي تمام التاسعة مساءً، وصلنا سهل تبالة–الحمض، واندفعنا عبره بشراسة، مروراً بوادي الحمض، ووادي الطُّراة، ووادي الزُّمة، وبلغنا وادي الفرشة ومعسكر المدفعية الرشاشة في 12.15 صباحاً.

الجمعة، 6 نيسان/ أبريل

انطلقنا السادسة صباحاً، وبلغنا ربيان في السابعة صباحاً، وغادرناها في 7.15 صباحاً. كان وادي العيص غارقاً في الفيضان منذ مغادرتنا، والسطح لامعاً بالكامل بالطين الأبيض وبرك من المياه القذرة الرمادية اليسرة. فانزلقت الجمال فوقه بطريقة مضحكة للغاية، وتهاوت معظم الفرقة. لذلك، جمعنا دخيل الله عند مصب سيل الحويطي وعبر دلته ومعبر صغير إلى الخليج الشرقي لسهل مربع في وادي العيص. عبرنا هذا، ومررنا بسيل بَدْعة، وتوقفنا

في 9.15 صباحاً في مصب وادي الغَرِد. امتطينا رواحلنا مرة أخرى في 2.45 بعد الظهر، وتوجّهنا ببطء (كان كل شيء جامداً ومملاً) إلى منعطف وادي العيص بمحيط الطلول في 4.45 عصراً، حيث عسكرنا ليلاً. فجاء الرسولان، اللذان تركناهما في وادي ضيقة، متأخرين، وأبلغانا أن اللغم (سمعناه ينفجر بقوة شديدة في 7.30 صباح اليوم) قد انفجر شمال وجنوب قاطرة تحمل قضباناً وقرابة ثلاثمئة جندي قادمين من محطة هدية لإصلاح الأضرار التي ألحقناها بالعدو. فكان عدد الأتراك يبث الرعب في نفوس رجالنا. لذلك، لا يمكنني القول إن أصاب القطار أي مكروه، لكن لم يتم إصلاح انقطاع السكة إلا بعد مرور خمسة أيام، الأمر الذي يشي بأن شيئاً ما قد أخّر العدو.

السبت، 7 نيسان/ أبريل

انطلقنا في الحادية صباحاً، ونمنا بقية الليل في بلدة المراح من 2.30 صباحاً إلى السادسة صباحاً. ثم تابعنا مسيرنا ووصلنا أبو مرخة في الثامنة.

كانت نتائج هذه الرحلة تكشف لي قيمة دخيل الله ونجله النادرة. إن روح الدعابة لديهما تجعل تدمير السكك الحديدية أمراً ممتعاً. وتُبقي سلطتهما أفراد قبيلة جهينة في منزلة أفضل من أي وقت مضى. وضرب الشيب مفرق دخيل الله العجوز في الغزوات الناجحة، وهو محتاط وألمعي مثل أيّ غازٍ.

كما أظهرت النتائج استحالة اكتشاف الأتراك ألغام Garland المزروعة بصورة صحيحة. فقد بحث أحد عشر رجلاً عن لغمي مدة عشرين دقيقة. كما أن الحاميات التركية تعاني بشدة من التوتر، ومجموعة المدفع الرشاش الموكلة مهمة استهداف القاطرات التي تقطعت بها السبل قد تتطلب قدراً كبيراً من الحركة في الكَرِّ أو الفَرِّ. ولا بدّ، إذا أمكن، أن تكون محمولة على نوع الدّواب نفسه مثل المرافقين القبليين.

20. تعليقات على شؤون الحجاز

13 أيار/ مايو 1917

مقدّمات ثورة الحجاز

أبدى طلعت عام 1913 قلقاً كبيراً بشأن الوضع في الحجاز. كان إخضاعها وفرض الخدمة العسكرية فيها مشروعاً مفضلاً. فنظر محمود شوكت باشا والوزارة التركية بصورة عامة إلى الوضع على أنه مقلق بسبب سيطرة حسين باشا الكبيرة علِى الناسِ. كان هذا السبب الحقيقي وراء تعيين وهيب، وكان

انسحابه انتصاراً شخصياً بالنسبة إلى فيصل الذي حصل من طلعت على وعد بمحاكمة وهيب أمام محكمة عسكرية لانتهاكه امتيازات الحجاز.
عُدّ الشريف عبد الله السبب المحتمل للاضطراب في الحجاز. ولإبعاده عنها، عُرضت عليه وزارة الأوقاف أولاً، ثم ولاية اليمن. فاستوعب الفكرة، ورفض التعيينات. كان عبد الله يحتقر قرار طلعت، ويعدّه همجياً وجاهلاً.
كانت خطة الشريف عبد الله السابقة لتأمين استقلال الحجاز (تمهيداً لتشكيل دولة عربية) تتمثل في وضع اليد المفاجئ على الحجاج في مكة المكرمة خلال العيد الكبير. لقد كان يعتقد بأن الحكومات الأجنبية المعنية (إنكلترا وفرنسا وإيطاليا وهولندا) ستضغط على الباب العالي لتأمين إطلاق سراحهم. وعندما أخفقت جهود الباب العالي، تعيّن على هذه الحكومات التواصل مع الشريف مباشرة، وستجده حريصاً على بذل كل ما في وسعه لتلبية رغباتهم، لقاء وعد بالحصانة من تركيا في المستقبل. تم إقرار هذا الإجراء (مؤقتاً) لعام 1915، لكنّ الحرب ألغته.

قبائل الحجاز

أعطى عبد الله أفراد قبيلة عتيبة الشرقية (ليس لديه سيطرة تذكر عليهم، وقد لا يأتون إلى الحجاز للقتال من أجله، لو طلب منهم ذلك) أوامر بمساعدة ابن سعود ضد ابن رشيد. كان بسبب ذلك جزئياً أعلن ابن رشيد الحرب على الشريف. فعبد الله لا يعنيه إطلاقاً إن كانوا يساعدون ابن سعود أم لا. لكن الأمر كان تعهداً بالسيطرة على قبيلة عتيبة كلها (هي مسألة يدّعيها عبد الله) بشكل لا يكاد ابن سعود يعترض عليه عن طيب خاطر.
منح الأتراك أوسمة لشيوخ قبائل عايدة وطوالة والفقير (الفقراء). وقرر المستلمون عرض أوسمتهم الجديدة على سيدي عبد الله، لكن أثناء عبورهم السكة بالقرب من محطة الطويرة، واجهوا دورية تركية، الأمر الذي أدى إلى مقتل الجمل الذي يحمل أمتعتهم الشخصية واضطرارهم إلى التخلي عنه. وهكذا استعاد الأتراك شاراتهم.
تعتقد قبيلة عتيبة بأن المسيحيين يرتدون القبعات حتى تتدخل الحافات البارزة بين عيونهم ورؤية الله غير الملائمة.
يرى دخيل الله القاضي، الذي كان يتمتع بوسائل قضائية جيدة، قبيلة بلي أقل من نصف قوة قبيلة جهينة، وأقل بقليل من قبائل فرحان العايدي. وفرحان (في صفّ عبد الله) هو مطلق العايدي، مُضيف داوتي القديم. يقول دخيل الله إن أفراد قبيلتي بلي والحويطات مقاتلون أشرس بكثير من ولد علي أو عتيبة. وفي الواقع، ألاحظ ازدراء جهينة لعتيبة، وأعتقد بوجود قدر كبير من التسويغ لهذا الشعور.

21. من الوجه إلى وادي العيص وإياباً

23 أيار/ مايو 1917

1. من الوجه إلى وادي العيص عبر درب الجاره

غادرتُ الوجه في تمام التاسعة مساءً في 10 آذار/ مارس بصحبة أربعة من قبيلة عقيل وأربعة من رفاعة جهينة قاصدين معسكر سيدي عبد الله. وسرنا على طول طريق الخوثلة حتى جبل الجدرة (النباطين، باستثناء التلة الشمالية للاثنين)، الساعة 12.30 صباحاً، ثم توجّهنا من طريق الخوثلة مباشرة عبر منطقة مليئة بالحجارة الخشنة تغطيها الرمال. استمر هذا فقط حتى 12.50 صباحاً، عندما دخلنا أحد الوديان، وعبرناه، ومررنا فوق الوديان الأخرى وروافدها حتى 1.15 صباحاً، عندما توقفنا في سيل العرجا، الذي يجري إلى المنيبرة. وكانت الرحلة في الساعة الماضية مضنية.

11 آذار/ مارس

انطلقنا في السادسة صباحاً إلى أحد روافد سيل العرجا، وتابعنا سيرنا فيه حتى 6.30 صباحاً، عندما وصلنا قمة الوادي، ودخلنا سهلاً بعرض نحو ميل واحد. كان الطريق متشعباً، فنزلنا أسفل المنحدر مباشرة في 6.45 صباحاً بزاوية 140 درجة، إلى سيل المسماه، في السابعة صباحاً. ويجري المسماه إلى سيل العرجا والمنيبرة. فعبرناه ودخلنا وادياً جانبياً (وعراً في أجزاء منه) إلى مستجمع مياه في 7.40 صباحاً، ومنحدر حاد لبضع دقائق وصولاً إلى سهل رملي وحصوي كبير. واتجهنا عبر هذا بزاوية 110 درجة حتى 8.15 صباحاً، عندما عبرنا وادي مُرّة الذي يصل إلى السبخة في منطقة القرنة. كان جبل مُرّة يبعد نحو ثلاثة أميال إلى الشمال. وفي 10.10 صباحاً، وصلنا وادي أبو عجاج، الذي يجري من 20 درجة إلى 200 درجة. إنه ليس سريراً واحداً، بل نظاماً متكاملاً من السيول، ضحلة ومشجّرة كلّها، تكتنفها مجارٍ مائية رملية ناعمة. كان جبل عكوة المطل على مرسى زاعم يقع على بعد نحو ثلاثة أميال على اليمين. فعكوة شعابٌ مرجانية مسطّحة القمة ذات جوانب مربعة لا لبس فيها. وتوقفنا في وادي أبو عجاج الساعة 10.45 صباحاً، وانطلقنا من جديد في 12.45 بعد الظهر. وفي 1.30 بعد الظهر، كنتُ على مقربة من جبل جَيْلة، على بعد نحو خمسة أميال. وفي 1.50 بعد الظهر و2.5 بعد الظهر، عبرتُ روافد وادي الغربان الذي يمر جنوب جَيْلة. كان مرحلة عبور السهل سلسة في البداية، وازدادت قساوة إلى حد ما بعد ذلك لكن بوجود وديان رملية ناعمة جداً، الأمر

الذي سيكون مؤذياً للسيارات. أخذنا المرشد الآن بعيداً جداً شرقاً، ودخل المسار أسفل رؤوس جبل رال النهرية. في النتيجة، لم ندخل وادي الحمض حتى الرابعة عصراً. وتوجهنا عبر هذا إلى غدير في منطقة أبو زريبات التي وصلناها في السادسة مساءً، إذ كانت أصغر مما عليه في كانون الثاني/ يناير الماضي.

12 آذار/ مارس

انطلقنا في 3.45 صباحاً وأخذنا نضل الطريق في الظلام. وفي 4.30 صباحاً، دخلنا إلى تلال منخفضة وعرة، جبل عكمة، حتى 5.20 صباحاً، عندما انعطفنا إلى اليمين باتجاه سيل عكمة بزاوية 135 درجة. وفي 5.30 صباحاً، وصلنا إلى مستجمع مياه طبيعي، ونزلنا في 6.10 صباحاً وادياً قصيراً يشرف على نبات الحنظل الفاخر ويؤدي إلى الخبت. ويُصنع من نبات الحنظل، بعد طحنه وتجفيفه، أفخر أنواع خشب البناء. يُفرك عصير الحنظل على القدمين لإحداث تأثير مطهِّر حتى عندما يتم تطبيق الدواء بهذه الطريقة المخفَّفة للغاية، إذ يُقال أنه مميز تماماً. ويمكن للخيول التي تأكل سيقانه وأوراقه البقاء دون ماء مدة طويلة.

الخبت سهل عظيم، يرشح من أطرافه في وادي الحمض بالقرب من أبو زريبات. ويصله طريق إلى أملج. عبرناه بشكل قطري قاصدين الصخور. وفي 7.15 صباحاً، وصلنا ضفة الخبت الشرقية، وانعطفنا يميناً نحو وادٍ جانبي عشر دقائق إلى سهل El-Magrah في قرية الدراج، وهي منطقة مغطاة بأشجار خفيضة تؤدي إلى قاع الصخور. وتوقفنا الساعة 7.40 صباحاً وسط هطول أمطار استمرت بتقطع من السادسة حتى 8.30 صباحاً. في الدراج، كان ثمة اثنتا عشرة خيمة لقبيلة بلي، إضافة إلى الأغنام والماعز والخيول والجمال. لم تكن هناك أمطار تُذكر في منطقة البِلْوية [نسبة إلى قبيلة بِلي] هذا العام، بل أمطار كثيرة في منطقة الجهينية [نسبة إلى جهينة]. في النتيجة، إن كثيراً من أفراد قبيلة بِلي قد عبروا الحدود إلى المراعي بأمان. فكانت هذه المضارب تُروى من حيران.

غادرنا قرية الدراج عند العاشرة صباحاً وانتقلنا عبر سفوح الصخور. وانتهى بنا المطاف في وادٍ إلى أن صرنا بينها وبين الصخرة المعزولة جنوب غربها. ثم اندفعنا 15 دقيقة فوق الجروف الصخرية وعلى طول الصدوع فوق أخدود حادّ وأسفل السرير الحجري، مروراً بصخرة ضخمة عليها آثار طَرْق قبلية، إلى حوض وادي حيران. فالصخور كتل ضخمة مخططة من صخور بركانية حمراء اللون، رمادية على السطح. تشبه الصخرة بطيخاً بنياً شامخاً، أملسَ تماماً على وجهيه الجنوبي والشرقي، وقبويّ الرأس، مصقولاً إلى حد اللمعان، مع

وجود شقوق دقيقة، مثل الغُرَز، تتخللها طولاً وعرضاَ. لا بدّ أن يكون الارتفاع فوق السهل قرابة سبعمئة قدم.

كنا فوق هذا المعبر وفي وادٍ ضيق، بين نتوءات غرانيتية، في 11.5 صباحاً. أدى هذا إلى وادٍ آخر، وهكذا إلى وادٍ آخر، حتى دخلنا وادي حيران عند الظهيرة (مجراه من أربعين درجة إلى مئتي درجة). ويقع البئر أسفل الوادي، على ميمنتنا إلى حد ما. فعبرنا الوادي، وقصدنا أحد روافده. ثم سرنا صعوداً ونزولاً فوق قطع الغرانيت المتراكمة حولنا في أكوام صغيرة بطول خمسين قدماً في ارتباك جامح حتى 12.45 بعد الظهر. لم يكن هناك طريقاً، ولم نحافظ على اتجاه، لكننا تجولنا حيثما أمكننا ذلك. وكانت الوديان تتداخل في الأماكن كلّها.

في 12.45 بعد الظهر، نزلنا بحدة إلى سيل Dhrufi، وهو وادٍ حرجي بعرض مئة ياردة، سرنا على طوله عند الزاوية 120 درجة. وفي 1.30 بعد الظهر، وصلنا قمة رافدنا من الوادي، وصعدنا طريق تل ضيق وعسير، مع درجات صخرية مكسورة، صعبة على الجمال، حول كتف جبل Dhrufi (سلسلة جبال) إلى مرتفع من خلاله يؤدي الانحدار الحاد ولكن القصير إليه إلى وادٍ يكتسحه من الشمال الشرقي باتجاه البحر ويعبره. تحولت الأرض مرة أخرى إلى تشابك من التلال الصغيرة والوديان حتى تم الوصول إلى مستجمع المياه الجديد الساعة 1.40 بعد الظهر. كان هذا الأمر سهلاً وقادنا إلى وادٍ كبير يجري جنوباً، فانعطفنا إلى اليسار بزاوية قائمة بالقرب من الجدار الصخري الذي أتينا منه. لقد اكتشفنا هذا الوادي الذي بات ضيقاً جداً، وسرعان ما غادر المجرى السرير وأخذ يتسلق جانب التل إلى الشمال. كان الصعود شديد الانحدار، وغير صالح للجمال المحمّلة بسبب السطح الخشن وضيق المسار بين المنحدرات الحادة للغاية فوقه وتحته. وفي 2.20 بعد الظهر، وصلنا مستجمع المياه، ونزلنا من وادٍ رملي إلى وادي حنبل، وهو رافد حرجي كبير من وادي حيران. توقفنا عشرين دقيقة في خليج رملي صغير من التلال ثم عبرنا الوادي وصعدنا إلى أحد روافد ضفته الشرقية، وادي الخيطان، لنحصد الكلأ الفاخر من أجل الجمال. فالخيطان هذا وادٍ صخري ذو سطح صلب تماماً (دون صخور)، عرضه نحو ثلاثمئة ياردة من تل إلى آخر، وحرجيّ بأشجار شوكية. وتابعنا سيرنا حتى 4.15 عصراً. ثم توقفنا. وأخذ الوادي يقصر قليلاً في نصف الساعة الأخيرة. وكانت التلال صغيرة جنوباً. أمّا شمالاً، فيوجد تل كبير جداً، جبل Jidwa، يبلغ طوله نحو ستة أميال، وقد يكون على بعد ثلاثة أميال، يطوق الوادي بجرف صخري شديد الانحدار وشاهق، ويجري شمالاً وجنوباً تقريباً.

13 آذار/ مارس

انطلقنا في 3.30 صباحاً، وبلغنا قمة وادي الخيطان في غضون بضع دقائق، وتجاوزنا معبراً ضيقاً بين كتل الصخور (شديد الانحدار، لكنه ليس عسيراً بل ضيقاً جداً بالنسبة إلى العجلات) إلى سيل جدة الذي يصل إلى وادي عمق الذي يحتوي تلالاً حادة من كل جانب. وفي 4.30 صباحاً، تباعدنا إلى اليمين نحو وادٍ يجري جنوباً. كان عرضه بين منحدراته من ثمانية أقدام إلى عشرة، لكن قاع السيل كان مثقلاً بالحجارة والأشجار المتساقطة. وعليه كان المعبر عسيراً. وفي 4.50 صباحاً، وصلنا قمته ووجدناه وادياً لطيفاً يجري جنوباً. وفي 4.50 صباحاً، انعطف الوادي غرباً على ارتفاع ميل واحد تقريباً فوق بئر رِيمة، وهو الحفرة المائية الضحلة الوحيدة في سرير الوادي. كانت رائحة الماء كريهة، ومذاقها مزعجاً بالقدر نفسه، لكن بشكل مختلف تماماً. وكان لدينا تلال عالية في الشرق وتلال أصغر في الغرب. وانطلقنا مجدداً في 8.30 صباحاً، وغادرنا وادي رِيمة إلى الجنوب عبر وادٍ جانبي يتجه إلى مستجمع المياه حيث حظينا بمنظر رائع لأسفل وادي عمق الواسع والأخضر الذي يمر عبر الخَيْف في طريقه إلى البحر. فرافده هذا يجري بزاوية 150 درجة، ويحده تلال كبيرة. في التاسعة صباحاً، تحول الوادي إلى الشرق، وتلقى تغذية كبيرة (في الجدول الرئيس) من الشمال في 9.20 صباحاً، واتجه بزاوية 180 درجة. لقد قطعنا نقطة الالتقاء بزاوية 70 درجة، قاصدين مركز تل كبير أمامنا. وفي 9.30 صباحاً، وجدنا وادياً جانبياً، ومررنا فوق رقعة من الرمال البيضاء الناعمة في سريره في 9.40 صباحاً. وفي 10.15 صباحاً، دخلنا وادي ذهب عمق قادمين من الشمال للانضمام إلى وادي عمق. صعدنا وادياً جانبياً منه، مع وجود تلال مرتفعة على اليمين على بعد ربع ميل تقريباً. ثم تسلقنا وادياً رملياً بين أكوام الغرانيت الرمادي المشوه بشكل غريب الذي يشبه الحلوى الباردة التي يجدها المرء في الحجاز كثيراً. قادنا هذا الوادي إلى سفح إحدى هذه الأكوام الحجرية العظيمة التي تمتد على منحدرٍ ودرج طبيعيّين، مكسورين بشكل خطير، ومتعرّجين وعسيرين على الجمال، ولكنهما قصيران. هذا أعادنا مرة أخرى فوق المنعطف الشمالي لوادي ذهب في 10.30 صباحاً. وتابعنا الوادي حتى (قمّته) الساعة 11.38 صباحاً. ويجري بزاوية 120 درجة تقريباً، وله تلال منخفضة على يمين الطريق، وتلال عالية على يساره. وهو مليء بالأشجار الكبيرة جداً؛ وهناك برك مائية في الوديان المحيطة به. كان هناك عدد من خيام المراوين هنا وهناك، مع وفرة في الأغنام والماعز. وفي 11.15 صباحاً، ضاق الوادي، وأخذ يتحول إلى صخري (بدلاً من كونه حصوياً سلساً ممتازاً). وفي 11.25 صباحاً، بات مجرد مسيل، وقادنا مسار مروّع على الضفة الشمالية منه إلى مستجمع المياه بين وادي ذهب عمق ووادي مرخ. كان المنظر من القمة جميلاً، لكنّ النزول خطير. وبلغنا القاع الساعة 11.45 صباحاً، ووجدنا أنفسنا في وادٍ مستقيم تماماً، يجري بانحدار شديد بزاوية 130 درجة نحو سفح التل أمامنا، بين جدارين عاديين من التلال المتوسطة. وفي 12.25 بعد الظهر،

دخل وادٍ جانبي كبير إلى اليمين، يظهر من خلال انهياره في التلال سلسلة جبال موازية على بعد ميلين وأرض مصدّعة خلفه. فكان هناك صدع مقابل على اليسار (لكنه صغير). ثم انفتحت جدران التل في نطاق مزدوج مثل مدرّج من الحجر الرمادي مصحوب بعروق من الغرانيت البني الأحمر الغامق تجري فوقها في خطوط مسنّنة تبدو مثل عرف الديوك، أو سكة حديدية ريفية ذات مناظر خلابة. وأمامه جدار أسود شديد الانحدار من مخلّفات الحرّة، مع وجود تلة منخفضة من الغرانيت البني في منتصف السكة. فتوقفنا الساعة 1.10 بعد الظهر تحت الأشجار، بعد مدة وجيزة من اجتياز طوق كومة من الحجارة غير المقطوعة قطرها نحو أربعين قدماً مصحوبة بمَعْلَم مركزي، وبعض أكوام مربعة صغيرة حولها خارج الطوق. فكانت هذه هي البقايا الحجرية الأولى التي لاحظتها (باستثناء المعالم البسيطة) في الطريق من الوجه. لكن من الآن فصاعداً إلى مصب وادي العيص، من المفترض أن تصبح مألوفة على نحو متزايد. فثمة آثار متميزة من القرى القديمة ومنشآت المنحدرات الشاقة من أجل الزراعة في أجزاء من الحرّة ووديانها. وتنسب قبيلة جهينة ذلك كله إلى بني هلال، ولم يسبق لهم أن نصبوا حتى مَعلَماً من أكثر من ثلاثة أحجار أو أربعة. فالهياكل الحجرية الوحيدة لهم هي بيوت مربعة صغيرة من النوع الذي يسمونه "نواميس" في أجزاء من سيناء. تم إنشاء هذه الأماكن الصغيرة لإيواء صغار الحملان والماعز، ويبنيها الرعاة، وفق الحاجة.

لقد وصلنا الآن إلى منطقة خصبة أكثر بكثير من منطقة تهامة أو التلال القريبة من الوجه. فيحصل هجّانتي على الحليب في مضارب المراوين اليوم، وهو أول حليب يتذوقونه منذ عامين. يُرصع هذا السهل من حصى الكوارتز الناعم والرمال الخشنة بأعشاب مكسوّة بجذامة الزرع، في باقات يبلغ ارتفاعها ست عشرة بوصة، ذات لون أخضر داكن، وبيضاء عند القمم. فالحرارة مرتفعة جداً، لكن هناك رياح باردة خفيفة، ومع ذلك، ليس لها تأثير يُذكر في وباء الذباب.

كان بصحبتي سوري ومغربي ومراويني وأربعة رجال من رفاعة، وثلاثة من عنِزَة، والراس، والزلفي، على التوالي. يصف الأخير نفسه بأنه شاهد عيان على موت شكسبير. يقول إنه كان يخدم في مدفعية ابن سعود، فينظر من خلال منظاره الميداني بشكل سافر للغاية، إذ كان يرتدي الزي البريطاني الكامل وخوذة واقية من الشمس. لذلك، تم انتقاؤه بسهولة، وتم إطلاق النار عليه من مسافة بعيدة. فكانت هناك مظاهرات كبيرة في المدينة المنورة، ولا تزال الخوذة معروضة في السراي تحمل نقشاً يشير إلى مغزاها.

انطلقنا مجدداً في 2.35 بعد الظهر (بزاوية 120 درجة) عبر وادي مرخ الذي يجري غرباً إلى مقصّر جنوب حرّة القليب مباشرة. وفي تمام الثالثة بعد الظهر، دخلنا حرّة جارة. فهي تشغل وادياً يجري شمالاً ويصب على مراحل أو موجات في وادي مرخ، حيث يتم تقلِيصه. لِقد صعدِنا مصطبته الأولى بحلول

3.25 بعد الظهر، ووجدنا سهلاً صغيراً رملياً وعشبياً في الحمم البركانية من الدرجة الثانية. ثم اتجهنا شرقاً نحو وادي جارة، وهو أحد المصادر الرئيسية لتدفق الحمم البركانية. كانت الحمم البركانية في حبل كبير يؤدي إلى وسط الوادي، وقد شقّت مياهها سريراً عميقاً لنفسها في الغرانيت من كل جانب. وفي الرابعة بعد الظهر، أتى سيل من الحمم البركانية من الجنوب، فعبرناه وحافة الجدول الرئيسي وجداول جانبية أخرى ببطء وعذاب شديدين حتى 4.50 عصراً. كانت ضفة الوادي الشمالية خطاً مستقيماً من التلال. وفي 4.50 عصراً، مررنا بفوهة بركانية أولى من الرماد والتراب الأسودين المنخولين، جنوب الطريق مباشرة. وتوقفنا في 5.10 مساءً في مضارب الشيخ فهد الهماش الذي كان يقدّم زبدية من اللبن تلو الأخرى حتى العاشرة مساءً، ثم منسف أرز مغطى بشاةٍ مقطعة. فالجمال والرجال كلّهم كانوا منهكين، لأن عبور الحرّة مقيت. وتبدو الحرّة مثل البيض المخفوق الذي سار على نحو مخالف للتوقعات تماماً، ويُتيح للإنسان أو الدّابة أسوأ ما يمكن تخيله.

14 آذار/ مارس

انطلقنا في 5.40 صباحاً، وانعطفنا في 6.25 بزاوية 120 درجة مع الوادي، ثم انتقلنا بحدّة إلى اليسار أعلى المنحدر بين مجموعة من مخاريط الرماد الأسود الناجمة عن فوهة بركان ضخمة جنوباً. وبلغنا مستجمع المياه (رأس جارة) في 7.10 صباحاً، ونزلنا منحدر الوادي الشرقي، مروراً بطلول من حجارة خشنة غير مقطوعة، ومستطيلة، وعرضها نحو أربعين قدماً وطولها قدمان، وكان يُعتقد أنها تعود إلى حصن. فتبلغ سماكة الجدران نحو ثلاثة أقدام، ولا يزيد ارتفاعها الآن عن أربعة أقدام. كان النزول سيئاً للغاية. وغادرنا الوادي الرئيسي الثامنة صباحاً، وتوقفنا 8.20 صباحاً في نهاية الحرّة، صعوداً إلى وادٍ جانبي، في مضارب الشيخ مويلح، أحد أقارب فهد. فتوقفنا حتى 9.35 صباحاً. ثم سرنا بزاوية 120 درجة حتى العاشرة صباحاً عندما وصلنا قمة الوادي عبر طلول استيطان وحقول قديمة. وفي 10.10 صباحاً، عبرنا نتوءاً صغيراً يؤدي إلى وادٍ صغير بين التلال، الأمر الذي قادنا في الحال إلى مجرى كان يتعين على الجمال تسلّقه حتى 10.25 صباحاً. كان امتطاء الرواحل خطيراً، فسار معظمنا. وكان النزول السريع من القمة إلى وادي الشويط حتى 11.20 صباحاً سهلاً، عندما تداخل مع وادي المرامية، أحد أهم الروافد من الجهينية إلى وادي الحمض. ويمتلئ الوادي في أنحاء وسطه كلّها بحرّة منفوشة، ولكن يوجد مسار واضح في كل جانب. فسرنا على طول الحافة الغربية حتى 11.50 صباحاً، عندما اكتشفنا خليجاً من الحمم البركانية، وعسكرنا تحت شجرة في وادٍ عشبي. فتجد نباتات رائعة توفر أفضل مرعى في البلاد في الحفر العميقة

والأماكن الرملية من الحرّة. وتنمو الأزهار بحرية، والعشب مخضرّ وغضّ حقاً. ويبدو المرج أكثر روعة مقارنة بالقشور الجرداء الزرقاء الضاربة إلى السواد وتعرجات الصخور المسننة في الأماكن كلّها. ويبدو أن الحرّة أكوام مفككة من حجارة بحجم القبضة أو الرأس، ملتصقة بعضها ببعض ومستديرة، يمكن أن تصلح للجمال، أو صلبة، شبه متبلورة، يستحيل عبورها.

امتطينا رواحلنا مرة أخرى الساعة 2.15 بعد الظهر، وعبرنا الحرّة المتبقية في بضع دقائق إلى سهل منبسط يحتوي دوائر حجرية ومعَالِم. وفي 2.40 بعد الظهر، بلغ هذا الأمر نهايته، وانعطفنا 125 درجة باتجاه معبر طبيعي. ووصلنا مستجمع المياه (الواسع والمنبسط) الثالثة بعد الظهر، ودخلنا وادي الشفيّة المستقيم الذي يبلغ عرضه نصف ميل، ويكسو الأرض بالعيدان، وهو محاط بالتلال. أمّا في نهايته السفلية (في 3.45 بعد الظهر)، فهناك حقل مساحته قرابة ربع ميل، تم حرثه قبل عامين. كان هذا أول حقل رأيته في الجهينية رغم الإبلاغ عن عدد من الحقول الأخرى. وانتهى الحقل بحرّة عبرناها. كان أسوأ طريق شهدناه في المسير حتى الآن. فلقد مررنا بكثير من الطرق الوعرة لكنّ هذا الطريق فظيع. فالمسار متعرج عبر الحرّة التي كانت عميقة جداً ومتراكمة ومفتوحة. ووصلنا الجانب الجنوبي (الذي كان متجهاً شمالاً) الساعة 4.30 عصراً، وتسلقنا مستجمع مياه منخفض يؤدي إلى وادٍ سلس، وانعطفنا نحو وادي المرامية في 4.40 عصراً. فصعدنا أحد روافده بضع دقائق، ثم نزلنا إلى وادي المرامية. وكان عبور حرّته الوسطى سهلاً، إذ استغرق الأمر خمس دقائق فقط. ثم تسلقنا ضفته الأخرى؛ إنه سهل بعرض ميلين تقريباً في هذا المكان، تكسوه أشجار كبيرة (وادي غديرات المرامية) حتى بالقرب من حدود التل الشرقية. وسرنا على طول هذا الطريق، عبر طريق جميل، حتى حلول الظلام. كان في مقدورنا رؤية الحمم البركانية على بعد ميل ونصف إلى اليمين، وخلفها انخفاض في التلال وسلسلة جبال عالية عن بُعد. وحلّ الظلام السادسة مساءً، وبرز تلّ وسط الوادي. وفي قرابة 6.30 مساءً، عبرنا مستجمع مياه ضئيل، ونزلنا وادي طليح إلى أن توقفنا في السابعة مساءً.

15 آذار/ مارس

نزلنا الوادي على ظهور الجمال الساعة 5.30 صباحاً، الذي أصبح أكثر اخضراراً مع انخفاضه. وكانت التلال من كل جانب منخفضة في البداية. لكن بعد ذلك، رفع جبل علي علي اليمين، وفي ما بعد جبل قشرة على اليسار، المستوى. وفي الثامنة صباحاً، مررنا بتلة مخروطية الشكل في الوادي، أسفل جبل قشرة. وعبرنا منبع مياه منخفض إلى وادٍ موازٍ في 8.30 صباحاً. وفي 9.20 صباحاً، ينكشف هذا المشهد على وادي العيص في أبو مرخة، حيث يبلغ عرض

الوادي قرابة ميل واحد، وكثافته الحرجية أكثر من معظم وديان الحجاز، ويحتوي حفرة مياه كبيرة بعمق 30 قدماً تؤدي إلى مجرى تحت الأرض في جانبه. فوادي العيص في هذا المكان محصور بشدة بالتلال على جانبه الجنوبي، لكنّه مفتوح في الشمال، لأن نظام أودية طليب كلّها تصبّ فيه. وجدت سيدي عبد الله في أبو مرخة، وهو يترجّل عن راحلته، بعد مسيره إلى هذا المكان من بئر بن عمري.

الوقت المستغرق من الوجه إلى وادي العيص: 47 ساعة.

كان الطريق فرعياً، مستحيلاً لأيٍّ من الدواب باستثناء دواب النقل، وليس للاستخدام المنتظم أو الطويل الأمد.

كان متوسط سرعة الجمال قرابة ثلاثة أميال في الساعة.

2. من أبو مرخة إلى الوجه

عندما أجرى سيدي عبد الله الترتيبات اللازمة لقطع سكة الحديد ليلاً، قررت العودة إلى الوجه. لذلك انطلقت في السادسة صباحاً مع ثلاثة رجال من قبيلة عقيل ومحمد القاضي واثني عشر من أتباعه تقريباً. فوضَعَنا الشريف شاكر على سكتنا الصحيحة في نصف الساعة الأول.

في السابعة صباحاً، وصلنا مستجمع المياه المنخفضة المؤدي إلى وادي طليب الذي عبرناه في رحلتنا إلى وادي العيص. سرنا عبر وادي طليب، وصعدنا وادياً جانبياً شديد الانحدار شمال جبل قشرة. وفي 8.55 صباحاً، وصلنا إلى قمة هذا الجبل، ونزلنا منحدراً سهلاً إلى وادي الساورة، وانعطفنا قليلاً بعيداً عن طريقنا إلى بعض الخيام في 9.20 صباحاً، حيث توقفنا. لقد أطعمونا بحفاوة بالغة، وفي 12.50 بعد الظهر، تابعنا رحلتنا عبر وادي الساورة الذي ينبع من الشرق، وصعدنا رافده الشمالي المؤدي إلى المنبع المشترك لوادي عثمان ووادي بَدْعة، على سفح جبل ريام الشرقي، الساعة 2.5 بعد الظهر. أمّا على سفح ريام الغربي، فيقع المنبع المشترك لوادي طليب ووادي المرامية. وتابعنا مسيرنا في وادي عثمان (الذي يصلح للعجلات الجبلية، باستثناء نحو 150 ياردة في قمته، حيث سيكون قطع الصخور ضرورياً)، وأخذنا نلتف ونلتف حتى الخامسة مساءً، عندما شاهدنا على ميسرتنا، عند انعطافنا بزاوية قائمة، Magrah el-Ithrara التي يصب نصفها الغربي في المرامية. وتوقفنا 6.15 مساءً في مصب وادي قريّة.

انطلقنا في 5.5 صباحاً، وسرعان ما اتسع وادي عثمان. وعبرناه إلى مضارب دخيل الله في 5.55 صباحاً. واضطررنا إلى التوقف هناك حتى 1.35 بعد الظهر بينما كانوا يعدّون أرز الزعفران ولحم الضأن. ثم صعدنا وادياً جانبياً، ونزلنا وادي عثمان مرة أخرى في 2.15 بعد الظهر. فسلكناه نزولاً (لم يكن متعرجاً

في مساره كما كان عليه بالأمس) حتى الرابعة عصراَ، عندما انعطفنا إلى اليمين فجأة ووجدنا أنفسنا في وادي الحمض الذي يتدفق هنا في وادٍ ضيق محاط بجدران صخرية، وعرضه قرابة 200 ياردة. فالوادي من الرمال الصلبة الرطبة وحافاته جرداء. يعجّ وسطه بخشب أسلم، وأرضه قشرية، وذات لون أبيض مالح، مع بقع نافرة رخوة حيث تنمو أو كانت تنمو فيها شجيرات. وتتقاطع الأسرّة المائية في تربة طينية خفيفة ونظيفة يتراوح عمقها من واحد إلى ثمانية أقدام. وكان يوجد في السرير الأوسط غدير (ناتج عن وادي عثمان) عمقه قرابة قدمين، وطوله 250 قدماً، وعرضه 12 قدماً. كان الماء حلواً وجيداً. وكان وادي الحمض يجري إلى جبل مريشيد، على ارتفاع نصف ميل فوق الغدير، وانعطف شمالاً فجأة للالتفاف حوله.

يُروى عن وادي الفقير ارتفاعه سبعة أميال. وانطلقنا من غدير عثمان 6.30 مساءً على طول وادي الحمض. وكنّا في 7.15 مساءً مقابل الحد الفاصل الذي يصل الطريق من وادي عثمان إلى عقيلة (العقلة) وصولاً إلى وادي الحمض. فمسارنا الآن 280 درجة. وفي 7.30 مساءً، انعطفنا 300 درجة. وانحرفنا عن سرير وادي الحمض إلى اليسار في 8.20 مساءً من أجل النوم. يتميز وادي الحمض بوضوح عن أي وادٍ آخر رأيته في الحجاز (باستثناء وادي ينبع) بالبرد الرطب الناجم من واديه. بطبيعة الحال هذا الأمر أوضح في الليل عندما يرتفع الضباب، ويلمع كل شيء بفعل الرطوبة. ولكن يبدو أن وادي الحمض خام وبارد وغير طبيعي حتى في النهار.

انطلقنا على طول وادي الحمض الساعة 5.20 صباحاً. وفي 6.15 صباحاً، برز وادي المرامية على اليسار. إنه يشكل إلى حد بعيد أفضل طريق من الحمض إلى العويص، ويوفر الطريق الأسرع والأكثر سلاسة من الوجه إلى معسكر سيدي عبد الله. فنزلناه، إلى دغل وادي الحمض، حيث وجدنا بركاً كبيرة من مياه الأمطار، بعضها عذب، وبعضها الآخر بات آسناً للغاية. ثم عبرنا الوادي، وغادرنا وادي ضراء على ميمنتنا (فنقطة التقاء ضراء والمرامية تُشكل سهل عقيلة الذي يعدّ بئره المالح مصدر الإمداد الدائم الوحيد في المنطقة إلى حين الوصول إلى وادي الفقير) وتجاوزنا طريق بئر عقيلة (على الميسرة، في وادي الحمض) فوق مستجمع مياه منخفض، إلى المهبط في أم جراد الساعة 7.20 صباحاً. فمن هذه النقطة، تصبح خريطة الرائد روس Ross متاحة. إنه أمر مثير للإعجاب. سرتُ حتى وادي Methar في 10.15 صباحاً، وعسكرتُ حتى الثالثة بعد الظهر. ثم امتطيت راحلتي ببطء حتى 6.20 مساءً، عندما توقفنا (سقط أحدنا من على جمله عندما كان يتسابق، وكسر ذراعه، واضطررنا إلى تركه وراءنا) في محيط وادٍ ضيق في الجنوب، حيث توجد برك مياه صخرية.

انطلقنا الخامسة صباحاً، وتوقفنا السادسة صباحاً في وادي ملحة شمال الطريق الذي يحتوي بركَ مياهٍ جيدة. تابعنا مسيرنا من 6.45 حتى 10.10 صباحاً، وتوقفنا الساعة 2.20 بعد الظهر. ثم توجهنا إلى بئر بن رفادة في

الخوثلة الساعة 4.50 عصراً. توجد خمس آبار في وادي الخوثلة وبالقرب منه على أقل تقدير، وفي محيطها نباتات صغيرة من نخيل السدود، وواحدة أو اثنتان من أشجار نخيل السدود. وتوجد في بئر بن رفادة بقايا نخيل جافة وحديقة خضراوات بدأ سليمان تكوينها. وكان لمياه الآبار تأثير مُسهِّل على جمالنا. وتابعنا مسيرنا مجدداً الساعة 5.30 مساءً، وعسكرنا بين الرعال في 7.30 مساءً.

انطلقنا مرة أخرى الساعة 1.36 صباحاً، وتابعنا مسيرنا في حافة مُرّة الجنوبية حتى 8.45 صباحاً. فمنذ الثامنة، عندما كان الرجال والجمال منهكين، على ما يبدو، كان الوقت مناسباً للشاب محمد القاضي للجري في السباقات. لذلك، خلع معظم ملابسه وترجّل عن جمله وتحدى أياً منا ممتطياً جمله سباقَه إلى مجموعة من الأشجار على السفح الأمامي لقاء جنيه إنكليزي. بدأ الحفل كله في الحال، فتبيّن أن المسافة نحو ثلاثة أرباع الميل صعوداً، فوق رمال ثقيلة أتوقع أنها كانت أكثر مما راهن عليه محمد. رغم فوزه بفارق ضئيل، كان منهكاً تماماً، وسقط وهو ينزف من فمه وأنفه. فكانت بعض جمالنا سريعة جداً، وعندما تتسابق بصورة غوغائية، كما كانت حالنا، تبذل قصارى جهدها. فوضعناه على جمله في الحادية عشرة صباحاً، وعندما بدأنا المسير إلى الوجه في الخامسة مساءً، كان سليماً تماماً، ومرة أخرى يمارس الدعابات الصغيرة جميعها التي أحيت المسير من أبو مرخة. إذا باغتّ جملاً، ووخزته بعود في ردفه، وأطلقت صرخة، فإنه يسقط بسرعة، الأمر الذي يسبب حرجاً شديداً لراكبه. كما أنه من الممتع أن تدفع جملاً يعدو إلى شجرة. فإمّا أن تنخسف الشجرة (أشجار الحجاز أشياء غير مستقرة للغاية)، وإمّا أن يتعرض الفارس لسحوج، وإمّا في أفضل الأحوال كلها أن يُطاح به عن سرجه ويُترك معلقاً على غصن شوكي. فهذا يُعدّ فحلاً، ويحظى بشعبية كبيرة لدى بقية المجموعة.

إن فقر الجزيرة العربية هو الذي يجعل البدو بسيطين وعفيفين وحليمين. إذا اشتبهوا في رغبتكم في قيادتهم، فإما أن يتعنّتوا، وإمّا أن يمضوا في طريقهم، إذا كنتم تعرفونهم، ولديكم الوقت والعناء لطرح الأمور على طريقتهم، فإنهم، بدورهم، سيسعدونكم. لا أحد يعرف هل تستحق النتائج التي تحصلون عليها الجهد الذي بذلتموه أم لا. أعتقد أنه ليس في مقدور الأوروبيين أو أنهم لا يرغبون في قضاء الوقت والتفكير واللباقة التي يكرّسها شيوخهم وأمراؤهم كل يوم على مثل هذه الأمور التافهة. فعملياتهم واضحة، وعقولهم تتحرك كحركات المرء الذاتية، دون أي شيء ملتبس أو مختلف اختلافاً جذرياً. وإذا استطعنا التعايش معهم وقبول قواعد لعبتهم، سيتبعوننا. أمّا الأمر المؤسف، فهو أننا ننهار بسخط وغضب ونتخلّى عنهم.

22. في معسكر الشريف عبد الله

23 أيار/ مايو 1917

أرسل النقيب توماس إدوارد لورانس، الذي ظهر تقريره عن رحلاته من معسكر الشريف عبد الله وإليه، إضافة إلى الغزوتين الرئيسيتين اللتين شارك فيهما بصورة منفصلة، تقريراً عن إقامته في المعسكر نفسه أيضاً. نستقي من هذا الأمر المذكّرات الآتية:

كان لدى عبد الله قوة قوامها قرابة 3000 رجل، معظمهم من قبيلة عتيبة. فكان النقيب لورانس يعتقد بأنهم أقل شأناً من الرجال المقاتلين في قبيلتي حرب وجهينة، كونهم بدواً أقحاحاً. فشيوخهم جهلة ويفتقرون إلى النفوذ والشخصية، ويبدو أنهم غير معنيّين بالحملة. كما أنهم لا يعرفون شيئاً عن البلد الذي يوجدون فيه. عبد الله نفسه كان منغمساً بعيشة تقوم على الملذّات بصورة غير مسؤولة. ويبدو أن ميوله أدبية بوضوح. فكان يهتم بالحرب في أوروبا كثيراً، ويتابع العمليات في السوم ومسار السياسة الأوروبية العام من كثب (عبر الصحف العربية التي كان يقضي معظم يومه في قراءتها)، (مكثتُ في معسكر عبد الله من 15 آذار/ مارس إلى 25 آذار/ مارس. فعانيت من الدمامل في اليوم الأول، ومن الزحار في اليوم الثاني، ومن عشرة أيام من الملاريا في اليوم الثالث). على حد تعبير النقيب لورانس، ”لقد فوجئت عندما وجدت أنه يعرف العلاقات الأسرية لمجالس أوروبا الملكية وأسماء وشخصيات وزرائها“. ويعتقد بأنه يمكن أن يكوّن لنفسه مكانة عليا في اليمن. وإذا نجح في ذلك، ”سيحول ذلك ولاية الشريف من هيمنة قبائل بدوية مفككة إلى مملكة ثرية وقوية مأهولة بالقرويين وسكان المدن“. يضيف النقيب لورانس، بإنصاف، أن جميع الحراكات السابقة المهمة في الجزيرة العربية كانت صنيعة الشعوب المستقرة لا القبائل.

كان الشيخان شاكر ودخيل الله القاضي الشخصيتين المتميزتين في المعسكر. كلاهما رجلان عمليان، ولا تقلّ سلطة الأول عن سلطة الملك أو أبنائه. فالعتيبيّون يبجّلونه. أمّا دخيل الله، فهو رجل قانون بالوراثة من قبيلة جهينة ولديه بعض المعرفة، ويتكلّم التركية جيداً. في الواقع، كان برفقة الأتراك حتى كانون الأول/ ديسمبر الماضي ونزل معهم إلى نخل مبارك. يبدو أنه رجل يتمتع بالهمّة والعزم والمثابرة.

في ما يتعلق بالغارات على السكك الحديدية، قدّم النقيب لورانس قائمة تقريبية بالغارات التي تم تنفيذها خلال إقامته من 24 آذار/ مارس إلى 6 نيسان/ أبريل.

2 – 4 آذار/ مارس	البوير	تم نسف ستين سكة حديد بالديناميت وقطع خطوط التلغراف.

الشهر	اليوم	المكان	العملية
	25	أبو النعم	تم نسف خمس وعشرين سكة حديد بالديناميت، وإلحاق أضرار جسيمة ببرج مياه، ومبنيي محطة من جراء نيران القذائف، وتدمير سبع عربات شحن مغلقة ومستودع أخشاب وخيام بفعل النيران، وقطع خطوط التلغراف، وإعطاب عربة نقل منخفضة تعمل بمحرك ديزل.
	27	إسطبل عنتر	تم نسف خمس عشرة سكة حديد بالديناميت، وقطع خطوط التلغراف.
	29	جدة	تم نسف عشر سكك حديدية بالديناميت، وقطع خطوط التلغراف، وقتل خمسة أتراك.
	31	البوير	تم نسف خمس سكك حديدية بالديناميت، وقطع خطوط التلغراف.
نيسان/ أبريل	3	هدية	تم نسف إحدى عشرة سكة حديدية بالديناميت، وقطع خطوط التلغراف.
	5	المدرج	تم تفجير 200 سكة حديد، وتدمير جسر رباعي القناطر، وقطع خطوط التلغراف.
	6		تم تلغيم قاطرة وإعطابها بصورة مؤقتة.
	6	البوير	تم قطع اثنتين وعشرين سكة حديدية، ونسف عبّارة، وقطع خطوط التلغراف.

لقد فقد الأتراك قرابة 36 قتيلاً، ووقع في قبضتنا نحو سبعين أسيراً وفارّاً خلال العمليات.

بدءاً من 7 نيسان/ أبريل بدأت خدمة منتظمة للمفجّرين، من عين الطُّراة، تعمل ضد قطاع المدرج–أبو النعم، ومن البوير ضد قطاع إسطبل عنتر–بواط. صدرت أوامر للمفجّرين بنسف ما لا يزيد عن خمس سكك حديدية في الليلة وعمل شيء ما كلّ ليلة. كانت نتيجة عمل الليالي الثلاث الأولى مُرضية، لكن لم تصلني أي تفصيلات لاحقة".

في الختام، يشيد النقيب لورانس بإخلاص عبد الله وجدّيته. غير أن النقيب لورانس جعله يقوم بصفقة جيدة: أن يسدد لقبيلة عتيبة (كانت مخصصاتها متأخرة)، ويهتم بأسلحته وبنادقه الآلية، ويرسل مجموعات التفجير الخاصة به، ويبدأ الاستعداد للتحرك العام نحو سكة الحديد. وينتهي التقرير بتوقعات تفاؤلية.

"في ما يتعلق بالوضع في المدينة المنورة، أعتقد أن الجزء الأكبر من القوات، وعملياً المخازن كلّها قد تم إخلاؤها شمالاً في مجموعات صغيرة بالسكك الحديدية. لقد تم التخلي عن برنامج مسير الفرقة الرئيسية الطويل إلى العلا (بحكمة، على ما أعتقد، بالنسبة إلى الأتراك). وسقوط المدينة

المنورة هو الآن مجرد مسألة التوقيت الذي يرغب العرب في تحديده من أجل وضع حد للقضية. فليس لدى الأتراك سوى القليل من الغذاء، لكن لديهم حامية صغيرة جداً لدرجة أن المسألة أقل أهمية. ولا يدخل أي طعام من الشمال. في النتيجة، ستحصل المجاعة عاجلاً أم آجلاً. وإلى أن يتم ذلك، من المحتمل ألا يدخل العرب المدينة، لأن الأمراء كلّهم حريصون على تجنب الأعمال الحربية ضد المكان نفسه لأسباب دينية".

23. قبيلة الحويطات وزعاماتها

24 تموز/ يوليو 1917

كانت الحويطات كلها بقيادة ابن رشيد، وهي عائلة لا تزال موجودة في العقبة في حسمى، لكنها أصبحت فقيرة وضعيفة. ثم بقيادة ابن جازي قليلاً. ومن هذه الفترة، يؤرخ تقسيمهم الفرعي إلى جماعات متنافرة مع سياسات خارجية مستقلة.

إن فرقة أبو تايه الفرعية هي عمل مشترك بين الشيخ عودة الرجل المقاتل ومحمد الذيلان المفكر. فكان على خلاف مع ابن جازي بشأن معاملة الأخير أحد ضيوف الشيخ عودة من قبيلة الشرارات، وفي هذا العداء البالغ من العمر خمسة عشر عاماً، قُتل ابن عودة، عناد، وقد كان شاباً يافعاً. هذا الخلاف كان أعظم الصعوبات التي واجهها الشريف في العمليات التي جرت أخيراً في معان، وقد دفع حمد عرار "ابن جازي" اليوم إلى الارتماء في أحضان الأتراك، فيما كان سحيمان أبو طيور وبقية القبيلة الفرعية في الوجه مع سيدي فيصل. فعرض عليهم عودة السلم والصداقة بناء على طلب فيصل؛ ربما كان هذا أصعب شيء تعيّن على العجوز فعله. فمقتل عناد قضى على آمال أبو تايه وطموحاته كلها في البادية، وجعلت حياته فشلاً مريراً. لكن من مبادئ الشريف الثابتة ألا يكون لأتباعه حالات ثأر، ولا أعداء عرب، سوى الشّمر؛ هم أعداء العرب. إن نجاحه في فض نزاعات الحجاز التي لا تعد ولا تحصى من أكثر مؤشرات حكومته المستقبلية إبداعاً. فمكانة الشريف الآن فوق القبائل وشيوخ العشائر وغيرة القبائل في العقول العربية كلّها. فهو يمثِّل حظوة صانع السلام، وهيبة السلطة المستقلة المتراكمة. إنه لا ينحاز إلى أي طرف في النزاعات أو يُفصح عنها؛ هو يتوسّط ويُنتج تسوية.

بطبيعة الحال إن الشيخ عودة الفذ هو زعيم قبيلة أبو تايه. ولا بدّ أنه بلغ الخمسين الآن (لكنه يعترف بأنه أربعيني) ولحيته السوداء يشوبها البياض. ومع أن بنيته هزيلة لكنه لا يزال طويلاً ومستقيماً، ونحيلاً وقوياً، ونشيطاً مثل رجل أصغر منه بكثير. فوجهه المنهك والمليء بالتجاعيد بدوي قح: جبين منخفض

عريض، وأنف معقوف حاد وعالٍ، وعينان بارزتان بلون بني زيتوني، وفم كبير (للأسف، لا أسنان له الآن، لأنّ أسنانه الاصطناعية كانت تركية، وقد جعله حسّه الوطنيّ يوم مبايعة فيصل في الوجه يضحي بها عن طريق تحطيمها بمطرقة)، ولحية وشارب مدببان، والذقن محلوقة بأسلوب الحويطات. يفتخر الحويطات بكونهم بدو كلياً، والشيخ عودة هو عماد قبيلة أبو تايه. فضيافته عارمة (مزعجة سوى للنفوس الجائعة جداً)، وكرمه جعله فقيراً، فقد بدّد أرباح مئة غارة ناجحة. كما أنه تزوج ثمانياً وعشرين مرة، وأصيب ثلاث عشرة مرة. وفي معاركه، أُصيب رجال عشيرته جميعهم، وقُتل معظم أقاربه. لقد أبلغ عن "حصيلته من القتلى" فقط منذ 1900، ويبلغ عددهم الآن خمسة وسبعين عربياً؛ الشيخ عودة لا يحسب الأتراك عندما يموتون. أصبحت عشيرة التوايهة بقيادته أفضل قوة قتالية في غرب الجزيرة العربية. على الأغلب، يُغير ما استطاع إليه سبيلاً كل عام ("لكن العام يمر بسرعة كبيرة، يا سيدي") وشهد حلب والبصرة والطائف والوجه ووادي الدواسر في حملاته المسلحة.

في طريقته الخاصة الشيخ عودة عنيد بقدر ما هو غضوب. فصبره شديد، ويقبل النصيحة أو الانتقاد أو الإساءة (ويتجاهلها) بابتسامة ثابتة بقدر ما هي ساحرة للغاية. فلا شيء على وجه البسيطة يجعله يغير رأيه أو يطيع أمراً أو يسلك مساراً يرفضه. والحياة بالنسبة إليه ملحمة وأحداثها مهمة كلّها وشخصياتها بطولية كلّها. ويزخر ذهنه (ويفيض عموماً) بقصص الغارات القديمة وقصائد المعارك الملحمية. وعندما لا يستطيع تأمين مستمع، يغنّي لنفسه بصوته الهائل والأجش والموسيقي أيضاً. أمّا في وديان العرنوسة التي يتردد صداها، فكان مرشدنا في المسيرات الليلية صوت عودة الرائع وهو يتحدث بعيداً في المقدّمة، ويتردد صداه نحونا من أسطح الجروف المتصدعة. فيتحدث عن نفسه بصيغة الغائب، وهو واثق جداً من شهرته لدرجة أنه يسعد بنشر القصص التي تنال منه شخصياً. وفي بعض الأحايين، يبدو كأن شيطان الأذى تتملّكه، إذ يجاهر في التجمعات الكبيرة بقصص مروعة عن أمور مضيفه أو ضيوفه الشخصية. مع ذلك كله هو متواضع وبسيط كطفل وصريح وصادق وطيب القلب وحنون ومحبوب بحرارة حتى ممن يقسو عليهم من أصدقائه.

بالأحرى إنه مثل قبيلة قيصر في قدرته الحفاظ على أرض حرة حوله، ثم عصبة كبيرة من الأعداء. فنوري الشعلان يتظاهر بحبّ عودة فقط، لكن في الواقع هو وبني صخر والزعامات الودودون كلّهم أيضاً يسعون إلى إرضائه خشية إغضابه. إنه لا يضيع أي فرصة لزيادة أعدائه ويستمتع بالوضع الجديد أكثر من غيره لأنه ذريعة مثالية لمواجهة الحكومة التركية. "من عودة أبو تايه إلى متصرف الكرك... تحية وبعد. فليكن بعلمكم ضرورة التخلّي عن الأراضي العربية قبل نهاية رمضان، لأنّنا نريدها لأنفسنا. إذا لم ترحلوا، سأعدّكم خارجين عن القانون وسيحكم الله بيننا". كان هذا بمنزلة "كارتل" الشيخ عودة للحكومة في اليوم الذي نفذنا فيه هجومنا.

خلفاً للشيخ عودة محمد الذيلان هو الشخصية الرئيسية في القبيلة. إنه أطول من عودة، ومتين البنية، ورجل ذكي مربع الرأس، وعميق التفكير، وربما يبلغ 35 عاماً، وصاحب دعابة فظة تكتنف قلباً طيباً في طياتها. أمّا في شبابه، فاشتهر بالتهوّر، لكنه أصلح نفسه في الليلة التي حُكم عليه فيها بالإعدام شنقاً على يد نيفريس بك Nevris، ضابط أركان سامي باشا، وقد عوّض عن كثير من الأضرار التي تسبب فيها ذات مرة. وعمل كمدير أعمال أبو تايه والمتحدث باسمهم مع الحكومة. فأدخلته ميوله المترفة إلى حد ما وأرضه المحروثة في الطفيلة وبيته الصغير في معان إلى أسباب الراحة المتأصلة بين أفراد القبيلة. ومن هنا، جاءت المياه المعدنية والشمسيّات الملونة من غزوة الحويطات. ومحمد جشع، وأغنى من عودة، وأدهى، وأعمق منه. لكنه مقاتل جيد أيضاً، ويعرف كيف يستميل كل شيء في طبائع سامعيه، ويخضعهم لإرادته بالأقوال.

زعل بن مطلق هو ابن شقيق عودة. ويبلغ خمسة وعشرين عاماً تقريباً، مع ملامح رشيقة، وشارب مفتول بعناية، وأسنان مصقولة، ولحية مشذبة ومدببة، مثل رجل فرنسي محترف. وهو جشع أيضاً، ولاذع كالإبرة، ولا يمتلك قدرات ذهنية كبيرة لكنه تدرّب على يد عودة سنوات عدة رئيساً لكشافة القبيلة، وفي النتيجة هو القائد الأقدر والأجسر في الغارة.

عودة بن زعل هو الرجل الرابع في قبيلة أبي تايه. إنه كتوم وأغرب في الأسلوب من عودة أو محمد أو زعل، لكن أفراد قبيلة الحويطات يتوافدون إليه عند وقوع غارة. يقولون إنه يحتل المرتبة الثانية بعد عودة، بشيء من مهارة محمد المضافة، في العمليات القتالية التي تقتضي القوة المركزة. وأنا شخصياً رأيت الزعماء الأربعة كلهم يتعرضون لإطلاق نار، ولمست فيهم جميعاً اندفاعة وشجاعة غير معقولة ومتهورة تعلل بسهولة ندبات وتشوهات رجال قبائلهم.

فالقوة القتالية لقبيلة أبو تايه هي 535 هجّاناً و25 خيّالاً.

24. آراء الشريف الدينية

12 آب/ أغسطس 1917

في 28 تموز/ يوليو 1917، شرح شريف مكة للعقيد ويلسون موقفه العقائدي بإسهاب بحضوري. فبدأ رسم المبادئ الأصلية للدعوة الوهابية بصفويّتها وحرفيتها وزهدها. وبعد الفتح المصري لنجد، تراجعت الدعوة بسرعة كبيرة في العدد والحماسة، وحتى السنوات الأخيرة كانت تقتصر عملياً على منطقة العريض. لقد ضعف البدو الرحّل والوشم والقصيم كثيراً لدرجة لم يصبحوا فيها من أهل السنة من الناحية العملية.

قبل قرابة أربع سنوات، كان ثمة انتعاش مفاجئ. كان الشريف مرتاباً من إمكانية نسب ذلك إلى ابن سعود من عدمه. على أي حال، تم الحصول على الأموال من مكان ما، وقصدت الحملات التبشيرية الوهابية القصيم، من بين عتيبة ومطير وسبيع، وصولاً إلى مكة المكرمة والطائف. كان المبدأ الأول للدعاة الجدد هو أن أهل السنة والشيعة المتشددين (خاصة الشيعة) كفّار. فكان أمير مكة كافراً مثل الأتراك. وكان الجانب البناء من العقيدة الجديدة مثيراً للفضول، إذ يبشرون بقدرية مبالغ فيها: "الله قادر على كلِّ شيء"، إذ حرموا المرضى التداوي، وثبّطوا التجارة والبناء والتأمل. ومن الحِكَم المفضلة القول الآتي: "إذا سقط رجل في بئر، فدع الله يخرجه".

كانت الحملات التبشيرية ناجحة إلى حد كبير في البداية، وقد انتبه الشريف إلى هذا الاحتمال. فأرسل سيدي عبد الله إلى نجد على جناح السرعة، وبواسطة استعراضٍ للقوة، استعاد قبيلة عتيبة، ومعظم قبيلة مطير، وربطهما بإمارة مكة مجدداً. لقد اتخذ، على ما يبدو، خطوات لمواجهة العقائد الجديدة في القصيم نفسها. وتبيّن أن الحركة الوهابية الثانية قضت على نفسها في وقت قصير. ومع ذلك، كانت في سبات فقط. ففي العام الماضي تقريباً، كانت الحملات التبشيرية تنطلق من العُريض مجدداً مشعلةً الجوار بالحماسة.

زاد ابن سعود الاضطرابات بسبب سياسته العسكرية. ودعا إلى جباياته مرتين أو ثلاثاً في السنة، مميّزاً بين البلدة والأخرى؛ فمن إحداها، سيطلب إسهاماً في الرجال، ومن الأخرى جمع الأموال. وقد أزعج هذا بصورة خاصة عنيزة وبريدة والراس، وهي مدن غنية ورغيدة ومولعة بالحرير والتبغ، وغير مغرمة بالصلاة. فسخطها واسع، والشريف يراه إحراجاً، لأن طموحاته تمتد إلى حدود عتيبة ومطير فقط، وليس لديه رغبة في الانخراط في أي مسألة تتعلق بسيادة مدن القصيم. وفي الوقت الحالي ثمة انقسام حاد بين العُريض والقصيم. فيمكن لأي دعم خارجي، أو عمل داخلي طائش، أن يشعل فتيل عصيان مفتوح.

ثم سألنا الشريف عن موقف الشيعة. وقال إنهم كانوا معادين للغاية للوهابيين. فضلاً عن ذلك لم يستطع أن يرى فيهم أي سياسة معينة. لقد أحبوا عائلته لأن الشيعة يكنّون احتراماً لشخص الرسول. وكان بعضهم، مثل الزيديين والجعفريين، في رأيه، أكثر عقلانية في موقفهم من الشافعيين الذين يعارضونهم. أمّا الاعتراض الحنفي على الشيعة، فكان سياسياً وليس عقدياً.

(الشريف شافعي ظاهرياً. وفي هذه المحادثة، اتخذ موقفاً وسطياً بين الشيعية والسنية المعتدلة؛ على العموم، يُعتقد أن معتقداته الحقيقية زيدية. وسيدي عبد الله هو شبه شيعي من الجناح الجعفري. أمّا سيدي علي، فهو سني بصورة قاطعة إلى حد ما. وسيدي فيصل ليس شكلانياً، ويميل إلى موقف غير عقدي مطلق، وربما شيعي أكثر مما هو سني، لكنّه غامض.

فجميعهم قلقون من البوح بموقفهم الحقيقي، حتى تجاه أصدقائهم، ويحافظون على المجاهرة الشافعية غير الملزمة في الأماكن العامة).

ثم ذكرت للشريف أن عرب الشمال يطلقون عليه عادة أمير المؤمنين، وسألته هل هذا اللقب صحيح ويحظى بموافقته. بعد تفكير قصير، قال: "لا"، وجعل رفضه قاطعاً لاحقاً. قال إن الناس ينسبون إليه طموحات لا يمتلكها. حتى أنه سمع حديثاً عن إحيائه الخلافة. وشرح موقفه من الخلافة. تركت الخلافة الشيعية البسيطة أثراً في نفسي على يد فيصل وعبد الله سلفاً: انتهت الخلافة بأبي بكر، وأيّ إحياء للفكرة اليوم ليس عبثياً لغوياً فقط بل تجديفاً أيضاً. ولن يقبل مثل هذه الفكرة إطلاقاً (سيدي عبد الله أضعف من أبيه في هذا الصدد. فلو رأى مكسباً من الجانب السني في الافتراض، قد يفعل ذلك ويوقف التعامل مع العنصر الشيعي. ولكن كما هي الحال، إذا كان القرار بيده، من غير المحتمل أن يتم تبنّيه). قال الشريف إن الخلافة الإسلامية فكرة اقترحها البريطانيون على السلطان عبد الحميد الذي استغلها كعصا لتأديبنا بها، على حد تعبير الشريف. وكان حامل لوائها الاسمي، سلطان الأتراك، أضحوكة يبعث على الشفقة. فكان اختراعها مقتلاً للإسلام، إذ كانت تحاول حرف الدين إلى نظرية سياسية، وكانت مسؤولة عن الاضطرابات في تركيا والجزيرة العربية ومصر وشمال أفريقيا وجاوة والهند والصين. لقد أقحمت تركيا في الحرب الحالية، وتسببت في الثورة العربية. بوجود هذا المثال الماثل أمام عينيه، وبالنظر إلى سياسة الصداقة الخاصة التي يتبناها مع بريطانيا العظمى، لم يكن قادراً على الاعتراف بخلافة الآخر، أو توليها بنفسه، أو الإقرار بوجود النظرية.

فلقب أمير المؤمنين هو لقب قد يتبناه أي مسلم مخلص. ولم يُشِر إلى خلافة النبي، لكنه كان مرفوضاً سياسياً بسبب كلمة "أمير". فلا فائدة ترتجى من أن تكون أميراً دون سلطة إعطاء الأوامر أو ادعائها، ليس لطائفة أو لدولة أو اثنتين، بل للعالم الإسلامي. فستتحد الانقسامات الرئيسية بين الشيعة والسنة بموجب هذا اللقب. لكن الطوائف الأصغر، وبخاصة التجمعات الغريبة في الهند وأفريقيا، ستستاء من تورّط السلطة، شأنها في ذلك شأن القوى العظمى، بلا شك.

كانت سياسته من أجل الإسلام تتمثل في تأمين الصيانة المشرفة في مكة المكرمة والمدينة المنورة للأماكن المقدسة، وتسهيل أداء مناسك الحج، وإصدار الفتاوى وأحكام الشريعة وفق المقتضى. فلا بدّ من وجود زعيم للعالم الإسلامي، لكنّ السلطة الفكرية ستكون أقل عنفاً إذا كان الزعيم شريف وأمير مكة المكرمة مستنداً في حقه إلى ملكية حقيقية للأماكن المقدسة، وعلى نسب أصيل، وليس على سلطة رسولية ضمنية مفترضة موروثة عن سلسلة خلفاء متواصلة. فبنى دوافعه في التمرد على الأتراك على أمرين اثنين أولهما موضوع سياسي يتمثل في تحرير العالم العربي من الهيمنة التركية.

سينفّذ هذا الأمر دون المساس بالعقيدة، إذ يلتقي المسيحيون والدروز والشيعة والسنة على قاعدة مواطنة مشتركة، ويجب أن يتعاونوا معه على قدم المساواة من أجل تحقيق الهدف. أمّا دافعه الثاني، فكان دينياً وإسلامياً بحتاً بطبيعته، وينصّ على وجود زعيم مستقل للعالم الإسلامي متحكّم في الأماكن المقدسة، من أسرة الأشراف، ستتجاوز مطالبه زعامة الإسلام الروحية ليمكن الاعتراف به عموماً. لكنّ ضعفه في الموارد المادية (المال والسفن والأسلحة) سيجعله في الحال مقبولاً لدى القوى المسيحية، ويطهر الإسلام من الفكرة المتخلفة بأنه نظام حكم مرتبط دنيوياً بزعيم واحد معصوم. فمثله الأعلى هو مدينة روحانية لا ثيوقراطية. ولتحقيق هذا الهدف لا بدّ أن يكون لديه مدد كافية وخالية من السيطرة الأجنبية من أجل إثبات مطالبته بالأهلية السياسية، ولا بدّ من تحرره من قيود النظريات التراتبية التي أقحمت تركيا والسنوسي وعلي دينار في العمليات الجهادية الانتحارية. وسيتولى مقاليد الحكم الزمانية بوصفه ملكاً على البلدان العربية. أمّا روحانياً، فسيكون أميراً على مكة المكرمة.

في رأيي الشخصي، لن يكون لقب أمير المؤمنين بغيضاً بالنسبة إليه إذا لم ينبع من افتراضه، بل كتقدير من أتباعه. وتستخدمه القبائل عموماً اليوم من الجوف إلى القنفذة. وعلى ما يبدو، سيلقى قبول شيوخ المناطق الحضرية في سوريا. إنّ اعتراضه الحالي على أنه ينطوي على القوة الصارمة في الإسلام لا يستقيم، لأنّه من الإنصاف تفسيره بالمعنى العقدي فقط.

أما بالنسبة إلى الخلافة، فقد جعلني اشمئزازه الصادق من مزاعم السلطان عبد الحميد الزائفة، واعترافه نصف المستتر بأسس العقيدة الشيعية، على يقين أن هذه المعارضة للفكرة مجرد مسألة مبدأ. وفضلاً عن ذلك لا أعتقد أن إغراءات العالم كلها ستقنع الشريف حسين بمعارضة مبادئه. إن صدقه الشفاف وقوة يقينه ستضمنان تشكيل سلوكه وفقاً لكلمته الموعودة تماماً مهما كلّف الثمن (في حين أنهما قد تمنعانه من التمييز بين تحيزاته ومبادئه). سيكون التأثير فيه في اتخاذ القرار سهلاً، لكن بمجرد أن يتخذ قراره، ستكون محاولة جعله يغيره مهمة جاحدة.

إنه، على ما يبدو، يأمل عبر تجاهل التفكك السياسي للإسلام أن يكون قادراً على تركيز الانتباه على الاختلافات العقدية وفعل شيء لتقليص الخلاف بين الطوائف. وستتمثّل مناشدته للسنة والشيعة المعتدلين في التلاقي في ظل رئاسته، ومحاولة كبح جماح المتطرفين في معسكراتهم.

25. احتلال العقبة

12 آب/ أغسطس 1917

بحلول الإثنين، 18 حزيران/ يونيو، جنّدنا 535 من التوايهة (بينهم خمسة وعشرون خيالاً)، وقرابة 150 من قبيلة الرولة (بقيادة بنيّة بن دغمي، شقيق درزي) وقبيلة الشرارات (في عهد قريطان العازمي)، وخمسة وثلاثين من الكواشبة، بقيادة ضامي. اخترنا بين هؤلاء قرابة مئتين، وتركناهم حراساً على الخيام القبلية في وادي السرحان. خرجنا مع الباقين من الجوف بعد الظهر، وفي 20 حزيران/ يونيو، دخلنا منطقة باير بعد مسير سهل فوق قرية الصوان، لكن بلا ماء. ففي باير، وجدنا بئراً مملوءة، واثنتين تضررتا بشكل خطير، ورابعة لم تُصب بأذى. جاء الأتراك بصحبة حمد عرار إلى ذلك المكان قبل ذلك بقليل، وحاولوا نسفها بالمتفجرات. ولقد استخدموا مفجّراً كهربائياً بطريقة غير متقنة، فأزلنا كثيراً من العبوات المحشوة من جوانب الآبار التي ما زالت مفتوحة.

أرغمتنا الظروف على البقاء في باير حتى الخميس 28 حزيران/ يونيو. وقضينا الوقت في المفاوضات مع ابن جازي والأقسام الفرعية الأصغر من قبيلة الحويطات على طريق العقبة. كما نفذنا عمليات تدمير للسكك الحديدية في العطوي والسلطاني وMinifir وأماكن أخرى. كان المفجرون من قبيلة عُقيل غير فعالين، وإمداداتنا من الديناميت صغيرة. لذلك، كانت عمليات التدمير ذات طابع طفيف وتهدف إلى تشتيت انتباه الأتراك فقط، وإعلان مجيئنا لنجدة العرب. فقُتل طواقم محطتين للغاية نفسها.

توجهنا من باير إلى الجفر حيث مكثنا حتى الأول من تموز/ يوليو. فكان الأتراك أكثر نجاحاً في مساعيهم ضد الآبار في هذا المكان، وواجهنا بعض الصعوبة في حفر إحداها. وتبيّن أن المياه كافية لنحو ثلاثمئة رجل وجمل عندما تم الحصول عليها. وتمكن رؤية مبنيي المحطتين في معان والحمراء من الجفر على بعد قرابة أربعة وعشرين ميلاً. لكنّ الأتراك لم يدركوا أننا وصلنا بالعديد والعتاد بسبب العمليات بالقرب من عمّان، التي كان ينفذها في ذلك الوقت وحدة تدخل سريع من مئة رجل بقيادة الشيخ زعل. قادهم ذلك إلى الاعتقاد بأننا ما زلنا في وادي السرحان. وفي الثلاثين من الشهر، أرسلوا قوة من أربعمئة خيال مزوّدين بأربعة مدافع رشاشة، ونواف بن الشعلان كمرشد، من درعا للذهاب إلى قرية الكاف لاكتشافنا. يبدو أن الأتراك غير قادرين على التمييز بين الحق والباطل بسبب وابل من الأخبار التي زوّدهم بها العرب المحليون بلا شك.

توجهت وحدة تدخّل سريع من الجفر إلى فويلة على بعد قرابة سبعة عشر ميلاً جنوب غرب معان، وبالتنسيق مع حويطات الدمانية (الشيخ قاسم)، هاجمت مخفر الدرك على الطريق السريع المؤدّي إلى العقبة. أثناء الاشتباك، دخل بعض رجال الدرك الخيالة في مجموعة من خيام قبيلة الحويطات غير المحمية، وطعنوا عجوزاً وست نساء وسبعة أطفال حتى الموت، إذ كانوا

شاغليها الوحيدين. نتيجة لذلك أباد أعرابنا هذا الموقع، ولكن ليس قبل أن يتمكن بعضهم من الفرار إلى معان.

وصل هذا الخبر إلى معان في فجر اليوم الأول من تموز/ يوليو، وصدرت الأوامر لكتيبة من الفوج 178 وصلت إلى معان من مدينة زونغولداق في اليوم السابق بالتوجّه فوراً إلى فويلة لإغاثة الموقع. نزلنا بعد ظهر اليوم نفسه على السكة عند الكيلومتر 479، بالقرب من غدير الحاج، ونفذنا عمليات تدمير واسعة حتى المغرب تقريباً، عندما توجّهنا غرباً بغية المبيت في البتراء. مع ذلك، قابلنا في طريقنا رسلاً من وحدة فويلة أبلغونا عن قدوم قوات جديدة من معان، وانعطفنا شمالاً، وسرنا جزءاً كبيراً من الليل إلى أن تمكّنا في الفجر من احتلال قمم تلال منخفضة تكسوها الأعشاب على جانبي طريق العقبة بالقرب من عين أبو اللسن. كان الأتراك قد وصلوا إلى فويلة، ولم يجدوا سوى العقبان تحوم في المكان، وانتقلوا إلى أبو اللسن، على بعد 14 ميلاً من معان، من أجل المبيت. لقد تم بناء النبع بشكل دائري وكان مزوداً بالأنابيب، وهو أصغر بكثير مما كان قبل الحرب، لكنه لا يزال كافياً ربما لألفي رجل والدّواب. فعسكرت الكتيبة بجانب المياه، وبقينا معاً في قاع الوادي إلى أن تمكّنا من السيطرة على الأرض المرتفعة (من أربعمئة إلى ستمئة ياردة) دون صعوبة.

مكثنا في هذا المكان طوال اليوم الثاني من تموز/ يوليو، وأخذنا نقنص الأتراك بثبات طوال اليوم، وأوقعنا فيهم بعض الخسائر. فرد الأتراك بقذائف مدفعية جبلية، وأطلقوا عشرين طلقة، وذلك كان ما بحوزتهم كلّه. أصابت القذائف قمم تلالنا وانفجرت بعيداً فوق الوديان خلفنا. وعندما حل المغرب، جمع عودة أبو تايه الخيّالة الخمسين معنا الآن في وادٍ عميق على بعد قرابة مئتي ياردة عن الأتراك، لكن تغطيتهم حاضرة. وفجأة انطلقوا بسرعة جامحة، وأطلقوا النار بكثافة من على صهوات جيادهم. وعلى ما يبدو، دبّت فجائية هذه الخطوة الرعب في قلوب الأتراك (قوامهم قرابة 550 فرداً). وبعد صلية من نيران البنادق، تشتتوا في الاتجاهات كلّها. كانت هذه إشارتنا، إذ نزلت قوتنا المتبقية كلها (قوامها ربما 350 رجلاً، لأن بعضها كان يراقب الطريق في الشرق) سفوح التلال إلى عمق الوادي، بالسرعة التي كانت الجمال قادرة عليها. وكان الأتراك كلّهم من المشاة، والعرب خيالة كلهم. كانت البلبلة كبيرة حول النبع عند الغسق، مع وجود ألف رجل يطلقون النار بجنون. ومع تشتت الأتراك، بات وضعهم في الحال ميؤوساً منه. وفي غضون خمس دقائق، تحول المشهد إلى مجزرة فحسب. إجمالاً أحصيت ثلاثمئة قتيل من الأعداء في الموقع الرئيسي، وربما قُتل عدد قليل من الفارين على مسافة أبعد، رغم أن غالبية رجالنا توجّهوا إلى المعسكر التركي مباشرة من أجل نهبه، قبل تسديد الطلقات الأخيرة. وبلغ عدد الأسرى 160 (ثلاثة ضباط) تقاسمته والشريف ناصر، لأن العرب في منطقة معان قساة جداً ضد الأتراك، وهم عازمون على

القتل ما استطاعوا إليه سبيلاً. ولهم أسبابهم لهذا الموقف في ذبح النساء والأطفال المذكورين قبل وفي الإعدام السابق للشيخ عبد الرحمن البلجاوي من الكرك. كان يتمتع بشعبية ومعادياً للترك، لكن الحكومة ألقت القبض عليه وأوثقته بين أربعة بغال هائجة مزقته حتى الموت. جاء ذلك تتويجاً لسلسلة عمليات إعدام تحت التعذيب في الكرك، إذ أثارت ذكرى هذه الإعدامات مرارة في الرأي العام المحلي.

بلغت خسائر العرب في القتال قتيلين (أحدهما من الرولة والآخر من الشرارات) وجرحى بينهم الشيخ بنيّة بن الدغمي. نظراً إلى مقدار إطلاق النار، والارتباك، وعمليات القتال القريب التي كنا فيها، وخسائر الأتراك، لا بدّ من عدّ العرب محظوظين. أصيبت خيول في هجوم الخيالة، وهرب عودة نفسه (في المقدمة، بطبيعة الحال) بأعجوبة، إذ هشّمت رصاصتان منظاره الميداني، واخترقت واحدة قراب مسدسه، وأصابت ثلاثة سيفه المغمّد، وقُتل حصانه تحته. فكان مسروراً جداً بهذا الأمر برمّته.

لسوء الحظ، أصيب كثير من أسرانا ولم يكن معنا سوى عدد قليل من الجمال الاحتياطية. أمّا الذين في مقدورهم التشبث، فكانوا يركبون وراء العرب على الجمال الاحتياطية. لكن تعيّن علينا التخلي عن أسوأ الحالات في أبو اللسن، وبين الذين أخذناهم معنا مات قرابة الخمسين من الحرارة والجوع والعطش على الطريق المؤدي إلى العقبة. كانت الحرارة في منطقة حسمى ووادي اليتم مريعة، والمياه بين فويلة والعقبة تكفي ربما مئتي رجل والدواب فقط. في ما يتعلق بالغذاء، تزوّدتُ وناصر بمؤونة شهرين من الوجه، ومضى على خروجنا شهران الآن. كان لدى البدو طعامهم الخاص في أخراجهم، لكن الحصص الغذائية العربية غير ملائمة للجنود الأتراك نوعاً وكماً. ففعلنا ما في وسعنا من أجل الأسرى، لكن كان لدى الجميع أقلّ مما يحتاجونه.

زحفنا من أبو اللسن على القويرة (22 ميلاً) بعد أن أرسلنا رتلاً دمّر المريغة، بوصفها أقرب مخفر درك إلى معان، على طريق العقبة. ففي القويرة، تلقينا نبأ استسلام الحامية (نحو 120 رجلاً)، إذ كان وسيطها حسين بن جاد الذي انضم إلينا في هذا المكان في 4 تموز/ يوليو. وتم الانتهاء من أعمال الطريق السريع وصولاً إلى سفح وادي نخب ستارة من معان، ولكن ليس مكسياً بالمعدن في أي مكان. وبما أن التربة رملية طينية صلبة إلى حد ما، أعتقد بأنها كافية لمرور سلسلة من السيارات الخفيفة. فوادي نخب سحيق جداً، مع منعطفات سيئة، وبحاجة إلى تحسين. أمّا الحسمى، فيتّصف برمال حمراء ناعمة ورخوة على طول المسار، لكنها أقسى في سرير مجرى المياه الذي يجري من سفح نخب إلى القويرة. ومن منطقة القويرة، نزلنا وادي اليتم إلى كثيرة (18 ميلاً) حيث اجتحنا موقعاً تركياً يضم قرابة سبعين جندياً من المشاة والخيّالة، وأسرنا معظمهم. ثم ذهبنا إلى قرب الخضراء، عند السد الحجري القديم في وادي اليتم (15 ميلاً)، حيث تواصلنا مع الحامية (ثلاثِمئة رجل) في

العقبة. لقد انسحبوا من القرية نفسها (على بعد نحو ستة أميال) ليكونوا بعيدين من البحر، وعلى خط الانسحاب نحو معان. وصل خبر قتالنا في فويلة إلى العقبة بسرعة، وهبّت قبائل عمران والدراوشة وقبائل الحويطات الفرعية بالقرب من العقبة كلّها، وتجمعت في محيط موقع الخضراء، الأمر الذي منعها من الوصول إلى خنادقها وكبّدها خسائر مدة يومين. عندما ظهر ناصر والراية، اشتدت الحماسة العربية، وتمت الاستعدادات لهجوم فوري. هذا لم ينسجم مع أفكارنا، لأنّنا أردنا أن تصل الأخبار عن قبول العرب للأسرى. وكان الأتراك الذين قابلناهم كلهم سعيدين للغاية بالاستسلام، ورفعوا أذرعهم وهم يصرخون: "مسلم، مسلم" بمجرد أن رأونا. ولقد أعربوا عن رغبتهم وحرصهم على الاستمرار في قتال الأجانب والمسيحيين إلى أن يسقطوا صرعى، لكن دون نية لإضافة عدو مسلم على القوى التي كانت ضدهم سلفاً. ولإنقاذ حامية الخضراء من المجزرة، اضطر الشريف ناصر إلى العمل من بعد الظهر حتى الفجر، لكنه في النهاية نفّذ وجهة نظره (بانتقالنا بين الخطوط العربية والتركية من أجل اختراق مجال نيرانهم). ورغم الأسرى (الذين يبلغ عددهم الآن قرابة ستمئة رجل)، تابعنا مسيرنا إلى العقبة صباح يوم 6 تموز/ يوليو. كانت دهشة الضابط القائد الألماني (حفر الآبار في الخضراء) عندما ظهرت قوة الشريف هزلية. فلم يكن يجيد العربية ولا التركية، ولم يكن على علم بالثورة العربية.

كان الوضع في العقبة الآن خطيراً من الناحية الاقتصادية إلى حد ما. فلم يكن لدينا طعام، مع وجود ستمئة أسير وكثير من الزوار المنتظرين. كان اللحم وفيراً، لأنّنا كنا نقتل الظعائن على النحو المطلوب. وكان هناك بلح في بساتين النخيل. فهذه الأمور أنقذت الموقف، لكنها انطوت على قدر كبير من الانزعاج بعد تناول الطعام. وكانت القوة في العقبة غير سعيدة للغاية حتى وصول سفينة نقل الجند HMS Dufferin في الثالث عشر من الشهر محمَّلة بالغذاء من السويس. وقبل وصولها، تم إرسال القوات العربية شمالاً لاحتلال التلال وصولاً إلى وادي موسى (البتراء) الواقع على بعد قرابة ستين ميلاً عن العقبة، وجنوباً للانضمام إلى بني عطية، واستطلاع البلاد بهدف شن هجوم نهائي على سكة الحديد جنوب معان.

26. الشريف وجيرانه

20 آب/ أغسطس 1917

أشرنا في النشرة رقم 58 إلى مقابلة أجراها العقيد ويلسون مع الشريف حول موضوع علاقات الأخير مع ابن سعود والإدريسي. وتلقينا منه الآن وصفاً تفصيلياً لهذه المقابلة كتبه النقيب لورانس الذي كان حاضراً. وبعد أن شرح سوء التفاهم الذي تسبب فيه ابن دخيل، أوضح الشريف أن علاقته مع ابن سعود كانت ودية لسنوات عدة، ولم يكن ينوي الإساءة بالطريقة التي اقترحها سيدي عبد الله.

خلافاً لذلك دعا عبد الرحمن، والد ابن سعود، للحج إلى مكة المكرمة، وتصالح ابن سعود مع الهاربين من عائلة الأمير الذين لجؤوا إليه في مكة المكرمة. ويأمل في سماع قدوم عبد الرحمن في غضون أيام قليلة.

كما قال الشريف إن سيدي عبد الله كان على وفاق مع ابن سعود، وأصر على ذهابه إلى قرية الشعراء عام 1914–1915 لمساعدة ابن سعود ضد ابن رشيد. وقال إن وجود عبد الله في ذلك المكان منع ابن رشيد من متابعة الانتصار في معركة جراب أيضاً. هذه هي وجهة نظر سيدي عبد الله الحالية لتصرفاته في تلك المناسبة أيضاً. وتجدر الإشارة، من تقارير النقيب شيكسبير Shakespear قبل المعركة ("النشرة العربية"، 1916، الصفحة 336)، أن عبد الله وابن سعود كانا على علاقة مباشرة في ذلك الوقت.

اقترح العقيد ويلسون على الشريف أنه من المستحسن إرسال رسائل إلى الإدريسي وابن سعود بصورة رسمية لإبلاغهما أنه لم يكن المقصود من توليه اللقب الملكي التدخل في شؤونهما الداخلية بأي حال من الأحوال، واقتراح عملية مشتركة ضد الأتراك. واقترح أنه إذا كان في مقدور قدوم سعيد مصطفى وتركي إلى مكة المكرمة ممثلين عن الإدريسي وابن سعود، يمكن وضع علاقات الحكام الثلاثة على أساس مُرضٍ.

قال الشريف إنه لا يتفق معه. وكان يعتقد أنه من غير الحكمة إثارة مسألة العلاقات البينية بين إمارات الجزيرة العربية بينما لا تزال الحجاز في حوزة الأتراك. وعندما يحين الوقت، ستستوحى سياساته المستقبلية تجاه الأمراء الآخرين من رغبات الحكومة البريطانية. وفي الوقت الحاضر، لا ينوي تقديم أي طلب أو اقتراح أو احتجاج لهم بأي حال. فلم يعتقد بأنهم قادرون على إيذائه، حتى لو أرادوا ذلك. أمّا بالنسبة إلى تعاونهم معه ضد الأتراك، فلديهم كلّهم أسبابهم الكافية ضد الأتراك، ومعاهدات مع الحكومة البريطانية، وإن لم يحرك ذلك فيهم ساكناً، فلن يحاول معهم.

قال لاحقاً إن وعد الإدريسي لمحيي الدين بالحياد في عسير قد مكّن الأتراك من العمل ضد بني شهر، لكنه صدهم وكبّدهم خمسة وعشرين قتيلاً. وقال إن

تصرف ابن سعود تجاه ابن رشيد مخيب للآمال خاصة انسحابه من شمال القصيم أخيراً. وكان قد سأل صالح بن أثيل عن سبب التحرك الأخير، فأجابه أنه ليس في وضع يسمح له بتفسيره.
ذكر الشريف لاحقاً أن أهل عجمان الذين انقلبوا على ابن سعود وقتلوا شقيقه يخدمون سيدي زيد وسيدي عبد الله الآن. فلم يكن ينوي استغلالهم لكنه كان يأمل عبر عبد الرحمن أن يقنع ابن سعود بعقد صلح معهم.
وعندما سئل عن أفكاره في ما يتعلق بابن رشيد، قال فوراً إن ابن رشيد كان شاباً أحمق بلا إرادة أو سياسة خاصة به. ثم حملت زيارة ابن عجيل إلى عبد الله، وهزيمة رشيد بن ليلى على يد زيد، والمقابلة بين ابن رمّال والشريف ناصر، دلائل محتملة على رضوخ الشّمر المبكر لسلطته. ولدى سؤاله عن موقفه من مقترحات السلام، أجاب أنه سيتشاور مع العقيد ويلسون ويتصرف وفقاً لرغبات حكومة صاحب الجلالة عندما يحين الوقت.
كان واضحاً طوال المقابلة أن الشريف لا ينوي تعديل علاقات حكومة الحجاز مع أمراء الجزيرة العربية إلى ما بعد سقوط المدينة المنورة إطلاقاً. وقال بصراحة تامة إنهم لن ينالوا منه بسوء أو يحسنوا إليه في الوقت الحاضر، وشعر أن وضعه سيتحسن بما يكفي لمنحه ميزة التفاوض. وأكّد في الوقت نفسه علاقاته الشخصية الجيدة مع مختلف الحكام. وعلى ما يبدو هو لا يتوقع أي صعوبة في التوصل إلى اتفاق معهم ينسجم مع رغبات الحكومة البريطانية في نهاية المطاف.

27. البنود السبعة والعشرون

20 آب/ أغسطس 1917

من أجل مزيد من الوضوح والاقتضاب، تم التعبير عن البنود الآتية في صيغة وصايا. ومع ذلك، هي ليست سوى استنتاجاتي الشخصية التي توصلت إليها تدريجياً أثناء عملي في الحجاز وباتت الآن مدوّنة كذرائع للمبتدئين في الجيوش العربية. فيُفترض منها أن تنطبق على البدو فقط، إذ يحتاج سكان المدن أو السوريون إلى معاملة مختلفة تماماً. وهي، بطبيعة الحال، ليست مناسبة لاحتياجات أي شخص آخر، أو قابلة للتطبيق دون تغيير في أي موقف معين. فمع وجود استثناءات وغياب قواعد واضحة، إن التعامل مع عرب الحجاز فنٌّ، وليس علماً. في الوقت نفسه لدينا فرصة كبيرة في ذلك المكان. فالشريف يثق بنا، وقد منحنا مكانة (تجاه حكمه) أراد الألمان الفوز بها في تركيا. وإذا كنا لبقين، يمكننا الاحتفاظ بحسن ظنه وأداء عملنا في الحال. ولكن لكي ننجح، علينا أن نسخّر اهتمامنا ومهارتنا كلّها.

1. امشوا الهوينى في الأسابيع القليلة الأولى فقط. فالبداية السيئة يصعب التكفير عنها، والعرب يصدرون أحكامهم على ظواهر الأمور التي نتجاهلها. وعندما تبلغون الدائرة الداخلية في القبيلة، يمكنكم أن تفعلوا ما يحلو لكم بأنفسكم وبهم.

2. اعتمدوا على الأشراف والبدو ما استطعتم سبيلاً. وتعرفوا إلى عائلاتهم وعشائرهم وقبائلهم وأصدقائهم وأعدائهم وآبارهم وتلالهم وطرقهم. فافعلوا هذا كلّه بالإنصات والاستفسار غير المباشر. فلا تطرحوا أسئلة عليهم. وخاطبوهم بلهجتهم العربية لا بلهجتكم. وكي تتمكنوا من فهم تلميحاتهم، تجنبوا التعمق في المحادثة معهم، وإلا سترتكبون حماقة هائلة. فكونوا قساة قليلاً في البداية.

3. أمّا في المسائل التجارية، فتعاملوا مع قائد الجيش أو الوحدة أو الفرقة التي تخدمون فيها فقط. لا تعطوا أوامر لأي شخص إطلاقاً. احتفظوا بتوجيهاتكم أو نصائحكم للضابط القائد، مهما كان إغراء (من أجل الكفاءة) التعامل المباشر مع أتباعه كبيراً. فمهمّتكم استشارية، ونصيحتكم مردّها القائد وحده. دعوه يرى أن هذا هو تصوّركم لواجبكم، وأنّ واجبه أن يكون المسؤول التنفيذي الوحيد عن خططكم المشتركة.

4. اكسبوا ثقة قائدكم وحافظوا عليها. وعززوا مكانته أمام الآخرين على حسابكم الخاص قدر المستطاع. فلا ترفضوا أو تلغوا الخطط التي قد يطرحها، ولكن تأكدوا من عرضها عليكم في المقام الأول بصورة خاصة. وافقوا عليها دائماً. وبعد الثناء عليها، عدّلوها بطريقة غير ملحوظة، الأمر الذي يجعل الاقتراحات تصدر عنه، إلى أن تنسجم مع رأيكم. وعندما تبلغون هذه النقطة، ألزموه بها، واحتفظوا بقبضة محكمة على أفكاره، وادفعوه إلى الأمام بقوة قدر الإمكان، لكن في الخفاء، وعليه لا يشعر أي شخص بضغطكم سواه (ليس هو بوضوح جداً).

5. ابقوا على تواصل مع قائدكم باستمرار وبطريقة غير ملحوظة قدر الإمكان. وعاشروه، ففي أوقات تناول الوجبات وفي اللقاءات الجماهيرية قد تكونون معه في خيمته بصورة طبيعية. الزيارات الرسمية لتقديم المشورة ليست جيدة مثل انسياب الأفكار المستمر في الحديث العفوي. وعندما يأتي شيوخ غرباء للمرة الأولى لأداء قسم الولاء وعرض خدماتهم، أخلوا الخيمة. إذا كان انطباعهم الأول انطباع أجانب يحظون لثقة الشريف، سيلحق ضرراً كبيراً بالقضية العربية.

6. كونوا خجولين من العلاقات الوثيقة مع مرؤوسي الحملة. سيجعل التعامل المتبادل المستمر معهم تفادي التقاعس في تنفيذ التعليمات التي أصدرها لهم الضابط القائد العربي بموجب نصيحتكم أو تجاوزها مستحيلاً بالنسبة إليكم. في النتيجة إنّ الكشف عن ضعف موقفه يضعضع موقفكم الشخصي تماماً.

7. تعاملوا مع مساعدي رؤساء قوتكم بكلّ سهولة وخفة. بهذه الطريقة، تجعلون أنفسكم فوق مستواهم. وإذا كان القائد من الأشراف، عاملوه باحترام. سيردّ لكم جميلكم، فأنتم وهو متشابهون وتتفوّقون على البقية. الصدارة مسألة خطيرة عند العرب، ويجب عليكم بلوغها.

8. إن وضعكم المثالي هو عندما تكونون حاضرين دون ملاحظتكم. لا تكونوا حميميين جداً أو بارزين جداً أو جادّين جداً. تجنبوا التماهي مع أي شيخ قبلي لمدة طويلة جداً أو في أحيان كثيرة، حتى لو كان ضابط الحملة القائد. ولأداء عملكم، لا بدّ أن تتعالوا على الغيرة. ستفقدون هيبتكم إذا كنتم مرتبطين بقبيلة أو عشيرة وخصوماتها الحتمية. فالأشراف يتعالون فوق حالات الثأر والخصومات المحلية، ويشكلون مبدأ الوحدة الوحيد بين العرب. لذلك، دعوا أسماؤكم مقترنة باسم أحد الأشراف دائماً، وشاركوه موقفه من القبائل. وعندما يحين وقت اتخاذ إجراء، ضعوا أنفسكم تحت تصرفه علانية. وسيحذو البدو حذوكم.

9. ضخموا المفهوم المتنامي للأشراف كأرستقراطيي العرب الطبيعيين وطوروه. فغيرة القبائل البينية تجعل وصول أي شيخ إلى منصب قيادي مستحيلاً، والأمل الوحيد في اتحاد بدو الجزيرة العربية يكمن في الاعتراف بالأشراف عالمياً على أنهم الطبقة الحاكمة. فالأشراف أنصاف حضر وأنصاف بدو رحل في السلوك والحياة، ولديهم غريزة القيادة. مجرد تمتعكم بالجدارة والمال غير كافٍ لحصولكم على مثل هذا الاعتراف، لكن التبجيل العربي للنسب والنبي يعطي الأشراف الأمل في النجاح النهائي.

10. خاطبوا شريفكم "سيدي" في الأماكن العامة والخاصة. ونادوا الأشخاص الآخرين بأسمائهم العادية دون ألقاب. أمّا في محادثة حميمة، فلقّبوا الشيخ بـ"أبي عناد" أو "أخي العلياء" أو أي لقب مشابه.

11. الأجنبي والمسيحي ليس شخصاً مشهوراً في الجزيرة العربية. فمهما كانت معاملتكم ودية وغير متكلِّفة، تذكّروا دائماً أن أساساتكم هشّة جداً. لوِّحوا لشريف أمامكم مثل راية خفّاقة، وأخفوا أفكاركم وشخوصكم. إذا أفلحتم في

ذلك، سيكون لديكم مئات الأميال من البلاد وآلاف الرجال رهن أوامركم. ولهذا، يستحق العرض الخارجي المقايضة.

12. تمسّكوا بروح الدعابة لديكم إذ ستحتاجونها يوميّاً. فالمفارقة اللاذعة هي النوع الأكثر فائدة. وستضاعف سرعة بديهة سجيّتكم الشخصية غير الشاملة نفوذكم مع الزعامات. أمّا التأنيب، إذا تم تغليفه بابتسامة، فسيستمر وقتاً أطول من الخطاب الأعنف. إن قوة المحاكاة أو المحاكاة الساخرة [الباروديا] قيّمة، لكن استخدموها باعتدال، لأن الذكاء أكثر وقاراً من الدعابة. فلا تسخروا من شريف إلا بين الأشراف.

13. لا تلمسوا عربياً، فأنتم بذلك تحطّون من قدر أنفسكم. وقد تعتقدون بأن الزيادة الواضحة الناجمة عن الاحترام الخارجي مكسب لكم، ولكن ما فعلتموه حقاً هو بناء جدار بينكم وبين ذواتهم الداخلية. من الصعب عليكم التزام الصمت عندما يحدث كل شيء بطريقة غير صحيحة. ولكن كلّما قلّ فقدانكم أعصابكم، ازداد تفوّقكم. ولن تثور ثائرتكم أيضاً.

14. رغم صعوبة القيادة، فإن قيادة البدو سهلة إذا كان لديك الصبر لتحملهم. وكلما كانت تدخلاتكم أقل وضوحاً، يزداد نفوذكم. إنهم على استعداد لاتباع نصيحتكم وفعل ما يحلو لكم، لكنهم لا يعنون أنكم أو أي شخص آخر على دراية بذلك. فبعد انقضاء مصادر الإزعاج كلّها فقط، تجدون مخزونهم الحقيقي من النيات الحسنة في قرارة أنفسهم.

15. لا تحاولوا أن تبذلوا جهداً كبيراً بأيديكم. فمن الأفضل أن يفعل العرب ذلك بطريقة مقبولة بدلاً من فعلكم ذلك بمثالية. إنها حربهم، وعليكم مساعدتهم لا أن تكسبوها نيابة عنهم. في الواقع، في ظروف الجزيرة العربية الغريبة للغاية، لن تكون أنشطتكم العملية في حكم ما تعتقدون به.

16. إذا استطعتم، دون أن تكونوا مسرفين كثيراً، أوقفوا تلقّي الهدايا لأنفسكم. فهدية في موضعها غالباً ما تكون أفعل في كسب شيخ مشبوه. ولا تتلقوا هدية إطلاقاً دون ردّ كريم لها، ولكن يمكنكم تأخير هذا الردّ (مع السماح بمعرفة تأكيده النهائي) إن كنتم بحاجة إلى خدمة معينة من المانح. ولا تدعوهم يطلبون منكم أشياء، لأن جشعهم سيجعلهم ينظرون إليكم كبقرة حلوب فقط.

17. ارتدوا كوفيّة عربية عندما تكونون برفقة قبيلة ما. فلدى البدو تحامل حاقد على القبعة، ويعتقدون أن إصراركم على ارتدائها (ربما بسبب التعنت

البريطاني لإصدار الأوامر) يقوم على مبدأ غير أخلاقي أو غير ديني. فتُشكل الكوفيّة السميكة حماية جيدة من أشعة الشمس. وإذا كنتم ترتدون قبعة، فسيخجل منكم أصدقاؤكم العرب في الأماكن العامة.

18. لا يُنصح بالتنكر. فليكن معلوماً بوضوح أنك ضابط بريطاني ومسيحي، باستثناء مناطق خاصة. في الوقت نفسه، إن كنتم تستطيعون ارتداء الزي العربي عندما تكونون بصحبة القبائل، فستكسبون ثقتهم وحميميتهم إلى درجة يستحيل نيلها في الزي الرسمي. مع ذلك الأمر خطير وصعب. فهم لا يلتمسون لكم عذراً خاصاً عندما ترتدون مثلهم. ولا يتم التغاضي عن مخالفات قواعد السلوك التي لا توجه إلى أجنبي بالملابس العربية. ستكونون مثل ممثلين في مسرح أجنبي تؤدّون دوراً ليلاً نهاراً لأشهر دون راحة، ومن أجل مجازفة مقلقة. النجاح الكامل قد لا يتحقق إلا في محلّه، وهو عندما ينسى العرب غرابتكم ويتحدثون أمامكم بطريقة طبيعية ويعدّونكم كواحد منهم. أمّا النجاح المنقوص (كل ما يسعى معظمنا من أجله، فالتكاليف الأخرى باهظة)، فالظفر به أسهل في الأمور البريطانية، وستستمرون، أنتم أنفسكم، مدة أطول جسدياً وذهنياً، بالرفاهية التي تعنيها. كما أن الأتراك لن يشنقوكم عندما يُقبض عليكم.

19. إذا كنتم ترتدون ملابس عربية، ارتدوا أفضلها. فالملابس مهمة بين القبائل، وعليكم ارتداء ملابس مناسبة تشعرون بالارتياح فيها. البسوا مثل الشريف، إذا وافقوا على ذلك.

20. إذا كنتم ترتدون ملابس عربية إطلاقاً، استمروا في ذلك. واتركوا أصدقاءكم وعاداتكم الإنكليزية على الساحل، وعودوا إلى العادات العربية بالكامل. بدءاً بهذا المستوى معهم، يمكن أن يتفوق الأوروبيون على العرب في مجال تخصصهم، لأن لدينا دوافع أقوى لعملنا، ونؤديه بتفانٍ وإخلاص أكثر منهم. إن تمكنتم من تجاوزهم، فقد خطوتم خطوة هائلة نحو النجاح الكامل، لكنّ أسلوب العيش والتفكير بلغة أجنبية نصف مفهومة، والغذاء البدائي، والملابس الغريبة، والطرائق الأغرب، مع فقدان الخصوصية التام والهدوء، واستحالة الاسترخاء الدائم لتقليدكم الآخرين المؤرق لأشهر متتالية، يوفر مثل هذا الضغط الإضافي على الصعوبات العادية للتعامل مع البدو والمناخ والأتراك، إذ لا ينبغي اختيار هذا الطريق دون التفكير ملياً.

21. ستكون المناقشات الدينية متكررة. فقولوا ما يعجبكم في جانبكم الخاص، وتجنبوا انتقاد وجهة نظرهم، إلا إذا كنتم تعلمون أن المسألة خارجية، إذ يمكنكم تحقيق الكثير بإثبات ذلك. فبرفقة البدو الإسلام عنصر منتشر للغاية

لدرجة أن هناك قليلاً من التدين والحماسة، وقلة اكتراث للأمور الخارجية. لا تعتقدوا من سلوكهم أنهم مهملون. إن اقتناعهم بحقيقة إيمانهم ونصيبه في كل فعل وفكر ومبدأ من حياتهم اليومية هو حميمي ومكثف إذ لا يكون واعياً، إلا إذا أثارته المواجهة. فدينهم، مثل النوم أو الغذاء، جزء من الفطرة بالنسبة إليهم.

22. لا تحاولوا استغلال ما تعرفونه عن القتال. الحجاز يخلط بين التكتيكات العادية. وتعلموا مبادئ الحرب البدوية بدقة وبأسرع ما يمكن، لأنّه إلى أن تعرفونها لن تكون نصيحتكم للشريف مفيدة. لقد علمتهم أجيال لا تعد ولا تحصى من الغارات القبلية عن بعض أجزاء الأعمال أكثر مما نعرفه إطلاقاً. وفي الظروف المألوفة، يقاتلون جيداً، لكن الأحداث الغريبة تسبب الذعر. أبقوا وحدتكم صغيرة. عادة ما تتراوح مجموعات الإغارة الخاصة بهم بين مئة ومئتي رجل. وإذا اصطحبتم حشداً، سيختلط الحابل بالنابل فحسب. ورغم أن شيوخهم قادة سرايا رائعين، فهم "مستعدون" للغاية لتعلم كيفية التعامل مع نظرائهم من الكتائب أو الأفواج. لا تحاولوا فعل أشياء غير عادية إلا إذا كانت تستهوي غريزة الرياضة التي يتمتع بها البدو بقوة، أو ما لم يكن النجاح واضحاً. إذا كان الهدف جيداً (غنيمة)، سيهاجمون مثل الشياطين، فهم كشافة رائعون، ويمنحكم تنقّلهم ميزة ستفوز بهذه الحرب المحلية. وهم يستفيدون من معرفتهم بالبلاد بصورة صحيحة (لا تأخذ رجال القبائل إلى الأماكن التي لا يعرفونها). صيادو الغزلان الذين يشكلون فئة من أفضل الرجال رماة عظام على أهداف مرئية. فلا يجوز لشيخ قبيلة أن يعطي أوامر لرجال من قبيلة أخرى. والشريف ضروري لقيادة قوة قبلية مختلطة. إن كان هناك نهب في المستقبل، وكانت الاحتمالات متساوية قطعاً، فستفوزون. لا تضيعوا البدو في مهاجمة الخنادق (لن يتحملوا ضحايا) أو في محاولة الدفاع عن موقع لأنّهم لا يستطيعون الجلوس دون تراخٍ. وكلما كانت إجراءاتكم غير تقليدية وعربية، زادت احتمالية إصابتكم بلا مبالاة الأتراك، لأنّهم يفتقرون إلى المبادرة ويتوقعون منكم ذلك. فلا تركنوا إلى الأمان.

23. قد يكون السبب الصريح الذي يقدّمه البدو إليكم بشأن العمل أو التقاعس عنه صحيحاً، لكن ستكون هناك أسباب أفضل لك دائماً كي تتنبأ بها. عليكم البحث عن هذه الأسباب الداخلية (رغم سريان مفعولها، سيتم إنكارها) قبل صياغة حججكم لمقاربة أو أخرى. ويعد التلميح أفعل من العرض المنطقي؛ هم يمقتون التعبير الموجز. تعمل عقولهم كما تعمل عقولنا تماماً، لكن تبعاً لمقدّمات مختلفة. فلا يوجد شيء غير معقول أو غير مفهوم أو غامض لدى

العرب. وستمكنكم تجربتكم معهم ومعرفتكم بتحيّزاتهم من توقع موقفهم ومسار العمل المحتمل في كلّ حالة تقريباً.

24. لا تخلطوا بين البدو والسوريين أو بين الرجال المدربين ورجال القبائل. فلن يحثوكم على العمل، لأنّهم يكرهون بعضهم بعضاً. ولم أرَ عملية مشتركة ناجحة إطلاقاً، بل كثيراً من الإخفاقات. على وجه الخصوص، لا أمل يُرتجى من ضباط الجيش التركي السابقين، رغم عروبتهم في المشاعر والدم واللغة، في تعاملهم مع البدو. إنهم ضيقو الأفق في التكتيكات، وغير قادرين على التكيف مع الحرب غير النظامية وخرقاء في قواعد السلوك العربية، ومغرورون إلى حد العجز عن التصرّف بأدب مع رجل قبيلة لأكثر من بضع دقائق، وغير صبورين، وعادة ما يكونون مغلوبين على أمرهم دون قواتهم على الطريق وأثناء القتال. سيطيع البدو أوامركم (إذا لم تكونوا حكيمين بما يكفي لإصدار أي منها) بسهولة أكبر من أوامر أي ضابط سوري مسلم. ينظر سكان المدن العرب ورجال القبائل العربية إلى بعضهم بعضاً بوصفهم علاقات سيئة. والعلاقات السيئة مستهجنة أكثر بكثير من الغرباء السيئين.

25. رغم المعيار العربي العادي، تجنبوا الحديث الخليع عن النساء. فهو موضوع شائك مثل الدِّين. ومعاييرهم تختلف عن معاييرنا الخاصة تماماً لدرجة أن حديثاً، بريئاً باللغة الإنكليزية، قد يبدو خليعاً بالنسبة إليهم، كما حال بعض أقوالهم بالنسبة إلينا، إذا تمت ترجمتها حرفياً.

26. احذروا من خدمكم كحذركم من أنفسكم. إذا كنتم تريدون شخصاً راقياً، ربما يتعين عليكم أن تتبنوا مصرياً أو سودانياً. وما لم تكونوا محظوظين جداً، سيفسد عليكم في رحلته الطويلة معظم الخير الذي كوّنتم بشق الأنفس. فالعرب سيطبخون الأرز ويعدّون القهوة لكم، ويتركونكم إذا لزم الأمر لأداء أعمال غير رجولية مثل تنظيف الأحذية أو الغسيل. فهذه الأمور واردة حقاً إذا كنت مرتدياً زياً عربياً فقط. أمّا العبد الذي تربّى في الحجاز، فهو أفضل خادم، لكن ثمة قواعد تمنع امتلاك الرعايا البريطانيين لهم. لذلك، لا بدّ من إعارتهم لكم. على أي حال، اصطحبوا معكم واحداً أو اثنين من قبيلة عقيل عندما تقصدون المناطق الداخلية من البلاد. فهم أكفأ سعاة في الجزيرة العربية، ويستوعبون الجمال.

27. تكمن بداية سر التعامل مع العرب ونهايته في دراسة متواصلة لهم. فابقوا على أهبة الاستعداد دائماً. ولا تتفوهوا بشيءٍ غير ضروري أبداً. راقبوا أنفسكم ورفاقكم طوال الوقت، واسمعوا ما يجري كلّه، وابحثوا عما يجري تحت

السطح، واقرؤوا شخصياتهم، واكتشفوا ميولهم ونقاط ضعفهم، واحتفظوا بما تكتشفونه كلّه لأنفسكم. انغمسوا في الأوساط العربية، ولا تهتمّوا ولا تفكّروا سوى في العمل الذي تقومون عليه، إذ يُتخم دماغكم بشيء واحد فقط، وأنتم تدركون دوركم بعمق كافٍ لتتجنبوا الزّلات الصغيرة التي من شأنها أن تُفسد عمل الأسابيع المضني. سيكون نجاحكم متناسباً مع مقدار الجهد الذهني الذي تكرسونه له.

28. غارة على حالة عمار

8 تشرين الأول/ أكتوبر 1917

غادرتُ العقبة في 7 أيلول/ سبتمبر بصحبة اثنين من مدربي السلاح البريطانيين واثنين من شيوخ عقيلات بني عطية من المدوّرة. كان أملي هو إعداد ثلاثمئة رجل في القويرة والاستيلاء على محطة المدوّرة.

سافرنا برفق إلى القويرة حيث كان معسكراً كبيراً مع ماء قليل وضغائن قبلية كبيرة. فالقبائل الفرعية الثلاث التي كنت أُعول عليها لم تحصل على رواتبها بعد. وكان عودة أبو تايه يثير المتاعب بسبب جشعه ومحاولته تولّي السلطة على الحويطات كلّها. وكان الحصول على رجال أو جمال مستحيلاً. لذلك، انتقلت إلى وادي رم، الواقع على بعد خمس ساعات جنوب–شرق القويرة. ففي رم ثمة ينابيع صافية يصعب الوصول إليها، وبعض المراعي، وأجمل مناظر جروف الحجر الرملي.

في رم، دخلت الدمانية يوم 2 أيلول/ سبتمبر في حالة من التمرّد. أصبح الوضع مزعجاً، فذهبت إلى العقبة، وقابلت فيصل، والشريف عبد الله بن حمزة الفار الذي حاول التخفيف من الخلاف المحلي، وعدت في اليوم الثالث مع وعدٍ بعشرين جملاً محمّلاً بالمؤن.

وصلت الجمال في 5 أيلول/ سبتمبر. وفي 16 أيلول/ سبتمبر، قصدنا المدوَّرة بقوة قوامها 116 بدوياً مكونةً من التوايهة والزوايدة والدراوشة والدمانية والطقاطقة وزلباني الحويطات وعقيلات بني عطية. كان الشيخ زعل القائد الوحيد القدير. وجعلت ادعاءات عودة القبائل الفرعية الأخرى مصممة على رفض سلطته. ألقى هذا الأمر على كاهلي قدراً كبيراً من العمل التفصيلي الذي لم يكن لدي أي مؤهلات لأدائه. وطوال الحملة كان لدي مزيد من الانشغال في مسائل المؤن والنقل، والأجور القبلية، والنزاعات، وتقسيم الغنائم، وحالات الثأر، وأمر المسير، وما شابه، أكثر من أعمال التفجير التي كان من الأفضل أن تُعهد إليّ. كان بصحبتي الشريف ناصر الحارث الذي أُصيب بالعمى في اليوم الأول من خروجه، وبات بلا فائدة.

وصلنا بئر المدوَّرة بعد ظهيرة 17 أيلول/ سبتمبر، أي بعد مسير ثلاث عشرة ساعة. وعند الغسق، نزلنا إلى المحطة الواقعة على بعد نحو ثلاثة أميال شرقاً. وبلغنا مسافة ثلاثمئة ياردة منها، لكن لم نتمكن من العثور على موقع مدفع الهاون Stokes. فالمحطة كبيرة، ويبدو أن قوام الحامية بين مئتين وثلاثمئة رجل، وكنت أشكك في الحكمة من اقتحامها بالقوة المشتركة بعهدتي. لذلك عدت إلى البئر في النهاية. وفي اليوم الثامن عشر، توجّهت جنوباً إلى أرض رملية. فمن المأمول جعل المدوَّرة هدفاً لمزيد من العمليات.

في غضون خمس ساعات عمل فوق عبّارة في الكيلومتر 587، زرعت لغماً كهربائياً بعد ظهر 18 أيلول/ سبتمبر على السطح الخارجي لمنحنى يؤدي إلى بعض التلال المنخفضة الواقعة على بعد ثلاثمئة ياردة، حيث يمكن نصب مدافع Stokes وLewis لتمشيط أطوال القطارات المتجهة إلى الشمال أو الجنوب نارياً. كان الموقع مرتفعاً جداً بالنسبة إلى عمل أفضل مدفع رشاش. لكنّ وجود رامي مدفع رشاش بريطاني جعل تجنب المخاطر أمراً مستحسناً.

نمنا بالقرب من اللغم، لكن رصدنا مركز مراقبة تركي بالقرب من الكيلومتر 590 بعد الظهر. وفي التاسعة صباحاً من اليوم التاسع عشر، تم إرسال نحو أربعين رجلاً من حالة عمار لمهاجمتنا من الجنوب، حيث يتم اختراق التلال ويصعب تفادي ذلك. ففرزنا ثلاثين رجلاً لصدّهم، وانتظرنا حتى الظهيرة، عندما خرجت قوة قوامها نحو مئة رجل من مدورة ونزلت ببطء على السكة من أجل الالتفاف علينا من الشمال. وفي الحادية بعد الظهر، قدم قطار بقاطرتين وعشر عربات بضائع مغلقة من الجنوب ببطء، وأطلق النار علينا بقوة من الطلّاقات والمواضع على أسطح العربات. ولدى مرورها، فجرتُ اللغم تحت القاطرة الثانية، على أمل أن تخترق العربة الأولى العبّارة. في هذه الأثناء، كانت مدافع Lewis تمشّط السقف. وأخرج اللغم القاطرة الأمامية عن مسارها، وحطم المقصورة ومقطورة الماء والوقود. ودمر القاطرة الثانية تماماً، وانفجرت في العبّارة. فانقلبت العربة الأولى في الحفرة، واهتزت العربات التابعة. فأثرت الصدمة في الأتراك، وسرعان ما اندفع العرب مسافة عشرين ياردة، وأطلقوا النار على العربات التي لم تكن مدرعة. فنزل الأتراك على الجانب البعيد، ولجؤوا إلى جوف الضفة (يبلغ ارتفاعها قرابة أحد عشر قدماً) وأطلقوا النار علينا بين العجلات. وسقطت قذيفتا Stokes بينهم فوراً، ودفعتهم نحو مساحة وعرة على بعد مئتي ياردة شمال شرق السكة. وفي طريقهم إلى ذلك المكان، قضى مدفع Lewis عليهم كلّهم باستثناء نحو عشرين منهم، وألقى الناجون بنادقهم بعيداً وهربوا نحو مدورة. استغرقت العملية عشر دقائق.

أمّا الآن، فكان العرب ينهبون القطار، فيما رميت علبة من قطن البارود على القاطرة الأمامية وأعطبتها إلى حد أكبر. ومع ذلك، أخشى أنها لا تزال قابلة للإصلاح. لم تكن الظروف مؤاتية لعمل جيد، إذ كان كثير من الأسرى والنساء

ملازمين لي، وعليّ حفظ السلم بين الناهبين. وما إن استسلم القطار، أطلق الأتراك النار علينا من الجنوب من مسافة بعيدة. أمّا قوتنا الموكلة مهمة تغطيتنا في ذلك الجانب، فتدخّلت من أجل تقاسم الغنائم. كانت الأمتعة في القطار كبيرة جداً، وجنّ جنون العرب بشأنها. على أي حال، لم تعد القوة البدوية موجودة عند الحصول على النهب، لأن كل رجل يهتم بالذهاب إلى البيت به فقط. لذلك، بقيت بصحبة ضابطي صف بريطانيين وزعل والهويمل من العرب من أجل ضمان سلامة المدافع والرشاشات. كان استكمال تدمير القاطرة الأولى أو حرق العربات أمراً مستحيلاً. لقد فجّرنا عشرين طلقة من قذائف Stokes وبعض ذخيرة الأسلحة الخفيفة التي أدى تفجيرها إلى إبعاد الأتراك بعض الوقت. كانت القوات التركية الشمالية والجنوبية تتقدم بسرعة، وطريق العودة تحت سيطرة التلال التي يحتلونها سلفاً. فتركت أمتعتي الشخصية وأخذت الرجال والمدافع إلى مكان آمن في مؤخرة القوات. وتمكن زعل من جمع ثلاثة عشر رجلاً. وفي الثالثة بعد الظهر، هاجمنا التلال واستعدنا موقع التخييم. وتمكنا بعد ذلك من التخلص من معظم الأمتعة، رغم لزوم ترك بعضها في أكثر المواضع المكشوفة. وجاء الرقيب يلز Yells مزوداً بمدفع Lewis، وانسحبنا من التلال جرفاً تلو الآخر بدءاً من 4.30 عصراً دون خسائر سوى أربع جمال.

بلغ عدد القتلى الأتراك قرابة سبعين رجلاً، والجرحى نحو ثلاثين (توفّي كثير منهم لاحقاً). وأسرنا تسعين بينهم خمسة جنود مصريين أسرهم الأتراك بالقرب من هدية، وعشر سيدات، وتسعة من رجال المدينة المنورة، رحّلهم الأتراك. وقُتل ملازم نمساوي كان على متن القطار (مع قرابة 13 رقيباً مدرِّباً). وتم إحضار 68 من الأسرى إلى العقبة فقط.

اتجهنا بقوة شمالاً من الخامسة مساءً، ثم إلى بئر المدوَّرة في الثامنة. لقد سقينا الجمال تلك الليلة دون مقاطعة من الأتراك، وكان ذلك توفيقاً من الله، لأن المحطة لا تبعد سوى ثلاثة أميال. كانت الجمال العربية محمّلة بالغنائم لدرجة أنها لا تنفع في القتال. وغادرنا في الأمسية نفسها، ووصلنا رم ليلة 20 أيلول/ سبتمبر.

سرعة الهجوم التركي، وضآلة قوتي، وكمية الغنائم، جعلت انسحابنا لا مفر منه. وكنت آمل تعطيل السكة مدة طويلة، وما زلت آمل أن يكون ذلك ممكناً بموجب ترتيبات مناسبة. إن المساحة المحيطة بالمدوَّرة (تُعدّ بئر محطتها، حسب اعتقادي، مفتاح سكة حديد معان–تبوك) جرداء، إذ لا يمكن الإبقاء على قوة حصار كبيرة. لكن الصعوبات المائية التي يواجهها الأتراك تجعل قيامهم بهجوم عنيف، في حال سقوط المدوَّرة، أمراً بعيد الاحتمال.

بلغ الضحايا العرب قتيلاً وأربعة جرحى.

كان اللغم كيسَ رمل يبلغ وزنه خمسين رطلاً من الجيلاتين المتفجر المعجون في كتلة واحدة. وتم تثبيته بين طرفي عوارض فولاذية، يتصل كل منهما

بقاعدة السكة. ووُضعت أربع بوصات من الرمل والحصى فوقها. كان الموقع المختار فوق الطرف الجنوبي من عبّارة مقنطرة طولها ثلاثة أمتار، وطُمرت أسلاك التماس أسفل الجسر، عبر تجويف، وصولاً إلى جرف صخري منخفض بعدها. استخدم صاعق بحري مضاد للماء، إذ لم تكن الصواعق العسكرية متوفرة. ونظراً إلى تزويدنا بالأسلاك المفردة الصلبة استغرق طمر سلك التماس قرابة أربع ساعات. سيكون استخدام السلك المزدوج الخفيف جداً أجدى. تبيّن أن إخراج الأسلاك بعد استخدامها صعب للغاية (من حيث الوزن).

كان طول السلك المتاح مئتي ياردة. لكن لأسباب تتعلق بالمراقبة، عليّ الوقوف على مسافة مئة ياردة فقط. فكانت صدمة الانفجار شديدة للغاية، وسقطت أجزاء من الأسطوانات والعجلات والمكابس وألواح المراجل في الأماكن كلها إلى دائرة نصف قطرها ثلاثمئة ياردة عن القاطرة. تم نسف جانب القاطرة بالكامل وتدمير نصف العبّارة. واشتكى ركاب العربات من الصدمة. لو فجّرت اللغم تحت القاطرة الأمامية، أعتقد أن كليهما كان سيتدمر. إحداهما قاطرة الحجاز والأخرى قاطرة دمشق–حماة وتفرعاتها (سكة حديد دمشق–حلب).

29. غارة بالقرب من بئر الشيدية

21 تشرين الأول/ أكتوبر 1917

غادرت العقبة في 27 أيلول/ سبتمبر لاختبار لغم آلي على سكة حديد الحجاز. وبالنظر إلى إمكانية إجراء عمليات أوسع في تشرين الأول/ أكتوبر، اصطحبت معي الملازم بيساني Pisani، من مرتبات القطاع الفرنسي في العقبة، وثلاثة مثقفين سوريين (هم فايز وبدري المؤيد، ولطفي العسلي) لتدريبهم على التكتيك المضاد للسكك الحديدية.

تابعنا مسيرنا إلى رم في 29 أيلول/ سبتمبر، حيث توقفنا ثلاثة أيام. كان الملازم بيساني يعاني من الحمى، وقضيت الوقت في إطلاعه والآخرين على أعمال التلغيم الأولية وتنسيق تفاصيل القوة البدوية المطلوبة مع الشريف هاشم، من قبيلة الشنابرة، وهو الضابط القائد في رم. وكانت أوامر فيصل إليه الذهاب حيث وأنّى يشاء، وحسب إرادتي. وفي محاولة للتغلب على الصعوبات التي سببتها ادعاءات عودة أبو تايه، قمت بتعيين الشيخ سالم عليان (الدمانية) ليكون ضابطاً قائداً على البدو، وطلبت فقط من رجال قبيلتي الدمانية والدراوشة قرابة أربعين إجمالاً. فكان هذا الرقم كافياً للتعامل مع قطار محطم، ويسهل التعامل معه في منطقة فصوعة (كنت متجهاً إليها) حيث الآبار صغيرة. ومع ذلك الغنائم الهائلة في القطار الذي تم تفجيره في وقت مبكر

من أيلول/ سبتمبر بالقرب من المدوَّرة قد ألهمت قبيلة الحويطات تماماَ، وأحدث المئات ضجّة وأصروا على المشاركة في حملتي الجديدة. واجهتنا صعوبة كبيرة، وفي النهاية قبل قرابة مئة من قبيلة الدراوشة وخمسين من قبيلة الدمانية، بما في ذلك كل شيخ من القبيلتين الفرعيتين. أمّا الآخرون، فتم رفضهم كلهم.

من سمات الحويطات أن كل رجل رابع أو خامس فيها هو شيخ. نتيجة لذلك لا يتمتع الشيخ الرئيس بأي سلطة إطلاقاً. وكما الحال في الغارة السابقة، تعيّن عليّ أن أكون ضابط الحملة القائد بأكملها. هذه ليست وظيفة يجب أن يقوم بها الأجانب، لأنّنا نفتقر معرفة وثيقة بالعائلات العربية كي يمكننا تقسيم النهب العام بشكل عادل. لكن في هذه المناسبة، تصرف البدو على نحو جيد للغاية، وسارت الأمور كما كنت أتمناها. لكن خلال رحلة الأيام الستة، كان عليّ الفصل في 12 قضية اعتداء بالأسلحة، وأربع سرقات جمال، وتسوية زواج واحدة، و14 حالة ثأر، وحالتي حسد، وحالة سحر. هذه القضايا تستنزف وقت فراغ المرء كلّه.

صعدنا وادي حفري (يصب في القاع، شمال شرق رم، وهو حوض مركزي يصب فيه واديا حسمى ورابغ أيضاً) وصولاً إلى قمته بالقرب من البتراء، حيث كنا ننضح بصعوبة بسبب ندرة الإمداد، ووجود كثير من العائلات العربية في محيط البئر. والمنطقة الواقعة بين البتراء وسكة الحديد مليئة بالخيام العربية. تابعنا مسيرنا من البتراء في 3 تشرين الأول/ أكتوبر إلى قرب الكيلومتر 475 حيث كنت أنوي زرع الألغام لكننا اكتشفنا نقاط حراسة تركية (من خمسة عشر رجلاً إلى خمسة وعشرين) قريبة جداً من المواقع المناسبة. عند حلول الظلام، اتجهنا إلى الجنوب، حتى منتصف الليل، عندما وجدنا مكاناً جيداً، وطمرنا لغماً آلياً عند الكيلومتر 500.4. وكان أقرب موقع تركي يبعد مسافة 2500 متر جنوباً. أمّا في الشمال، فلم يكن ثمة موقع لما يقارب أربعة آلاف ياردة. فاستغرق زرع الألغام منا، نحن الخمسة، ساعتين، ثم انسحبنا 1500 ياردة عن السكة وعسكرنا. في اليوم الرابع، لم يمر أي قطار. أمّا في اليوم الخامس، فجاء قطار يحمل مياهاً من معان في العاشرة صباحاً، ومرّ فوق اللغم دون تفجيره. فانتظرت حتى منتصف النهار. وبعد ذلك، خلال ساعتين، زرعت لغماً كهربائياً فوق اللغم الآلي. كان الأتراك يتفقّدون السكة مرتين يومياً. لكن قد يأخذ المرء بعين الحسبان عادة نومهم كلّهم وقت الظهيرة. ثم أقنعنا العرب بمهاجمة القطار عند قدومه. وانتظرنا حتى صباح 6 تشرين الأول/ أكتوبر من أجل وصول أحدها.

تعبر السكة في هذا المكان وادياً على ضفة ارتفاعها عشرين قدماً وطولها خمسمئة ياردة. ويخترق الضفة ثلاثة جسور صغيرة على مسافات تصل إلى مئتي ياردة تقريباً. وزرعنا ألغامنا في أقصى الجنوب منها، وأخذنا الكابلات على طول السكة إلى أقصى منتصفها (موقع إطلاق النار)، ووضعنا مدفعين

من نوع Lewis في أقصى الشمال. فمن تلك النقطة، كانا في وضع يسمح لهما باستهداف ضفة الجسر نارياً. ومن الجسر الشمالي هذا، صعدنا غرباً سرير سيل بعمق قدمين، مرقط بشجيرات صحراوية اختبأ فيها الرجال والبنادق إلى حين الحاجة إليهم.

في اليوم السادس، قدم قطار (من اثنتي عشرة عربة) من معان في الثامنة صباحاً. ووصل قبل مئتي ياردة فقط من الدورية التركية (المكونة من تسعة رجال)، لكن هذا وفّر لنا وقتاً لاتخاذ مواقعنا. فمن سرير الوادي المفتوح أمام السكة، حيث كنت جالساً لإعطاء إشارة إطلاق النار، كانت رؤية القطار يسير على طول قمة الضفة، ورجال المدفعية الرشاشة والمفجّرون يرقصون رقصات الحرب تحت الجسور أمراً غريباً. أمّا العرب الذين ورائي، فاختبؤوا بشكل رائع والتزموا الهدوء تماماً.

أدى الانفجار إلى تدمير حجيرة احتراق القاطرة (رقم 153، الحجاز)، وتفجير كثير من الأنابيب، والإطاحة بأسطوانة القاطرة في الهواء، وإزالة المقصورة، وتشويه الهيكل، وثني عجلتي القيادة القريبتين وكسر محاورهما. أظن أنه يتعذّر إصلاحها. كما تم تدمير عربة الماء والوقود والعربة الأمامية، إضافة إلى قنطرة واحدة من الجسر. انقطعت التوصيلات، وانجرفت العربات الأربع الأخيرة خلفاً نحو سفح التلّ بفعل النيران. ولقد فاتني الأوان لإيقافها بحجر. وظهر قائمقام من إحدى النوافذ وأطلق النار علينا بمسدس Mauser، لكن بدوياً شق طريقه نحوه على بعد عشرين ياردة، وسقط بعيداً عن الأنظار، وآمل أن يكون متضرراً (لقد سمعنا عن عودته آمناً إلى معان. فكان واحداً، نظمي بك). تم الاستيلاء على العربات الثماني المتبقية في غضون ست دقائق. كانت تحتوي على قرابة سبعين طناً من المواد الغذائية "المطلوبة بصورة ماسة في مدائن صالح لابن رشيد"، بموجب بوليصات الشحن التي تم العثور عليها مع المواد. حملنا قرابة ثلثها، ودمرنا ثلثاً آخر أو أكثر. بلغ عدد القتلى الأتراك نحو 15. وأُطلق سراح بعض المدنيين، وأُسر أربعة ضباط.

استنزف النهب طاقات بدونا كلها، وجاءت الهجمات المعاكسة التركية من الشمال والجنوب دون معارضة. لقد قمت بلف الكابلات الكهربائية أولاً. ولأنها ثقيلة جداً وكنت بمفردي، استغرق فعل ذلك قرابة ثلاثة أرباع الساعة. ثم جاء اثنان من زعامات الداروشة للبحث عني. فصعدت إلى أعلى الضفة، على أمل تفجير القطار، لكنني وجدت نحو أربعين تركياً قادمين بسرعة وعلى بعد أربعمئة ياردة فقط. ونظراً إلى أن أقرب البدو كانوا على بعد ألف ياردة وكانوا راجلين كلّهم يقودون جمالهم المحملة بأقصى سرعة باتجاه الغرب، شعرت أن البقاء مدة أطول في الموقع بمفردي ضرب من الحماقة. وعليه، انطلقت بصحبة العربيين اللذين أتيا بحثاً عني. وصلنا جميعنا وادي رم آمنين في اليوم السابع، والعقبة في اليوم الثامن، حيث وجدتُ برقيات تطلب مني الذهاب إلى السويس وإلى مقر القيادة العامة، وقوة الحملة المصرية.

كان هدف الغارة التجربة فقط، وأثبتت أنها الأنجح. أخفق اللغم الآلي لكنني أثبت قدرتي على الاحتفاظ بـ150 بدوياً في معسكر على بعد 1500 ياردة من السكة ثلاثة أيام دون تحذير الأتراك من وجودنا رغم مرور الدوريات المنتظمة للسكة صعوداً ونزولاً. هذا يعني أن عامّة الناس من العرب وكذلك الشيوخ فعلوا ما أمرتهم به. سيكون التدمير الكامل لقطار مستولى عليه، وإبادة فرق الإغاثة، أمراً سهلاً، بمجرد أن يكون لدي فرقة المدفعية الرشاشة الهندية لدعمي في القتال الفعلي. في هذه المناسبة، كان اثنان من خدمي العرب من رماة مدفعيةLewis ، إذ دربتهم في يوم واحد في رم. لقد قتلوا اثني عشر من ضحايا العدو، لكنهم ذهبوا، بطبيعة الحال، للحصول على الغنائم بعد ذلك مباشرة.

على ما أعتقد، ماسميلانو بيساني Massimiliano Pisani وفايز المؤيد ولطفي العسلي مؤهلون الآن لزرع الألغام بأنفسهم. كنت راضياً عن الثلاثة تماماً.

30. محطات جغرافية

21 تشرين الأول/ أكتوبر 1917

وادي السرحان

قدم الرائد لورانس بعض المعلومات الجديدة حول هذا الوادي المهم الذي يوفر قناة الاتصال الرئيسية بين حوران والجوف وشمال وسط الجزيرة العربية. في قمته، يقع الجوف، بشكل شعبي، في مجموعة الوشاوشة والنبخ والإثراء والجرجر مثل القريّة أو قريّات الملح، على أرض الحيازة المشتركة لأعمال الملح الضخمة التي يبدو أنها فاتت المسافرين الأوروبيين. فوجد الرائد لورانس الوادي ينبض بالثعابين السامة التي يتراوح طول نصف دزينة من أنواعها من تسعة أقدام إلى ثلاثة. فخسرت مجموعته ثلاثة رجال من لدغات الثعابين. إن التزود بالماء بعد حلول الظلام خطير بصورة خاصة حيث تمتلئ الآبار والبرك بعد ذلك بالثعابين التي تسبح بالمحيط. أمّا في النهار، فتوجد في كل شجيرة. وتم رصد كثير من النعام في ذلك المكان وفي المساحة الواقعة جنوباً، لكن لم يتم اصطياد أي منها. وتناول الرائد لورانس وثلاثة آخرون إحدى بيوضها المسلوقة إفطاراً على نار من أصابع المتفجرات، إذ كان عمرها نحو شهر. لقد حصلوا على قدر كبير من لحم المها ورأوا كثيراً من هذه الظباء ذات الرأس الثقيل، وهي موحية جداً للثيران. كان لدى قبيلة الحويطات مها صغيرة جميلة في خيامهم. بعد الحرب، يجب أن يتم الترتيب لتمثيل هذا النوع المثير للاهتمام بواسطة عيّنات حية في لندن.

خرائط لشمال غرب الجزيرة العربية

نتيجة لرحلاته في شمال غرب الجزيرة العربية، أفاد الرائد لورانس أن الخرائط الموجودة لا تفي بالغرض كلّها. ووجد أن نشرة المكتب العربي في معان ليست سيئة كرسم تخطيطي لسمت البلاد العام لكنه متأكد أن سكة الحديد تظهر بعيدة جداً في اتجاه الشرق، وهو خطأ يؤدي إلى التقليل من أهمية المسافات كلها عنها في اتجاه داخلي. أمّا نشرة "الجمعية الجغرافية الملكية"، فيشجبها بسبب مناطق وادي السرحان والجوف كلّها خاصة في وضعها وتهجئتها للنواحي. وجد أن عبور الآنسة بيل Bell من الجوف إلى السبع بيار، أهم أماكن الري في ولد علي، جيد ولكنه طفيف للغاية. أمّا بين معان والعقبة، فيستهجن خرائطنا البريطانية والألمانية والتركية كلّها على حدٍ سواء. مثلاً لم توضع علامة على مستجمع مياه مهم بين حسمى (فيشكّك في التطبيق العام لهذا الاسم على كل منطقة الهضبة الكبيرة التي تُطلق عليها عادة، ويَعتقد بأنها تستخدم للإشارة إلى وادٍ واحد فقط) ووادي اليتم، على بعد نحو ثمانية أميال جنوب غرب منطقة القويرة، بصورة صحيحة في أي مكان. من المستحسن بالتأكيد إجراء مسح للطريق في وادي اليتم، وتحديد موقع سكة الحديد في نقاط عدة بين معان والمدينة المنورة. لم تُسلم مخططات الطريق الخاصة بالرائد لورانس بعد.

31. غارة

16 كانون الأول/ ديسمبر 1917

غادرتُ العقبة في 24 تشرين الأول/ أكتوبر برفقة النقيب جورج لويد G. Lloyd، والملازم إيفلين وود Evelyn Wood، وسرية مدفعية رشاشة هندية. أخذ الهنود مدفعي Vickers، وأخذت معي مدفعي Lewis.

تابعنا مسيرنا إلى رم في (25 تشرين الأول/ أكتوبر) ومن هناك عبر القاع ووادي الحفير بالقرب من البتراء. ثم عبرنا سكة الحديد جنوب بئر الشيدية ووصلنا الجفر في 28 تشرين الأول/ أكتوبر. عاد النقيب لويد إلى العقبة من هناك. تجاوزنا الشريف علي بن الحسين، وتابعت الجماعة المسير إلى باير، وأخذت الشيخ مفلح الزبن وخمسة عشر من بني صخر ووصلت العمري في 2 تشرين الثاني/ نوفمبر. في 5 تشرين الثاني/ نوفمبر، عسكرنا في قصر الحلابات. وفي اليوم السابع، أخفقنا في مهاجمة جسر تل شهاب، وعدنا إلى القصر. ومن هناك، عادت سرية المدافع الرشاشة الهندية مع الملازم أول وود إلى الأزرق. ذهبت بصحبة ستين عربياً إلى Minifir وفجرنا قطاراً في الكيلومتر

172 في 11 تشرين الثاني/ نوفمبر، ووصلنا الأزرق في 12 تشرين الثاني/ نوفمبر.

كنت أنوي الوصول إلى جسر الحمّة في 3 تشرين الثاني/ نوفمبر، لكن تبيّن تعذّر ذلك، لأن الأمطار جعلت سهل الجولان زلقاً جداً على حركة جِمَالنا، وكان الأتراك قد وضعوا المئات من الحطّابين في تلال إربد. أدى ذلك إلى إغلاق الطريقين الشمالي والجنوبي، وتَرْك تل شهاب (جسر 14) الجسر الوحيد الذي يسهل الوصول إليه في وادي اليرموك. كانت خطتي الأولى هي مهاجمته عبر قطع الجِمَال مسافة خمسين ميلاً في اليوم. فأخفقت هذه الفكرة أيضاً نظراً إلى عجز سرية المدفعية الرشاشة الهندية عن قطع مسافة ثلاثين ميلاً إلى خمسة وثلاثين في اليوم إلا ببذل قصارى جهدها. وبسبب قلة خبرتها، أنهكت سرعة السير هذه جمالها بسرعة كبيرة. لقد بذلت جميعها قصارى جهدها، ولم تُسبب لي أي مشكلة إطلاقاً، لكنّها كانت عاجزة عن السير بسرعة فحسب.

لذلك قررت إعداد قوة عربية والانقضاض على الجسر بقوة. رفضت عشيرة أبو تايه الانضمام، ولم يوافق سوى خمسة عشر من بني صخر على الانخراط، الأمر الذي اضطرني إلى الاعتماد على ثلاثين مجنداً من السراحين في الأزرق بصورة رئيسية. لقد كانوا رجالاً أغراراً وتبيّنت قلة فائدتهم عند الضرورة. بالنسبة إلى المرحلة الأخيرة من الجسر، حيث كانت تنطوي على ركوب صعب، اخترت ستة من الهنود مع ضابطهم، وبلغنا الجسر في منتصف ليل 7 تشرين الثاني/ نوفمبر فعلياً. إنه موقع من التحصين بمكان، لكن أعتقد أنه يمكن لعشرين رجلاً محترماً مهاجمته. كان الهنود الذين برفقتي قلّة قليلة ليفعلوا ذلك. أمّا السراهين، فألقوا الديناميت في الوادي وولّوا الأدبار بمجرد أن أطلق الأتراك النار عليهم. في هذه الظروف، ناديت الجميع بأسرع ما يمكن، وعدنا إلى قصر الحلابات. كان الهنود متعبين للغاية من الرحلة التي كانت سريعة إلى حد ما، وقطعنا فيها مسافة تسعين ميلاً في اثنتين وعشرين ساعة. كان البدو والشريف يريدون فعل المزيد قبل العودة إلى الأزرق. ولو كان الهنود أكثر لياقة، لكان في مقدورنا شنّ غارة مجدية، لكنهم كانوا متعبين ولم يتبقَّ لديهم سوى مؤونة نصف يوم، إذ تم إيداع الحوائج الإضافية كلّها في الأزرق.

شُرح الموقف للشريف الذي قال إن تلغيم القطار كافٍ دون مهاجمته بالمدافع الرشاشة. فوافق البدو على ذلك، وذهبنا معاً. كانت الفرقة مكونة من الشريف علي وعشرة خدم وأنا برفقة 21 رجلاً من بني صخر وثلاثين من قبيلة السراهين. لم يكن في حوزتنا أي طعام إطلاقاً. فذهبنا إلى Minifir، وصولاً إلى الكيلومتر 172 حيث لغمتُ السكة في حزيران/ يونيو الماضي. ونظراً إلى أن البدو فقدوا الديناميت الخاص بي عند الجسر، لم أتمكن إلا من حشو ثلاثين رطلاً في اللغم الذي زرعته على قمة عبّارة يبلغ ارتفاعها أربعة أمتار (يبلغ ارتفاعها قرابة ثمانية عشر قدِماً)، وأخذت الأسلاك إلى أعلى جانب التل باتجاه

الستار الذي تصل إليه. ونظراً إلى قصر السلك إذ كان لا يتجاوز ستين ياردة كان علينا ترك الأطراف مطمورة خوفاً من الدوريات. قدم قطار قبل فجر اليوم العاشر سريعاً جداً لدرجة لم أتمكّن معها من الوصول إلى المفجِّر من موقع الرصد. وفي صبيحة اليوم العاشر، جاء قطار لاجئين بسرعة أربعة أميال في الساعة من الجنوب. فخيّب المُفجِّر الآمال، ومرّ القطار بأكمله أمامي ببطء شديد بينما كنت مستلقياً على المسطّح المجاور للأسلاك. ولسبب ما، لم يطلق أحد النار عليّ. وبعد مروره، أخذت المفجِّر بعيداً وأصلحته، فيما جاءت دورية تركية وتقصّت المكان بدقة متناهية. في تلك الليلة، نمنا على مقدمة الأسلاك حتى العاشرة صباحاً من 11 تشرين الثاني/ نوفمبر، ولم يظهر أي قطار. ثم أتى قطار جنود مؤلف من 12 عربة وقاطرتين من الشمال بسرعة عشرين ميلاً في الساعة. فجّرت اللغم تحت القاطرة وكان الانفجار هائلاً. لا بد أن شيئاً ما قد حدث للمرجل لأن قوة العصف أطاحت بي خلفاً، وتطايرت ألواح المرجل في الاتجاهات كلها. حطمت إحدى الشظايا المفجِّر، الأمر الذي اضطرني إلى تركه والأسلاك في مكانه. سقطت القاطرة الأولى في الوادي على الجانب الشرقي من السكة، وانقلبت الثانية في الفسحة التي كانت فيها العبّارة، وانقلبت على مقطورة الماء والوقود في القاطرة الأولى. التوى الهيكل، وأشك في إمكانية إصلاحه. سقطت مقطورة مائها ووقودها من على الجسر غرباً، وتداخلت العربتان الأوليان في موقع العبّارة. أمّا العربات الثلاث أو الأربع اللاحقة، فخرجت عن مسارها. في هذه الأثناء، قضيت وقتاً مشرّفاً عبر المرتفع المكشوف نحو العرب الذين كانوا يتمركزون في موقع مناسب ويطلقون النار بسرعة من فوقي على العربات المكتظة بالجنود. من الواضح أن الخسائر التركية فادحة للغاية. ولسوء الحظ، لم يكن في حوزة كثير من السراهين بنادق، ولم يكن في مقدورهم سوى إلقاء حجارة لا جدوى منها. اختبأ الأتراك خلف الضفة وأطلقوا نيراناً عنيفة علينا. كان قوامهم نحو مئتي فرد حتى الآن. وأحضر الشريف علي مجموعة مكونة من 22 شخصاً لمقابلتي لكنه تكبّد سبعة قتلى ومزيداً من الجرحى. ونجا من الموت بشق الأنفس مرّات عدة قبل عودته.

ربما كان على متن القطار شخص مهم نظراً إلى وجود سيارة صالون تحمل علماً في مقدمتها، وإمام، وسيارة سياحية داخله. أظن أن شخصاً ما كان يريد الذهاب إلى القدس عبر عمّان. لقد نسفنا الصالون. وشن الأتراك، الذين رأوا عددنا القليل جداً، هجوماً في وقت لاحق كبّدهم قرابة عشرين مصاباً. ثم بدؤوا العمل على أعلى السفوح على ميمنتنا وميسرتنا. فانطلقنا إلى منطقة الأزرق وبلغناها في اليوم اللاحق.

أظهر هذا اللغم أن ستين ياردة من الأسلاك قليلة جداً لتفجير عبوات ثقيلة تحت القاطرات. فكان عليّ النجاة من وابل ألواح المراجل أولاً، ثم صعود تلة شديدة الانحدار مسافة أربعمئة ياردة تحت النار. وبمحض مصادفة طيبة، كان

إخراج السلك مستحيلاً. لذلك، لا يمكن تكرار أداء العمل إلى أن يأتي المزيد من العقبة.
كما أظهر المسير صفات البدو الملازمة. فركبوا رواحلهم تسعين ميلاً دون طعام أو راحة في اليوم الثامن، وتناولوا وجبة صغيرة صباح اليوم التاسع، وجلسوا جائعين ليلتين وثلاثة أيام بسبب الرياح الباردة بصورة قارسة والأمطار (لم نكن نشعر بالرضا لأننا نتعرض للبلل باستمرار لكننا كنا مبتلّين وناشفين خمس مرات) حتى مساء اليوم الحادي عشر عندما نحرنا لهم ظعينة. وبعد ذلك تابعوا مسيرهم إلى منطقة الأزرق بكلّ يسر.

32. عبد الله والإخوان

24 كانون الأول/ ديسمبر 1917

في ما يأتي مذكّرات عن حديث الشريف فيصل خلال محادثة أجريتها معه في 4 كانون الأول/ ديسمبر:
من غير المنصف إدانة شقيقي عبد الله دون تحفظ. إنه لا يشارك في الحرب ضد الأتراك، لأن قلبه كلّه وعقله وموارده كلّها مشغولة بمشكلات نجد. إنه ملك قبيلة عتيبة وجزء من قبيلتي مطير وهتيم، ويزيد من قبضته يومياً على المناطق النائية في القصيم وجبل شمر. كانت مسؤولية حفظ النظام في نجد الغربية ملقاة على كاهل عبد الله دائماً. وعندما اعتلى والدي العرش، وجد القبائل الحدودية في حالة اضطراب كلّها، وقاد عبد الله حملة تلو أخرى ضدها (بينما سَحقتُ الإدريسيين بمساعدة الأتراك) إلى أن بات اسمه مصدر هيبة من الطائف إلى قرية شهارة. وكان يقصده زعامات عتيبة كلها من أجل الأوامر والتوجيهات. وكنا في تلك الأيام محاصرين من أعدائنا الدينيين، الوهابيين والإدريسيين، ونقاتل من أجل حيواتنا. بعد ذلك، ساد السلام إلى أن انتفضنا على الأتراك وزحفنا نحو الوجه. ثم اندلعت الاضطرابات في نجد مجدداً. فحصّن عبد الله الحناكية، وتلقّى ابن سعود التحذير، إذ أطلق حملاته التبشيرية مجدداً.
اسم "إخوان" الذي تستخدمونه لا ينطبق على المتأخونين بصورة صحيحة. فبدأ كلقب لأخوّة الدعاة. أمّا الآن، فيستخدمه الأتباع بشكل فضفاض أيضاً. ويضطلع الإخوان بمعتقدات السلفية كلّها، ولا سيما القول إن محمد كان رجلاً يحمل رسالة وقد مات. ويضيفون قواعد أكثر صرامة لصلة الرحم، ويحجّبون نساءهم حتى في البيت. فهم قدريّون إلى درجة التحريم، ويتمسكون بقانون الجهاد كمبدأ أولي، بموجب دعوة من الإمام والعلماء. أخشى دائماً أنه في الغد، عندما يحل التوتر، سيرفضون سلطة **القرآن** (يختلفون عنا في تفسيره

إلى حد كبير)، لأنهم يرفضون النبي اليوم. فإمامهم ابن سعود، لكن ليس للقب دلالة. ومع ذلك، يرونه زعيماً لطريقتهم، ويخضعون أنفسهم بالكامل لأوامره. يدفع رواتب الدعاة جميعهم وهم بالمئات. لكن الروح المحرّكة للكل تتمثّل في علماء الرياض. هم يستميلون البدو فقط، ويزرعون الفتنة بينهم وبين الحضر. فالرياض (أو قرية العليم القريبة منها) هي مركز العقيدة الجديدة. فثمانية من كل عشرة من بدو نجد يتبعون الإخوان، وفرع الطائف يتفوق بسرعة على قبائل شمال اليمن. ورجال الزبير يؤثرون في عرب الشام. فرُبع الشمر تحالفوا معها. وهمّة نوري فقط هي التي أبعدتها عن قبيلة عنِزَة. المتأخونون يثيرون بعضهم بعضاً إلى درجة من التعصب الشديد، لكنّ خضوعهم لهيئة الرياض مطلق، والهيئة صنيعة ابن سعود الذي يموّل الدعاة ويطعمهم. فهو يصر على السلام في الوقت الحاضر، وهو ودود لكم. وتحمّل وجود ابن رشيد إلى أن أخون الشمّر الآخرين. وعندما يحين وقته، سيوجه، بدوره، قوة البدو ضد شعوب الجزيرة العربية المستقرة تدريجياً: القصيم أولاً، ثم حائل، ثم الحجاز، ثم العراق وسوريا. وسيفرض العقيدة الجديدة في الأماكن كلها، ويهيمن على شبه الجزيرة.

يرفض عبد الله هذا الأمر كلّه. والخطوة الأولى في طموحه هو كسب قبيلة شمّر، وفي هذا يتقدم باضطراد. لقد خسر قبيلة هتيم التي انتقلت إلى العقيدة الجديدة. لكن قبضته على عتيبة قوية جداً، ويؤكدها يومياً. فلا يمكن لابن سعود الاستيلاء على الحجاز دون عتيبة. هذه الإجراءات دفاعية، وعبد الله يعززها وفق إمكاناته. كما أنه ينقل الحرب إلى معسكر ابن سعود في القصيم، بوصفها نقطة الضعف في مخطط الإخوان. أمّا عنيزة وبريدة والراس، فهي مدن مريحة. لقد تجنّد شبابها في قبيلة عقيل، والحكومة التركية، وهناك تعلموا التسامح واستخدام التبغ. يعودون إلى ديارهم بعد ثلاث سنوات أو أربع ويروون لأهل حكومة الحجاز كيف أن إنسانية الحاكم تخفف همجية قواعد الشريعة وحرفيتها لتنسجم مع روح العصر. ونتيجة لذلك إن عيون القصيم تتطلّع إلينا بشوق، وإذا استطاع القصيميون، سيتمردون على الإمام وإخوانه. على الأغلب، يحتفظ ابن سعود بقواته في مدنها لمنع هذه الحركة من اكتساب الزخم، وفي النتيجة، يتعين على عبد الله العمل سراً. فهو لا يريد القصيم حقاً لكنه يريد أن يخيف ابن سعود.

إذا تمكنا من توحيد شعوب الجزيرة العربية المستقرة تحت راية والدي، يمكننا كبت العقيدة الجديدة في الصحراء إلى أن يصبح تجريداً عقدياً مرة أخرى، كما كان حال المذهب الوهابي بين محمد علي والأمير عبد العزيز. وإذا أخفقنا في ذلك، ستذهب جهودنا وانتصاراتنا على الأتراك سدى. ولن تستفيد بريطانيا العظمى من النهضة العربية إذا تم تدمير الضريح في المدينة المنورة والحرم في مكة المكرمة، ومنع مناسك الحج. عبد الله يخوض معاركنا كلها.

وإذا لم يكن لديه وقت فراغ من أجل شن حملة على سكة الحديد في هذه الأثناء، لا ينبغي الحكم عليه بقسوة.

33. المتأخونون

27 كانون الثاني/ يناير 1918

من بين الذين تأخونوا حديثاً فيصل ووطبان ولافي من فرقة الدويش في عتيبة. وتديّنت أجزاء من الدوشان منذ بضعة أشهر. وتأخون فيصل بعد مدة وجيزة من مغادرته معسكر سيدي عبد الله. وقد سبق له أن باع جماله، ولبس "العمامة" البيضاء. ويُعتقد بأنه سيستقر في دخنة، القرية الإخوانية المشتركة بين عتيبة وحرب، لكن الصمان والدهناء قريتان إخوانيتان أخريان تابعتان لقرية الدويش، وقد يفضل أياً منهما. أمّا من هجّانة العتبان، فانضم الشيخان نجر وتركي إضافة إلى بجاد أبو خشيم، إلى الحركة الوهابية الجديدة. كما تأخون غالب وعلي الهرمزي ونايف القثامي ونايف الرويس، في حين يُشكّ في أمر محمد بن هندي. ورفض ابن شليويح أن يكون له علاقة بالوهابية.

على الغالب، يعيش أفراد قبيلة مطير الذين تأخونوا في بلدة الأرطاوية التي من المرجّح أن تصبح مقراً للإخوان المتشددين. ابن سكيان ومحمد الهويمل وضيحان اللافي وعزير الصفيني (من الهويملات) وابن سبيّل من بني أثلة ومحمد المزيني (من القريّات) ومحمد بن مجيل النايفي هم من أبرز المتأخونين في مطير.

أمّا من قبيلة حرب، فيُعدّ ناهس وفيصل الضويبي، وضاهر السادة، وزيد الهلالي، وثلاب بن علي أتباعاً للإخوان. ويُشاع أن بعض زعامات قبيلة الفرم الفرعيين قد لحقوا بالركب.

تم تأخون من سبق كلّهم منذ 1914.

34. التقارير الأولى من الطفيلة

11 شباط/ فبراير 1918

كانت الطفيلة قد استسلمت في اليوم الخامس عشر بعد قتال طفيف، وبلغ عدد الأتراك الذين تم أسرهم هناك 150.

أفاد الرائد لورانس أثناء كتابته من ذلك المكان في اليوم الثاني والعشرين أن السكان منقسمون إلى فصيلين معاديين وخائفين للغاية من بعضهما بعضاً.

كان هناك إطلاق نار في الشوارع كل ليلة. وكان الطحين والشعير غالييْن للغاية ويصعب العثور عليهما. وثمة نقص حاد في البغال والجمال. ومع ذلك، كان الضباط الأشراف ينسقون حراسة المدينة وتنظيم الإمدادات. كان الوضع معقداً بسبب وجود قرية المغاربة التي حاصرها العرب، ومجموعة من سبعة عشر (1700!) أرمينياً معدماً، لكنّ تغذيتهم جيدة، على ما يبدو.

انطلقت قوة من العرب المحليين بقيادة الشريف عبد الله الفايز وحمود الصوفي من قبيلة الترابين (يضيف الرائد لورانس) إلى المزرعة على البحر الميت لمنع أي تسرب للإمدادات غرباً من الكرك، بينما كان الشريف مستور متجهاً شمالاً إلى سيل الحسا الواقع في منتصف الطريق بين الكرك والطفيلة تقريباً. تم إرسال رسائل إلى عرب الكرك الذين كان موقفهم مشكوكاً فيه. يُعتقد أن رفيفان، زعيم قبيلة المجالية، موالٍ لتركيا، لكن حسين الطرة، الشيخ القيادي الآخر، كان موالياً للأشراف سراً.

وردت أنباء منذ ذلك الحين عن احتلال العرب المزرعة حيث أسروا ستين بينهم ضابطان، وأحرقوا زورقاً بخارياً وستة قوارب شراعية.

في 26 كانون الثاني/ يناير، هاجمت قوة كبيرة من الأتراك قادمة من الكرك العرب في سيل الحسا، إذ وقع قتال عنيف نجم عنه انتصار رائع للعرب الذين قتلوا فيه خمسمئة من الأعداء وأسروا 250، بمن في ذلك حامد بك، الضابط القائد للفرقة 48. فرّ قرابة خمسين تركياً فقط باتجاه الكرك، وقُتل الضباط جميعهم أو أسروا. تألفت الغنيمة من مدفعين جبليين نمساويين قويين، وتسع بنادق آلية، وثلاثة وعشرين رشاشاً (بما في ذلك 15 رشاش Maxim ألماني) وثمانمئة بندقية. كما تم الاستيلاء على قرابة مئتي بغل وخيل وتوزيعها على البدو.

35. معركة سيل الحسا

18 شباط/ فبراير 1918

تمّ إرسال فوج تركي مؤقت بقيادة حامد فخري بك القائم بأعمال الضابط القائد العام للفرقة 48 المكونة من الفوج الثالث من اللواء 151، ومن الفوج الأول من اللواء 152، وكتيبة نخبة من اللواء 150، إضافة إلى سرية درك، ومفرزة من مئة خيّال، ومدفعين جبليين نمساويين سريعي الإطلاق، وثلاثة وعشرين رشاشاً، عبر سكة الحديد إلى محطة قلعة الحسا في 19 كانون الثاني/ يناير. وغادر الكرك في 23 كانون الثاني/ يناير لاستعادة الطفيلة. تم تشكيل القوات على عجل من قيادات حوران وعمّان، وتقدمت من الكرك

وهي تعاني من نقص في الإمدادات، تاركة طعاماً قليلاً وقلة قليلة من الرجال هناك.

في 24 يناير/ كانون الثاني، اشتبكوا مع دورياتنا في سيل الحسا بعد الظهر، وفي الليل، قمنا بردّهم على أعقابهم إلى الطفيلة. كان الضباط الأشراف قد أعدّوا موقفاً دفاعياً على الضفة الجنوبية للوادي الكبير الذي تقع عليه الطفيلة. ولهذا، غادر الشريف زيد منتصف الليل تقريباً آخذاً بصحبته ستين نظامياً وأربعمئة غير نظامي (من قبائل عقيل وبيشة ومطير) الذين رافقوه من العقبة. سارت أمتعة الأشراف في الوقت نفسه باتجاه البصيرة. فاعتقد جميعهم بأننا كنا نولي الأدبار. وأعتقد بأننا كنا نفعل ذلك حقاً.

بطبيعة الحال، أصيبت الطفيلة بالذعر، وبما أن ذياب العوران (الشيخ الفضوليّ) قدم إلينا تقارير مشؤومة عن استياء القرويين وخيانتهم، نزلت من بيتي قبل الفجر إلى الشارع المزدحم للاستماع لما يجري تداوله. كان ثمة كثير من الانتقادات الصريحة للشريف، التي كانت غير محترمة بوضوح، لكنها لا تنمّ عن فقدان الولاء. كان جميعهم يصرخون من الرعب، والبضائع تُلقى بسرعة ودون تكلّف من البيوت إلى الشوارع المكتظة بالنساء والرجال. كان الخيالة العرب يركضون بخيولهم صعوداً ونزولاً، ويطلقون النار بعنف في الهواء. ومع كل بريق يصدر من البنادق التركية، كانت جروف وادي الطفيلة البعيدة تبرز بشكل حاد وواضح. بدأ رصاص العدو يتساقط عند الفجر في بساتين الزيتون، فذهبت إلى الشريف زيد وأقنعته بإرسال عبد الله أفندي (رامي المدفع الرشاش برفقة المتمرّن من بين الضابطين) مع بندقيتين آليتين لمساندة الفلاحين الذين يحتلون القمة الشمالية من التلال. فحفزهم وصوله على هجوم معاكس دحروا فيه سلاح الخيالة التركي إلى الجرف القريب، عبر سهل صغير يؤدي إلى أول الجروف المنخفضة الواقعة في وادي الحسا. واستولى على هذا الجرف أيضاً، وتم صدّهم هناك، حيث القسم التركي الرئيسي يتمركز خلفه مباشرة. واشتد القتال ضراوة مع رشقات ضخمة من نيران المدافع الرشاشة التركية وكثير من القصف.

تردّد زيد في إرسال تعزيزات إلى الخط الأمامي، ولذلك قصدت موقع عبد الله (نحو سبعة أميال شمال الطفيلة) لإبلاغه بالأمر. وفي الطريق، التقيت به عائداً، بعد مقتل خمسة من رجاله وإعطاب مدفع من المدافع، ونفاد ذخيرته. فأرسلنا رسائل عاجلة إلى زيد نحثّه فيها على إرسال مدفع جبلي وما أمكن من المدافع الرشاشة وما يمكن حشده من الرجال إلى موقع احتياطي في الطرف الجنوبي من السهل الصغير بين وادي الحسا ووادي الطفيلة. هذا السهل مثلثيّ، وعلى بعد ميلين في كل اتجاه. فكانت الثغرة تقع في الشمال، وكانت معبراً منخفضاً يمر عبره طريق الكرك، وكان الأتراك قادمين إليه. أمّا جوانب المثلث، فكانت ذات حافات منخفضة، وقد استولت حملة عبد الله على الجرف الغربي كلّه.

بعد ذهاب عبد الله، قصدت الخط الأمامي ووجدت الأمور صعبة نوعاً ما. كان يسيطر عليه ثلاثون من خيالة ابن جازي الحويطات وقرابة ثلاثين قروياً. كان الأتراك يتوغلون في المعبر، وعلى طول سلسلة تلال السهل الشرقية، ويركزون نيران قرابة خمسة عشر مدفعاً رشاشاً على مقدمة وخاصرة التلة الصغيرة الواضحة إلى حد ما، التي كنا نسيطر عليها. في هذه الأثناء، كانوا يصححون مسار إطلاق قذائف شظاياهم التي تكشط قمة التل وتنفجر فوق السهل. أخذوا يمطرون جوانب التل وقمته بحرية تامة. أمّا أناسنا، فكانوا يعانون من نقص في الذخيرة، ومن الواضح أن فقدان الموقع لن يستغرق سوى بضع دقائق. ولم يحسن مجيء طائرة تركية فرصنا.

أعطينا خيالة المطالقة الطلقات التي استطعنا جمعها كلها، وركض المشاة عائدين فوق السهل. كنت واحداً منهم. وبما أنني رجعت إلى سلسلة التلال من الطفيلة مباشرة، لم تلحق دوابي بي. صمد الخيالة 15 دقيقة أخرى، ثم عادوا إلينا دون أن يصابوا بأذى. تجمعنا في موقع احتياطي فوق سلسلة تلال يبلغ ارتفاعها قرابة ستين قدماً وتتمتع بإطلالة ممتازة على السهل. كان الوقت ظهراً، وقد فقدنا نحو 15 رجلاً، ولم يتبقَّ لدينا سوى ثمانين، ولكن بعد بضع دقائق، ظهر 120 من رجال قبيلة عقيل، وبعض رجالي يحملون مدفع Hotchkiss آلياً. كما جاء لطفي العسلي بمدفعين آخرين. ثم بقينا ممسكين بمدافعنا حتى الثالثة بعد الظهر، عندما جاء الشريف زيد ومستور بصحبة راسم وعبد الله بمدفع جبلي من الجيش المصري من عيار 2.95، ومدفعي Vickers، ومدفعي Hotchkiss ضخمين، وخمسة بنادق آلية، إضافة إلى عشرين بغلَ مشاة محمولة، وثلاثين حصاناً من قبيلة المطالقة، ونحو مئتي قروي. كان الأتراك يحاولون قصف سلسلة تلالنا بالمدافع الرشاشة لكنهم وجدوا صعوبة في تحديد المدى. لقد احتلوا خطنا الأمامي القديم، ولدينا مداه البالغ 3100 ياردة تماماً، إذ قسته بالخطو في طريق عودتي (من الصعب جداً الحكم على هذا البلد الجبلي بالعين المجردة). نصبنا معدّاتنا كلّها على سلسلة تلالنا، وأخذ راسم الخيالة كلهم (الآن نحو ثمانين) إلى الميمنة من أجل دعم حدود التلال الشرقية. فكان قادراً على التقدم دون أن يراه أحد إلى أن التفّ على الخاصرة التركية وبات على بُعد ألفي ياردة منها. ثم ترجّل وشنّ هجوماً قوامه عشرة رجال وخمس بنادق آلية مع الحفاظ على حصانه في الاحتياط. في غضون ذلك، كان لدى الأتراك خمسة رشاشات وأربع بنادق آلية على سلسلة تلال المعبر الغربية، وقد فتحت نيرانها على مركزنا. فردّ رجالنا بمدافع Hotchkis وVickers وأطلقنا 22 طلقة من قذائف الشظايا على مقدمة التلة. وصلتنا الآن تعزيزات قوامها مئة رجل من بدو النعيمي (رفضوا خدمة الأشراف في اليوم السابق بسبب مسألة الأجور، لكنهم تغاضوا عن خلافاتهم الماضية في الأزمة)، وأرسلناهم مع ثلاثة مدافع Hotchkiss آلية إلى خاصرتنا اليسرى. فزحفوا وراء التل الغربي للسهل دون أن يراهِم أحد إلى أن أصبحوا علىِ بُعد مئتي ياردة

من مدافع Maxim التركية. كما بدأنا عبر السهل هجوماً جبهوياً قوامه 18 رجلاً، ومدفعا Vickers، ومدفعا Hotchkis ضخمان. كانت سلسلة التلال صخرية صوانيّة. وكما اكتشفنا في الصباح، لم يتمكن الأتراك من التحصّن عليها، فكان ارتداد شظايا القذائف عن الصخور القاسية مرعباً، الأمر الذي سبب خسائر كبيرة في صفوف العدو، وتمكنت خاصرتنا اليسرى أخيراً برمي ناري مفاجئ من القضاء على رماة المدفعية الرشاشة التركية والانقضاض على المدافع. ثم هاجم الخيالة الأتراك المنسحبين من خاصرتنا اليمنى، بينما أرسلنا المشاة والبيارق من الوسط. وما كادت الشمس تميل إلى الغروب، حتى استولوا على خطوط العدو التركي وطاردوه حتى مواقع مدافعه في سرير وادي الحسا، حيث كان سلاح خيّالتهم الاحتياطي ينصب حاجزاً لا يمكن عبوره إلا بعد حلول الظلام. في الغالب، تخلى رفاقنا عن مطاردة الأتراك في هذه المرحلة (بعدما أنهكهم قلة الطعام منذ اليوم السابق، والبرد المزري)، لكن تولّى بدو الكرك الأمر وأغاروا على الرعاع الهائجة طوال الليل.

بلغت خسائرنا نحو 25 قتيلاً وأربعين جريحاً. لقد كان أداء ابن جازي الحويطات رائعاً بقيادة حمد عرار. وكان القرويون ثابتين وصالحين للغاية.

وردت أرقام الخسائر التركية في النشرة الأخيرة. ومنذ ذلك الحين، جُلبت أربعة رشاشات أخرى، الأمر الذي رفع العدد الذي تم الاستيلاء عليه إلى 27.

36. تقرير عن الخرماء

بدأ ابن سعود جمع الزكاة (ضريبة شبه دينية) من بعض فروع قبيلة سبيع هذا العام. في النتيجة، أعاد إحياء عاداته العائدة إلى أربع سنوات أو خمس خلت. بعد ذلك بوقت قصير، سجن الشريف خالد بن علوي رسلاً من الشريف يطالبون بالضريبة نفسها في وادي الخرماء.

أصبح خالد (رجل نحيل متعصب صامت، يُروى عنه أنه أجدر من أخيه الأكبر نايف) أميراً على الخرماء من الشريف منذ سنوات خلت. واعتنق ديانة النجديين قبل أربع سنوات، وسُجِن في سجن الشريف في مكة العام الماضي. ولدى إطلاق سراحه بتدخل من عبد الله، أجرى زيارة سرية إلى ابن سعود، وهو أحد أصدقاء والده القدامى.

كان سجن رُسل الشريف عملاً عدائياً، وقد حشد خالد أتباعه فوراً. وانضم إليه المتأخونون فقط، وكانوا خليطاً من بني ثور من سبيع والقثمة والخراريص (شيخهم نايف مسجون في مكة المكرمة) وشلوة والهرامزة من عتيبة والعديد من قبيلة قحطان. فالقحطانيون هم من كانوا في الشرق سابقاً، وفروا من ابن سعود بسبب قضية عجمان. ويعيشون في روافد وادي الدواسر العليا منذ

ذلك الحين. إنهم ليسوا بأي حال بقيادة خالد، وقد انضموا بصورة مؤقتة من أجل الدِّين فقط.

بدأ خالد طرد الشيعة الآخرين، وجميع القرويين والمحرَّرين، من وادي الخرماء إلى وادي تربة الرئيسي بوصفه رافداً له. يجري وادي تربة من الجنوب الغربي إلى سهل مزروع في جبل العريش، في منطقة قوز أبا العير. واقترح خالد تعيين فلاحين متأخونين في بساتين النخيل بدلاً منهم.

ثم قطع شقيقه نايف الطريق وقتل أربعة من قبيلة عقيل واثنين من عتيبة وأربع نساء من السنة كانوا في طريقهم من مكة المكرمة إلى الخرماء لقضاء الصيف. لقد رفضوا التأخون لكن مع ذلك اعترض خالد على قتلهم.

أرسل الشريف الآن ضدهم قوة مهلهلة للغاية مؤلفة من الهمارقة والبياشة والسبيع والمواليد والهذلان (قبيلة هذيل) ومكّيين آخرين مزودين بمدفعي تحية نحاسيين وبندقيتين آليتين، بقيادة الشريف غير الكفوء علي، شقيق شاكر بن زيد. فاجأتهم ليلاً في بئر غوريش قوة أقل شأناً من قبيلة قحطان، فهربوا دون مقاومة، وخسروا مدفعيتهم و14 قتيلاً.

ثم تاب خالد عن فعلته وتوجه إلى ابن سعود ومعه أربعة وخمسون خيالاً وغنائمه مستجدياً العون. في طريقه، اجتاز مجموعة إغارة من عتيبة بقيادة فجر بن الشلوي في طريقها إلى الدواسر. فاقتتل الطرفان، واستولى ابن الشلوي على ثلاثة عشر جملاً، وأربعة خيول، والمدفعية، وقتل أربعة من المتأخونين، وخسر واحداً فقط. فهرب خالد نحو الرياض.

من غير المحتمل أن يبقى القحطان في وادي الخرماء طويلاً، ولا يمكن لنايف بن علوي أن يأمل، بوجود بني ثور فقط، في إبقاء أفراد قبيلة سبيع الآخرين خارج ممتلكاتهم إلى أجل غير مسمى. وإن فشل خالد في مهمته في العريض، فقد يكون الانهيار الكامل لحركته متوقعاً.

يأمل الشريف في تجنيد قوة جديدة في مكة المكرمة لاستعادة الخرماء لكنّه يحاول تجنيد البدو بنصف أجورهم. نتيجة لذلك لم يحرز أي تقدم. في حال شنه مزيداً من الهجمات على الخرماء، مع المعدّات الموجودة تحت تصرفه، يُتوقع منه أن يعاني من مزيد من الانتكاسات إلى حد معقول. ومع ذلك، إذا اكتسب الحكمة الكافية لقبول خسارة المنطقة بصورة مؤقتة، وإذا حافظ ابن سعود على موقفه الصحيح الحالي، لا حاجة للخوف من تمديد التمرّد، أو إطالته.

37. التيارات السورية المتنازعة

1 شباط/ فبراير 1918

كان من المثير للاهتمام قبل الحرب أن تسأل سوريّاً بالفرنسية عن شخصيات بيروت أو دمشق القيادية، وتطرح عليه بعد يوم أو يومين السؤال نفسه بالعربية. لديك قائمتان مختلفتان تماماً، متشابهتان في أن جميعها مسلمة فقط، إذ لا يوجد مسيحيون داخل سوريا أو خارجها، فلا تتعدى "قوميتهم" كونها سوى اسم جميل لسيطرة أوروبية فضفاضة بما يكفي لمنح إخوتهم في الدِّين مكانة مبالغاً فيها في الإدارة. لهذا، ليس للمسيحيين نصيب في حياة البلاد السياسية.

تم تقسيم المسلمين بشكل حاد إلى حد ما إلى طبقة المثقفين والعرب. أمّا المثقفون، فهم مَن تخلوا عن الأشياء العربية وعزلوا أنفسهم عن الموضات شبه الأوروبية وشبه المشرقية للمسلم المرتد، المسلم الذي فقد إيمانه التقليدي إضافة إلى الإيمان بالأديان كلّها. كانوا يتكلّمون لغات أجنبية قدر استطاعتهم، ويرتدون ملابس أوروبية. وعلى الأغلب، كانوا أثرياء، واعتادوا ترفيه الأجانب والتسلية من قبلهم، ويؤثرون أعمق في الزوار الأجانب أكثر مما تسوغه أعدادهم أو تأثيرهم المنزلي. تم استبعاد مُثُلهم السياسية من الكتب. فلم يكن لديهم برنامج للثورة، بل كثير من الأفكار للتسوية عقب إحداها. تلك كانت حقوق سوريا، مثل حدودها وقانونها ودستورها المستقبلي. شكلوا لجاناً في القاهرة وباريس ولندن ونيويورك وبيروت وبرلين وبيرن للتأثير في القوى الأوروبية لتخليصهم من الأتراك، ومنحهم الزخم لمواصلة نسج الأحلام الحقيقية. فعاداتهم جعلت سوريا غير ملائمة، ومعظمهم عاشوا في دول أجنبية.

كان ثمة جسر بين هؤلاء الغربيين والطبقات المتكلمة بالعربية بادئ ذي بدء. لقد كانوا المترجمين الذين هم على تواصل مع الحاكمين بالكلام ذوي الغطاء الأجنبي. فعملوا على تحرير الصحف وإنتاج إعادة صياغة عربية للنظريات السياسية الغربية. وعندما اندلعت الحرب، بقوا في سوريا، معتقدين بأنهم آمنون. لقد كانوا يبشرون بالثورة المكتملة يومياً في صحافتهم، لكن كانت قلوبهم تتألق بريئة من توخي العمليات الثورية كله. فخذل ذهولهم المأسوي مسالمتهم عندما ألقى جمال باشا القبض عليهم وشنقهم بوصفهم قادة التمرد. لقد رأوا المتآمرين الحقيقيين، الرجال الذين يبشرون ليل نهار بعمل مسلح ضد الأتراك، يمشون في دمشق بحرية، ويتزاحمون لرؤيتهم وهم يُعدمون شنقاً. كان بعضهم يرتدي لباس الشهداء ويموت بصمت. ومن شدة مرارتهم، زوّد بعضهم الأتراك بالأسماء التي يعرفها العرب كلهم، محاولين توريط المذنبين معهم في العقاب، لكن، في الغالب، كان جمال يضحك فقط.

بحلول كانون الثاني/ يناير1915، حُرمت سوريا قومييها المسيحيين الزائفين – كانوا إمّا صامتين بفعل الخوف، وإمّا لأنهم أصدقاء الأتراك الحميمين – ومسلميها المشرقيين الذين كانوا يقطفون ثمار مسرّات جديدة في الخارج، ليجدوا أنفسهم مأخوذين على محمل الجد من المستشارين الأجانِب. كما

حُرمت مثاليي نهضتها العربية الذين تم شنقهم ودفنهم. فكانت بلداً مغلقة ثلاث سنوات، وغافلة عن البرامج المعدّة لمستقبلها في عواصم الحلفاء، وخاضعة للاستبداد العسكري لديكتاتور لا يعرف الرحمة وجامح بصورة خاصة، وعليه مُقحمة في ثقافة داخلية أكثر سرية وعنفاً تعبّر عن هذه المثل القومية التي تعكس جذورها الحقيقية فيها. فلم تكن هناك بوابة خارجية يمكن عبرها التواصل مع سوريا المولودة من جديد عام 1918 إلا بعد الزحف الشمالي لجيش الأشراف على العقبة، ثم حوران. فلم يتم تقدير القوة ووجهة التحركات الجديدة سوى بالدلائل العرضية. وبعد شعورنا بالحيوية الكاملة الآن، أدركنا التفاهة التي باتت عليها الجماعات السياسية السابقة، ومدى ضآلة ما تزعم بأنها تمثل مشاعر سوريا اليوم. فكتلتا العظم ومردم بك تستمران على نحو متهور، وتوازنان هذا الحزب بذلك الحزب، وتعادلان هذا البرنامج بذلك البرنامج في المذكرات والمقابلات الرسمية مع رجال دولة أوروبيين. أمّا في البلاد المتنازع عليها، فعقد الأشراف العزم والعمل، وجاء الألمان من أصول تركية بعباس حلمي إلى آسيا.

يمكن عدّ استعادة عباس حلمي نهضةَ أوبنهايم، وتشير إلى أن ألمانيا انتصرت أخيراً في السياسة الداخلية التركية. حاول الأتراك استغلال عباس حلمي في الأيام الأولى للحرب. فوجدوه ذا حدين، ونحّوه جانباً. أمّا الآن، في منتهى تطرّفهم، فهم مضطرون إلى الاعتراف به مجدداً، مع العلم أن نجاحه سيوجعهم. فلن يخدم عباس حلمي الأتراك في قمع العرب، بل ليرفع شأنه – من قبل العرب – إلى مستوى الأتراك فحسب. وقد يفعل ذلك بموافقة ألمانيا. كان أوبنهايم بطبيعته الساميّة الغنية جداً موالياً للعرب أكثر من الترك دائماً. فحارب حزب الترك المتطرف في ألمانيا حتى السنة الأولى من الحرب، وتعرّض للضرب. فتحالفت بروسيا مع أنور باشا لاستنهاض قضية جهاد، وانضم أصدقاؤها العرب إلى الأحزاب العربية. فسوّغ يوم ثورة الشريف فون أوبنهايم لمساعدة ألمانيا بعد فوات الأوان، ولكن سرعان ما منحه فرصة أخرى. فتركيا اليوم ضعيفة (للغاية) لخدمة غايات ألمانيا في العالم. يجب أن يكون للقيصر أصدقاء في الإسلام غير أنور وكاراسو Carasso، وأصدقاء في سوريا وبلاد الرافدين خلافاً لرغبة جمال والشيخ شاه. واستعداداً لفترة ما بعد الحرب، شرع أوبنهايم في البحث عن حلفائه على خطوط الاختراق بين الإسكندرون والبصرة.

لا بد أن الشريف كان شغله الشاغل. فعباس حلمي محبوب في مكة المكرمة، لكن الشريف أسّس ثورته على مبادئ تعلو على الصداقات الشخصية (حتى في الشرق الأدنى حيث العنصر الشخصي هو الكلّ في الكلّ تقريباً). وإلى أن تصبح قضية الحرب واضحة، لن يُدرك أوبنهايم نفوذنا في ذلك المكان. وعندما استلّ الشريف السيف، أبلغنا بما يريد، ولم نثر أي اعتراض جوهري على مطلبه. فمنذ ذلك الحين ونحن نساعده ونبلو بلاءً حسناً، إذ نمَت

مملكته من لا شيء إلى مئة ألف ميل مربع (مثل هذه الأميال، ربما، لكن العرب يحبّون الجزيرة العربية!). ولقد ورط نفسه وجميع أصدقائه في مغامرة المشانق إذا أخفقوا، أو أخفقنا، ولقد تعهد للعرب في الطموح الرائع إضافة سوريا وبلاد الرافدين إلى مُلكه. وإذا استمرت الحرب مدة كافية، سيفوز، بما يكفي على الأقل لتحفيز العقول العربية لسنوات عدة بصورة إقليم الجزيرة العربية السليب. بالنسبة إلى الاقتراع العربي بعد الحرب، سيتم التحكّم في المقامرة باللعبة الكبيرة بيننا وبين البقية إزاء الملّاك الأجانب في أي إقليم من هذا القبيل. لكن الأصول التي بحوزتنا، وسيطرتنا على البحر، قد تم طبعها في أذهان الشريف وعائلته، عبر عمل دورية البحر الأحمر خلال هذه الحرب، لدرجة تفوق أهميتها بالنسبة إليهم خطايا الانتداب التي قد نراكمها أو الامتناع عنه.

قد يكمن مسعى أوبنهايم الثاني في محاولة تقسيم البيت العربي على نفسه. فتم اختراع عبارة "الحراك العربي" في القاهرة بوصفها قاسماً مشتركاً لحالات التذمّر الغامضة من تركيا التي كانت سائدة في الأقاليم العربية قبل 1916. ففي البلدان غير الدستورية، اتخذت هذه الحالات، بطبيعة الحال، طابعاً ثورياً، وكان من الملائم التظاهر بإيجاد أرضية مشتركة فيها كلّها. فكانت محلية للغاية كلّها، وتتسم بالغيرة الشديدة، لكن لا بد من أخذها بالحسبان على أمل أن يؤتي أحدها أُكُله. وفي اليوم الذي أعلن فيه الشريف نفسه، أنهى هذه المرحلة من المسألة. لقد وجدنا عربياً واحداً كان يؤمن بنفسه وبشعبه، ولحسن الحظ، كانت أنبل عائلة بينهم جميعاً. فمنذ ذلك الحين، لم يكن لدينا قضية "حراك عربي". لقد دعمنا حركة الأشراف، وحاولنا مساعدته على أن يجتمع في مجتمعه مع الجانب العربي والتيارات الفرعية التي واجهها تقدمه. وإن لتفرّدنا ما يسوّغه. فمنذ ذلك الحين إلى الآن، لم يكن لدى أي عربي آخر الشجاعة لتصنيف نفسه ضد الترك باستقلالية.

غني عن القول إن الأطراف العربية ليست مستعدة كلها للترحيب بزعيم مفروض عليها. فالمسلمون المرتدّون والمسيحيون والطوائف الأخرى كلها ممتعضون (ثمة أطراف قليلة منصّتها الحقيقية غير طائفية). إن حججهم مضللة، ولا تقنعهم وحسب، بل تعطي أرضية مناورة لأوبنهايم (وفي الواقع للقوى الأخرى كلّها التي تشعر بالقلق من حظوتنا الكبيرة للغاية لدى الشريف) لمعارضتنا على أعلى المستويات. فيقولون: "الشريف مكيّ وظلاميّ. ونحن كافرون ومتنورون. فنجّنا منه". فيلمحون إلى أن الشريف سيكون متعصباً في المسائل الدينية، ومشاكساً دستورياً. فلا بدّ لكلمتي التقدم والوطنية المقدستين أن تتكاتفا ضده.

للأسف، هذه التهم الموجهة ضد الشريف هي من أطراف جاهلة بالجزيرة العربية. فالشريف لا يتزعم نهضة دينية ولا يطالب بمنصب تراتبيّ. لقد قسمت ثورته بيتِ الإسلام، وقلّم أظفار الخلافة لجيل كامل. وتطوّره هو أحد العوامل

التي بين أيدينا ويمكن أن يساعدنا على كبح الانتعاش المتعصب الجديد وسط الجزيرة العربية. لقد قضى صعود نجمه على فكرة الجهاد، البعبع الحقيقي الذي كثيراً ما شلّ عملنا في الشرق. وهو يرأس في اللاهوت الإسلامي الأصولية المهنية القديمة والواهنة إلى حد ما. من الناحية القانونية هو متساهل نوعاً ما. وحتى في المدن المقدسة، يُوهن الشريعة. أمّا في الأقاليم، فيتخلى عنها تماماً بسبب القانون العرفي. بالنسبة إلى المخالفة الأولى في وهابية نجد، تُقطع اليد اليمنى. أمّا بالنسبة إلى المخالفة الثانية، فيُقتلع اللسان. وأمّا بالنسبة إلى المخالفة الثالثة، فيُنفى المخالف إلى الصحراء دون زاد ولا ماء. والعقوبة الأشد في مكة هي السجن. ونظراً إلى التشابك السكاني والتجاري بالنسبة إلى أقاليمه الشمالية الذي يجعل التشريع البسيط مستحيلاً، عيّن ابنه الأكثر مرونة، فيصل، حاكماً. وقد لا يكون برنامجه الموعود من أجل سوريا كافياً لاستمالة دعم السوريين في أوروبا وأميركا، لكن السوريين في سوريا يلتحقون بالآلاف بصفوف جيوشه. أمّا العرب في مصر وغيرها، فنالوا منه في أحاديثهم وكتاباتهم. ولن يسمع فيصل عن دعاية صحفية لأفكاره، لكن لم يطلق أي عربي حر بعد رصاصة ضده أو ضد قواته. وكل زحف لجيوشه يتم، ليس بالموافقة فقط، بل عبر عقول السكان المحليين وأيديهم الفعلية في ميدان التمرد الشاق. فلا توجد "قوة حجاز" في سوريا. ويقبل فيصل أي متطوع لخدمته، ويسمح له بالوعظ كما يشاء، والصلاة كما يحلو له، ما دام سيقاتل الأتراك. ويقول دائماً إن إنكلترا وفرنسا وتركيا لن تتنازل للعرب عن شبر واحد من الأرض غير المحتلة، لكن كل قرية جديدة محتلة، وكل قبيلة جديدة انضمت بمسعى عربي، هي خطوة أخرى إلى الأمام نحو الدولة العربية. بالنسبة إليه، يمكن أن تنتظر القضايا المتعلقة بحدودها وتركيبة مجلس أعيانها ولون أحذية رجال شرطتها إلى أن يتم دحر الترك. ومع ذلك، يمكن للمرء أن يتخيل أن إدارته ستختلف في المضمون وليس في الشكل عن النظام الذي أقامه الأتراك تدريجياً لأقاليمهم التابعة.

فالسوريون في الخارج، مثل السوريين في سوريا، يتوقون للتخلّص من الترك، لكنهم يرغبون في مزيد من الإصلاحات المتقنة عند عزله، ويريدون على وجه الخصوص صوتاً رائداً في قرار ماهية هذه الإصلاحات. ولديهم إيمان مثير للشفقة في إيثار بريطانيا وفرنسا المساعد. ونظراً إلى أنهم أنفسهم يفتقرون الشجاعة أو الكرم ينسبون إلينا قليلاً من الأشياء الأخرى. فمن أجلهم (أو بالأحرى من أجل كلماتهم) علينا تقويض القوة الإسلامية الجديدة (والمريحة بالنسبة إلينا) التي أنشأناها بعناية فائقة من أجل شنّ حملات مسلحة داخل سوريا، وطرد الأتراك، ومراقبة البلاد بناءً على توجيهاتهم، بينما يستنزفونها بمجموعة من الدساتير التي لا بدّ أنها تَرِكة العباسيين. في المقابل لا بدّ لهم من الإقرار بفضلنا بعد ذلك. فالفارق الوحيد بين غزو الشريف لسوريا وغزوهم (هِم يطلقون عليه اختلافاً بسيطاً) هو أن الشريفِ يحققه بأيدي

السوريين أنفسهم، ويتمنون إنجازه بدمائنا. وكانوا يفضلون كثيراً أن تكون تلال يهودا مخضّبة بدماء القوة الاحتياطية من المتطوعين في الجيش البريطاني، المضحين بأرواحهم فداءً لحريتهم، وليوفِّروا عليهم الحاجة إلى ركوب المخاطر... ولكن من وجهة نظرنا، يمكن المحاججة بأن مصالحنا قد تدفعنا إلى دعم مَن يغامرون بحياتهم في السلاح إلى جانبنا في هذه الأوقات من الأزمة (وإن لم يراعوا مَن يُطلقون على أنفسهم أصدقاءنا كلهم) بدلاً من رفض المؤيدين المسلحين لمصلحة بيّاعي الكلام الذين يدعون أنهم يمثلون – خلف خطوطنا – شكلاً أسمى من الثقافة. إن التمرد العفوي في سوريا أمر مستحيل، إذ لن يقوم السكان المحليون بأي عمل إلّا بعد أفول مدّ المعركة الأمامي وجزرها. إذا كان هذا هو مدّ الأشراف وجزرهم، يتم تجنيدهم من قبله، ويخدمون في وقت لاحق من أجل منح قضية الحلفاء زخماً إضافياً. أمّا إذا كان هذا هو خطنا الأمامي، فسيواصلون حراثة الحقول، ولا يشعرون بالامتنان، ولا الالتزام تجاهنا. فلم نعطهم سوى فرصة في السياسة يفلتون فيها من العقاب في المستقبل. وعندما يأتي الشريف، يصبح الحياد مستحيلاً، وقرارهم الفاصل بين العربي والتركي حتمياً. ولقد مكنهم قدومنا من تأجيل حتمية التمرد موسماً واحداً، وهي أخطر خطوة يمكن أن يتخذها الإنسان المستقر. ولن تنتعش الحاجة إلى الحكم الذاتي إلى أن يمنحهم ازدهار السيطرة الأجنبية رفاهية متجددة للسياسة. أمّا أوبنهايم، والمصالح المالية التي تدعم مخططات سكة حديد البحر المتوسط وبلاد الرافدين، فيرغب في إثارة حراك عربي ضد الشريف، لأن شريفنا لا يُعوّض. وإذا أفلحوا في عزل المجالات البريطانية الموالية لوهابية نجد، وأمير مكة، وبدو الحجاز، سيكون لديهم حجة معقولة لربط مجتمعات البلدات والقرى في سوريا وبلاد الرافدين بالقوى القارية لحماية أصدقائنا منهم. وكان في مقدورنا فعل ذلك بحرية أكبر، لأن المناطق العربية الواقعة جنوب سكة العقبة–البصرة ليست ضرورية لأي شخص سوانا. فمصالحها المادية مقصورة على الشعوب المستقرة، ولو استطاعوا منعنا من جعل أنفسنا "قرابة المؤسسين" للدول العربية الموحَّدة التي لا مفر منها، لكانوا قد حققوا جزءاً من أهدافهم. فانتقل العنصر الأخلاقي ودعم زعيم الإسلام منهم عندما طوى الزحف من العقبة تاريخ ثورة الحجاز. إن نجاح غزو الشريف لسوريا أو إخفاقه – عملية جديدة وحراك جديد – سيؤثر في المرحلة الأخرى من التنافس الأوروبي في بلاد الشام، عبر تحديد المرشح الذي سيسيطر على طرق التجارة والمراكز التجارية في غرب آسيا.

38. تدمير الجيش الرابع

22 تشرين الأول/ أكتوبر 1918

بألفي جمل زودنا بها الجنرال ألَنبي في تموز/ يوليو الماضي، حسبنا أنه يمكننا أن نرسل إلى منطقة الأزرق من أجل العمليات بمحيط درعا حملة قوامها 450 من فرقة الهجانة التابعة للجيش النظامي العربي، وأربعة مدافع Vickers عربية، وعشرون مدفع Hotchkiss عربي، وبطارية فرنسية مكونة من أربعة مدافع جبلية من نوع QF 65، وطائرتان بريطانيتان، وثلاث عربات مدرعة بريطانية مزودة بالمؤن اللازمة، وسرية تفجير تابعة لفرقة الهجّانة المصرية، وثُلّة من هجّانة الغورخا. إضافة إلى ما سبق كان لدينا، أنا والشريف ناصر، حراسنا الشخصيين من الهجّانة العرب. هذا جعل قوام قوتنا الإجمالية ألف جندي، وكانت حظوظها مطمئنة جداً لدرجة أننا لم نورد حكماً لاستعادتها مرة أخرى (ليس لدينا وسيلة لفعل ذلك). وكانت مشكلة الإمداد، خاصة في الوقود والذخيرة، كبيرة للغاية. ومع ذلك، كنا نعيش عيشة الكفاف دون أن نكون في حاجة ماسة إلى ذلك إطلاقاً.

غادرت القوة أبو اللسن على شكل مفارز في مطلع أيلول/ سبتمبر، وتمركزت حتى الآن في الأزرق في الثاني عشر من الشهر دون حوادث تُذكر. وكانت المسافة من العقبة إلى الأزرق مئتين وتسعين ميلاً، واستخدمنا آبار الجفر وباير وعماري في الطريق. ففي الأزرق، كان مبتغانا يكمن في حشد قبيلة الرولة والزحف على حوران بقوة، وشن هجوم مباشر على درعا التي كانت تحت رحمة خمسمئة بندقية فقط، لكنّ الغضب المؤسف لملك الحجاز ضد جعفر باشا وكبار ضباط الجيش الشمالي أفسد هذه الخطة، لأن الأزمة التي أثارها عكّرت المزاج المحلي برمّته. وأخّروني في أبو اللسن حتى 4 أيلول/ سبتمبر. ونتيجة لذلك لم يلبّ رجال الرولة النداء إطلاقاً، الأمر الذي فرض علينا تعديل مخططاتنا. وفي النهاية، قررنا تنفيذ هجوم خاطف على السكك الحديدية الشمالية والغربية والجنوبية في درعا، مدعوماً بقواتنا النظامية وخيّالة الرولة بقيادة خالد وطراد الشعلان. فكان ينبغي لفلاحي حوران أن يكونوا شجعان بما فيه الكفاية ليعلنوا تأييدهم لنا.

عندما مكثنا في الأزرق، جهّزنا خدعة قوية باتجاه عمّان. وتم إرسال الأموال إلى مثقال مرفقة بتعليمات سرية للغاية لجمع مخزون الشعير لنا وللبريطانيين، في هجومنا المفاجئ المشترك على عمّان والسلط في الثامن عشر من الشهر. كان على بني صخر أن يتجمعوا في منطقة الجيزة لمساعدتنا. فإشاعة هذا الأمر، والإشاعة المتزامنة عن تصميمنا على درعا، التي أكدتها عوامل أخرى وردتهم من فلسطين، أبقت أعين الأتراك ثابتة على الأردن وشرقها، حيث خطوطهم طويلة جداً، ومكلفة في الرجال. ورغم بذل قصارى جهدهم، كانت عرضة لقوة تتمثل بخفة حركتنا ومداها حتماً.

في اليوم الثالث عشر، غادرنا الأزرق وسرنا فوق Gian el–Khunna الطويل إلى منحدرات البازلت في جبل الدروز. وتم إرسال الوحدات المصرية

والغورخا[18] غرباً لقطع سكة حديد عمّان بمحيط المفرق. لكن بسبب سوء التفاهم مع مرشديهم، لم يتم الوصول إلى هذا الحد. ومع ذلك، أسقطت طائرة Bristol المقاتلة في اليوم نفسه طائرة ألمانية ذات مقعدين بالقرب من أم الجمال. لذلك، كان كل شيء على ما يرام. وصلنا قرية المتاعية، على بعد ثلاثة عشر ميلاً جنوب شرق درعا، في اليوم الخامس عشر. فشكّلت هذه (وجارتها أم السرب) قاعدتنا الأمامية، حيث يوجد في محيطها كثير من خزانات مياه لأمطار العام الماضي. وانضم إلينا في الحال السكان الذكور من أقرب القرى، والشيخ طلال حريدين من طفس، أفضل مقاتل في حوران، وقد جاء إليّ في الأزرق عام 1917. وافق على أن يكون مرشدنا، وسار معنا إلى أن مات بالقرب من درعا. وكان يساعدنا ليل نهار، وكفيلنا وسندنا في كل قرية. فلولا طاقته وشجاعته وصدقه، لعاكستنا الظروف مرات كثيرة.

18 جنود من نيبال. تاريخياً كان مصطلح "الغورخا" و"الغورخالي" مرادفاً لمصطلح "نيبال" المشتق من اسم مدينة غورخا الجبلية في مملكة نيبال. (م.)

لا يزال قطع سكة الحديد بين درعا وعمّان ضرورياً بالنسبة إلينا، ليس لإضفاء مصداقية على هجومنا المفترض على الجيش الرابع فقط، بل لمنع وصول تعزيزات إلى درعا من الجنوب. فكانت خطتنا تتمثل في تمركزنا بين درعا وفلسطين لإرغام العدو على تعزيز السابقة من اللاحقة. لو أننا نقلنا القوات من عمّان إلى درعا فقط، لن يُجدي هذا الأمر فلسطين نفعاً، ولربما تعرضنا للتطويق والأسر. ونظراً إلى ضرورة مضي الجيش قدماً في الحال، كانت الوحدة الوحيدة المتاحة لهذا القطع الآن العربات المدرعة، وهي ليست مثالية لهذا الغرض، لأنّكم شبه محصورين داخلها مثل حصار العدو خارجها. مع ذلك، نزلنا في السيارات جميعها التي كانت بحوزتنا إلى سكة الحديد واستولينا على موقع للأتراك المشدوهين بصورة مباغتة للغاية لدرجة أنهم لم يدركوا أننا طرف معادٍ. كان الموقع يُشرف على جسر رباعي القناطر مثير للإعجاب (في الكيلومتر 149) يبلغ طوله نحو 25 متراً وارتفاعه ستة أمتار، وهو مزوّد بنقش رخامي أبيض يداهن السلطان عبد الحميد. لقد دمّرنا هذا كلّه بـ150 رطلاً من قطن البارود، وفعلنا بالمحطة ما استطعنا إليه سبيلاً.

تعرضت إحدى السيارات لحادث مؤسف في طريق العودة، إذ كان الطريق رديئاً. لذلك لم نلحق بجيشنا القاصد سكة الحديد بالقرب من تل عرار، على بعد خمسة أميال شمال درعا، إلا بعد فجر اليوم السابع عشر. فأبدنا موقعاً صغيراً وبعض الخيالة الكرد، ووضعنا مجموعة التفجير على السكة. نسف الفرنسيون جزءاً من الجسر، وقام المصريون، العاملون على طول السكة المؤدية إلى خربة غزالة، بتركيب ستمئة زوج من القضبان على نظام ألغام "التوليب"[19] الجديد قبل حلول الظلام. في غضون ذلك، صعدنا قمة تل عرار، الذي كان يشرف على منظر كامل لدرعا، على بعد قرابة أربعة أميال،

ولاحظنا وجود تسع طائرات للعدو في المطار. تم إطلاق النار على طائرة Bristol بشدة. لذلك لم يكن لديهم أي منافسة يخشونها، وفعلوا ما يحلو لهم بالقنابل والمدافع الرشاشة لزمن. لقد حالفنا الحظ، واستخدمنا مدافعنا الرشاشة والجبلية Hotchkiss خير استخدام، لكننا كنا نحصد أسوأ ما فيها إلى أن ظهرت طائرتنا الوحيدة الناجية، BE 12، قادمة من الأزرق، ودخلت المعترك. كنا نرقب الموقف بمشاعر مختلطة للغاية، لأن الطائرات التركية ذات المقعدين وروّادها الأربعة كانوا جميعاً يفوقون نظرائهم في الجو. مع ذلك، وبحسن الحظ أو المهارة، اخترقتهم BE وقادت جوقتهم كلها غرباً، وتابعت مطاردتهم بعد ذلك وصولاً إلى خربة غزالة، بينما كنا نستغلّ الراحة لتنظيم صفوفنا وإرسال رتل مختلط إلى مزيريب لقطع سكة فلسطين. بعد فعل ذلك مباشرة، عادت BE مرة أخرى مع سربها المواكب، وأبلغتنا نفاد وقودها، وهبطت بالقرب منا وانقلبت على ظهرها في أرض وعرة، بينما انقضّت طائرة Halberstadt وحققت إصابة مباشرة فيها بقنبلة. لم يُصب طيارنا بأذى، وسرعان ما كان يتنقّل على مقربة من درعا في سيارة فورد حاملاً مسدس Lewis وطلقاته الخطّاطة، الأمر الذي أدى إلى قطعه سكة الحديد لمنع أي غارة بعربات السكك الحديدية.

19 بعد تجربة طويلة، وجدنا أن هذا هو أرخص وأخطر تفجير لسكة مزودة بعوارض فولاذية. احفر حفرة في منتصف الطريق بين القضبان أسفل عارضة منتصف السكة الأفقية، واستخرج حصى الرصف من القسم المجوف من العارضة الأفقية. وضع لوحين من قطن البارود، وأعد حصى الرصف إلى الحفرة، وأشعِل الفتيل. إذا وضعت العبوة بشكل صحيح، ولم تتلامس مع العارضة الأفقية، فإن فتيل 12 بوصة كافٍ. يُقوِّس تمدد الغاز العارضة الأفقية ثمانية عشر بوصة فوق السكة، ويسحب المعادن ستّ بوصات تجاه بعضها بعضاً، ويكوّمها ثلاث بوصات فوق العارضة الأفقية، ويلوي الشبكة من الأسفل إلى الداخل. فيحفر مجرى عميقاً عبر البنية. من المستحيل تقويم هذا التشويه الثلاثي الأبعاد للقضبان، وعليه يجب قصّها أو تحويلها إلى خردة. ويمكن لمجموعة مكونة من أربعة رجال زرع عشرين لغم "توليب" في ساعة واحدة فوق حصى رصف خفيف. وباستخدام لوحين (وفتيل واحد)، تدمر عارضة أفقية ومساحة ضفة وقضبان. فانطباع المسافة الطويلة من السكة المزروعة بألغام "التوليب" هذه هو الأجمل، إذ لا يوجد اثنان متشابهان تماماً.

وصلنا إلى البحيرة في مزيريب قرابة الحادية ظهراً. وبحلول الثانية، استولينا على المحطة الفرنسية ونهبناها. وتبيّن أن المحطة الرئيسية على سكة فلسطين صعبة للغاية. وانتظرنا وصول فرقة الهجّانة والمدافع، ثم هاجمناها رسمياً، واستولينا عليها بالهجوم بعد بضع دقائق. ونظراً إلى أن مجموعات التفجير الوحيدة لدينا كانت على سكة دمشق، ولا تزال تُفجِّر، لم نتمكن من فعل أي شيء واسع النطاق. لكننا طهّرنا المحطة، وحرقنا كثيراً من عربات السكك الحديدية، وشاحنتين، واخترقنا المواقع، وزرعنا تشكيلة لا بأس بها من "التوليب" على طول السكة. أزعج انقطاع التلغراف الرئيسي بين فلسطين وسوريا، في هذا المكان وفي تل عرار، الأتراك كثيراً. فقضينا الليلة في مزيريب، وانضم إلينا المئات والمئات من فلاحي حوران. وخلال الليل، سار بعضنا مسافة ثلاثمئة ياردة من تل شهاب، عاقدين العزم على الهجوم، لكن

اكتشفنا عقيداً ألمانياً يحمل أسلحة ووصول التعزيزات للتو. كان من دواعي مواساتنا أن نعرف أنه في اليوم الثامن عشر الحاسم من الشهر قمنا بنقل فوج الاحتياط في العفولة لملاقاتنا، وسُعدنا أيضاً بنسف السكة غرب تلّ شهاب، وأقصى الغرب في زيزون.

صباح اليوم اللاحق، أجرينا بعض الأعمال المتأنّية في محطة مزيريب، ثم عبرنا الرمثا حتى منتصف بعد الظهيرة، إذ كنا في موقع غرب محطة نصيب. وبعد مقاومة وعمل مدفعي كبيرين، تمكنا من الاستيلاء على الموقع على الجسر الكبير شمال المحطة ونسف الجسر. فكان هذا هو جسري التاسع والسبعين. كان يحتوي ثلاث قناطر طولها سبعة أمتار وارتفاعها قرابة 25 قدماً، ودعامات بسماكة خمسة أقدام، وهو واحد من أفضل الجسور التي دمرناها.

نمنا في نصيب، وسرنا في الصباح اللاحق بمرح إلى المتاعية، وسرّع سيرنا وصول مدفع ميداني إلى نصيب بالقطار، إذ قصف مؤخرة قواتنا بقوة. وفي المتاعية، انضممنا ثانيةً إلى العربات المدرعة التي عادت مباشرة من عرعر بعد تغطية عمليات التفجير. وما إن رصدنا ذلك الصباح طائرة معادية تهبط بالقرب من سكة الحديد غرب المتاعية، استقللنا فوراً عربتين إلى الأسفل لمعاينتها. فوجدنا ثلاث طائرات ذات مقعدين هناك، لكن نظراً إلى وجود وادٍ عميق، لم يكن في مقدورنا مهاجمة مطارهم. فأقلعت اثنتان وسببتا لنا إزعاجاً، لكننا تمكنا من وضع 1500 رصاصة في الثالثة، وقضينا عليها. أمّا في طريق عودتنا، فعادت الطائرتان الأخريان من درعا محملتين بالقنابل، وانقضتا علينا أربع مرات. مع ذلك، وجّهوهما بصورة سيئة، الأمر الذي جعلنا ننجو دون أن نُصاب بأذى. إنّ عمل العربات المدرعة هو قتال فاخر، لكنها تعطي هدفاً سهلاً لطائرة يجري التعامل معها ببراعة. أمضينا بقية اليوم كلّه في المتاعية منزعجين من الطيران المعادي.

في تلك الليلة (اليوم التاسع عشر)، نزلت عربة مدرعة، بمواكبة الوحدات المصرية والغورخا، إلى سكة الحديد في محيط الكيلومتر 154 ونسفت بعض العبّارات وكثيراً من القضبان. كان الهدف إعاقة مجموعات الإصلاح التي تعمل بجد (بمرافقة البنادق والرشاشات والمشاة) على جسرنا المدمر في اليوم السادس عشر في الكيلومتر 149. وفي مقدورنا الاشتباك مع قطار الإصلاح (بعربة مدرعة وFord) على بعد ثمانين ياردة، وإقناعه بالعودة إلى المفرق بأقصى سرعة. في اليوم اللاحق، قصدت الأزرق، ومن هناك، ذهبت إلى رام الله جواً، وعدت في اليوم الثاني والعشرين إلى أم السراب بمواكبة من ثلاث مقاتلات Bristol. قبل الانتهاء من وجبة الإفطار، كانتا قد أقلعتا مرتين، وصادتا طائرة تركية ذات مقعدين، وقضوا على ثلاثة روّاد. بعد ذلك، لم يعد الأتراك يزعجون أجواءنا. وبعد الإفطار، قصدت الأزرق مجدداً، وعدت إلى أم السرب في المساء بصحبة فيصل ونوري الشعلان للقاء مصنِّع طائرات Handley–Page. لقد قلبت الموازين لمصلحتنا عبر حوران كلها.

في اليوم اللاحق، قصد الجنود النظاميون جسر الكيلومتر 149، إذ كان إصلاحه على وشك الانتهاء. وبعد قتال عنيف، طردنا حراسه، بمن في ذلك رجال المدفعية الرشاشة الألمان المقاومين للغاية، ودمرنا المزيد من السكة، وأحرقنا الهيكل الخشبي الذي نصبه الأتراك في سبعة أيام عمل. لقد كان أداء العربات المدرعة والمدافع الفرنسية جيداً اليوم بصورة خاصة، وخيّالة الرولة بقيادة نوري الشعلان شخصياً. نوري هادئ وخجول لكنه رجل قليل الكلام وعظيم الأفعال، وذكي، ومطّلع، وحازم، ومفعم بروح الدعابة الهادئة، وأفضل شيخ عربي قابلته في حياتي. فرجال قبيلته كالخاتم في إصبعه، وهو يعلم ما يجب فعله، وينفّذه. كانت القوات البريطانية قد تقدمت الآن (24 أيلول/ سبتمبر) إلى درجة أن الجيش الرابع التركي، الذي كنا نمنّي أنفسنا بأن ينطوي تحت جناحنا، أُمر بالعودة لتغطية درعا ودمشق. نتيجة لتسرعهم واستيلائنا على سكة الحديد، تخلّوا عن فكرة العودة من عمّان بالسكك الحديدية، وتوجهوا نحونا براً بأسلحتهم ووسائل نقلهم كلّها. فأرسلنا خيّالتنا إليهم وأجبرناهم على ترك الأسلحة والعربات بين المفرق ونصيب. لقد فقدوا كثيراً من الرجال أيضاً، وما كان رتل مسير رسمي بات مجموعة هائمة من الهاربين الذين لم يكن لديهم وقت للإصلاح مرة أخرى. ومع ذلك، قد نجازف الآن، على ما يبدو، بالتمركز بين درعا ودمشق (في موقع مثل الشيخ سعد) لفرض الإخلاء الفوري للأولى. وبعد ذلك، قد نأمل في التمكن من التعامل ليس مع هذا الحشد من الجيش الرابع أثناء خروجه من درعا فقط، بل مع فلول الجيش الفلسطيني أثناء هربها من صماخ وإربد. وعليه، سار راكبو الجمال والبنادق والرشاشات شمالاً في الخامس والعشرين من الشهر إلى أن تمكّنوا بعد ظهر اليوم السادس والعشرين من النزول إلى سكة الحديد وعبورها بين خربة غزالة وإزرع.

فاجأت هذه الخطوة الأتراك (أصابهم الذعر الآن) تماماً. فتم فتح سكة الحديد أمام حركة المرور في اليوم السابق (بعد الضرر الذي لحق بنا في السابع عشر)، لكننا قطعناها مرة أخرى الآن – بقيت مقطوعة حتى نهاية العمليات، وحجزنا ستة قطارات كاملة في درعا، وهي ملكنا الآن – واستولينا على غزالة برجالها المئتين والمدفعين، واستولينا على إزرع التي كان يسيطر عليها عبد القادر الجزائري، المتعصب الديني الموالي للترك، وعلى عدد كبير من المتاجر. ثم تابعنا المسير ونمنا بالقرب من الشيخ مسكين. وتلقى الأتراك تقارير رائعة عن قوتنا، وأُمروا بالإخلاء الفوري لدرعا براً، بينما أحرق الألمان طائراتهم الخمس المتبقية. وهذا جعل حصيلتنا 11 طائرة معادية قدّمت قوتنا بياناً عنها منذ 3 أيلول/ سبتمبر.

في فجر اليوم السابع والعشرين، وصلنا الشيخ سعد في الوقت المناسب لأسر سريتي مدفعية رشاشة نمساوية–تركية في طريقهما إلى القنيطرة لعرقلة تقدم البريطانيين على ذلك الطريق. ثم وقفنا علِى التل في الشيخ

سعد، وشاهدنا الريف. وعندما كنا نرصد رتلاً معادياً صغيراً، ننطلق ونستولي عليه. أمّا عندما كنا نرصد رتلاً كبيراً، فنتوارى عن الأنظار. فمكمن عذرنا هو الإرهاق الجسدي، إذ كان قوام قوتنا تسعمئة فقط.

أمّا الآن، فكانت الطائرات ترمي لنا رسالة مفادها أن هناك رتلين من الأتراك يزحفون نحونا. واحد من درعا قوامه 6000، وآخر من مزيريب قوامه ألفان. تحققنا من أن الرتل الثاني يُعادل حجم قوتنا، وسيّرنا الجنود النظاميين لملاقاته شمال طفس مباشرة، في حين أرسلنا خيالة حوران لملازمة أطراف الرتل الكبير، وبعض الفلاحين الراجلين لحماية جسر تل شهاب الذي كان الأتراك يُلغّمونه. لقد فات الأوان لمنع رتل مزيريب من دخول طفس (نظراً إلى أننا عقدنا في الطريق صفقة مربحة مع كتيبة مشاة). لقد عززوا وجودهم هناك، وكما كانت حال الطَّراة، آخر قرية دخلوها، سمحوا لأنفسهم باغتصاب النساء اللواتي استطعن القبض عليهن كلّهن. فهاجمناهم بصنوف الأسلحة كلها أثناء مسيرهم لاحقاً، وحرفنا مقدمة رتلهم نحو تل عرعر. وعندما رأى شريف بك، القائد التركي لمؤخرة الجيش من رماة الرماح في القرية، ذلك، أمر بقتل السكان. كان بينهم قرابة عشرين طفلاً صغيراً (قُتلوا بالرماح والبنادق)، ونحو أربعين امرأة. لاحظت على وجه الخصوص بَقْر امرأة حامل بحربة منشارية. للأسف، كان طلال، شيخ طفس، كما سبق أن ذكرنا، مصدر قوة لنا منذ البداية، ومن أهدأ وأجرأ الخيالة الذين قابلتهم، أمامي بصحبة عودة أبو تايه عندما رأينا تلك المشاهد. فأطلق صرخة مروعة، ولفّ عمامته حول وجهه، وهمز حصانه، وانطلق بأقصى سرعة، وهو يهتزّ في السرج، وسط الرتل المنسحب، وسقط وفرسه المُثقَّب برصاص الرشاشات بين أسنّة الرماح.

بمساعدة عودة، تمكنا من تقسيم الرتل المعادي إلى ثلاثة أقسام. القسم الثالث، المزوَّد برماة مدفعية رشاشة ألمان، قاوم على نحو رائع، وخرجوا من المعركة بصورة مشرّفة، مع جمال باشا في سيارته بين ظهرانيهم. أمّا القسم الثاني والأجزاء القيادية، فأبدناها تماماً بعد صراع مرير. وأمرنا "بعدم الحاجة إلى أسرى"، فأطاع الرجال، باستثناء السرية الاحتياطية التي أسرت 250 رجلاً أحياء (بمن في ذلك العديد من جهاز الخدمة العسكرية الألماني). مع ذلك، وجدوا لاحقاً أحد رجالنا مصاباً بكسر في الفخذ، وقد تم تثبيته بالأرض لاحقاً بطعنتين قاتلتين بحراب ألمانية. ثم وجّهنا مدفع Hotchkiss على الأسرى وقضينا عليهم، ولم ينبسوا ببنت شفة. دفع الوهم الشائع بأن التركي مقاتل طاهر ورحيم بعض الجنود البريطانيين إلى انتقاد الأساليب العربية بعد ذلك بقليل، لكنهم لم يدخلوا الطَّراة أو طفس، أو يشاهدوا الأتراك وهم يؤرجحون جرحاهم بالأيدي والأقدام داخل عربة سكة حديد محترقة، كما كانت حال الجيش العربي في الأردن. أما بالنسبة إلى القرويين، فبقوا وأسلافهم خمسمئة عام مخذولين بسبب طغيان هؤلاء الأتراك.

بعد ذلك، تم إرسال خيّالة الرولة إلى درعا مباشرة مزوّدين بأوامر بتشتيت أي تشكيلات تركية يصادفونها على الطريق، واحتلال المكان. فخاضوا معركتين أو ثلاثاً في طريقهم، واستولوا على محطة درعا بسرعة خاطفة، ومرّوا فوق الخنادق كلها، ومحقوا العناصر المعادية التي ما زالت تحاول السيطرة على المكان. صباح اليوم اللاحق، أحضروا لنا ثلاثمئة أسير مشاة على صهوات البغال، وقرابة مئتي عنصر مشاة ومدفعين. للأسف، لقد أحرق الأتراك والألمان متاجرهم قبل استيلائنا عليها.

أمضت القوات النظامية تلك الليلة في الشيخ سعد، وكانت ليلة عصيبة للغاية. لم نكن نعلم أننا انتصرنا بعد، حيث هناك خطر دائم من اكتساحنا بموجة معادية كبيرة منسحبة. خرجتُ لتفقّد خيالة حوران، بالقرب من الشيخ مسكين، إذ كانوا ملازميْن بعناد للرتل التركي الكبير القادم من درعا، ويبذلون أكثر بكثير مما يحصلون عليه. وعدتُ إلى الشيخ سعد في منتصف الليل، ووجدتُ ناصر ونوري متجهيْن إلى درعا؛ كان لدينا سباق، حيث تغلبت فرقة هجانتي على خيالة المقر، والتحقتُ بطراد الشعلان في قرية درعا فجراً. فكان علينا بعض الأعمال، ثم اتخاذ الترتيبات المحلية اللازمة.

بعد ذلك، توجّهت غرباً إلى أن صادفت مواقع الفرقة الرابعة (البريطانية) الأمامية ووجهتهم إلى درعا. مكثوا هناك ليلة واحدة فقط، وغادروا إلى دمشق في وقت مبكر من اليوم التاسع والعشرين، بعد أن كلّفونا حراسة الميمنة. وبناءً على ذلك قصدنا سكة الحجاز، وهو ما يناسبنا جيداً نظراً إلى انخراط ثلاثمئة خيال من الرولة وأبو تايه أولاً، ثم جمالنا التسعمئة من الرولة، مع خيالة حوران بمناكفة رتل درعا التركي بالقرب من المسمية.

أفادت الطائرات أن قوام هذا الرتل 6000 رجل. أمّا في الشيخ مسكين، فبدا قوامه قرابة 5000 في اليوم الثاني. وفي المسمية، قيل أن قوامه 3000. أمّا في الكسوة، حيث خيالتنا يشكلون رأس حربتهم في فوج الجنرال غريغوري Gregory، فهناك قرابة ألفين منهم. هذا الاستنزاف التدريجي كلّه كان من عمل غير النظاميين نظراً إلى أن الجيش العربي النظامي ليس من الهجّانة المهرة، فكان يتحرك أسرع قليلاً من سلاح الخيالة البريطاني، ولم يشارك في العمليات بعد درعا إطلاقاً. كانت معركة الكسوة عملية مُرضية. وجاء الأتراك على طول وادي سكة الحجاز، في رتل طويل منتشر بصورة عشوائية، ويتوقفون كل بضعة أميال لتوجيه أسلحتهم في العمليات ضد العرب. وعلم ناصر أن فوج مقدمة الفرقة الرابعة كان يقترب من بلدة خان دنون، فاندفع إلى الأمام مع عبيده، وتوجه نوري الشعلان وعبيده البالغين نحو ثلاثين إلى الرتل التركي بين جبل منية وأشجار الغيطة، وألقى بنفسه داخل الأشجار من أجل تأخيره حتى يصبح البريطانيون جاهزين. لم يكن البريطانيون قد رأوا أو سمعوا عن هذا الرتل المعادي، وكانوا مستعدين للمسير ولكن بمجرد أن علموا ما ينتظرهم، نقلوا خيالتهم إلى الشمال والغرب والجنوب منهم، وفتحوا

عليهم نيران مدفعية الخيالة. بدأت العملية عند المغرب. ولكن قبل أن يحل الظلام، كان الترك حشوداً مشتتة، يصعدون السفوح الشديدة الانحدار في جبل منية ويركضون فوقها، جهلاً منهم بأن ولد علي وأبو تايه ينتظرانهم هناك بقوتهما. وهذا أنهى تاريخ الجيش الرابع. أمّا العجوز عودة الذي ضاق ذرعاً بالقتل، فأخذ آخر ستمئة أسير. إجمالاً قتلنا قرابة خمسة آلاف منهم، وأسرنا نحو 8000 (ما إن أخذناهم، حتى جردناهم من لباسهم وأرسلناهم إلى أقرب قرية، حيث سيتم تشغيلهم في الأراضي حتى إشعار آخر) وأحصينا غنائم تُقدّر بـ150 رشاشاً، ومن 25 إلى ثلاثين مدفعاً تقريباً.

انطلق خيالتنا في ذلك المساء (30 أيلول/ سبتمبر) إلى دمشق، حيث حولت مخازن الذخيرة المحترقة الليل إلى نهار. وبعيداً من الكسوة، كان الوهج مؤلماً، وأبقانا دويّ الانفجارات وصداها مستيقظين جميعاً. أمّا في دمشق، فجاهر شكري الأيوبي والمجلس البلدي بمَلِك العرب ورفعوا العلم العربي بمجرد رحيل مصطفى كمال وجمال. فكانت روح الأتراك والألمان المعنوية متدنية للغاية لدرجة أنهم ساروا تحت العلم العربي دون احتجاج؛ كانت السيطرة المدنية جيدة جداً لدرجة أنه لم يحدث نهب يُذكر.

دخلنا، أنا وناصر، والعجوز نوري، والرائد ستيرلنغ Stirling، صباح الأول من تشرين الأول/ أكتوبر، وتلقينا تحية هائلة ومرتجلة من مسلمي المدينة.

أعتقد أنني يجب أن أسجل رسمياً في المحضر كلمة عما حدث بعد دخولنا المدينة. لقد وجدت في دار البلدية محمد سعيد الجزائري وعبد القادر الجزائري اللذين كانا قد تسلما للتو الحكومة المدنية المؤقتة، إذ لم يكن في مقدور أحد في دمشق الاشتباك مع مرافقهما الشخصي المغربي. ونتيجة لذلك أرسلت في طلبهما. وبصفتي ممثلاً عن فيصل، أعلنت أمام البلدية وشيوخ الحارات تنصيب شكري الأيوبي الحاكم العسكري العربي (كان علي رضا، الحاكم المعني، مفقوداً)، وحلّ إدارة الجزائريَيْن المدنية المؤقتة. لقد كان الأمر صعباً عليهما، ولا بد من إعادتهما إلى موطنهما. في ذلك المساء، استدعى عبد القادر أصدقاءه وبعض زعامات الدروز، وألقى فيهم خطاباً حماسياً ندّد فيه بالشريف بوصفه دمية بريطانية، ودعاهم إلى توجيه ضربة إلى الولاء لدمشق. وبحلول الصباح، تدهور هذا الأمر إلى نهب صرف، واستدعينا القوات العربية، ونصبنا مدفع Hotchkiss في محيط الساحة المركزية، وفرضنا الأمان في غضون ثلاث ساعات بعدما أوقعنا قرابة عشرين ضحية.

كان الدور الذي أدّاه الدروز ضعيفاً. فلم نتوقع منهم الانضمام إلى الشريف إطلاقاً. وبذلك، استبعدناهم من حساباتنا بشأن معاشات الحروب. فبعد الانتصار البريطاني في فلسطين، بدؤوا يعتقدون بأنهم ربما كانوا على الجانب الخطأ. لذلك، عندما زحفنا إلى درعا للمرة الثانية، تجمهروا كلّهم حول سلطان الأطرش وحسين أبو نايف، أصدقائنا الأوفياء في جبل الدروز، يطالبون بالخدمة العسكرية. صدّقهم سلطان، وقصد خربة غزالة لينضم إلينا مع قرابة

ألف وخمسمئة منهم، إذ كانوا خيّالة كلّهم. كانوا يضيعون وقتهم خلف خيّالتنا، ولم يدخلوا القتال، وانتظروا إلى أن تم الاستيلاء على دمشق. ثم تبختروا أمام الشريف وبدؤوا نهب السكان. وبعد أن وضع العرب حداً لهم وأخرجوهم من البلدة إلى جرمانا، جاؤوني قائلين إن مشاعرهم الحقيقية موالية لبريطانيا. ونظراً إلى أنهم الأشخاص الوحيدون في سوريا كلها الذين تطوعوا للخدمة ضد مصر عام 1914، كان تصديق ذلك صعباً، ولم أعطهم سوى شعور قليل بالرضا.

ثانياً

مراسلات إضافية

بقلم توماس إدوارد لورانس أو عنه، صادرة عن "النشرة العربية"

1. قائمة التوزيع

6 حزيران/ يونيو 1916

تتعامل ملخصات المكتب العربي مع أي أحداث سياسية في تركيا أو أي مكان آخر تؤثر في الحراك العربي.

سيكون إصدارها غير منتظم وبرقم تسلسلي. والتوزيع كما هو مبيّن أدناه.

يجب التعامل مع المحتويات على أنها سرية للغاية، ولا ينبغي اقتباس مقتطفات منها (حتى بالنسبة إلى الملخصات السرية الأخرى) إلّا بعد إخطار المتطفّل [العميد كلايتون] في القاهرة بذلك. ولا ينبغي عرضها إلا على الضباط المعنيين فعلاً.

الإقامة 5 (3 لوزارة الخارجية)

الضابط القائد العام، قوة الحملة المصرية 1

معالي السِّرْدار، الخرطوم 1

شعبة الاستخبارات الداخلية، وزارة البحرية، لندن 1

المقدم أوسليفان O'Sullivan، مقر القوى البحرية، 1

بورسعيد (لقائد البحرية العام)

مدير الاستخبارات العسكرية، وزارة الحربية، لندن 1

الضابط القائد العام، نيروبي 1

رئيس الأركان العامة، مقر قيادة الجيش، الهند 1

العميد، كلايتون 1

المقدم، السير مارك سايكس Mark Sykes 1

عن طريق مدير الاستخبارات العسكرية، لندن

المقدم باركر Parker 1

أمين سر، وزارة الخارجية، شيملا Simla 1

السير بيرسي زكريا كوكس Percy Zachariah Cox، البصرة 1

ضابط صف بحري، عدن 1

وزير صاحبة الجلالة، أديس أبابا 1

المفوض، جمهورية أرض الصومال 1

معالي المفوض السامي، قبرص 1

منطقة النفوذ، الخرطوم 1

رونالد ستورز، المحترم 1

العقيد ويلسون 1

المكتب العربي 2

العقيد مورفي Murphy 1

ففورد Fforde 1

لورانس 1

العقيد واتسون Watson 1

2. أخبار الحجاز

9 تموز/ يوليو 1916

رُفع الحصار عن ساحل الحجاز في ما يتعلق بجدة والليث، وأعادت المراكب الشراعية نشاطها التجاري مع متاجر من مصر والسودان. وتمت إعادة شبكة الاتصالات البرقية والهاتفية بين جدة ومكة المكرمة، ومن المأمول إصلاح السلك من جدة إلى سواكن. طالب الشريف بإعادة الخدمة البريدية ومرافق المسافرين. استسلمت الليث في 23 حزيران/ يونيو. وقرر الشريف الاحتفاظ بالأسرى، وأرسل برقية إلى رئيس الولايات المتحدة يتوسّله فيها إبلاغ أنور وطلعت وجمال أنه إذا كان شقيقه الشريف ناصر في القسطنطينية، أو أسيئت معاملة أي من أقاربه عل أيدي الأتراك، فسينتقم من الأسرى المدنيين والعسكريين الذين يحتجزهم. كانت الحكومة التركية تعمل ضد الشريف بدعاية صحافية قوية يديرها الشاويش في القسطنطينية، وشكيب أرسلان في سوريا (درزي اعتنق الإسلام منذ بضع سنوات خلت). أمّا في سوريا، فقد لا يكون هذا الأمر مؤثراً جداً لأن 90% من الشيوخ يؤيّدون الشريف بقوة.

يبدو أن الشريف قد أعدّ نحو 15 ألف رجل حتى الآن. ولدى الأتراك فرقة الحجاز القديمة (الثانية والعشرين) في حامية الإقليم، وفرقة جديدة في المدينة المنورة لم يتم تشكيلها بعد. هذه الفرقة الأخيرة بقيادة فخري باشا، قائد الفيلق العسكري الثاني عشر ونائب القائد العام في سوريا. هو حازم ونشيط وألمعيّ وضليع بالإدارة والحرب. تفيد الأخبار الواردة من الساحل السوري بإرسال عشر كتائب إلى سكة الحجاز لإعادة فتح خطوط التواصل مع المدينة المنورة ودعم فخري. استولى الشريف على قطارين في مكان ما على السكة الواقعة شمال المدينة المنورة، ولكن لا تتوافر لدينا معلومات عن حجم الضرر الذي لحق بالسكة. فهو يطلب خبراء ألغام محليين لاستخدام المتفجرات.

في 8 حزيران/ يونيو، عبّر الشريف عن قلقه بشأن موقع المدينة المنورة. لقد توقّفت عملية نقل الإمدادات، وقواته تعاني من نقص في الغذاء، وتخلّت عنه لمصلحة الأتراك الذين يمكنهم إطعامهم. ما دام هذا الأمر لا يتجاوز الحدودَ

ليس ثمة ضرر في تعرّض الشريف لتعنيف خفيف. فسيكون أكثر تواضعاً واستيعاباً إذا أدرك من كثب أن نجاحه يتوقّف على مساعدتنا. المدينة المنورة محصّنة وعصيّة عليه، وفيها طعام وفير يكفي لحصار أطول مما يرغب فيه. فهو يطلب مدافع Howitzer والمزيد من المدافع الجبلية. لم يرسل الأتراك أي رسائل لاسلكية إلى المدينة المنورة منذ مساء 25 حزيران/ يونيو، رغم استمرار تلقّيهم تقارير من فخري. لذلك، من المحتمل استعادة الخط الأرضي. وذكرت رسالة تركية في 21 حزيران/ يونيو أن سرباً من الطائرات الحربية كان يغادر القسطنطينية متجهاً إلى المدينة المنورة.

بعثت أخبار الانتفاضة في سوريا شعوراً بارتياح كبير للشريف. وتفيد الإشاعة (نعتقد بأنها تتسم بمغالاة كبيرة) بتمرّد دروز حوران، وغزو نوري الشعلان ولاية دمشق بصحبة 15 ألف رجل من قبيلة الرولة، وبمساعدة الضباط العرب والفدائيين. يبدو أن الشريف قد توقع من فوره قيام قواته بغزو سريع لسوريا، وأبلَغَنا أن المزيد من التدمير لسكة الحجاز أمر غير مرغوب فيه، لأنّه سيحتاج إليها قريباً. أمّا في الطائف، فصادر الشريف عبد الله مدفعاً وأسر مئتي تركي. وفي مكة، اخترقت المدفعية المصرية في 3 و4 تموز/ يوليو المعقل الصغير الذي استسلم فوراً. ولا تزال الثكنات صامدة، ويأمل الشريف في إقناعها بالاستسلام دون اللجوء إلى العنف. من الواضح أنه يكره القتال في المدينة المقدسة نفسها. مع ذلك، كان المعقل يقصف المدينة ومسؤولاً عن القذائف التي أصابت الكعبة وأحرقت كسوتها.

التمس الشريف من حكومات الحلفاء الاعتراف به وأداء مناسك الحج في موعدها المعتاد. واحتفالاً بتدشين نظام الحكم الجديد اقترح خفضاً جذرياً في رسوم الحج. ويعتزم برنامجه العسكري تشكيل جيش منضبط بمساعدة الجنود العرب من القوات التركية وضباط سوريين ومن بلاد الرافدين. فبواسطة هؤلاء، يسعى إلى غزو سوريا، لكنّ أوان شنه هجوماً بعيد جداً وقدرته على ذلك دون تعاوننا ضئيلة جداً لدرجة أننا لا نحتاج إلى توقع أي شيء منه لا ينسجم مع خططنا. يقدر الشريف عدد القوات التركية في سوريا بـ38 ألفاً، لكنّ معلوماته ليست مقنعة.

في جدة ثمة افتقار كامل للتنظيم. فسكان المدينة يخافون العرب (كعادتهم) وينشدون سيطرتنا عليهم. والأشراف يتآمرون على بعضهم بعضاً، وليس لديهم خبرة إدارية. أمّا قبضة الشريف على عرب الساحل، فليست قوية، ولا يزال النفوذ التركي موجوداً في ينبع. بطبيعة الحال هناك كراهية كبيرة للمصريين. ويبدو الشريف محسن، ممثل الشريف في جدة، طيباً، لكنه جهول. ويُظهر الشريف وعائلته مجاملة شخصية لممثلينا لكن من الواضح أن الآخرين لا يثقون بنا. أمّا الأمن العام، فكان مُستتباً.

مرفق مسودة إعلان من الشريف مُعدّة للنشر. ولم يتم توزيعها بعد، إذ طرحت من أجل الحصول على موافقتنا فقط.

قال الإدريسي في 30 حزيران/ يونيو إنه ينوي مهاجمة القنفذة ومحايل لقطع طرق المواصلات في الشمال والانضمام إلى الشريف بحلول 10 تموز/ يوليو. وقد كتب رسالة ودية إلى الشريف، دعا فيها نفسه خادمه، وطلب إرسال الأمير فيصل لقيادته وقواته. فبدأ التعبئة في 29 حزيران/ يونيو، لكنه وجد بعض الصعوبة في إقناع بعض قبائله بحمل السلاح. فهو يعتبر الإمام غير ودود، ويترصّده، ولن يهاجم لوبيا حتى يُمشِّط حدوده الشمالية. ستبقى قبائل حاشد وبكيل على الحياد ما لم نتخذ إجراءات خاصة.

في 30 حزيران/ يونيو، وصلت أنباء إلى بيرك Birk تفيد بأن قوات الشريف تزحف على القنفذة. يبدو أن الأخبار مبالغ فيها. ولم يتم تلقّي أي تأكيد حتى الآن. فالقنفذة أرض متنازع عليها على حدود الشريف والإدريسي. من المشكوك فيه أن تكون العلاقات بين الشريف والإدريسي جيدة بما يكفي لجعل العمليات المشتركة واردة. وقد يتجدد الشعور غير الودي القديم إذا كانت هناك خيبة أمل، أو غنيمة لا بدّ من تقاسمها. لقد أوضحنا لكل جانب مآل الصدام غير المرغوب فيه، وتم إرسال السفن للإشراف على العمليات. ونتيجة لذلك استسلمت القنفذة في 8 تموز/ يوليو. وتم رفع علم الإدريسي، وأسر الحامية المكوّنة من ثمانية ضباط و190 رجلاً.

3. مذكّرة من القاهرة عن العمالة العربية

5 أيلول/ سبتمبر 1916

يعتمد نجاح العمالة العربية أو إخفاقها بصورة شبه كاملة على المعاملة التي يتلقاها الفرد من ربّ العمل. ورجل القبيلة ليس متطوراً بما يكفي ليتم توجيهه بالقوانين الاقتصادية. ولا يوجد في أي مكان في أقضية تركيا عدد سكان كثيف بدرجة كافية لتأمين فئة كبيرة مترددة من العمال العرضيين.

إن الإشارات الخاصة إلى مكانة العمالة ليست رائجة بالعربية بعد. وهيهات لعمالة غير المهرة أن تلقى تقدير الاحترام غير المفهوم الممنوح لها في الأوساط النادرة للنقابات، إذ لا تزال مهينة أكثر من تسول عفيف. فمن الأجدر أن تتضور جوعاً في قطعة أرض صغيرة خاصة بك بدلاً من تأجير جسدك مقابل أجر. في النتيجة إن العامل العربي المياوم غالباً ما يتحدر من أسوأ طبقة، ويؤدي واجبه عن ظهر قلب، فلا يفكر فيه ولا يهتم به. مثل هؤلاء الرجال غير المهرة موجودون في الأماكن كلها على نحو لا يمكن علاجه.

تتمثل إحدى الطرائق لتحسين هذه الحالة في المناطق الريفية في الاستعانة بالمزارع الفلاح أو أبنائه، ولكن هذا ما يصعب فعله بالضبط. فعملهم (عندما تحصل عليه) شبيه كمّاً ونوعاً بأي عمل آخر تقريباً. وذكاؤهم متّقد وعلى

استعداد للتكيف مع مهن جديدة. على الأغلب، لا يعملون جنباً إلى جنب مع الطبقة الدنيا جيداً، وأحياناً ينجذبون عبر إرساء تسلسل هرمي وهمي بين العمال فقط، وزرع الخرافات القائلة إن بعض الوظائف أكثر احتراماً، وبذلك يتم تخصيصها للعائلات الأفضل. إن كان من الممكن أن تحدد هذه الوظيفة المرغوبة الوتيرة للبقية (مثل المعول في مجموعة حفر)، فسيتم الارتقاء بالعامل العادي إلى مستوى قادته.

مع مرور الزمن، من المحتمل أن يؤدي ارتفاع مستوى المعيشة إلى التخلص من أصغر الملّاك وجعلهم يعتمدون على أجر يومي. ثم سيشكلون فئة العمال المهرة.

التعامل الفعلي مع الرجال ليس أمراً سهلاً. ويتناسب نجاحه عادة مع صلة الرجال الوثيقة بربّ العمل. وبذلك، يُنصح بوجود طاقم مشرف أوروبي كبير. فأسعد سيّد هو الذي يعرف أسماء رجاله ونسبهم كلّهم، لأن الإقطاع الكامن في القبائل المستقرة يربطهم به في هذه الظروف، فلا تصبح سطوته شخصية فحسب بل غريزية تقريباً، إذا كان لديه موهبة روح الدعابة لتلطيف الحزم اللازم، والإنسانية الكافية ليهتم برجاله خارج العمل. في مثل هذه الحالة، لن يتوانوا عن أي شيء من أجله.

السخرية هي أعظم سلاح في ترسانة الأوروبيين. إن إهانة عامل أو ضربه تُنغِّص المجموعة، ويعدّ مدمّراً على المدى الطويل مثل نظام مصنوع آلياً، أو أي شيء يقترب من وجهة نظر "عتّال". على العموم، كانت الشركات البريطانية الخاصة في الأقاليم العربية من تركيا بارزة في العلاقات الطيبة القائمة بينها وبين موظفيها، بينما كان الألمان في الطرف الآخر من الطيف. في الواقع، كان ذلك جرّاء حرصهم الدؤوب على الحماية القنصلية أو الحكومية غالباً لدرجة تمكنوا فيها من تحقيق مشاريع كبيرة.

تبدو الأرقام الفعلية للعمل اليومي في بلاد الرافدين جيدة. أمّا في شمال سوريا، وفي ظروف أسهل، فكانت سكة بغداد تفترض الحصول على متر مكعب من عملية القطع والنقل للرجل يومياً في التربة العادية إلى القاسية. فكان مشروع بريطاني، تحت إشراف دقيق، وفي المنطقة نفسها، مع ثلاثمئة رجل وعملية نقل مسافتها ثلاثين ياردة، يعمل بمعدّل سبعمئة متر مكعب يومياً؛ لكن كانت غالبية رجاله من طبقة الفلاحين.

أما العامل الكردي، فبرهن غباءه إلى حد ما رغم قوّته. ويصعب الحفاظ على دماثة خُلُقه. من شبه المؤكد أن تتشاجر مجموعات كبيرة من الأكراد مع شخص ما أو بينها. وهم أقل نياقةً من العرب في الأعمال القذرة مثل الفحم الحجري. أمّا العمالة التركية، فتؤدي مهمتها اليومية لكن بطريقة ميؤوس منها ودون تفكير. في الواقع من الصعب جداً إقناعها بأن تبدي اهتماماً بما تفعله.

4. رواية الحجاز

5 أيلول/ سبتمبر 1916

عملياً لم ترد أي أخبار من الحجاز منذ 3 آب/ أغسطس. كان يجري اتخاذ خطوات للتعامل مع حسين بن مبيريك من رابغ الذي كان يسطو على مخازن وأسلحة تمّ إسقاطها في ذلك المكان لمصلحة القوات بقيادة الشريف فيصل.

أفاد ثلاثة من المنشقين عن القوات التركية في المدينة المنورة، الذين غادروها قبل نحو شهر، بأنهم ينتمون إلى مفرزة اليمن، وهي دفعة مجندين تشكلت على هيئة فوج (بقيادة عربي يُدعى خيري بك)، وأُرسلوا من القسطنطينية إلى دمشق من أجل الخدمة العسكرية في اليمن. كان طريقهم من دمشق (حيث مكثوا أربعة أشهر) إلى المدينة المنورة، ومكة، ثم إلى اليمن براً. فلم يعرفوا موقع اليمن. وعندما انطلقوا، شكّل الأتراك أكثرية بين المجندين، لكنهم سئموا من الحرارة طوال الطريق. وخرجت "سرية" واحدة، غادرت دمشق بقوة قوامها 130، من المدينة المنورة للقتال بثمانين فرداً فقط. أمّا الخمسون الباقون، فكانوا من الأتراك الراقدين في مستشفى في المدينة المنورة بسبب الحرارة.

استغرقت رحلة القطار من دمشق أربعة أيام وأربع ليالٍ متتالية، ولم تتوقف أكثر من ثلاث ساعات، وعموماً لم تتوقف أكثر من عشر دقائق أو خمس عشرة. كان لديهم قاطرتان من درعا إلى معان، وأخرى بعد ذلك (يمكن تفسير ذلك من خلال منحدرات عمّان). كان القطار يتألف من عشر عربات إلى خمس عشرة ببضائع مغلقة، وسريّتين مع أمتعتهما (قرابة ثلاثمئة رجل)، وقد ملأه الضباط. في الغالب، كان ينقل الحطب في عربة الوقود والماء من المخازن المملوءة في محطات مختلفة. وإضافة إلى الإمدادات الرئيسية من شركة مقاولات أخشاب جبال الأمانوس وطوروس (Saghiz and Co.)...، كان البدو يجمعون الحطب المحلي. يتألف هذا الحطب من جذع أثخن من شوك وقش وطرفاء وأكاسيا الصحراء (حطب غير مطابق لمواصفات القاطرة، ولا يُعرف كثير عنه).

في معظم المحطات هناك قرابة عشرة رجال يحرسون السكة. أمّا الجنود الآخرون، ففي مجموعات عاملة، يقومون على الإصلاحات والتحسينات. وهناك حامية أكبر في معان وتبوك. عندما وصلوا المدينة المنورة (قبل بدء الحرب هناك، في نهاية أيار/ مايو على الأرجح)، كان ثمة عدد قليل من الرجال هناك، وبعض الكتائب الموجودة في الحجاز مدة طويلة فقط (ربما كتيبتان من الفوج 130 وكتيبة منقولة بالقطار). كان بصري باشا حاكماً عسكرياً. وخسر فخري باشا منصبه لاحقاً.

بعد بدء العمليات القتالية بين الشريف فيصل والأتراك، سقط المزيد من الجنود. لقد اعتقدوا بأن عددهم ربما يصل إلى 10000 إجمالاً، لكن لم يعرف أي منهم حجم الرقم فوق ألف، ولا يمكنه البتّ في شيء. كانوا في حي العوالي أنفسهم، وأتت أوامر الانسحاب منه ليلاً. ثم يُفترض أنهم هجروه في الظلام. فأسرهم العرب واحتجزوهم أسبوعين وسلبوهم ما في حوزتهم كلّه، وهددوهم بالقتل لإقناعهم بالانضمام إلى قوات الشريف. لكنّهم رفضوا. فكان أحدهم يحب الأتراك. أمّا الآخرون، فقالوا: "أشقاؤنا الأربعة في الجيش التركي في المدينة المنورة. ولا نريد أن نجعلهم يخاطرون بقتلنا". لذلك، رفضوا فعل أي شيء، وتم إرسالهم إلى ينبع حيث صعدوا متن طرّاد.

5. مذكّرة عن حامية المدينة المنورة

14 أيلول/ سبتمبر 1916

تفيد معلومات القاهرة، المستندة إلى استجواب الأسرى وغير المُثبتة بعد، بأن القوة الموجودة في المدينة المنورة تتكون من كتيبتين من الفوج 130، وثلاث كتائب من المفرزة اليمنية، وربما ثلاث كتائب من الفوج 42، وربما جزء من الفوج 162. وإضافة إلى الهجّانة والخيّالة وكتيبة الحاكم العسكري توجد بعض وحدات المدفعية من الفرقتين الثالثة والثالثة والأربعين، وربما بعض المتطوعين من وحدات الفيلق الثاني عشر. فالمجموع النهائي هو أحد عشر ألف رجل على أقل تقدير، وربما أكثر.

6. مذكّرة عن وضع الحجاز العسكري

16 تشرين الأول/ أكتوبر 1916

لقد ضمن إخفاق الأتراك في تحقيق تقدم في مكة المكرمة قبل أداء مناسك الحج أو أثناءها سلامة ونجاح حملات الحج المصرية وغيرها التي حضرت المناسك السنوية تحت حماية الشريف. يجب أن تتمثل الآثار الأخلاقية لهذا الأمر في تعزيز مكانة الشريف بصورة كبيرة جداً بين مَن أرسلوا ممثلين إلى المدينة المقدسة كلّهم.

مع ذلك، لا بدّ من بقاء الوضع العسكري حرجاً مع بقاء قوة تركية كبيرة جداً سالمة جنوب المدينة المنورة، ما دام يمكنها الحصول على تعزيزات وإمدادات من سوريا عن طريق سكة حديد الحجاز.

في الوقت الحالي، يسهم الاحتفاظ برابغ بوصفه عائقاً فعالاً لأي زحف متوقع على مكة المكرمة، حيث لا يزال طريق السلطاني يمثل الطريق العملي الوحيد الذي توجد على طوله مياه كافية لقوة كبيرة. ومع ذلك، ستجعل الأمطار الخريفية، قريباً جداً، الطريق أو الطرق الداخلية لتقدم رتل تدخل سريع وارداً.

من غير المرجح أن يتخلى الأتراك عن محاولاتهم لإعادة السيطرة على مكة المكرمة إلى أن يتم إمّا عزلهم فعلياً عن سوريا، وإمّا هزيمتهم التامة في الميدان. بطبيعة الحال إنهم يرون الاستيلاء على مكة المكرمة أمراً لا غنى عنه لمطالبتهم الغامضة بالخلافة. ومن المؤكد أنهم سيضحون بالاعتبار الإستراتيجي من أجل تحقيق ما يعدّونه هدفاً سياسياً أسمى. إن حرمان الأتراك مكة المكرمة هو بمكانة ضربة قاتلة لموقف "جمعية الاتحاد والترقي" ومزاعمها، فضلاً عن كونه أمراً ضرورياً لهيبة الشريف المتزايدة.

إضافة إلى ذلك، إن الحفاظ على منصب الشريف الحالي له أهمية عسكرية تتمثل في منع الأتراك من تعزيز فرقهم الثلاث العالقة في عسير واليمن أو الإبقاء عليها. إنه يمنع الأتراك من التحرك على خاصرة قناة السويس باستخدام الساحل العربي كقاعدة للعمليات أو الدعاية، ويشرك قوة تركية في أمسّ الحاجة إليها في مكان آخر من أسيادها الألمان في مسرح عمليات تُعدّ فيه الأعمال العدائية بحد ذاتها تهديداً لسلطتهم الأخلاقية والسياسية في سوريا، وبلاد الرافدين، إضافة إلى الجزيرة العربية.

7. **قوات الحجاز التركية وتعزيزها** بقلم توماس إدوارد لورانس وفيليب بيرسفال غريفز

26 تشرين الثاني/ نوفمبر 1916

قد تُطرد الجيوش التركية الأخرى في وقت أقصر. ولن تعاد القوة في بلاد الرافدين وبلاد فارس بصورة عشوائية بينما بغداد في خطر، أو إلى أن يهدد تقدم روسي آخر في أرمينيا مواصلاتها. فالقوات التركية في أرمينيا، المنتشرة على مسافة خمسمئة ميل من البحر الأسود إلى رواندز، لا يزيد عتادها عن 102000 بندقية. وبينما تحتفظ روسيا بسلطتها، لا يمكنها التنصّل من التزامها الذاتي، ناهيك عن توفير الرجال للمدينة المنورة. فالجيش المتاح للخدمة الفعلية في أوروبا متناهي الصغر.

لذلك، سيصعب على تركيا تشكيل وحدات جديدة، أو الاستغناء عن الوحدات القديمة من أجل الرفاهية النسبية للحملة في الحجاز. عليه، إن ظهور القوة الساحقة التي ستضع حداً فورياً للانتفاضة العربية أمر بعيد الاحتمال. من ناحية

أخرى، الحرب في الجزيرة العربية تدور رحاها على نطاق ضيق، ولن تُحدث فرقاً يُذكر قد يجعل الأتراك يعتقدون أن الهجوم أقلّ كلفة من الدفاع. وإن كانت مشكلة النقل قابلة للحل، واستطاعوا التغلب على إحجام موظفيهم الألمان عن البرامج الإضافية، وشعروا بالاطمئنان إلى أن الحلفاء قد تخلوا عن أي فكرة تتعلق بتوجيه ضربة إلى سوريا عن طريق البحر، فقد يستغنون عن فرقة من شمال سوريا. من بين هذه الصعوبات الثلاث قد تكون مشكلة النقل هي الأكبر.

8. تقرير استخباراتي

4 كانون الثاني/ يناير 1917

تفيد المعلومات التي وردت من الشريف فيصل لاحقاً أنه رغم انفصال رجال قبيلة صبح عن الشريف علي، لم يلتحقوا بركب الأتراك، بل هم منتشرون بين التلال. فلا يشعر فيصل، الذي كان في نخل مبارك في 29 كانون الأول/ ديسمبر مع بعض قبيلة جهينة، بالاكتئاب بسبب الوضع بأي حال. ولا يزال الأتراك يعززون مواقعهم على طول خط الخَيْف، والحمراء، وبئر سعيد، إذ لا يزال الجزء الأكبر من الفوج 55 يُرابط هناك. تم الإبلاغ عن وجودهم جنوب الحسنية، أسفل الواسطة، في وادي الصفراء، لكن في مهمة استطلاعية فقط. ثمة أسباب للاعتقاد بأنه لا صحة لإخلاء الأتراك منطقة الغاير التي أبلغ عنها مراقبو الطائرات أخيراً، وبوجود الأتراك في ذلك الحي. فهم لا يزالون يسعون للحصول على الإمدادات من وسط الجزيرة العربية. يقول أحد ضباط الصف العرب المنشقين عن الأتراك، وقد تمكّن من بلوغ ينبع، إن الأعلاف قليلة، لكن الطعام كافٍ. وسطياً هناك قطاران قصيران (عشر عربات إجمالاً) إلى المدينة المنورة يومياً، لكن في بعض الأيام لا يصل أي قطار. كان لدى الأتراك، في أيلول/ سبتمبر، سرية مشاة في تبوك وواحدة في مدائن صالح، وطبيب ألماني في المكان الأخير. كان يحرس سكة الحديد في قطاع المدينة المنورة 1500 رجل تابعون لكتيبة الحاكم العسكري بقيادة الرحمن. ويقول إن فخري باشا، الضابط القائد العام لقوة الحملة، عائد إلى المدينة المنورة بعد مدة وجيزة، وذلك بعد زيارته نخل مبارك والحمراء والغاير، وترْكه الحمراء بقيادة غالب بك. أمّا في نخل مبارك، فوجد طائراتنا البحرية نشطة للغاية، وانسحب إلى بئر سعيد. كان لدى الأتراك مستودع تموين كبير في بئر درويش. الشعور السائد بين الأتراك يتعارض مع الشريف بقوة، وقد طُرحت مكافأة للقبض على الضابط البريطاني (النقيب لورانس) الموجود مع فيصل.

9. الحجاز: الوضع الحالي

11 نيسان/ أبريل 1917

تبدو العمليات العسكرية في الحجاز كأنها تعليق للرمي إلى حد ما. لكنّ هذه الصورة ترجع جزئياً إلى نواقص في معلوماتنا. ونظراً إلى المسافة الداخلية التي تعمل بموجبها قوات الأمراء الأربعة كلّهم نحصل على الأخبار على نحو أقل استمراراً وسرعةً مما كنا نفعله قبل أن باتت المدينة المنورة نفسها وسكة الحديد هدفيهما المباشرين. فضلاً عن ذلك، في الوقت الذي لم تُحسِّن فيه الأجهزة اللاسلكية الضعيفة في الوجه الوضع كثيراً، تم سحب العديد من سفن الدوريات؛ وعاد سرب سلاح الطيران الملكي البريطاني، الذي نقل إلى الوجه أخيراً، للعمل مجدداً، بعد العثور على مهبط متقدّم مُرضٍ في البيضاء على الطريق الشمالي المؤدي إلى العلا... مع ذلك، نعلم أن مفرزة كبيرة من قوة عبد الله في وادي العيص، حيث النقيب لورانس حالياً، قد هاجمت محطة أبو النعم بقيادة الشريف شاكر. يفيد الأخير أنه دمر المحطة وقطاراً من سبع عربات أيضاً، وأنه قتل أربعين تركياً. أمّا التفصيلات، فستأتي لاحقاً. في 16 و17 آذار/ مارس، دمّرت إحدى مفارز فيصل قرابة 45 عبّارة وقضباناً رئيسية، وأحرقت أعمدة تلغراف أيضاً جنوب العلا مباشرة. وأفاد العقيد نيوكومب بغارة ثانية بين محطتي خشم صنعاء والدار الحمراء، إذ تم تدمير 110 من القضبان وكثير من أسلاك التلغراف. على ما يبدو، أُسر 21 عنصراً من مجموعات الإصلاح وقُتل تركيّ. فلم يمر أي قطار من الشمال بتلك النقطة بين 24 آذار/ مارس وتاريخ مراسلة نيوكومب. لكن يبدو أن الأتراك، إذا لم يتم التدخّل في عملهم، قادرون على إصلاح نحو كيلومتر من سكة مزدوجة المسار يومياً. لقد عاد الملازم غارلاند لاستئناف عملياته، وسافر إلى الداخل من الوجه. تم التبليغ عن سيطرة ستمئة تركي مزودين بثلاث طائرات على مقطع من السكة الممتد من مدائن صالح إلى تبوك. وفي مدائن صالح نفسها، يوجد ثلاثمئة جندي مشاة، ثلثاهم من السوريين. وفي العلا خمسمئة رجل مقسّمون بالمثل بين الأتراك والسوريين، إضافة إلى ستين فرقة هجّانة وقوة خيالة صغيرة. أمّا قوة العدو المركبة بأكملها، المرابطة في تبوك، فقوامها قرابة خمسة آلاف رجل.

10. مذكّرة: خريطة الوجه (بيان مؤقت)

31 أيار/ مايو 1917

من المؤسف أننا اضطررنا إلى نشر تقارير مسارات النقيب لورانس التفصيلية والمعقدة دون أي خريطة مرفقة في عددينا 50 و51. لكن لم ترافق خريطته الأولية التقارير، وتأخرت كثيراً لدرجة أننا بدأنا نخشى ضياعها. مع ذلك، تم تسليمها الآن، وتمت إعادة صياغتها في مسح مصر من أجل إدراجها في النسخة المنقحة من بيان الوجه المؤقت، وهو الآن قيد الإعداد الفعلي. سيجسّد هذا الأمر خطوط مسارات العقيد نيوكومب من الوجه إلى المعظم، والخريطة الرائعة لحوض وادي الحمض السفلي من الوجه إلى قرية العقلة (قبيلة عقيلة) التي وفّرها سلاح الطيران الملكي من الملاحظات المستقاة من الضباط الطيارين ومن راكبي السيارات. يوضح التقرير الأخير من راكبي السيارات أنه عندما يصبح الرمل والدغل كثيفاً، يمكن أن تتقدم سيارة Crossley حيث لا تستطيع سيارة Ford.

ستعمل هذه المادة الجديدة على تحسين البيان بصورة كبيرة، ليس في ملء مناطق شتّى كانت أوليّة أو فارغة فقط، بل بتغيير المواضع المخصصة لسكة الحديد والعديد من محطات الطرق المهمة أيضاً. مع ذلك، سيترك مساحة كبيرة فارغة بين وادي الحمض ومسارات العقيد نيوكومب، ولن يغير رسم المسار الشمالي، الذي لا يزال يعتمد على خريطة بيرتون Burton، ولا رسم مسار المنطقة الواقعة شرق سكة الحديد. ومع ذلك، نعقد الآمال على إعادة رسم بيانات هوبر Huber بالنسبة إلى شرق سكة الحديد، التي، على حد علمنا، تم تنفيذها أخيراً بعناية فائقة على يد رسامي "الجمعية الجغرافية الملكية" بإشراف السيد دوغلاس كارازِرْس Douglas Carruthers. وقد أعاد الأخير النظر في مذكّرات مسارات غوارماني Guarmani أيضاً، وزودنا بترجمة إنكليزية لكتاب *Neged Settentrionale* [شمال نجد] (مع مقدمة قيّمة)، ويقترح المكتب العربي إصداره بالشكل نفسه مثل كتاب رونكيير Raunkiaer الصادر العام الماضي.

11. تقرير استخباراتي: التحرّك شمالاً

9 تموز/ يوليو 1917

وصلنا تقرير من الوجه بتاريخ 30 حزيران/ يونيو على النحو الآتي: "وصل عودة أبو تايه قصر الأزرق، وقد جاءه كثير من العرب للتعبير عن الولاء والقتال مع الشريف ناصر ونسيب البكري والنقيب لورانس تحت الراية التي أعطاه إياها معالي الشريف فيصل.

لدى سماع الحكومة التركية بانضمام عودة إلى جيش الشريف، أرسلت قوة ودمرت الآبار الجافة (الآبار شرق معان) ظنّاً منها أن الشيخ عودة سيجعل هذا

المكان مقراً له".

هذا أول خبر يصلنا عن أفعال أبو تايه منذ انطلاقه شمالاً مع النقيب لورانس والشريف ناصر ونسيب البكري. يقع قصر الأزرق شرق السلط، على بعد نحو 120 ميلاً شمال غور الجفر (الجافة). من المشكوك فيه هل يتعيّن علينا أن نعي وجود النقيب لورانس بصحبته هناك، أو في واقع الأمر، هل المجموعة بعد ظهورها في الشمال قد عادت إلى منطقة معان وتدير الآن عمليات الحويطات التي يصعب تفسير نشاطها دون هذا التوجيه، كما ورد في مكان آخر.

12. مقتطف من تقرير استخباراتي بعنوان "الجزيرة العربية/ الحجاز"

24 تموز/ يوليو 1917

وصلنا شرح لنشاط القبائل الأخير في محيط معان، المشار إليه في النشرة الأخيرة، في شخص النقيب لورانس، بعد مغامرات مزعومة في تلك المنطقة. يمكن تلخيص النتائج التي تم تحقيقها على النحو الآتي: غادر الوجه في 9 أيار/ مايو بصحبة الشريف ناصر بن حسين في مهمة ضابط الحملة القائد، ونسيب بك البكري بصفة مسؤول سياسي، وحشد ستة وثلاثين رجلاً وعودة أبو تايه أيضاً (يوجد منهم المزيد أدناه) ووصل العقبة في 8 تموز/ يوليو بجيش مكوّن من ألفي عربي، وبلغ رصيدهم سبعمئة قتيل تركي وستمئة أسير. حصل التمركز العربي، الذي شغلوا أنفسهم في تشكيله ليؤتي ثماره، في باير شمال شرق معان بقيادة الشريف ناصر. فتحركت القوة الرئيسية إلى الجفر في 30 حزيران/ يونيو، حيث قامت بتطهير بئر واحد، ثم إلى الكيلومتر 479 حيث تم تدمير السكة على نطاق واسع، بينما كان رتل يهاجم شمال معان بالقرب من عنيزة. ثم تابع العرب مسيرهم نحو فويلة، حيث دمر رتل متقدم مخفر الدرك. وقد وردتهم أخبار عن إعادة احتلال فويلة من حملة إغاثة متأخرة من مرتبات الكتيبة الرابعة من الفوج 174 قادمة من معان. فتمت هزيمتها بالكامل في 2 تموز/ يوليو في أبو اللسن. وتم أسر الضابط القائد، و160 رجلاً، ومصادرة مدفع جبلي، وإبادة بقية الكتيبة. في الوقت نفسه، أرسل رتل تدخل سريع شمالاً دحر موقعاً تركياً في الهيشة (كانت نهاية سكة الحديد على بعد خمسة أميال شرق الشوبك) واحتل وادي موسى والشوبك والطفيلة.

تقدمت القوة الرئيسية من فويلة واستولت على موقع المريغة، ثم انتقلت إلى القويرة حيث تم تعزيزها بابن جاد من حويطات العقبة، وأسرت مئة رجل وخمسة ضباط. ومن منطقة القويرة، زحفت على الكثيرة (الأمر الذي أدى إلى إبادة موقع قوامه ثلاثة ضباط و140 رجلاً)، ومن هناك إلى الخضراء شمال

وادي اليتم حيث استسلمت حامية العقبة من غير قيد ولا شرط. ودخلت العقبة في 6 تموز/ يوليو بصحبة ستمئة أسير، وقرابة أربعين ضابطاً وحفار آبار ألماني برتبة رقيب. بين هؤلاء، تم إرسال الألماني، و25 ضابطاً تركياً و360 جندياً إلى مصر، بينما تطوع الباقون، وهم عرب أو سوريون، وتم دمجهم في الجيش العربي. يقدر عدد القتلى الأتراك بنحو سبعمئة. وكانت القوات التي أنجزت هذه العمليات الناجحة بشكل ملحوظ من حويطات أبو تايه بقيادة الشيخ عودة، وعنِزَة الرولة بقيادة الشيخ ابن دغيني والشرارات. كانت خسائرهم أربعة قتلى وخمسة جرحى فقط في القتال الفعلي، رغم مباغتة دورية خيالة تركية عجوزاً وست نساء وسبعة أطفال في خيامهم وذبحهم.

في الوقت الحالي هناك نحو 5000 عربي مسلحين في معان. وتشير التقارير إلى أن الأتراك يدركون تماماً خطر التهديد، ومن المرجح أن يحاولوا اتخاذ إجراءات قوية. وقد ورد بالفعل أنهم أرسلوا بعض السرايا المحمولة على البغال إلى معان، واستعانوا بخمسمئة رجل من عرب بني صخر و250 رجلاً من الكرك وخمسين من حويطات الخريشا. فتوفي الشيخ فواز بن فايز من بني صخر في الأسابيع الماضية. ويذكر أن الشيخ مثقال خلفه ويمكنهم الاعتماد على الشيخ حمد عرار، لكن عناصر طراد والزبن من بني صخر، وكذلك الجزء الأكبر من قطاع ابن جازي، يناصرون الشريف. فمّما استطاع النقيب لورانس سماعه، إن تصرفات القبائل الشمالية معادية للترك على نحو متزايد ومواتية لشريف مكة المكرمة. وأكد الشيخ نوري الشعلان ونجله نواف ولاءهما. أمّا الدروز، فغاضبون بشدة من الأتراك، والشعور نفسه المعادي للبنان ووادي العاصي موجود بين أهالي صقاريا التركية والجبيلية والمتاولة. جاء الشيخ فهد بن هذال من إمارة مكة إلى بغداد، وقدم الدعم الصادق بالأصالة عن نفسه وقبائله. وثمة سبب للاعتقاد بأن قبيلة بِشر الغربية والقبائل الحدودية من حمص إلى حلب مستعدون على قدم المساواة للانفصال عن الأتراك عندما تحين الفرصة المناسبة.

13. أخبار قبائل عنِزَة

8 تشرين الأول/ أكتوبر 1917

تلقّينا إشارتين مُرضيتين لموقف نوري الشعلان تجاه ملك الحجاز وأنفسنا خلال الأسبوع الماضي. تتمثّل إحداها في اتفاق، تم الإبلاغ عنه رسمياً، مفاده وجوب حراسة مفرزة مدفعية الأشراف الواحة ضد هجوم الرشيديّين أثناء غياب نوري عن الجوف لإدارة أعمال الملك التجارية. فيُطلب تسليح المفرزة بمدافع Ceylon الجبلية. أمّا الإشارة الأخرى، فتتمثّل في طلب من نوري، نقله

الرائد لورانس، يفيد بلزوم السماح لنصف قبيلته، الرولة، بالتزود بالمؤن من بعض أسواق بلاد الرافدين التي نسيطر عليها. ويذكر اعتراض الأتراك، على الأرجح، الإمدادات المعتادة من ذرة حوران وصرفها عن رجال قبيلته، لأن الأخيرين أفصحوا عن نياتهم في وقت مبكر جداً. وقد أُحيل طلب نوري إلى بغداد.

14. غارات على السكك الحديدية في القطاع الشمالي

27 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917

تلقينا أخباراً عبر العقبة مفادها أن مجموعة بقيادة الرائد لورانس والشريف علي بن حسين قامت في 7 تشرين الثاني/ نوفمبر بنسف قطار ذي قاطرتين في مكان ما على السكة غرب درعا. ويذكر أن خسائر العدو كانت كبيرة.

قد تبين استحالة تحقيق الهدف الأصلي لهذه المجموعة، ويبدو أنها عادت أدراجها إلى قصر الأزرق، ومن هناك نفّذت عمليات معينة ضد سكة حديد الحجاز بالاشتراك مع مجموعات أخرى. وتمت مهاجمة المسافة الممتدة من الزرقاء إلى الحسا في مواضع مختلفة كلّها. وتفيد معلومات العقبة نفسها أن مجموعة بني صخر بقيادة الشريف حسين الشقراني قد دمّرت "جسراً مهماً" شمال الحسا، وأسرت خمسة وأربعين عنصراً، بينهم سامي بك، قائمقام معان، وأمباشي من وحدة الخدمات الطبية، وصادرت ستة وخمسين بندقية وغنائم أخرى كثيرة. بلا شك، هذا هو الجسر المتوقّع... وجوده جنوب محطة الحسا وتدميره في 11 أو 12 تشرين الثاني/ نوفمبر. من المحتمل أن يكون الجسر الحجري المكون من ست قناطر من خمسة وعشرين قدماً على بعد قرابة ثلاثين كيلومتراً عن السكة الواقعة أسفل جبل الحفيرة. أمّا الغارة جنوب معان... في 17 تشرين الثاني/ نوفمبر أو نحوه، فوقعت في الكيلومتر 510 شمال العقبة الحجازية. ونتج منها تدمير عشرات القضبان وقطع أسلاك التلغراف. كان الملازم بيساني برفقة هذه المجموعة التي عادت إلى العقبة الآن.

15. مذكّرات: القطاع الشمالي وأنباء متأخّرة

5 كانون الأول/ ديسمبر 1917

القطاع الشمالي. يؤكد التقرير اللاحق، الذي يحدد تفجير القطار الذي نفذته مجموعة الرائد لورانس في 11 تشرين الثاني/ نوفمبر، بدلاً من 7 تشرين

الثاني/ نوفمبر... أن هذا هو الحدث نفسه الذي وقع... في خربة السمراء. لذلك، لم يكن هناك سوى قطار واحد ذي قاطرتين متضرراً، وكان مقرّ الرائد لورانس الفذ جنوب درعا وليس غربها. فلقد تكبّد خسارة ثمانية رجال.

أنباء متأخّرة. لم تكن هناك حالة أخرى مشتبه بها من الكوليرا أو شبه الكوليرا في العقبة منذ 19 تشرين الثاني/ نوفمبر حتى 3 كانون الأول/ ديسمبر، لكنّ حالة واحدة من الكوليرا الآسيوية الحقيقية بلغت السويس في المدة الفاصلة. ووفق تقرير عربي أرسله الشريف علي إلى الملك حسين فخري أواخر الشهر الماضي، أمر فخري بنسف مباني سكة الحديد الواقعة خارج الأسوار. وإذا كان هذا الأمر صحيحاً، يبدو أنه تمركز في المدينة تمهيداً لنوعٍ من الإخلاء. فداء الإسقربوط خطير في مدائن صالح. وعاد الرائد لورانس إلى العقبة في بداية كانون الأول/ ديسمبر.

16. مقتطف من تقرير استخباراتي عن الجزيرة العربية

4 حزيران/ يونيو 1918

سيجري الدكتور وايزمان، زعيم البعثة الصهيونية، برفقة الرائد أورمزبي–غور Ormsby–Gore، زيارة خاطفة للأمير فيصل في العقبة أو من داخلها. وغادر السويس إلى ذلك الميناء في 1 حزيران/ يونيو. ومن المرتجى أن يتمكن المقدم لورانس من مقابلته فور وصوله وتقديمه إلى الأمير.

17. مذكّرة: فيصل ووايزمان

28 حزيران/ يونيو 1918

عُقد اللقاء بين الأمير فيصل والدكتور وايزمان... وفق الأصول في 4 حزيران/ يونيو في قرية العوايدة حيث المقدم جويس Joyce، الحائز وسام الخدمة المتميّزة، حاضراً ويعمل مترجماً. كان المقدم لورانس غائباً عن منطقة العمليات الشمالية في ذلك الوقت. أمّا الوعكة التي ألمّت بالرائد أورمزبي غور أثناء الرحلة، فمنعته من الذهاب إلى مناطق البلاد الداخلية. كان الاجتماع ودياً ويبدو أنه أعطى ارتياحاً متبادلاً. اتفق الزعيمان على التعاون الوثيق بين اليهود والعرب لمصالح كلّ منهما، في حال وجود أي استقلال مستقر في الأراضي المتحدثة بالعربية، لكن فيصل رفض المبادرة بتصريح عن الترتيبات السياسية الدقيقة التي كان يقلّبها، متذرعاً أن والده هو المخوّل الوحيد للإدلاء بمثل هذا التصريح. أبلغه الدكتور وايزمان أن اليهود لا يقترحون إقامة أي

حكومة خاصة بهم لكنهم يرغبون في العمل تحت الحماية البريطانية لاستعمار فلسطين وتطويرها مع مراعاة المصالح المكتسبة المشروعة. فأجاب فيصل أنه جراء الاستخدام الخطير الذي يمكن أن تقوم به الدعاية المعادية لأي من تصريحاته لمصلحة أرض عربية تسيطر عليها أيادٍ غير عربية، سيعلن رأيه الشخصي فقط في أن رغبة الدكتور وايزمان قابلة للتحقيق. ورحّب بحرارة بعرض الأخير تمثيل أهداف عربية ويهودية في أميركا. ويأمل فيصل في لقاء آخر في وقت لاحق. بطبيعة الحال النتيجة العملية لهذه المقابلة لا تتعدى كونها عملية تعارف متبادل بين زعيم حالة الوفاق الصهيونية والعربي، الذي من المرجح أن يكون له رأي مسموع مثل أي شخص آخر في تشكيل المصائر السورية. ولكن نجم عن ذلك الأمر بعض الاحترام المتبادل. وعندما يحين وقت المساومة، سيبدأ الزعيمان بفكرة ما عن جدارة كلّ منهما، ولأي غاية يعملان.

18. مذكّرات عن رحلات الجمال مصحوبة بتعليق بقلم جورج هارلاند George Harland 24 أيار/ مايو 1919

لقد سُئلت مرات عدة أخيراً عن أرقام رحلات الجمال، سواء للسرعة أو التحمل. في النتيجة لا شك في أن المذكّرات الآتية حول هذا الموضوع ستكون موضع اهتمام. وفي جميع الأحوال الأمر يتعلق بالنوق فقط.

بالنسبة إلى السرعة، كان أفضل أداء أعرفه هو ركوب الشريف بركات بن سمية مدة 39 ساعة، من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة، على طريق رابغ منذ بضع سنوات خلت. لقد كان سباقاً، وتم تغيير الجمال في رابغ، على بعد 154 ميلاً من المدينة المنورة. وتبلغ المسافة الإجمالية نحو 280 ميلاً، وقد تم قطعها عملياً دون توقف، باستثناء بضع دقائق في رابغ. وعليه، كان معدّل السرعة أكثر من سبعة أميال بالساعة. فسباق من هذا النوع هو اختبار لقدرة الرجل على التحمل، وليس اختباراً لقدرة الجمل على ذلك. كانت هناك رحلة أخرى رائعة بالقدر نفسه هي رحلة عيسى، أحد رجالات قبيلة حرب، الذي جاء من مدينة الزلفي في القصيم إلى ينبع في ثلاثة أيام، وعاد إلى الزلفي في أربعة أيام أخرى، الأمر الذي جعل إجمالي رحلة الأيام السبعة ذهاباً وإياباً تسعمئة ميل، بمعدل 130 ميلاً في اليوم. واستخدم عيسى أربعة جمال.

ركوب الجمال الفردي، مثل الأرقام القياسية، أكثر إثارة للاهتمام. ركب أحد أفراد عائلة الأطرام من الفتنة في قبيلة حويطات أبو تايه على جمل أصيل وطني بين المغرب والمغرب من النبك أبو قصر إلى باير والجفر، مسافة 143 ميلاً. استراح في الجفر ذات يوم، وعاد في اليوم الثالث إلى النبك على الجمل نفسه. امتلكت هذا الجمل بعد بضع سنوات، ووجدت بالتجربة أنه سيحافظ على خبب مريح وثابت يبلغ سبعة أميال ونصف في الساعة ساعة بعد ساعة دون حثّ خاص على العجلة. لكنني لم أحتج رحلة خبب عليه طولها أكبر من

المسافة بين رم والعقبة (39 ميلاً) إطلاقاً. ولقد فعل ذلك في أقل من خمس ساعات بقليل، وحمل قدراً كبيراً من المعدات إضافةً إليّ. وحمل مسند، من قبيلة الشرارات، رسالة إليّ من الجفر إلى العقبة. وغادر الجفر ظهراً، وعاد بالرد بعد يومين ظهراً، إذ قطع 220 ميلاً، وأدّى مهمته في 48 ساعة أيضاً. وكان يركب جملاً من قبيلة الشرارات يبلغ أربع سنوات.

يستغرق الزمن السريع لساعي بريد على جمل من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة ثلاثة أيام. وهذا بمعدّل 95 ميلاً في اليوم تقريباً.

ركبت مع خادم واحد من الأزرق، مروراً بالجفر والشيدية ورم، وصولاً إلى العقبة (290 ميلاً) في ثلاثة أيام ونصف. وهذا بمعدّل 84 ميلاً في اليوم تقريباً. وكنا نركب جمال بني صخر.

ركب أحد الحُرّث الأشراف في قرية المضيق من العقبة إلى مكة في تسعة أيام. وتبلغ المسافة الكليّة 690 ميلاً تقريباً، بمعدّل 77 ميلاً في اليوم. وكان يركب جملاً من قبيلة الشرارات، والرحلة واحدة من أفضل الرحلات التي سمعت عنها.

لا يمكن توقع أداء استثنائي من هذا النوع من جمل عادي في ظرف عادي. أمّا عند الركوب في الغزوات مع الحويطات أو بني صخر، فاكتشفت أنه لم يُسمح للجمال بالخبب في الرحلات الطويلة، لأن هذا الأمر يعوق فرص الرعي في المسير. فتسير الجمال بثبات ما يقارب أربعة أميال بالساعة، وتتابع ذلك من ست عشرة ساعة إلى عشرين يومياً، وبمعدّل وسطي لعدد الأميال يتراوح بين 64 و80. يمكن اعتماد أصغر تلك المسافات كمعدّل وسطي ربما لعشرة أيام أو اثني عشر. أما بالنسبة إلى الركوب مدة شهر يوماً بعد يوم، فليس من الحكمة توقّع أكثر من خمسين ميلاً في اليوم من جمل في حالة جيدة. ولا يُتوقع من الجمال الضعيفة أن تقطع أكثر من أربعين ميلاً في اليوم وسطياً. أمّا بتجربتي مع الجمال القوية، فكان الرجل يقرّ بالهزيمة أسرع من الجمل. بالنسبة إليّ، كان أطول شهر 1400 ميل، ووجدته صعباً للغاية. ففارس سيّئ أو قليل الخبرة سيُنهك الجمل بسرعة كبيرة. في الغالب، كان العرب يركبون بما قلّ حمله، إذ تبلغ أوزانهم خمسين أو 57 كيلوغراماً تقريباً، وعادة ما تكون ملابسهم وأدواتهم أقل مما يمكننا الاكتفاء به. فكنت أحمل القليل، ومع ذلك، تمكنت من استخدام ضعف عدد الجمال التي يستخدمها رجالي.

بالنسبة إلى فرقة هجّانة منضبطة، إن أربعين ميلاً في اليوم يعدّ مسيراً معقولاً، فإقرار هذا المعدّل الوسطي مدة ثلاثة أيام متتالية من رتل فوج الهجانة الإمبراطوري بقيادة الكولونيل بوكْستون عند التوجه شمالاً من باير يدافع عن الفرسان والدواب خير دفاع. وكان الفرسان اللاحقون (في الواقع، السابقون) ذكوراً، ولم يكونوا كلهم معتادين الظروف الصحراوية، ويحملون حمولات ثقيلة. إن مسير رتل في تشكيل عربي لمجموعات صغيرة مستقلة من عشرة أو 12 سيقطع شوطاً أكبر من رتل يحاول الحفاظ على خط منتظم.

وفي إحدى المرّات، سارت مجموعة عربية مكونة من عشرين رجلاً (من خدمي) مع معدّاتها كلّها من أبو اللسن إلى العقبة (ستين ميلاً) ما يزيد عن خمس ساعات قليلاً، كمرحلة أخيرة من رحلة من خمس مسيرات طولها خمسون ميلاً. فكانت الجمال كلّها معدَّة للانطلاق في اليوم اللاحق. وغني عن القول، كانوا يدفعون جمالهم في هذه المناسبة الأخيرة. وسيقطع الجمل غير المُسرج، الذي يخوض سباقاً مدته ساعتان تقريباً، عشرين ميلاً بالساعة. ففي انطلاقة وجيزة، ضبطت توقيت خببه بسرعة 22 ميلاً بالساعة، وجريه باعتدال 26 ميلاً بالساعة.

توماس إدوارد لورانس

إن العروض التي وصفها العقيد لورانس هي استثنائية على أفضل الجمال. فخلال تجربتي في جنوب الحجاز، وجدت أنه إمّا أن يكون الحافز قوياً للغاية، وإمّا أن تكون المكافأة الأكثر سخاءً، وراء حث بدوي على قطع أكثر من ثلاثين ميلاً أو أربعين في اليوم. كان أسرع معدل لنجائب إبل الأمير من مكة إلى المعسكرات العربية في ضواحي المدينة المنورة، ومن المعسكرات إلى الساحل في ينبع، خمسين ميلاً في اليوم، لكنّ الدفع كان محسوباً عند 210 جنيهات إسترلينية يومياً.

أمّا في الغارات، فكان معدل التقدم 15 ميلاً في اليوم عموماً، ولم يتجاوز25 إطلاقاً. تم ذلك بوتيرة مشي وكان البدو يكرهون بشدة السفر أكثر من ثماني ساعات من أصل 24، أو أكثر من ثلاث ساعات دون راحة. وبحكم تجربتي، عندما يتعلق الأمر بتحمل ركوب الجمال، وليس بالسرعة، يتفوق البريطاني على البدو بسهولة. وخلال رحلاتي المختلفة، كان رفاقي العرب، في كل حالة، أول من يقترحون التوقف للراحة.

على العموم، إن جمال جنوب الحجاز دواب هزيلة، وعشر ساعات متواصلة من السير تستنزفها في الغالب. لقد اطّلعت على حالات شتّى سقطت فيها رواحل سعاة البريد بعد رحلة من ينبع إلى معسكرات الأمراء والعودة (قرابة مئتي ميل) في خمسة أيام صريعة في نهاية الرحلة.

تسير قوافل الأمتعة بمعدل ميلين في الساعة فقط، ومن المحتمل أن تكون مرافَقَة مثل هذه القافلة هي أكثر أشكال السفر إرهاقاً وإزعاجاً. تُربط الجمال بحبل طويل، وتتنقل عادة أثناء الليل فقط. وعلى العموم، يصل المسير إلى عشر ساعات أو 12. ولولا الرجل الراكب على جمل الصدارة، لأعدّ العرب أماكن مريحة يستلقون فيها على حمولات الجمال، ويناموون طوال الليل.

جورج هارلاند

الجزء الثاني

في زمن السلم

مقدّمة

لم تكن كلمة السلم لتخطر على بال لورانس بسهولة عندما فكّر في المرحلة التي تلت عودته إلى إنكلترا في تشرين الأول/ أكتوبر 1918. كان من المحتمل أن تكون هذه الكلمة مناسبةً في عالم لم تكن الكلمة العليا فيه لوميض البنادق، باستثناء عدد من الصراعات الجارية، بعضها ثانوي وبعضها الآخر خطير وطويل الأمد، ولكن لورانس كان غارقاً في ما كان يصفه بتهكّمٍ أنّه "تناحرٌ شرسٌ في أروقة داوننغ ستريت "Downing Street استمرّ ثلاثة أعوام تقريبا. لم تكن تلك البلوى أقلّ شأناً مما كان قد مرّ به للتّو؛ أقلّ ما يمكن قوله إنّ الأمر قد استنزف قواه أكثر، إذ اتّسم بعدد أكبر من الإخفاقات وعدد أقلّ من النجاحات.

يعود تاريخ هذه التوليفة من الوثائق والمقالات والرسائل التي يتألّف منها هذا الجزء، باستثناء واحدة، إلى تلك السنوات الصعاب المحفوفة بالتحديات. وفي معظم الحالات، سنرى مدافعاً شرساً في النزال، يحارب بالكلمة عوضاً عن السلاح في سبيل القضية التي أخذ على عاتقه تبنّيها منذ اللحظة الأولى التي وطئت قدماه فيها أرض الجزيرة العربيّة، ألا وهي العدالة للعرب. يطغى مزاج انسيابي على "Demolitions under Fire" [عمليات التلغيم تحت النار] التي يتحدث فيها عن الجوانب العملانية لحرب العصابات، فيما تطغى ثقة المؤرّخ وتفاؤله على "The Evolution of a Revolt" التي يقدّم فيها شرحاً عن فلسفته حول حروب المتمردين. بالطبع، حتى في هذه الحالات، كان يدافع عن قضيته بشكل مبطّن، بتصوير الثورة العربية على أنّها أمرٌ جدّي. على أي حال غالباً ما نراه يروّج لقضيته الخاصة علناً. في بعض الأحيان، يطغى الغضب والسخرية على كتاباته، كما الحال في رسائله عن أزمة العراق عام 1920. وفي أحايين أخرى، نراه يتبنّى منظوراً أوسع وأكثر اعتدالاً، كما هو واضح في مقالته "The Changing East"، التي يظهر كأنّه يتبنّى فيها، إضافةً إلى أشياء أخرى، فكرة التخلّص من الإمبريالية قبل عقود من تاريخ ظهورها إلى العلن.

أمّا النص الوحيد الذي لا ينتمي إلى سنوات التناحر الثّلاث، فظهر للمرة الأولى عام 1929، وسيكون الأخير من حيث الموقع. كما أنّه من الجدير أن يعاد نشره ضمن هذا المجلّد من المختارات ولكن مع الإشارة إلى أنّ لورانس كان الكاتب بطريقة غير مباشرة، بما أنّه كان عمليّة تجميع للأدلّة المستقاة من كتاباته حول حرب العصابات، جمّعها خبيرٌ عسكريٌّ موثوق، رغم أنّها تحمل طابعاً خاصاً كونه آخر نصّ نثريّ مهم يحمل اسمه (حتى لو كان الاسم المختصر) سينشر أثناء حياته.

كيف كان مزاجه بعد هذه الجهود كلّها، أي بعد عامين من الحرب في البداية ثم ثلاثة أعوام من السلم (المزعوم)؟ كما شرحنا في جزء سابق بإسهاب في مقدمة "The Changing East" (الصفحتان 9-248)، فإنّ تعاونه مع ونستون تشرشل في وزارة المستعمرات قد مكّنه من الشعور، أو الادّعاء على أقلّ تقدير، بأنّه قد حقّق جلّ ما يمكن تحقيقه من أهدافه السياسية. في ما بعد، تخلّى لورانس عن العمل بالشأن العام وسعى إلى البقاء متخفّياً في صفوف سلاح الجو الملكي البريطاني بادئ الأمر، ثم في صفوف الجيش ومرةً أخرى في سلاح الجو. بعدما ابتُلي بشهرة عمل جاهداً في البداية لتحقيقها ثم صار يشمئزّ منها، فتحوّل فعلياً إلى رجل يتنقّل هارباً من مكان إلى آخر، واضطر إلى تغيير اسمه مرتين أثناء ذلك. وإن كان 1929 هو التاريخ الذي نُشر فيه آخر تقرير له قبل وفاته، فإنّه بالتأكيد العام نفسه الذي ظهر به ذلك البيان غير المؤرّخ الذي صعق ديفيد غارنيت، محرّر المجلّد التاريخي لرسائل لورانس الذي نُشر في 1938، إلى درجة أنّه أفرد له حيّزاً خاصاً في الجزء المتعلّق بسنوات ما بعد الحرب. كان مصدره رسالةً إلى مراسل مجهول الهويّة، ولم يتبقّ منه سوى فقرة واحدة، وقد كانت منقوصة أيضاً. سأعرض الجمل الأساسية لهذه الفقرة هنا لأنّها ترتبط بالنسبة إليّ مباشرة بالمجهود الذهني واليدوي الهائل المتمثّل في الكتابات التي يعاد نشرها في هذا المجلّد: "لقد سئمت السياسة، وسئمت الشرق وسئمت العقلانية. يا إلهي! إنّني منهكٌ للغاية. أتوق إلى الاستلقاء والنوم والموت. الموت هو الخيار الأفضل، إذ لا يوجد استيقاظ بعد الموت..."

استمرّ بكتابة الرسائل في المقام الأول، وبعض الكتابات في النقد الأدبي أيضاً، كما أصدر ترجمة نثرية جديدة لملحمة هوميروس *Odyssey* [**الأوديسّة**] التي تمّت إعادة طباعتها مرات عدّة. لكنّ سنوات الدفاع الشغوف كانت قد ولّت إلى غير رجعة. سيحقّق لاحقاً ما يوشك أن يكون سلاماً، لكنّ وفاته عن عمر ناهز 65 عاماً في 1935، في الوقت الذي كان يواجه فيه مستقبلاً يشوبه الغموض بعد تسريحه من سلاح الجو الملكي البريطاني الذي كان يكنّ له محبة كبيرة، تركت السؤال حول كون هذا السلام سيصمد من دون إجابة.

أولاً

إعادة إعمار الجزيرة العربيّة

4 تشرين الثاني/ نوفمبر 1918

إنّ ما يثير الاهتمام في هذه الوثيقة هو تاريخها وكاتبها ووضوح الطّرح الذي تقدمه. فهي مؤرخة بتاريخ 4 تشرين الثاني/ نوفمبر، أي بعد مرور شهر على رحيل لورانس على جناح السّرعة من دمشق في 4 تشرين الأوّل/ أكتوبر، عقب السقوط الدرامي للمدينة بأربعة أيام، فيما ذُيّلت باسم الكاتب المقدم توماس إدوارد لورانس T. E. LAURENCE، إذ يدلّ هذا الخطأ الإملائي في كتابة اسم المؤلّف على أنّ من طبع هذا النّص، ويُزعم أنه كُتب بخط اليد، لم يكن يدرك أنّه كتبه ضابط له مكانة مرموقة في الدوائر السياسية الداخلية في لندن.

بدءاً من 21 تشرين الأول/ أكتوبر أطلق حملةً مؤيّدةً للعرب، قوامها رجل واحد، عندما ظهر أمام اللجنة الشرقية لوزارة الحربيّة التي كان يترأسها النّائب الأسبق للملك في الهند، اللورد كرزون Curzon، الذي أصبح يعمل الآن تحت إمرة رئيس الوزراء ديفيد لويد جورج David Lloyd George رئيساً لمجلس اللوردات. افتتح كرزون الجلسة قائلاً: "راقبنا، أنا وأعضاء حكومة صاحب الجلالة جميعاً، لبعض الوقت، باهتمام وإعجاب، العمل الرائع للعقيد لورانس في الجزيرة العربية، وشعرنا بالفخر حيال ما بذله من جهد للارتقاء بنوعية السلاح للجيشين البريطاني والعربي". وعند دعوته للإدلاء بوجهة نظره حول الأمر، فعل لورانس ذلك من دون مواربة، مقترحاً إعطاء الأبناء الثلاثة لمؤسّس الثورة العربية، الشريف حسين المبجّل، الذي قاتل ببسالة في الميدان، مناصب في السلطة. وجاء في محضر وقائع الاجتماع الرسمي أنّ "فكرة العقيد لورانس تتضمن تنصيب عبد الله حاكماً على بغداد وبلاد الرافدين الدنيا، وتنصيب زيد حاكماً على بلاد الرافدين العليا، وتنصيب فيصل حاكماً على سوريا".

جاء في محضر وقائع جلسة لاحقة عُقدت في 27 تشرين الأول/ أكتوبر التعليق الآتي عليه: "إنه رجل ذو مسيرة مهنيّة لافتة ومقدرة عظيمة، وقد جسّد لنا وجهة النظر العربية المتطرّفة، إذ قال ما كان فيصل ليقوله لو أنه معنا على طاولة الاجتماع في عصر ذلك اليوم". من الممكن قياس ردّ الفعل الرسمي على دفاع لورانس هذا من ورود كلمة "متطرّفة" في جملة الحكومة

البريطانية الجليّة هذه. إنها اقتراحات لافتة، ولكن، يا حسرتاه، إن فرصة تطبيقها تكاد تكون معدومة.

كما تُظهر هذه الوثيقة، ستطرح هذه المسألة لاحقاً. ولقد وصفها ديفيد غارنيت، الذي نشرها ضمن مجموعة رسائله عام 1938، على نحو لطيف، أن "لورانس كتبها لإخطار الحكومة البريطانيّة بعودته إلى إنكلترا". وأضاف: "رغم أنها وثيقة سرّية، سُمح لي بنسخها ونشرها هنا". لكن مجريات الجلسة المقتبسة في الفقرات السابقة، ونفترض أنّ غارنيت لم يكن يستطيع الوصول إليها، تضع الوثيقة في سياق مختلف. فهو، أي لورانس، لم يكن يطرح قضية، بل يعيد طرحها ولكن بزخم أشدّ، معتمداً على قوة الحجّة والتّهكم أثناء حديثه من أجل إيصال رسالته. وتهاجم الفقرة الأخيرة من الوثيقة بوضوح ما تسمّى معاهدة سايكس–بيكو Sykes–Picot التي أُبرمت في أيار/ مايو 1916، أي قبل اندلاع الثورة العربية، واقترحت تقسيم أراضي الإمبراطورية العثمانية (مفترضين أنها قد هُزمت في الحرب) بين الحلفاء كي تكون الدول المستفيدة روسيا وفرنسا وبريطانيا. لقد أدّى انسحاب روسيا من المشهد إبّان الثورة البلشفية إلى خروج أحد اللاعبين من لعبة الشطرنج السياسية هذه نهائياً، أمّا بالنسبة إلى لورانس، فشكّلت وثيقة الحقّ في تقرير المصير، التي أيّدها الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون Woodrow Wilson الذي صار قامة مرموقة في الساحة السياسية العالمية منذ دخول الولايات المتحدة الأميركية الحرب في نيسان/ أبريل 1917، سبباً إضافياً يجعل منها معاهدة بالية عفا عليها الزمان. لكن، وهو الأهمّ من ذلك، كان لورانس يعتقد بأن إسهام العرب في النجاحات العسكرية في الشرق الأوسط جعل حفاظ فرنسا وبريطانيا على المواقع التي منحتهما إياها اتفاقيّة سايكس–بيكو على نحو مستدام أمراً صعباً. وهذا ما يفسّر طلبه ألّا يكون هناك أي محاولة لإصدار "نسخة ثانية" منها، لأن "ما تنطوي عليه الاتفاقية الحالية من حماقات تاريخية كفيلٌ بردّها من المحكمة بداعي السخرية".

إذا أخذنا بالحسبان ما نعرفه عن شخصية لورانس، يمكن ألّا نرى أيّ شيء غير اعتياديّ في مقاربته الأمور. ولكنه كان فعلياً ضابطاً "عدائياً" يحاول ترهيب قوى التحالف الرئيسية دون أي جزع أو شفقة، ويتّهمهم بكل صفاقة بازدواجية المعايير الأخلاقية. وليس مفاجئاً أنّ الغالبية تقارب الأمر بطريقة مغايرة عما يراه. سيسيئ ما تسرّب عن "سايكس–بيكو" إلى العلاقات بين العرب وسلطات التحالف في مؤتمر السلام الذي افتُتح في باريس بعيد شهرين من ذلك في كانون الثاني/ يناير 1919، ولمدة طويلة بعده.

تظهر الوثيقة تحت البند رقم 107 في مجلّد ديفيد غارنيت المعنون The Letters of T. E. Lawrence (Jonathan Cape, London, 1938)، مع الإشارة إلى أن الخطأ الإملائي الوارد في كتابة اسم الكاتب على أنه "T.E. Laurence" قد تم تصويبه.

إعادة إعمار الجزيرة العربيّة

4 تشرين الثاني/ نوفمبر 1918

إن رغبة الجيل الأخير من السّاسة البريطانيين (الجليّة في اتفاقات سكة حديد بغداد ومفاوضات الإسكندرون عام 1915، إضافةُ إلى مناسبات أخرى) في الانسحاب من موقعهم الإمبراطوري في الشرق الأوسط قد جعلت من عملية السّعي إلى إيجاد سبل غير مباشرة للحفاظ على منطقة "مونرو" Monroe، وهي البقعة التي تتخذ شكلاً رباعي الأضلاع من جغرافيا المنطقة يقع بين مصر والإسكندرون وبلاد فارس والمحيط الهندي، أمراً مستحبّاً. ومع اندلاع الحرب، أصبح هناك حاجة ماسّة إلى تقسيم الإسلام إلى طوائف، وأصبحنا متّفقين على أنّنا نحتاج حلفاء لا رعايا. وعليه، استغللنا حالة الغضب التي تشعر بها الدول بالمتحدثة بالعربية (سبق أن عبّر عنها عبّاس حلمي) إزاء حكامها الأجانب، إضافةً إلى النزعة المتنامية لدى الشعوب الشرقية التابعة للمطالبة بحصّة من مخاطر الحكم. كنّا نأمل بإنشاء حلقة من الدول التابعة، التي تصرّ على رعايتنا لها، الالتفاف على الجناح الحالي والمستقبلي لأي قوة أجنبية لها أطماع تخصّ الأنهار الثلاثة.

كانت العقبة الأعظم أمام أي حراك عربي في زمن الحرب، المتمثّلة في انعدام التضامن بين مختلف الحركات العربية، المزيّة الأعظم في زمن السلم. فبوجود مشاعر الغيرة بين الأطراف المحلية في كلّ من سوريا وبلاد الرافدين ومصر، أصبحت معرفة من أين ستبدأ أو مع من صعبة. كان هناك محاولات فاشلة مع السّيد طالب وعزيز المصري قبل أن نحزم أمرنا بالتّركيز على شريف مكة. لقد وقع الخيار على الشريف في نهاية الأمر نتيجة للهوّة التي سيخلقها في العالم الإسلامي، ولأن موقعه الجغرافي يمنحه فرصة جيدة للنجاة، وأخيراً لأن رفعة شأنه بين العرب تعتمد على أسباب اعتباطية وتجريبية مرتبطة بمكانة العائلة، لكنّها منيعة وغير قابلة للجدل في الشرق.

بدأت المفاوضات بين الشريف والسير هنري مكماهون Henry McMahon الذي أُعطي توجيهات من الحكومة البريطانية بإبرام اتفاق من شأنه أن يستقطبه إلى جانبهم. ولسوء الحظ، لم يكن السير هنري قد أُخطر بمعاهدة سايكس–بيكو التي كانت آنذاك قيد التمحيص. كذلك الأمر، لم يكن الشريف يعلم بأنّنا نريده كزعيم رمزيّ فقط لا أكثر. وفي المراسلات، تحدث كوصيٍّ على العرب، وهذا يشمل كلّ فرد يتحدث بالعربية تحت الحكم التركي.

كانت انطلاقة الشريف كثائر غير موفّقة، ولم تشهد فرصه أي تحسّن بعد صرف السير هنري مكماهون واستبدال السير أرشيبالد موراي والسير ريجنالد وينغيت Reginald Wingate والعقيد بريموند Brimond كمستشارين له.

مع ذلك، نجح أخيراَ في استقطاب الجزيرة العربية الغربية بمجملها انطلاقاً من مكة المكرمة وباتّجاه الشمال، إلى أن أدّى احتلال فيصل العقبة في آب/ أغسطس 1917 إلى إنهاء حركة الأشراف العسكرية.

في هذه الأثناء، تعهّد فيصل لوالده (كان يشيخ بسرعة كبيرة) تحرير سوريا. وسيمكّنه موقعه كعضو غير معلن في اللّجنة الثّورية السوريّة من فعل ذلك. لقد ظلّ على اتّصال دائم مع زملائه الأعضاء في مصر، الذين كانوا معه في الميدان، وفي سوريا التي لم تُسلّم بعد، وظلّ يعاملهم كزملاء. في سبيل تحقيق هدفه، عمل على تشكيل جيش نظامي من السوريين وأهل الرافدين وإعادة أتباعه العرب إلى الحجاز كلّهم. وفي تفصيل مهمّ، يمكن أن نورد هنا أن ثمانية من أهل الحجاز فقط قد شاركوا في عملية دخول دمشق.

لم يكن بالإمكان أن تكون عملية فيصل العسكرية مستقلّة، إذ جعل من نفسه تابعاً يعمل في خدمة الجنرال ألّنبي، القائد العام لقوى التحالف. وآمل ألّا ننحدر إلى مستوى النقاشات التجارية التي دارت أثناء تقاسم الغنائم بين الوحدات العسكرية البريطانية والفرنسية والهندية والعربية واليهودية والأرمنية التي شاركت في العملية. بتحالفه مع العرب، تمكّن القائد العام لقوى التحالف من زجّ خيالته، من دون أيّ خطوط اتصال أو الحاجة إلى اتّخاذ الاحتياطات الاعتيادية، من يافا وصولاً إلى حلب في ملاحقة الأتراك عبر بلاد معادية ظاهرياً لكنها تتبع لنا فعلياً. لقد قلَبَ الجنرال ألّنبي السياسة القديمة تجاه العرب رأساً على عقب، وساعدهم بقدر استطاعته باللوازم والنّصح والرجال. كما يعود الفضل إليه في نجاحهم السريع.

أمّا الآن، فاكتمل العمل الحربي للعائلة الحاكمة في مكة المكرمة. ولا يكاد يمكننا التّشكيك في شجاعة الملك حسين الذي انضمّ إلينا، خلافاً لنصيحة فيصل بهذا الشأن، مباشرةً بعد سقوط مدينة الكوت، بوجود أمثلة على أصدقائنا الآخرين الصّغار أمام عينيه. ومن السّهل أيضاً رؤية الأزمة الأخلاقية التي كانت تمرّ بها أقدم وأطهر وأقوى عائلة عربية (بما أنّهم شعب يولي اهتماماً بالإيمان والنسب أكثر من أيّ شيء آخر) عند تخلّيها عن أصدقاء عمرها وولاءاتها وتحمّلها الإهانات غير المحدودة من الهند وتركيا وأفغانستان ومصر في سبيل حرّيتها الوطنية. ينبغي إعطاء الفضل للأمراء الأربعة للمعاناة والمخاطر الجسدية التي كابدوها أثناء حملات 1916 و1917 و1918 الصعبة. إنّ التزام الملك الهرم وأبنائه وعودهم وولاءهم لحلفائهم، إذ رفضوا عروض الأتراك المتتالية التي تمنحهم الحكم الذاتي في الجزيرة العربيّة تارةً، والاستقلال في الجزيرة العربية مع حكم ذاتي في سوريا تارةً أخرى، كما رفضوا عرضاً من الخليفة يتضمّن منحهم الاستقلال في الجزيرة العربية والحكم الذاتي في الأقاليم العربية الأخرى كلّها، يمكن أن يُقدّم إلى الدولة العظمى التي أقنعته بالثورة والتي كانت مستعدّة، من دون علمه، أن تسلمه مع الشعب تحت حمايته للأتراك بشروط أسوأ بكثير، مثالاً يُحتذى.

النّية الحالية للحكومات العربية

(أ) في الجزيرة العربية، وأعني شبه الجزيرة بالتحديد، يعتزم الشريف حسين أن يكون الزعيم المطلق بلا منازع. وإن كان صبوراً، فإنه سيحقّق مبتغاه بفضل عاملي الزمن والحج. أمّا في اليمن، فليس للشريف أيّ أهداف ملموسة. من جهة أخرى هناك اتصالات بينه وبين ابن رشيد والكويت. وفي نجد، لا تشكّل الحالة التي أنتجها الصراع غير المباشر بين الهند ومصر أيّ مصاعب حقيقية.

أودّ القول هنا إن تجربة السنوات الأربع الماضية تُظهر الرغبة عن السّماح لأيّ من السلطات الحالية، منفردة أو مجتمعة، سواء في القاهرة أو بغداد أو دمشق أو شيملا بالتّحكم بالجزيرة العربية. فقد كان منظورنا إقليمياً، وضيّق الأفق أيضاً.

(ب) في سوريا، ستصبح الحركة العربيّة مهمّة للغاية، لأنّها نشأت أساساً للحؤول دون وقوع مقدّراتها من قوة بشرية ومزايا إستراتيجية في يد أيّ قوة قارّية. ولهذا، كان العرب بحاجة إلى حقوق متساوية مع أيّ قوة في خليج الإسكندرون والشريط الساحلي الممتد من هناك إلى طرابلس، وفي ميناء طرابلس وسكة الحديد التي تصله مع مدينة حمص، وفي البقاع امتداداً من حمص حتّى بحيرة الحولة، وإمكانيّة الوصول بالتّراضي إلى حيفا، ومجمل أجزاء البلاد التي تقع شرق هذا الخط، إضافة إلى الأردن. فوق ذلك سيطالب فيصل بالسيادة على الأراضي التي تقع تحت حكمه، والحرية التّامة باختيار المستشارين الأجانب الذين يرغب فيهم من أيّ جنسية يشاء. سيكون هؤلاء المستشارون جزءاً من الحكومة العربية، وسيستمدّون سلطتهم التنفيذية منها لا من حكوماتهم الأصلية. من الممكن تأمين اعتراف العرب بالدّيْن التركي مقابل حصّة منصفة من إيصالات الرّيوع الجمركية لمرفأي بيروت وحيفا. على أيّ حال، لن يرى فيصل نفسه ملزماً أيّ اتفاق لم يكن طرفاً فيه.

لم يكن ما يمتلكه في سوريا قليلاً. فهو يسيطر على معظم أراضي الذّرة الجيدة، إضافة إلى المدن الصناعية الأربعة. كما أنه يحظى بـ80% من المسلمين إلى جانبه ومن ضمنهم جميع الرجال المقاتلين، إضافة إلى جميع النّصيريّين واليهود. لقد ورِث كذلك مديرية الخدمة المدنية التركية القديمة التي يشغل العرب جميع وظائفها الدنيا والعديد من وظائفها العليا. أمّا هو شخصياً، فإنه رجل واضح الرؤية ومثقّف، وفي مقدوره تلبية احتياجات السوريين في الحكم الذاتي المحلي. وفي حال إخفاقه في تحقيق ذلك، ستقع المسؤولية على عاتق القوى الأوروبية التي يثق بوعودها بإفراط، على حد تعبيره.

(ت) يأمل العرب أن يحتفظ البريطانيون بالمناطق التي أخضعوها في فلسطين. ولن يعترفوا باستقلال اليهود في فلسطين، لكنّهم سيؤيدون تسلّل اليهود إلى فلسطين قدر المستطاع، إن كان ذلك خلف ستار بريطاني وليس دولياً. وفي حال حدوث أيّ محاولة لإقامة السيطرة الدولية التي تنصّ عليها "سايكس–بيكو"، سيدفع فيصل باتّجاه تقرير المصير في فلسطين، ويمنح الفلاحين في فلسطين دعم الحكومة العربية الأخلاقي في مقاومة الاستملاك.

(ث) في العراق، يتوقّع العرب أن يحتفظ البريطانيون بالسيطرة على البلاد. ويأمل الشريف، بناءً على اتفاقه معنا، في الحصول على إدارة عربية صورية هناك.

(ح) في الجزيرة هناك وطنيّون عرب لامعون، لكنّهم في موقع جغرافي غير مُرضٍ إلى أن يقتنع بعض الأكراد المتوطّنين أو الرُّحّل بمؤازرة الحكومة المطلوبة هناك.

أودّ أن اقترح الإبقاء على المنطقتين (ث) و(ح) منفصلتين إدارياً، على أقلّ تقدير. إن مشكلات العراق ترتبط بأعمال عامّة عظيمة وقطّاع زراعي متطوّر جداً. أمّا مشكلات الجزيرة، فترتبط بقرويّين مضطربين من سكان الجبال وقبائل شبه رُحّل.

أمّا المسألة الكردية، فمن المرجّح أن تكون أكبر وأصعب من الأرمينية.

في حال السماح للشعوب الصغيرة أن تتمثّل في مؤتمر السلام، من المرجّح عندها أن تعلو صرخة تقرير المصير، وسيتمّ النظر إلى الاتفاقات التي سبق أن أُبرمت على نحو شبه سرّي بين مختلف القوى ببعض الشكوكيّة. ولهذا، أود أن أقترح ألا ننتج نسخة ثانية من "سايكس–بيكو". إن ما تنطوي عليه الاتفاقية الحالية من حماقات تاريخية كفيل بردّها من المحكمة بداعي السخرية، أو ربّما سيحدث ذلك أيضاً لو وفّرنا على أنفسنا بذل أيّ جهد إضافي في هذا الشأن. فإن لم نفعل، آمل على أقلّ تقدير أن تعترف بضمّ العرب رسمياً إلى الدول المشاركة في الحرب، وإشراكهم في أيّ قرارات تتعلّق بالمناطق العربية التي حرّروها بأنفسهم.

المقدم توماس إدوارد لورانس

ثانياً

ثلاث مقالات من صحيفة The Times

26–28 تشرين الثاني/ نوفمبر 1918

إنْ كانت الوثيقة السابقة تُظهر لورانس وهو يحاول التأثير في الأحداث من خلف الأبواب المغلقة، فإن المقالات الثلاثة اللاحقة هي نتاج قراره في تعزيز القضية العربية عن طريق إخراجها إلى العلن. لقد كتب القصة التي استقى منها المقالات أثناء إحدى الجلسات، وقد ظهرت كمقالات مفصلية على مدى ثلاثة أيام متتالية في 26 و27 و28 تشرين الثاني/ نوفمبر.

كان ذلك بعد أسبوعين فقط من توقيع اتفاق الهدنة في 11 تشرين الثاني/ نوفمبر الذي أنهى الكابوس الذي استمرّ ما يناهز أربع سنوات ونصف، ويُعرف تاريخياً بالحرب العالمية الأولى. كانت بريطانيا لا تزال غارقةً إلى حد كبير في الصّراع الذي بطش بالقارة الأوروبية، والذي تسبّب في انهيار سيكولوجي واقتصادي وسقوط الممالك والإمبراطوريات. في تلك الأثناء، كان لينين والبلاشفة يحكمون موسكو، والقيصر في المنفى، وألمانيا جمهورية، وقوائم الإصابات الناجمة عن المعارك النهائية التي خيضت على الجبهة الغربية السيئة السمعة تملأ أعمدة الصحف، وستبقى كذلك لأيام طوال بعد. سيخرج صوت وحيد من الشرق الأوسط مطالباً بالعدالة لشعب منخرط في صراع بعيد للغاية ويقع أسفل قائمة الأولويات في تلك المرحلة، ولذلك تطلّب الأمر من لورانس تسخير ما يمتلك من فصاحة للحصول على جلسة استماع. حرفيّاً لقد كان صوتاً أشبه بصرخة من قلب الصحراء الموحشة. إن استعداده لمواجهة النزعة الشعبية والمراهنة على ضمير الأمة بغضّ النظر عن الظروف المعاكسة يروي الكثير عن مدى التزامه القضية التي تبنّاها كقضيته الخاصة.

على أيّ حال إن "طرح الموضوع على الرأي العام" عبر صحيفة *The Times* يصبّ في الخانة نفسها ولكن بطريقة مختلفة. فهي الصحيفة الأكثر شهرةً ونفوذاً في بريطانيا، ولا تزال تحتفظ بمكانتها التي اكتسبتها خلال القرن الماضي على أنها "صانعة الرّعد". ولكنّ المشاركين فيها، بغض النظر عن مدى تميّزهم، كانوا بحكم العرف القديم مجهولي الهوية. وكما شاءت الأقدار، كان ذلك مناسباً جداً للورانس. ففي هذه المرحلة، كان لعبارة "مراسل على تواصل وثيق مع العرب خلال حملتهم ضد الأتراك" وقع أقوى من مجرّد اسم

لضابط معروف في ذلك الوقت في أروقة الحكومة البريطانية ووزارة الحربية فقط.

كانت رسالته إلى محرّر صحيفة *The Times*، جيفري داوسون Geoffrey Dawson، لافتة بسبب الحدة التي عرض فيها قضية العرب:

> لم يكن لديهم مبعوث صحافي إطلاقاً، ولم يحاولوا أن يبنوا قضية بأنفسهم أيضاً، ولكنّهم استبسلوا في القتال (أقسم على ذلك)، وقاسوا الأمرّين أثناء حملاتهم الثّلاث، وتكبّدوا خسائر من شأنها أن تُفتّت الجيوش المتمرّسة. كانوا يقاتلون بضراوة (كان فيصل ينفق عشرين ألف جنيه إسترليني على الأسرى الأحياء وعشرة آلاف جنيه على القتلى) وأنا كذلك. وكان ناصر ينفق عشرة آلاف جنيه إسترليني على الأسرى الأحياء، وعلي الحرث (الحارث) ينفق 8000، وأعتقد بأنه لم يفعل ذلك من أجل أي دافع قوي آخر سوى الرغبة في رؤية العرب أحراراً.

بلا أدنى شك، تُعدُّ هذه الرسائل مطالعة مقتضبة ومثيرة، ولكن من الغريب أن نرى هنا، ربّما للمرة الأولى، علامات تنمّ عن انعدام ثقة الكاتب بنفسه، الشيء الذي سيدفع لورانس إلى احتقار كثير من كتاباته بصفتها غير لائقة. إنْ كان هناك بداية لمتلازمة "الأشياء النّتنة"، أي النزعة إلى النّفور مما كان قد كتبه بمجرّد أن يترك القلم، فهذه هي حقاً. ففي خطابه التوضيحي، يقترح لورانس أن السرعة التي كان يكتب فيها رسالته قد أثّرت في أسلوبه في الكتابة، بقوله: "إنّه لأمرٌ مؤسفٌ، لأنّها تبدأ بصورة لائقة، ثم يبدأ الهراء. أرجوكم أحرقوها". لحسن الحظّ، لم يكترث داوسون لنصيحة لورانس، وعوضاً عن ذلك نشرها مولياً المقالات، في هذا السياق، أهمية بارزة.

من الجدير ذكره أن لورانس أبقى نفسه خارج المشهد عن عمد، إذ أعطى جلّ الفضل للعرب. لقد أخفى مشاركته في الأحداث حتى في الأماكن التي كان فيها المحرّك الرئيسيّ. وكما أصبح من المعروف الآن، انطلق مباشرةً إلى القاهرة بعد الاستيلاء على العقبة ليكون أوّل من يزفّ الأخبار السّارة. وهنا يشير إلى "المراسلين... الذين أُرسلوا إلى مصر بسرعة"، من دون أيّ إشارة إلى مشاركة البريطانيين، ناهيك عن أنّه كان المراسل الرئيسي.

كذلك، يعطي لورانس الفضل الكبير للبحرية الملكية لما أسهمت فيه، لكن قبول المساعدة من البحرية لن يسيء إلى سمعة العرب، إذ شعر بأنّ تأكيد دورهم كقوة برية أمرٌ ضروريٌّ. سيتمّ بكل رصانة التقليل من الدور الذي لعبته البحرية في كتاب *Seven Pillars of Wisdom*، فيما سيزداد التركيز على الدور البريطاني، وبالطبع دوره شخصياً، على نحو معتبر.

رغم نقاط ضعفها، تُعدّ هذه الرسائل سجالات انفعالية قوية، وهي بغض النظر عن طريقة العرض ليست تاريخاً سيئاً إطلاقاً. حتى لو أنّ *Seven Pillars* لم يكن ليُكتب، لكانت الثورة العربية ستجدُ لنفسها محامياً بارعاً يمثّلها في الدفاع عن قضيّتها.

تمّت إعادة نشر هذه الرسائل في كتاب Evolution of a Revolt (The Pennsylvania State University Press, University Park, PA, and London, 1968) للمؤلِّفيْن ستانلي وروديل واينتروب، وفي كتابي Secret Despatches and

Other Writings by T.E. Lawrence, 1991، (انظر التمهيد، ص. 20 في النص الأصلي).

1. الحملة العربية

26 تشرين الثاني/ نوفمبر 1918

الحملة العربية

العمليات البرية والبحرية

المساعدة التي قدمتها البحرية البريطانية

ننشر في ما يأتي المقالة الأولى ضمن سلسلة من المقالات التي كتبها مراسل كان على تواصل وثيق بالعرب أثناء حملتهم ضد الأتراك إبّان الثورة التي أطلقها شريف مكة. تصف هذه المقالة المرحلة الأولى من الحملة، وهي الثورة الناجحة في مكة المكرمة، والهجوم الفاشل على المدينة المنورة؛ واستيلاء البحريّة البريطانيّة على مرفأ مدينة الوجه، بالتّنسيق المباشر مع الأمير فيصل، بغية استعمالها كقاعدة للعمليات ضد الجزء الحيوي من سكة حديد الحجاز.

(واردة من مراسل)

بمجرّد سماعه بتسليم الجنرال تاونزيند Townshend مدينة الكوت، أرسل الشريف حسين بن علي، أمير مكة المكرمة المبجّل، رسالة إلى الحكومة البريطانية يخبرهم فيها أنه لم يعد يحتمل الوقوف في موقع المتفرّج ومشاهدة الإخضاع التركي المتواصل للعرب بعد الآن. وطالبهم بالمال والسلاح والطعام لجنوده، وقبل أن تعده الحكومة البريطانية بتلبية طلبه، فجّر ثورة في وجه حزب "تركيا الفتاة" وأسياده الألمان.

دوماً كان الأشراف حكّام أمر واقع في مكة المكرمة وقضائها، وقد كان للمنزلة الجليلة التي يحظى بها اسم العائلة بين العرب (بحكم أن حسين بن علي هو الشريف الأكبر المتحدر من سلالة الرسول محمّد، وبذلك، يكون زعيم الأشراف الذين يشكّلون عائلة النبي) أثر كبير في استقطاب جميع أعراب الحجاز في صفوف ثورتهم. لقد استطاعوا بسهولة سحق الحاميات التركية في الطائف ومكة المكرمة وجدة، ثمّ أنشؤوا قناة تواصل مع الأسطول البريطاني في البحر الأحمر، الأمر الذي يمكّنهم من استحضار ما يحتاجون إليه من سلاح ومؤونة إلى شواطئهم من أجل توسيع نطاق انتفاضتهم.

الهجوم على المدينة المنورة

في المدينة المنوّرة، حيث رفع الشّريف فيصل والشّريف علي – النجل الثّالث والنجل الأكبر لشريف مكة المكرمة – علم والدهما في 13 حزيران/ يونيو 1916، لكنّ أحداث ذلك اليوم الحافل من تاريخ ثورة مكة المكرمة لم تكن مفرحة بالقدر نفسه. لقد توقّع الأتراك حدوث أعمال عدائيّة، فاستقدموا قوّات كبيرة من سوريا لاستباق الأحداث. حشد فيصل جميع رجال القبائل والقرويّين حول المدينة واحتلّ الضّواحي، لكنّه تراجع عن مهاجمة المدينة المقدّسة. إنّ وجود ضريح النبي محمد يجعل من المدينة مكاناً مقدّساً لدى المسلمين، وبالنسبة إلى أفراد عائلة الرسول على وجه التحديد. كان العرب أغراراً في فن الحرب، ولم يكونوا قد تعلّموا بعد من الجيش التركي الذي قصف الكعبة في مكة المكرمة، التي تعدّ مركز اهتمام المسلمين في هذا العالم. بغضّ النظر عن السبب، لقد أضاعوا فرصتهم. لقد قطعوا سكة الحديد التي تصل إلى سوريا، ومزّقوا أجزاء طويلة منها بأيديهم العارية ثم رموها من حافة الجرف (لم يكن لديهم متفجّرات)، لكنّهم أبوا أن يقطعوا قناة الماء الثمينة بالنسبة إليهم، أو أن يشقّوا طريقهم عن طريق القتال عبر الشّوارع. وبعدما رصدوا حالة الخمول من جهة القوات العربية، تشجّع الأتراك وشنّوا هجوماً مباغتاً على ضاحية العوالي الشهيرة بحدائقها، وارتكبوا فيها مجزرة ذهب ضحيّتها المئات من النساء والأطفال، ثمّ أحرقوا من تبقّى، ونصبوا رشّاشات آليّة على البوابات، وأضرموا النار في عدد كبير من المنازل المتهالكة هناك.

اندفع فيصل لإنقاذهم برفقة مقاتليه العرب على ظهور الجمال، ولكنّه تمكّن من الهجوم على آخر فلول الأتراك المتراجعين فقط. على إثر تلك الحادثة، ارتفعت أصوات العرب الصاخبة مطالبةً بالهجوم على الحصن العظيم الذي بات من دون أسوار، وعندما حاول ثنيهم عن ذلك، اندفعوا إلى الأمام من دونه. ولكنّ الأتراك لديهم ترسانة معتبرة من الأسلحة والعتاد الحربي هناك، ولم يكن العرب قد خبروا نيران المدفعية من قبل. انحرف الرتل المهاجم باحثاً عن ملجأ خلف الصخور البركانية المكسّرة على سفح إحدى الهضاب المنخفضة خارج الجهة الشمالية الشرقية للمدينة. اكتشف الأتراك نقطة ضعفهم، وأرسلوا قوة للالتفاف عليهم وتدميرهم. شاهد فيصل، الذي كان وبقية رفاقه العرب على مسافة ميل عن خاصرة القوات المحاصرة، الخطر الذي يحدق برفاقه واندفع لنجدتهم. فتح الأتراك النار من جميع مدافعهم المنصوبة على سور المدينة، وغطّوا الأرض بالشظايا المتفجرة. وعلى وقع الخسائر الأولية، ترنّحت القوات العربية ثمّ التجأت إلى الحدائق. ركب فيصل حصانه وانطلق إلى خط القوات الأمامي، وطلب منهم اللّحاق به. لكنّ زعيمهم رفض ذلك قائلاً إنّ محاولة اجتياز الأرض السهلية تعني الموت المحتّم. ضحك فيصل والتفّ بحصانه مرغماً إيّاه على السير عبر نيران الأتراك وصولاً إلى الجهة المقابلة من الحدائق. ثمّ لوّح بيده للرجال المجتمعين خلفه، فاندفعوا على

ظهور خيولهم بصورة هائجة تلبيةً لندائه، وقد أدّى هذا التدافع إلى خسارة ما يقارب عشرين رجلاً فقط.

اشتبكت القوات المشتركة الآن مع القوات التركية المهاجمة، وخاضت معركة مكلفة استمرّت حتى مغيب الشمس، وعندئذ وجد فيصل نفسه من دون ذخيرة تقريباً، ومن دون أيّ دعم احتياطي بالرجال أو الطعام أو السلاح من أجل الغد. ولهذا، كان عليه تغيير جميع خططه والتخلي عن الأمل في تحقيق نصر سريع في الشمال، وأن يحاول عوضاً عن ذلك أن يحافظ على جيشه المحبط متماسكاً إلى أن يتمكّن من الحصول على الإمدادات من الشاطئ، حيث أُعطي وعداً بأن تكون مدينة رابغ، التي تقع في منتصف الطريق إلى مكة المكرمة، قاعدةً له. بعد ذلك، لم يطرأ على الحصار المفروض على المدينة المنورة أيّ تغيير يُذكر، وما زالت المدينة صامدة في وجه الحصار، ومن المحتمل أن تستمر كذلك لوقت طويل بعد أن عمّ السلام بقية العالم. لقد تمّ عزلها عن تركيا لوقت طويل، ولكن هذا حال الحاميات التركية في عسير واليمن أيضاً. إنها مدينة مقدّسة، ولهذا لم يُطلق العرب، ولن يُطلقوا، طلقةً واحدةً عليها (هذه ظروفٌ مثالية لجيش محاصر). لقد هجّر الأتراك جميع المدنيّين دون استثناء، وشتتوهم في مختلف أصقاع الإمبراطورية العثمانية، دون أيّ ثبوتيّات أو وسائل أو أمل في العودة. لقد وجدنا لاجئين من المدينة المنورة في القدس والكرك ودمشق. بعضهم في مدينة قونية، وبعضهم في أنقرة، وآخرون في القسطنطينية نفسها. القاسم الوحيد بينهم اليوم هو الفقر المدقع. لقد سقطت حدائق مدينتهم في أيدي الحامية التركية تماماً كما وقعت الجواهر والقرابين الرائعة الموجودة في ضريح النبي محمّد في أيدي الحكومة التركية. كان الجنود يمضون يومهم في أعمال الزراعة، وعند حلول اللّيل، يبحثون عن المأوى خلف أسوار المدينة.

التكتيك العربي

مع ذلك، لم تكن البدايات الأولى للثورة العربية سهلةً أو مثاليةً. كان الجيش المرابط في المدينة المنورة بالقوّة نفسها التي يتمتّع بها رجال القبائل العربية خارجها، وكان مجهّزاً بالمدافع والرّشاشات والطائرات أيضاً. فبعد تجميعهم وسائل النقل أو استقدامها من سوريا عن طريق سكة الحديد التي تمّ إصلاحها في تلك الأثناء، دفعوا بقواتهم إلى عمق الميدان أكثر فأكثر، وبات تقدّمهم يشكّل خطراً داهماً على رابغ التي تُعتبر مفتاح مكة المكرمة من الناحية العسكرية، بعد استيلائهم على آبار المياه الوحيدة التي تسقي المناطق الريفية هناك. رمى فيصل بنفسه في شبكة معقّدة من التلال المشكّلة من الحجارة الرملية التي تشرف على خاصرة القوات التركية المتقدمة. وفي الوقت الذي كان فيه شقيقه عليّ يحاول تشكيل نواة لجيش نظامي في رابغ، ليضيف إلى رجال القبائل لمسة تقنيّة من شأنها وحدها أن تمكّنهم من مجابهة

الأتراك على أكمل وجه في الميدان، أخذ فيصل على عاتقه، معتمداً على مجموعات صغيرة من البدو الشّرسين الذين يمتطون ظهور الجمال، أن يجعل أيّ تقدّم جدّي للأتراك مستحيلاً، عن طريق الإغارة على طرق مواصلاتهم. كان هذا عملاً خطيراً لأن المجموعات العربية، نتيجةً لصعوبة التزوّد بالمياه، لم تكن تتجاوز خمسة عشر رجلاً في عديدها، وينبغي لهذه المجموعات أن تندفع بسرعة على الطريق الرئيسي، وأن يقتلوا ويحملوا ما يستطيعون حمله من غنائم، ثمّ يستعيدوا جمالهم ويهربون قبل أن تكتشف أمرهم حامية الحصن. اختير الرجال الذين بإمكانهم امتطاء الجمال أثناء العَدْو بيد واحدة فقط، فيما يحملون البندقية بالثانية، لأداء هذه المهمة.

لقد تبيّن أن أفضل ما استطاع العرب تقديمه في الدفاع لم يكن كافياً، وارتأى فيصل أنه في حال أراد العرب منع الأتراك من استعادة مكة المكرمة والقضاء على الحراك العربي في بدايته لا بدّ لهم من تغيير الخطة. بعد مشاورات مع سلطات البحرية البريطانية المتمركزة في البحر الأحمر، قرّر فيصل أنه، في حال حصوله على دعم البحرية البريطانية المطلق، سيخاطر بترك طريق مكة المكرمة دون أيّ حماية، وسيتحرّك بالقوات كلّها باتّجاه ينبع لمهاجمة مدينة الوجه التي تبعد مئتي ميل نحو الشمال على امتداد شاطئ الحجاز. لقد حاجج أنّه في حال بادر إلى الهجوم على طرق مواصلات الأتراك مع سوريا بصراحة – بما أنّ الوجه تشكّل جزءاً حيوياً من سكة حديد الحجاز، التي تعدّ شريان الحياة للقوات التركية في الجزيرة العربية – سيجبرهم على تحويل قسم معتبر من قواتهم لأغراض دفاعية صرفة. من المحتمل أن تخدعهم ثقته الجليّة وغير المدروسة بالقوة التي يمتلكها في مكة المكرمة فيثنيهم عن زحفهم عليها. استدعى فيصل شقيقه الأصغر زيد ليحلّ مكانه، تاركاً له الرجال الذين يعتقد بأنهم ليسوا جديرين بالذهاب معه، على أمل أن يتمكّن زيد من تشكيل ما يشبه المقاومة في التلال. وطلب من شقيقه عبد الله، الذي كان يحاصر المدينة المنورة من الجهة الشرقية، أن يجتاز السكة شمال المدينة المنورة ويعطي الانطباع بأنه يهدّد طرق المواصلات التركية مباشرة. في الواقع، لم يكن لدى عبد الله القوة الكافية لأيّ عمل خطير، لكنّه قام ببداية طيبة عندما دمّر بعض الوحدات التركية الجوالة، تاركاً بين قضبان السكة رسالةً لقائد القوّات التركية في المدينة المنورة يخبره فيها مجمل ما ينوي فعله، وأكثر من ذلك بكثير.

التفاف على الخاصرة

كانت عملية فيصل تتمثّل في تقدّم لمئتي ميل من جهة الخاصرة بموازاة الجبهة التركية تنفذها قوة مقاتلة ثانوية، مخلّفةً خلفها قاعدة مفتوحة وخط الدفاع الوحيد المحتمل لمنطقة الحجاز الوسطى دون أيّ دفاعات. وقبل مغادرته المكان، حمّل فيصل جميع أسلحته ومؤنه في ينبع على متن السفن

التي وضعها تحت تصرّفه كبير ضباط البحرية البريطانية في البحر الأحمر. قسّم فيصل قواته التي يبلغ قوامها عشرة آلاف إلى تسعة أقسام، على أن يتقدّم كلّ منها على حدة باتّجاه أملج، وهي قرية صغيرة في منتصف الطريق الساحلي، وأمرهم بالتجمّع هناك في الرابع عشر من كانون الثاني/ يناير 1917. في أملج، وزّع فيصل المؤن الطازجة (حصل عليها من السفن، كما هو مُتّفق عليه)، وأرسل على متنها مجموعة إنزال لاستخدامها في الهجوم الحقيقي على الوجه بالتّنسيق مع البحرية. كان عليه التفكير ملياً في التّقدم مئة وخمسين ميلاً، في غياب أيّ نبع للمياه ووجود بضع آبار ضحلة غير كافية لجيش يُعدّ بمقاييس الصحراء ضخماً على نحو استثنائي. وممّا زاد الطين بِلّة فقدان كمية كافية من الكلأ للجمال، أو عدد كافٍ من المطايا لحمل الأمتعة، الشيء الذي جعل إمكانية حمل الأعلاف أمراً مستحيلاً. إضافة إلى ذلك لم يكن لدى البدويّ الذي يرشدنا إلى الطّريق إدراك لتقسيمات الزمن الصغيرة، كمفهوم الساعة مثلاً، ليخبرنا عن المسافة، ولم يكن لديه وحدة قياس مسافة أكبر من باع. كما لم يكن في استطاعتهم استيعاب أيّ رقم يزيد عن عشرة ولا أن يخبرونا عن الطرقات أو الآبار أو سعتها. وبما أنه لا يوجد من يستطيع القراءة أو الكتابة في صفوف المقاتلين البدو، كانت إمكانية التواصل بينهم صعبة للغاية. على أيّ حال، في نهاية المطاف، تمكّنا من العبور في 25 كانون الثاني/ يناير دون خسارة أيّ من الرجال بسبب الجوع أو العطش. لقد خسرنا العديد من الجمال لكن البغال نجت جميعها، والفضل في ذلك يعود إلى سفينة هندية تابعة للبحرية الملكية كانت قد رست في خليج غير مُدرج على الخرائط وزوّدتهم بالماء في منتصف مسير يمتدّ 75 ميلاً في الأراضي الجافة.

تمت تسوية قضية الوجه فعلياً على يد البحرية ومجموعة الإنزال قبل وصول الجيش الأساسي. وصل فيصل في الوقت المناسب ليقطع الطريق على بعض عناصر الحامية الفارّين ويستولي على مخزون أسلحتهم ومعدّاتهم كله. أمّا القوة البحرية، فاضت معركة حامية الوطيس، ولكن في نهاية المطاف تمكّنت من إنجاز مهمّتها دون أيّ خسائر لا مبرّر لها نتيجة استخدامها الحرّ للاتصالات البحرية من أجل تطويق المواقع التركية، إضافةً إلى الدعم القوي الذي أمّنته مدافع السفينة لمختلف مجموعات الإنزال. تمترس الأتراك في المدينة، وخاضوا المعارك من شارع إلى شارع، فيما طهّر العرب المنازل من الأتراك والممتلكات التي يمكن نقلها على حد سواء. تم الاستيلاء على المكان برمّته في ظرف 36 ساعة، واختتمت البحرية مهمّتها بنقل مجموعات إنزال أخرى من العرب إلى ضباء والمويلح في 8 و9 شباط/ فبراير، وبذلك تمّ تطهير الجهة الشمالية لساحل البحر الأحمر برمّتها من الأعداء.

سيقدّم الجانب المتعلّق بالعمليات البحرية للأشراف، عندما يحين الوقت للحديث عنه، مثالاً شائقاً على أهمية السيطرة على البحر كعامل مؤثّر في العمليات على الشاطئ في مواجهة عدو يعتمد أساساً على المواصلات البرية

من أجل بقائه. إن امتلاك هذه الميزة قد مكّنت قوة صغيرة غير نظامية من رجال القبائل المتنافرين الذين يفتقرون التجهيزات اللائقة من إلحاق الهزيمة بقوة تركية مساوية لهم من ناحية العديد تقريباً، ومسلّحة ومزوّدة بأفضل ما يمتلكه الأتراك من معدّات، وقوامها جزء من محاربي الدردنيل القدامى وجزء آخر من وحدات الخط الأمامي المتبقّية من الجيش التركي القديم التي نجت من المجزرة، ويقودها اثنان من أكفأ جنرالاتهم. من حسن حظ الشريف أنّه كان يتعامل مع الأدميرال ويميس Wemyss والضباط القادة الآخرين الذين قاسوا الأمرّين لفهم ظروف الساحل الصعبة، وكما كنّا نشير دائماً، الوسيلة المثلى لتأمين التواصل مع سفنهم.

2. الملحمة العربية (1)

27 تشرين الثاني/ نوفمبر

الملحمة العربية

معارك فيصل في الصحراء

على أعتاب سوريا

في ما يأتي نصّ المقالة الثانية الواردة من مراسل رافق الجيش العربي التابع لشريف مكة المبجّل، بقيادة نجله الشريف فيصل، خلال الحملة ضد الأتراك. صدرت المقالة الأولى في The Times في عددها الصادر أمس:

بعد الاستيلاء على الوجه، كان لا بدّ للعمليات العربية أن تدخل مرحلة جديدة. مباشرةً تراجع الأتراك الذين كانوا يتقدّمون باتّجاه مكة المكرمة نحو المدينة المنورة، وبدؤوا الدفاع عن سكة حجيجهم بجدّية. هذا ما منح الشريف العربي فيصل الوقت والفراغ اللذين كان يحتاجهما بشدّة لبناء جيشه النظامي. ومن نافلة القول، ليست الجزيرة العربية المكان الأمثل للتجنيد. فالبدويّ بطبعه عدوّ للانضباط، وغير ملائم للخدمة النظامية، رغم أنّه قادر على مواجهة أضعاف عدده من الأعداء على أرضه والقضاء عليهم بأسلوبه الخاص إن أراد. كان جيش فيصل النظامي يتألّف من الفلاحين الذين قدموا من سوريا وبلاد الرافدين. وكان جزء منهم قد قدِموا إليه من مناطقهم سرّاً. وكثير منهم من الفارّين من الجيش التركي، إذ إنّ الأتراك كانوا قد ساقوا 150 ألفاً من الرعايا المتحدثين بالعربية إلى صفوف جيشهم عندما اندلعت الحرب. وعندما أطلق

الشريف ثورته، أدرك هؤلاء الرجال بأنّ يوم الحساب مع أسيادهم قد بات قريباً.

إضافة إلى عمله الرّامي إلى تشكيل جيش نظامي في الوجه، عمل فيصل ليل نهار لتأمين قوّة الصحراء لنفسه، لتحلّ مكان القوة البحرية البريطانية التي لا يمكنها مساعدته، من الآن فصاعداً، إلّا على نحو غير مباشر. ولقد نجح في ذلك، إذ ظفر بوسيلة التواصل وبطرق المواصلات لجميع المشاريع التي تمنّاها تُجاه حرمة الأراضي المزروعة في كلّ من سوريا وفلسطين، تماماً كما هي حال البحر بالنسبة إلى بريطانيا. استغرق منه الأمر أشهراً حتّى تمكّن من الحصول على مباركة القبائل جميعها، ناهيك عن الكياسة والديبلوماسية التي تكفي لسنوات طوال في الأحوال العاديّة. لكنّ ما حقّقه في الواقع لم يكن يرقى إلى درجة التميّز. فمنذ الأزل، كانت الصحراء كتلة مضطربة ومتغيّرة من حالات الأخذ بالثأر والأحقاد القبلية. واليوم، لا يوجد أيّ حالات أخذ بالثأر بين القبائل العربية الممتدة بين دمشق ومكة المكرمة. ولأول مرة في تاريخ الجزيرة العربية منذ القرن السابع، يسود السلام على طول طريق الحجيج بأكمله.

وبينما كان يعمل على تشكيل جيشه وتطوير سياسته، استمرّ فيصل في مشاغلة الأتراك عن طريق الإغارة على سكة الحديد بصورة متكرّرة. فقطع السكة في عشرات النقاط، وفي كلّ مرة، كان ينزل بهم ما في وسعه من أذيّة. لكنّ تصميم سكة الحجاز بدائي إذ لا يوجد جسور عظيمة أو بنى متطوّرة يمكن تدميرها بهدف قطع السكة لمدة محترمة. ولذلك عليه تنفيذ هذه الأعمال بصورة متكرّرة، وكم كانت مفجعة هذه الأعمال.

شيخ مقاتل

على أيّ حال، مع بداية أيار/ مايو، كُلّلت دعاية فيصل في الشمال بالنجاح بانضمام الشيخ عودة أبو تايه إليه، وهو أبرز شخصية في قبيلة الحويطات وأفضل مقاتل في الصحراء. ومع أنّه قد تجاوز الخمسين الآن، لا يزال طويلاً ومنتصب القامة ونشيطاً كالشبان. كان يتباهى بنفسه على أنّه يمثّل جوهر كلّ شيء عربي. إنّه تجسيد حيّ لكرم الضيافة، وفي غالبية الأحايين كان كرمه المفرط مدمراً، فقد أدى به إلى شفير الفقر مرات عدّة واستنزف ما غنمه من مئة غزوة موفقة. لقد تزوج ثمانياً وعشرين مرّة، وأُصيب في المعارك ثلاث عشرة مرّة، وشاهد جميع أفراد قبيلته يتلقون الإصابات ومعظم أقاربه يُقتلون في المعارك التي خاضها. وينسب أبو تايه نجاته من الإصابات التي تلقّاها في المعارك خلال السنوات الثمان المنصرمة إلى تميمةٍ (يعدّها الأندر والأثمن في العالم)، وهي نسخة كاملة على شكل صورة مصغّرة من **القرآن** صنعتها شركة اسكتلندية. وتبلغ حصيلة من قتلهم في معاركه المنفردة 75 رجلاً منذ 1900، وليكن معلوماً أنّهم من العرب كلّهم، إذ إنّ الأتراك لم يدخلوا بعد

في سجلّ قتلاه. فتحت لوائه، بات رجال الحويطات أفضل المقاتلين في الصحراء، إذ طاولت غاراته حلب والبصرة ومكة المكرمة. كان عنيداً وسريع الغضب على حد سواء، كما أنّه صبور إلى أبعد الحدود ويتجاهل النصيحة والشتيمة بابتسامة ساحرة. كان يستفيض بالكلام عن نفسه بصوت يشبه صوت شلال مياه، مستخدماً ضمير الغائب. وكان يتفاخر برواية الحكايات التي تنال منه، أو سرد قصص خياليّة، بل مثيرة، عن الحياة الخاصة لمضيفه أو ضيوفه على الملأ.

قدم الشيخ عودة إلى الوجه وأقسم على **القرآن** الولاء للشريف في هذه التوليفة العربية الخلابة، ثمّ جلس يتناول العشاء مع الشريف فيصل. في منتصف الوجبة، نهض واقفاً وقدّم اعتذاره وانسحب خارج الخيمة. سمعنا أصوات طرق في الخارج، وشاهدنا الشيخ عودة يدقّ شيئاً بين حجرين كبيرين. وعندما عاد إلى الخيمة مجدّداً، طلب من الشريف أن يغفر له قيامه من دون قصد بتناول طعامه بأسنانه التركية، ثمّ عرض بقايا طقم أسنانه الدمشقي الفاخر المحطّم في راحة يده. ومن سوء حظّه، كان لا يكاد يتناول الطعام بعدها، وتأسّف على ذلك إلى حين إرسال المندوب السامي طبيب أسنان مصرياً لتركيب طقم أسنان جديد له.

في 9 أيار/ مايو، أرسل فيصل من الوجه حملة صغيرة من الهجّانة بقيادة الشريف ناصر للاستيلاء على العقبة التي تبعد ثلاثمئة ميل نحو الشمال. تقدّمت الحملة عبر تلال الحجاز، وهناك تمكّنوا من إيجاد بعض المؤيدين لهم أثناء عبورهم حقلاً رهيباً من الحمم البركانية التي أنهكت جمالهم، ثمّ ساروا فوق سكة حديد الحجاز في خضمّ سلسلة من انفجارات الديناميت وصولاً إلى صحراء الجزيرة العربية غير المطروقة، حيث جالوا هناك لأسابيع متحمّلين عذاب القيظ والجوع والظمأ، وفقدوا العديد من رجال فرقتهم، وهذا ما زاد إحباطهم. وعندما وصلوا إلى المياه أخيراً، فقدوا ثلاثة آخرين من رجالهم الأقلّاء بسبب لسعات الأفاعي، إذ إنّ وادي السّرحان يُعدّ سامّاً. على أيّ حال، وبعد جهد جهيد، وصلوا خيام قبيلة الحويطات، وقضوا هناك بضعة أيام صعبة نتيجةً لإلحاح الحويطات الشديد وكرم ضيافتهم المفرط. في هذه المرحلة، كانوا قد اجتازوا أربعمئة ميل وقد بدأ الطعام ينفد منهم. بقي جزء من الفرقة هنا من أجل حشد المتطوعين، فيما انطلق الجزء المتبقي شمالاً وغرباً لمضايقة الأتراك بتنفيذ هجمات مخادعة على سكة حديد سوريا، وتضليلهم عن الهدف الحقيقي. لقد دمّروا جسراً قرب حمص، وآخر قرب درعا، إضافةً إلى نسف قطار قرب عمّان.

هزيمة نكراء

ظنّ الأتراك أنّ عليهم الوجود في وادي السّرحان، وحشدوا ما يتوفّر من خيالة في محيط حوران وأرسلوا في أعقابهم إلى الصحراء كلّ ما يمكنه الحركة.

فتحرّك ناصر فوراً، جنوباً وغرباً، واستولى على محطّتين قرب مدينة القطرانة. نسف الأتراك آبار الماء في الصحراء (كان ناصر قد تعلّم الآن أن يتدبّر أمره بكمية قليلة من الماء) وعزّزوا القطّاع المهدّد في معان. بطبيعة الحال هذا هو القطاع الذي أراده العرب بشدة دوماً. وبعد يوم واحد، دمرت فرقة من الحويطات في 30 حزيران/ يونيو المخفر التركي الأول على الطريق السريع الذي يصل بين معان والعقبة، بعدما كان الأتراك قد كسبوا الجولة الأولى وذبحوا ثلاث عشرة امرأةً وطفلاً. وصلت أخبار الهجوم إلى معان، وعلى إثرها، تجهّزت بقية الحامية هناك لإخلاء الموقع. في ذاك اليوم، استولى ناصر على محطة القطار قرب معان ونسف عدة جسور، ثمّ رمى بنفسه بين معان ورتل الإغاثة التركي الذي وصل إلى وجهته ليجد الأرض تعجّ بأسراب العقبان المتزاحمة المنهمكة بالجيف.

طوال الثاني من تموز/ يوليو، حارب ناصر الأتراك في جوّ حارّ يجعل من مجرّد التحرّك عذاباً. سفعت حرارة الأرض الملتهبة الجلد عن أذرع قنّاصينا، وعرجت الجمال والرجال تحت لظى حجارة الصّوان الملتهبة. دُفع بالأتراك إلى وادٍ سهل الانحدار يوجد في قعره ينبوع ماء. كان العرب يعانون من قلّة الماء. وكانوا مسلّحين بالبنادق، فيما كان الأتراك مسلّحين بمدافع جبلية مكّنتهم من متابعة القتال حتّى المساء. وعند الغسق، جمّع الشيخ عودة خيالتنا الخمسين في وادٍ متعرّج، يبعد نحو ثلاثمئة ياردة عن الأتراك، ثمّ شنّ عليهم هجوماً مفاجئاً من الأعلى وهو يطلق عليهم النار عن صهوة حصانه. انهار الأتراك مذعورين كعادتهم في كلّ مرّة، وبعد جولة واحدة عنيفة من نيران البنادق تشتّتوا في جميع الاتجاهات، فيما اندفعت بقيّة القوة العربية باتّجاه سفوح التلال نحو غور الوادي بسرعة جمالهم القصوى. في غضون خمس دقائق، تحوّل المشهد إلى مجزرة. تمكّن بعض الأتراك من الهرب تحت جنح الظلام، لكنّ العرب أسروا وقتلوا أعداداً تفوق عدد رجالهم.

العقبة في قبضة العرب

كان لا يزال هناك أربع حاميات تركية تفصل الشريف ناصر عن البحر. تم اجتياح الحامية الأقرب في غضون نصف ساعة. أمّا الحامية ما قبل الأخيرة، فاستسلمت دون طلقة واحدة. الثالثة كانت محصّنة جيداً، لكنّ القائد العربي أعلن أن ساعة من الظلمة المفاجئة بعد ثلاث ليالٍ من الآن ستمكّننا من اقتحامها دون خسائر نظراً إلى أن الوقت ملائم لخسوف القمر في تلك الليلة. محصّنين بمثل هذا الدليل الواضح عن التحالف الخفي كثّف العرب الضغط باتّجاه الطريق العظيمة التي كان الأتراك قد جهّزوها لغزو مصر. هكذا تراجع المخفر الرابع حتّى قبل أن نقترب من الموقع الرئيسي في العقبة، وهناك تجمّع رجال قبيلة الحويطات حولهم كالدبابير وقنصوا أيّ تركي يُظهر رأسه أو جسده لهم، قاطعين عليهم جميع المنافذ. لقد كانوا على مسافة ستة أميال

عن الساحل عند مصبّ نهر هائل، وكانوا يعلمون، ونحن أيضاَ، أنه منيع على الهجمات البحرية، لكنّهم لم يكونوا يعلمون أنه عرضة لقوة ستأخذهم على حين غرّة من الجهة الشرقية، كما فعلنا. وعندما خرج ناصر إليهم، حاول أن يدفعهم إلى التفاوض، لكنّ العرب المحليين رفضوا الفكرة بشراسة. "لقد مزّقوا رجالنا إلى أربعة أجزاء عن طريق شدّهم بالبغال، فلماذا علينا الإبقاء على حياتهم؟"... لكنّ الشريف استعاد السيطرة على رجاله بعد يوم كامل من العمل الدؤوب. بعدئذٍ، تقدّم برفقة مرافق واحد فقط إلى المنطقة المكشوفة التي تفصل العرب عن الأتراك، حيث يتوجب على رجاله خفض أسلحتهم بحكم الضرورة، وأرسل أسيراً يحمل راية بيضاء ليبلغ الأتراك بأنّ كلّ شيء قد انتهى. ومن حسن الحظ، وافق القائد التركي، واندفع العرب عبر معسكره مسرعين إلى العقبة تملأ الفرحة قلوبهم.

كان وضعنا مزرياً عندما وصلنا العقبة للمرة الأولى. لدينا المئات من الأسرى، ولم نمتلك أيّ طعام. لقد أطعمناهم جمالنا التي كنّا نمتطيها (كنّا ننحر اثنين منها يومياً)، واصطدنا السّمك، وحاولنا طهي التمور الخضراء. لقد استمرّ ذلك حتى تمكّن الرسل الذين أرسلناهم على عجل عبر صحراء سيناء إلى مصر من إرسال المساعدات والطعام عبر البحر. ولسوء الحظ، كانت الجمال في هذه المرحلة قد قطعت ألف ميل في خمسة أسابيع، وجميعها منهكة، ولذلك استغرقت الرحلة من الرجال يومين كاملين للوصول إلى السويس، وهناك أصدر الأدميرال ويميس فوراً أمراً لبارجة حربية بالتوجّه إلى العقبة بالسرعة القصوى، على أن يتمّ تحميلها بكلّ ما يمكن إيجاده من طعام على الرصيف البحري. لا يزال الرجال في الصحراء يتذكّرون تلك البارجة بامتنان عظيم، لأنّها أنقذت ألفي عربي وألف تركي من الموت جوعاً.

طريق الصحراء

وصل فيصل العقبة في آب/ أغسطس، ومرّة أخرى كان لا بدّ من تغيير تكتيك الحراك العربي ولونه. لقد ولت أيّام الاستهتار التي كان لكلّ رجل فيها ناقة وكيس من الطحين وبندقية. لا بدّ للقوات أن تنتظم وتصير على قدر من المسؤولية. فلم يعد في إمكان فيصل أن يرمي بنفسه وسط معمعان المعارك غير المضمونة، وأن يقلب النتائج لمصلحتنا بقيادته الساحرة ورماياته الغريزية الخاطفة. ولم يعد في مقدور الأشراف، بأثوابهم البرّاقة، الاندفاع على ظهور جمالهم بحماسة في مقدمة الرجال والعودة والغنائم تملأ أيديهم. كان لا بدّ أيضاً من التضحية بحرّاسنا الشخصيين من العرب، وهم هجّانة من وسط الجزيرة العربية يرتدون أثواباً زاهية بألوان قوس قزح لا تختلف كثيراً عن سروج جمالهم المزركشة. في هذه الأثناء، كان جيش الأشراف يقف على أعتاب سوريا، وعملهم من الآن فصاعداً مع رجال المدن والقرويين، وهم أناس رائعون، لكنّهم ليسوا خيار الناس المفضّل كما حال عرب الصحراء.

كانت الصحراء ملعب فيصل؛ لقد صنع المعجزة وأحلّ السلام في الصحراء. لكنّها كانت مجرّد طريق نسلكه، أو وسيلة نعبر من خلالها إلى الأراضي المزروعة التي رغبنا دوماً في زراعتها أو الاستيلاء عليها. فأحد المفاعيل الواقعية الأخرى لذلك هو حقيقة أنّنا أصبحنا نشكّل جزءاً من جيش الجنرال ألّنبي. كانت العقبة تقع إلى أقصى يمينه، والجيش العربي يشكّل ميمنة جيشه. كانت مخطّطاتنا تشكّل جزءاً من مخطّطاته فقط، بعدما كانت سابقاً مغامرات سارة خاصة بنا. غضّ الجيش العربي النظر عن العناصر غير التقليدية الموجودة في صفوفه، بفعل ما في وسعه لتنفيذ رغبات القائد العام والإسهام في تنفيذ خططه قدر المستطاع. وفي المقابل، قدّم إليه اللوازم والنصيحة والمستشارين وما يحتاجه من عون، ومكّن فيصل من تحويل ما كان مجموعة من البدو إلى قوة صغيرة لكنّها مجهّزة جيداً حقاً بصنوف الأسلحة كلّها.

3. الملحمة العربية (2)

28 تشرين الثاني/ نوفمبر 1918

الملحمة العربية

نهاية سلطة الأتراك في سوريا

تدمير سكة حديد الحجاز

اليوم، يختتم المراسل الذي رافق جيش شريف مكة المبجّل خلال حملته ضد الأتراك تقريره عن الحملة. لا يتحدث المراسل عن هجوم العرب على معان في نيسان/ أبريل 1918، نظراً إلى ورود ذلك في مراسلة الجنرال ألّنبي الأخيرة، ولا عن التقدّم الأخير للعرب باتّجاه دمشق الذي تمّ وصفه في The Times في عددها الصادر بتاريخ 17 تشرين الأول/ أكتوبر. تم نشر المقالتين الأخيرتين من هذه السلسلة في 26 تشرين الثاني/ نوفمبر والبارحة.

تم اختبار الجيش العربي الجديد الذي يشكّل الآن ميمنة جيش الجنرال ألّنبي، قبل حلول تشرين الأول/ أكتوبر 1917، عندما صمد خمسمئة رجل منه، مزوّدين بمدفعين جبليين وأربعة مدافع رشّاشة، يتمركزون في نقطة معينة في المرتفعات المحيطة بالبتراء، "المدينة الوردية القديمة قدم التاريخ"، التي تشرف آثارها على التلال النبطية، في وجه أربع كتائب مشاة تركية وفرقة خيّالة ونصف فرقة مشاة راكبة، مسلّحين بستة مدافع جبلية وأربعة مدافع ميدان وسريّتي رشّاشات. هاجم الأتراك بثلاثة أرتال، وأجبروا العرب في إحدى

النقاط على التراجع واستولوا على إحدى المدافع الجبلية، لكنّهم أجبروا على التقهقر والفرار عبر الأراضي السهلية المنبسطة بعد تعرّضهم لهجوم مضاد من القوة العربية. فتكبّد العرب خسائر فادحة، لكنّهم استعادوا مدفعهم.

بعدئذٍ، انكفأ الجيش العربي النظامي من قمم الهضاب نتيجة للثلوج الغزيرة التي هطلت بين 1917–1918. اضطّر الأتراك إلى الانكفاء إلى المناطق القريبة من سكة الحديد أيضاً، واقتصر الأمر على قتال البدو فقط، إلى أن حلّ الربيع، عندما هجم الجيش العربي الأساسي على معان، بين 13 نيسان/ أبريل و17 نيسان/ أبريل، المهمة التي أُنيطت بهم خلال الهجوم البريطاني على عمّان. تم الحديث عن هذا الجزء من العمليات بالتفصيل في مراسلة الجنرال ألِّنبي الأخيرة.

هجوم على ظهور الجمال

على أيّ حال، لم يكن الشتاء هادئاً بالنسبة إلينا، إذ إنّ فيصل قد حاول، مستعيناً بالقبائل المحلّية والقرويين، المشاركة في الزّحف البريطاني على البحر الميت ووادي الأردن. ومرة أخرى تزعّم الشريف ناصر مهمة تحقيق هذا الهدف الميؤوس منه. ومن جديد أيضاً، انضمّ إلينا عودة أبو تايه. كما انضمّ بعض قبيلة بني صخر من موآب. تحرّكت القوة في المنطقة الصحراوية شرق معان، بصعوبة لعض الوقت، وفجأة شنّت هجوماً في بداية كانون الثاني/ يناير على محطة القطار الثّالثة الواقعة شمال معان، التي يطلق عليها اسم جرف الدراويش. تشبّث الأتراك بمباني المحطة والرابية التي تحيط بها من الجهة العلويّة بشراسة؛ ولكن كان بحوزة ناصر مدفع جبلي تمكّن بواسطته من إعطاب المدفع التركي الأول، وبذلك، أثار حماسة البدو الذين امتطوا جمالهم وقاموا بتكرار هجوم الجمال الحماسيّ الذي كسبنا بفضله معركة العقبة. إنّ التأثير المباشر للرصاص في جملٍ يعدو بسرعة 25 ميلاً في الساعة يكاد يكون شبه معدوم، ولذلك كان العرب فوق خنادقهم وبين مباني المحطة قبل أن يتمكّن الأتراك من فعل أيّ شيء إطلاقاً. أمّا بالنسبة إلى النّاجين من جنود الحامية، ويبلغ عددهم قرابة المئتين، فاستسلموا دون قيد أو شرط.

تقدّم ناصر من جرف الدراويش باتّجاه الطفيلة وطلب منها الاستسلام. سخرت منّا الحامية التركية المؤلفة من مئة رجل، لكن الشيخ عودة انطلق عدواً على حصانه تحت نيران أسلحتهم نحو الطرف الشرقي من المدينة، حيث ينفتح السوق هناك على مكان أخضر صغير، ونادى بأعلى صوته الذي طغى على ضوضاء المعمعة على الحرّاس القرويين لتسليم الأتراك. لقد كان العالم العربي برمته يعرف الشيخ عودة. ورغم أنّهم يرونه صديقاً لا يطاق إطلاقاً، كانوا في الوقت نفسه يكنّون له المحبّة وينظرون إليه على أنّه قامة وطنية. لذلك، ومن دون أيّ تأخير، سلموا أنفسهم مع حاميتهم التركية.

يبلغ عدد سكان الطفيلة قرابة 6000، وكنا نأمل أن نقوم بأعمال عظيمة بمؤازرة من أهل هذه القرية. كبداية، انطلق خيالتنا في إحدى الليالي، بمساعدة من أبو رقيق وعرب بئر شيبة، نحو ضفة البحر الميت الشرقية من أقصى الناحية الجنوبية، شاقّين طريقهم عبر الممرات الجبلية بين التلال والبحيرة وفوق الدوريات التركية قبل أن يتمكّنوا من تحذير الآخرين، إلى أن اجتازوا عند الفجر عنقاً للنتوء البحريّ المسطّح المسمّى اللسن، ثمّ عبروا الأجمة برويّة إلى أن أصبحوا على مقربة من الميناء الصغير حيث يرسوا نصف أسطول البحر الميت التركي على الشاطئ هناك مربوطاً بالحبال. كانت أطقم السّفن تتناول طعام الإفطار على الشاطئ، فتمكّن العرب، بهجمة خاطفة من الخيّالة، من الاستيلاء على الأسطول التركي مع الأطقم، وإغراق السفن واصطحاب الضباط والبحارة معهم قبل أن تدرك الحامية المتمركزة فوق الجروف الصخرية وقوع تجاوزات يجري ارتكابها في الأسفل. بطبيعة الحال، كان "الأسطول" يتألّف من زوارق بخارية وقوارب صيد فقط لكن لا أمثلة عدة على قوات بحرية تم الاستيلاء عليها على يد الخيّالة، ولقد منحنا شعور القرف الذي بدا على الضابطين البحريين الحذقين اللذين أسرناهما إحساساً عظيماً بالراحة.

قتال في الطفيلة

في هذه الأثناء، تخوّف الأتراك في دمشق من خطورة التقدّم الذي أحرزه العرب، فأرسلوا القائد العام للقوات في قطاع عمّان مع وحدة مشتركة من المشاة وبعض الخيّالة إضافةً إلى مدفعي Howitzer لإخراجنا من الطفيلة. تقدّم القائد العام على نحو مدروس، فأقام شبكة اتّصالاته وشقّ طرقاته الخاصة وقد كان يصطحب معه هيئة مدينة الطفيلة المدنية الجديدة والمعدّات اللازمة لمكتب البريد هناك. كان احتكاكنا الأول معه في 24 كانون الثاني/ يناير 1918، وبدا لنا رجلاً قوياً بصورة مقلقة. في الواقع، كان قاب قوسين أو أدنى من طردنا خارج الطفيلة تلك الليلة. كان يمكن مشاهدة وميض البنادق التركية على قمّة ذلك الوادي الضّيق الرهيب الذي تقع فيه الطفيلة بكل وضوح، الأمر الذي تسبّب في هلع عظيم في أرجاء المدينة. صرخت النّساء جميعهن بسبب الذعر، ورمين أثاث المنازل والأطفال خارجاً إلى الطرقات التي اندفع فيها العرب على ركابهم وهم يطلقون النار بغزارة لكن بعشوائية. على أيّ حال، كنّا لا نزال صامدين في المكان عند الفجر وتمكّنا من إرسال بضعة رجال مزوّدين برشّاشين آليّين لمؤازرة القرويين. ومع أنّ ذلك أدّى إلى تحسّن الأوضاع، فإنه لم يكن كافياً، فاحتدم القتال مع إطلاق الأتراك نصيباً وافراً من القذائف ورشقات رهيبة من رشّاشاتهم السبعة والعشرين. دمّرت إحدى قذائفهم أحد رشّاشاتنا الآليّة، فيما نفدت ذخيرة الرشّاش الآخر. ولذلك، اخترنا التّراجع إلى

موقع آخر يقع على بعد قرابة ميلين خلف الجرف الصخري الذي كنا نتمركز فيه، وأرسلنا في طلب حشد ما استطعنا إليه من الرجال في الموقع الجديد.

ما إن بدأوا الظّهور، استدعينا القرويين الثلاثين (الرّاجلين) الذين كانوا يساعدوننا في الموقع المتقدّم، وتشبّثنا به خمس عشرة دقيقة أخرى فقط بواسطة ثلاثين خيّالاً من الحويطات. في تلك الأثناء، صار الوضع مستحيلاً في ظلّ غزارة النيران واستحالة الردّ من جانبنا، ولذلك امتطى الرجال صهوات خيولهم ثانيةً وانكفؤوا مسرعين إلى خط الاحتياط. وبُعيد بضع دقائق، احتلّ الأتراك الجرف الذي كنّا نتمركز خلفه، لكنّ دهشتهم كانت جليّة عندما شاهدوا حشداً من الرجال يتجوّلون على الخطّ الثاني أمامهم. في تلك اللحظة، كان لدينا ثلاثمئة رجل، وأنزلنا بهم جلّ ما نستطيع من الخسائر.

بعد ذلك بوقت وجيز، انضمّ إلينا الشريف زيد وأحضر معه مدفعاً جبلياً وأربعة رشّاشات آلية وسبع بنادق آليّة، وأحضر معه أيضاً ما يقارب مئتي رجل. أرسلنا الخيّالة العرب إلى الجهة اليسرى للالتفاف على خاصرتهم البعيدة، وقوة من القرويين مزوّدين ببضعة بنادق آلية للالتفاف على خاصرتهم اليمنى. في تلك الأثناء، ركزنا قوّاتنا في الوسط مع إطلاق النيران من مدفعنا الجبلي، ونفّذنا تكتيكاً مذهلاً إلى أن اتّخذت الفرق التي تقوم بعملية التطويق موقعها. بعدئذٍ، قمنا بشنّ هجوم باسل ومباشر عبر الفجوة الواقعة بين حافتي الوادي على وسط القوات التركية. وبما أنّ قوّتنا لم تكن توازي نصف قوّتهم، أدهشهم هجومنا إلى أبعد الحدود لدرجة أنّهم لم يتنبّهوا إلى قواتنا البعيدة إلى أن فتحت النار وقتلت رماة الرّشاشات الأتراك كلّهم. في اللحظة نفسها، اندفعنا (على صهوات الجياد وظهور الجمال بعشوائية) واستولينا على موقعهم الرئيسي ومدافعهم Maxim الخمسة عشر قبل المغرب. كان القرويون على بعد أميال يلتفّون حولنا، فالتقوا بالقوات التركية المنكسرة والمتقهقرة أمام رجالنا المتقدّمين الذين كان قد أنهكهم التّعب والجوع نتيجة خوضهم ثلاثين ساعة من المعارك. ولذلك، أعفانا الرجال المحلّيون من ملاحقة فلول الأتراك وحلّوا محلّنا بكل كفاءة، فلم ينجُ من الأتراك سوى ثمانين، وقد خسروا دوابهم وعرباتهم ومدافعهم ورشّاشاتهم كلّها.

شتاءٌ قاسٍ

ارتفعت معنويّاتنا إثر هذه الحادثة، وتوقّعنا أن نلتقي قريباً بالقوات البريطانية في أريحا. على أيّ حال، لم تجرِ الأمور جيّداً. ذلك يعود جزئياً إلى ردّ فعلنا بعدما بذلنا هذا الجهد العظيم، وجزئياً الحافز الذي قدّمناه إلى الأتراك، وجزئيّاً إلى الطقس المريع، إذ بمجرّد انتهاء كانون الثاني/ يناير، حلّ الشتاء كأنّه أزلي، وهطلت الأمطار الغزيرة على مدار أيام متواصلة، الأمر الذي جعل الأرض المنبسطة أشبه بمنحدر طيني شاسع ليس في مقدور إنسان أو حتّى جمل تجاوزه. عندما انتهى ذلك، هطلت الثلوج، ثمّ الثلوج، ثمّ الثلوج. ويبلغ ارتفاع

الهضاب المحيطة بالطفيلة خمسة آلاف قدم، وهي مفتوحة على مصراعيها للرياح من جهة الشرق، وهذا ما جعل الوضع مستحيلاً بسرعة. بقيت الثلوج متراكمة على الأرض طوال ثلاثة أسابيع. وفي حال كانت الجمال قوية وسليمة، سوف تتمكّن من المسير ليوم واحد أو يومين على طبقة ثلجية بسماكة ست بوصات، ولكن توجد في فجوة الوادي انجرافات ثلجية بعمق ياردة، وفي مثل هذه الحالة، على رجالنا التعيسي الحظّ التّرجل وشقّ طريقهم بأيديهم العارية. لم يسبق للبدو البقاء في هذه التلال خلال الشتاء، ولقد هجروها تدريجياً هذا العام أيضاً. وقد زاد شقاء الرجال رؤيتهم الأرض المنبسطة لغور البحر الميت، في وادي عربة، تغمره أشعة الشمس، ومعرفتهم بأن هناك في الأسفل عشباً طويلاً مكسوّاً بالزهور، وحليباً طازجاً، ناهيك عن الراحة التي يمنحها الربيع لأهل الصحراء. إنّ العرب لا يرتدون إلّا قميصاً قطنياً وعباءةً من الصوف في الصيف والشتاء، وهم غير مؤهّلين للتأقلم مع هكذا طقس. لقد قضى عددٌ كبيرٌ منهم من البرد.

في إحدى المرّات، وقعت حادثة غريبة عندما خرجت فرقة مؤلفة من 150 عربياً للإغارة على سكة الحديد قرب معان. لقد زحفوا من العقبة، بحرّها اللاذع، ستين ميلاً، ثمّ توقفوا لقضاء الليل. صباح اليوم اللاحق، تسلّقوا الجرف الصخري الذي بدا، كما قالوا، كزنجي يعتمر قلنسوة بيضاء على جمجمته، وساروا عبر نُدف الثلج إلى أن حلّ الظلام، وكانت ليلة عاصفة كادت تتحوّل إلى عاصفة ثلجية في بعض الأحايين. بعدئذٍ، عسكروا في مجرى مائي بعمق ثلاثة أقدام، وجمعوا جمالهم قرب جدار الوادي بغية حمايتها من الرياح العاتية. أمّا هم، فاستلقوا على الجانب الآخر من الوادي وغطّوا في النوم. كانت تلك ليلة مريرة ولم يكن لدى أيّ منهم ما يكفي من النشاط للنهوض وتفقّد المكان، إذ إنّ الثّلوج كانت تتساقط برفق وجميعهم يرتعشون من البرد طوال الوقت. على أيّ حال، عند الفجر، وجدوا أنّ حافة الوادي، حيث الجمال، قد تحولت إلى كتلة ثلجية ملساء تبرز منها سروج وأسْنِمة مطاياهم، كالجزر المظلمة. شرعوا في الحفر مستخدمين الملاعق الكبيرة التي يحمّصون البنّ فيها، وأخرجوا العديد منها، لكنّها كانت ميتة جميعها باستثناء ثلاثة! كان الأمر المضحك أن نسير إلى ديارنا حفاة الأقدام مسافة أميال طويلة مثقلين بأمتعتنا كلّها، فيما باتت المساعي المحلية للتعامل مع العاصفة الثلجية واقعية أكثر فأكثر. في حادثة أخرى، أرسل الشريف فيصل فرقة تتألّف من أربعة وثلاثين من الهجّانة لإيصال المال إلى شقيقه في الطفيلة التي تبعد ثمانين ميلاً عنهم. وبعد أربعة أيام، تمكّن رجل واحد فقط من فرقة الهجّانة من الوصول بعد جهدٍ جهيد. على إثرها، تخلّينا جميعاً عن فكرة التجوال في تلال إدوم أو موآب في الشتاء.

خلال أشهر طويلة، وفي كلّ مرة كنّا نبقى فيها دون تنفيذ عملية، كان أحدهم على الجبهة العربية (تمتدّ على مسافة أربعمئة ميل، ويتمركز فيها قرابة أربعين ألف عربي) يقول: "دعونا نغير على سكة الحديد"، وفي بعض الأحايين، كان شيئاً مثيراً إلى حد ما يحدث. دون أدنى شكّ، إنّ تفجير القطارات هو الهدف الأعظم في لعبة السكك الحديدية. وفي إحدى المرّات في أيلول/ سبتمبر 1917، زحفت فرقة عربية مزوّدة بالمتفجرات من العقبة باتّجاه وادي رم، وهو ينبوع في منطقة من أروع جروف الحجر الرملي الأحمر، وبدت هذه الجروف غاية في الاتساق لدرجة يصعب على المرء أن يصدق أنّها من صنع الطبيعة، ولكنّها كانت غاية في السحر أيضاً لدرجة يصعب التصديق بأنّها من صنع الإنسان. إنّه أشبه بطريق نصر عظيم، لكنّه خالٍ، ينتظر موكباً أو استعراضاً عسكرياً أعظم ممّا يستطيع الكون تقديمه. وفي رم، حشدنا فرقة إغارة من رجال الحويطات. ورغم كونهم صفوة المقاتلين العرب، فإنّهم مجموعة من الرجال النزقين والمشاكسين أكثر ممّا يمكنك تخيّله. فخلال ستة أيام فقط، كان علينا تسوية 14 نزاعاً شخصياً، و12 هجوماً بالأسلحة، وأربع حوادث سرقة جمال، وحالة نزاع على الصداق بين زوجين، وحالتي حسد، وحالة شعوذة واحدة. إنّ هذا يستغرق وقتاً أطول بثلاث مرّات من تسوية عائدات شركة تجارية.

وصلنا سكة القطار، وتجوّلنا فوق السكة وتحتها، في الليل والنهار، وبقينا مختبئين إلى أن وجدنا مكاناً مناسباً، وهناك زرعنا لغماً كهربائياً. كانت السكة تمرّ فوق وادٍ على ضفّة مرتفعة تمتد على مسافة خمسمئة ياردة، يتخلّلها ثلاثة جسور صغيرة تفصل بين كلّ منها مسافة مئتي ياردة تقريباً. زرعنا اللّغم فوق الجسر الذي يقع أقصى الجنوب ووصلناه كهربائياً بجهاز التفجير تحت الجسر الذي يقع في الوسط، وحضّرنا لنصب مدفعي Lewis تحت الجسر الذي يقع أقصى الشمال. كان هناك وادٍ طويل يمتدّ عرضياً من الجسر الشمالي باتّجاه الغرب. وهو بعمق قدمين تقريباً، وتنموا فيه هنا وهناك نباتات الأسل التي يمكن إخفاء الرجال (الراجلين) ومدفعي Lewis خلفها إلى أن يحين الوقت المناسب للهجوم.

لم يأتِ أيّ قطار في اليوم الأول. أمّا في الثاني، فوصل قطار ينقل الماء ودورية تتفقد سكة الحديد معاً. أمّا في الثالث، قرابة الثامنة صباحاً، وصل قطار مؤلّف من اثنتي عشر مقطورة قادماً من معان ومرّ ببطء فوق حافة السكة. كان البدو منبطحين خلف الشجيرات ورماة Lewis يتمركزون تحت قنطرتها. أمّا مجموعة التفجير، فتحت قنطرتها أيضاً. فيما كان القطار يهدر فوق رؤوسهم، كانوا يرقصون رقصة حرب جامحة. لقد تركنا أحد الرجال في الخارج ليعطي إشارة لمجموعة التفجير لكي تنسف السكة في الوقت المناسب. لقد بدا كأنّه عربي مسالم إلى حد ما، لكنّ الضباط على متن القطار أطلقوا عليه النار من مسدساتهم من باب التسلية. لكن بمجرّد أن صار القطار

فوق اللغم، وثب من مكانه ولوّح بعباءته، وفي الحال، سُمع دويّ انفجار رهيب، وشوهدت غمامة ضخمة من الدخان والغبار، كما سُمع صوت قعقعة الحديد وتحطّم الخشب وطنين الفولاذ يصدح في المكان نتيجة الانفجار.

ساد صمت مطبق في المكان إلى أن انجلى الدخان، وعندها ظهر مدفعا Lewis إلى يمين حافات دعامة الجسر ويسارها، وحصدا الجنود الذين قفزوا من العربات التي خرجت عن السكة. فتح البدو النار بغزارة أيضاً، وفي غضون ست دقائق، انقضى الأمر بانقضاض العرب على الحطام. تبيّن أنّ لدينا من الأسرى أكثر ممّا كنّا نرغب فيه إضافةً إلى قرابة سبعين طنّاً من المواد الغذائيّة والعديد من الأشياء الصغيرة كالسجّاد والمؤن العسكرية. وبسرعة البرق، نهب البدو المكان، فيما وقعنا نسختين طبق الأصل من الفواتير وأعدنا نسخةً منها إلى الحارس الجريح الذي تعمّدنا تركه خلفنا في المكان. بعدئذٍ، أضرمنا النار بالعربات وانطلقنا بجمالنا المثقلة بالغنائم قبل أن يتسنّى لفرق الإغاثة التركية، التي هرعت إلى المكان من الشمال والجنوب، أن تقطع الطريق علينا.

لم تنتهِ جميع الغارات على أكمل وجه، ولكن كان لمعظمها نتائج كارثية على الأتراك. لقد استغرق الأمر من القائد التركي أشهراً لإصلاح الثغرة التي تسبّب فيها الشريف ناصر في السكة في إحدى غاراته التي نفّذها على مسافة سبعين ميلاً شمال معان في 18 أيار/ مايو 1918. وهكذا تأجّلت عملياته كلّها في منطقة معان إلى أن صار الجنرال ألّنبي مستعداً لشنّ هجومه في الخريف. أمّا الشيخ عودة، فقام على عمل جيّد خلال تلك المعركة، إذ إنّ الأتراك كانوا قد أرسلوا آخر النّاجين من سرية الهجّانة الأخيرة لديهم. وهنا ربط الهجّانة جمالهم في ساحة من ساحات المحطة فيما كانوا يخوضون المعركة. لم يستطع الشيخ عودة مقاومة رغبته في النّهب، فاندفع على فرسه برفقة 12 من رجال عشيرته وسلب 25 جملاً من مسافة تبعد مئة ياردة فقط عن الرشّاش الآلي التركي، مقابل خسارة رجل واحد وحصانين فقط. كان ذلك مشهداً رائعاً للغاية.

ثالثاً

عمليات التلغيم تحت النار

كانون الثاني/ يناير 1919

من الواضح أنّ لورانس كان نشطاً على نحو استثنائي في الأسابيع التي تلت عودته من الشرق، فهذه المقالة قد نُشرت في مجلّة *Royal Engineer Journal*، في عددها رقم XXIX الصّادر بداية كانون الثاني/ يناير 1919. وكان عليه التحضير لمؤتمر السلام المزمع عقده في باريس، الذي كان سيحضره كمساعد ومرشد للأمير فيصل. لقد التقى فيصل في مدينة مرسيليا عند وصوله إلى أوروبا ثمّ رافقه خلال بضع زيارات رسمية في بريطانيا، ومن ضمنها اجتماع مع الملك جورج الخامس George V. مع هذا كلّه، وجد لورانس الوقت الكافي ليكتب تقريراً جلياً وشاملاً عن الجانب التقنيّ لحملته في الصحراء. خلال تلك المدة التي كان من المفترض أن يكون منغمساً في السياسة أكثر من اهتمامه بالجوانب العملية للحرب التي كان قد وضعها خلف ظهره في ذلك الوقت، بدا كأنّه قد استمتع بالعودة إلى الموضوع. ربّما كان ذلك تغييراً مستحبّاً أن يبتعد عن مضايقات السياسيين المزعجين ويكرّس وقته ليصف هجماته على القطارات بصورة مطوّلة وبأدقّ التفصيلات.

سيظهر لاحقاً أنّه لم يكن مصنّفاً لدى بعض زملائه الضباط على أقلّ تقدير على أنّه من أكثر منفّذي عمليات التخريب احترافيّة، أو تحفّظاً. ففي أحد البرامج الوثائقية المتلفزة التي بثّتها قناة BBC عام 1962، استذكر أحد الضباط الذين خدموا معه عام 1918، وهو ملازم ثانٍ، والسير أليك كيركبرايد Alec Kirkbride لاحقاً، تلك الأيام قائلاً: "كان يحب أن يُحدِث أضخم انفجار ممكن، (وبذلك يضيع سدىً) كمية كبيرة من المتفجرات التي تم نقلها على ظهور الجمال مسافة مئات من الأميال". لقد كان هذا الضابط، وهو ذو رتبة أدنى من لورانس بكثير، شاهداً على إحدى هجمات الأخير على محطة قطار وشاهد لورانس يضع عبوة تحت إحدى الجسور. لقد وصف الحادثة قائلاً:

> بما أنّني أعرف عادته، قلت له: "رجاءً يا سيّدي، أعطني تنبيهاً قبل أن تنسف العبوات المتفجّرة ليتسنّى لي أن أخرج رجالي من المكان". فأجابني لورانس: "نعم، حسناً، لا تُثر أيّ جلبة، لا تُثر أيّ جلبة". وهكذا، نزلنا وكنت أزرع عبواتي النّاسفة بكلّ نجاح، وفجأةً حدث انفجار رهيب، طار على إثره الجسر في الهواء وسقط فوق المحطة. كان أمراً يثير الحنق بالتأكيد، ذاك الحنق الذي يشعر به مرؤوس من العقيد المسؤول عنه، أي المقيّد بحدود معيّنة. جلس بعدها على جلمود وضحك ساخراً منّي.

مع ذلك، ينبغي أن نتذكّر أنّ لورانس لم يكن ميكانيكياً فاشلاً، ويمكن القول جدلاً إنّ بداية الثلاثينات كانت أكثر مراحل حياته نجاحاً، وتلك هي المرحلة التي عمل فيها مع فريق من زملائه الذين يمتلكون ذهنية مماثلة لذهنيته على تصميم وإنتاج قوارب إنقاذ جو-بحرية لسلاح الطيران الملكي البريطاني RAF. ومن أبرز التعليقات المشهودة التي يتناول فيها حياته ومسيرته، في رسالة أرسلها إلى ضابط سابق آخر شارك في حملة الصحراء أيضاً كُتبت بنبرة دمثة ممزوجة بشعور باحتقار الذّات عام 1943 عندما كان يقترب من نهاية مسيرته، قوله: ”بعد أن لهوت لبعض الوقت في الثورة والسياسة، كان من الجيد أن أكون مفيداً في مجال الأعمال الميكانيكية“.

تمّت إعادة نشر هذه المادة في كتاب ديفيد غارنيت.The Essentials of T. E. Lawrence (Jonathon Cape, London, 1951) [مبادئ توماس إدوارد لورانس الأساسية] وفي كتاب المؤلِّفين ستانلي وروديل واينتروب *Evolution of a Revolt*، وفي كتابي,Secret Despatches and Other Writings by T.E. Lawrence 1991.

عمليات التلغيم تحت النار

كانون الثاني/ يناير 1919

كنّا مهتمين بسكة حديد الحجاز، وأمضينا قرابة عامين نعمل عليها. كانت الإجراءات التركية المضادة سلبية. فجلّ ما فعلوه تحصين كلّ محطة (تفصل بين محطة وأخرى مسافة أربعة عشر ميلاً) بنصف سريّة مسلّحة بمدافع في بعض الأحايين، كما نشروا سلسلة من المخافر الصغيرة المحصّنة بين المحطات، يفصل إحداها عن الآخر مسافة ألفي ياردة تقريباً، موزّعة على مجموعة هضاب ووهاد قليلة الارتفاع تقع على مسافة مئتي ياردة عن السكة فيمكن لكلّ مخفر رؤية المخافر المجاورة وقيادة جميع المخافر التي تقع في الوسط. كما وُضعت مخافر إضافية على إحدى ضفاف جميع الجسور الكبيرة. يتوجّب على الرجال الخمسة عشر أو العشرين في كلّ مخفر دورية تفقّدية على طول السكة الواقع في قطاعهم مرّتين يومياً، مرّة بعد بزوغ الفجر وأخرى بعد الظهر. أمّا ليلاً، فلم يكن لهم أيّ نشاط.

خلُص الأتراك إلى اتّباع نظام الدفاع هذا بعد تجربة طويلة مع فرق التفجير التّابعة لقواتنا، لكنّنا تمكّنا، إلى أن وضعت الحرب أوزارها، من الإغارة على السكة أنّى شئنا، وأن نُلحق بها قدر ما نشاء من الأذى دون صعوبات تُذكر. وفي الوقت نفسه، كان علينا تحسين أدواتنا وأساليبنا دائماً. بدأنا عملياتنا بفرق صغيرة تتألّف من عشرة إلى خمسة عشر بدوياً، وانتهينا بأرتال متحركة

تضم صنوف الأسلحة كلّها، ومن ضمنها العربات المصفّحة. مهما يكن، أعتقد أنّه من المستحيل أن يتمكّن دفاع سلبي صرف، كالدفاع التركي، من منع عدو مجهّز جيداً من تنفيذ عمليات التعطيل اليومية لحركة سكة الحديد. ولكي يكون منيعاً، يتطّلب الدفاع عن سكة الحديد قوة سلبية محصّنة بسياج متواصل من الشريط الشائك، ودورية على مدار الساعة تجوب المنطقة على بعد مسافة معقولة من السكة، من كلا الجانبين. أضف إلى ذلك القوات المتحركة، في تجمّعات لا يفصلها أكثر من عشرين ميلاً عن بعضها بعضاً، والاستطلاع الجوي الحر.

ربّما كانت أساليب التفجير التي استخدمناها أهم من أنماط التفجير نفسها. كانت المواد المتفجرة التي نستعملها أساساً مادة الجيلاتين وقطن البارود. وكنّا دائماً وأبداً نحبّذ الأولى في حال تمكّنا من الحصول عليها. فهي أقوى بكثير في العبوات المفتوحة أثناء الالتحام المباشر، وأفضل بكثير أيضاً أثناء العمليات غير المباشرة، وهي أقوى بخمسة أضعاف في العبوات ذات الحشوات الفائقة التدمير، كما أنّها أسرع في الاستخدام وأصغر حجماً. كنّا ننزع غلافها الورقيّ، وننقلها ضمن أكياس الرمل التي تتسع لخمسين رطلاً. هذه الأكياس عرضة للبلل الشديد في حرارة الصيف في الجزيرة العربية، لكنها لم تتسبّب لنا في أيّ أذى، باستثناء الشعور الاعتيادي بالصداع، الذي لم نكتسب مناعة ضده إطلاقاً. يمكن لأثر الصّدمة التي تخلّفها الرصاصة أن يتسبّب في تفجير إحدى هذه الأكياس، لكنّنا اكتشفنا بالممارسة أنّه يتوجّب عليك الإمساك بها وتثبيتها على خاصرتك أثناء الركض. فإن تمّ الإمساك بها من جهة الخاصرة البعيدة عن العدو، فإنّ احتمال إصابتها سيكون ضئيلاً، باستثناء الحالات التي تصيب الرصاصة فيها مقتلاً من حاملها. إنّ قطن البارود مادة متفجّرة جيّدة، لكنّها لا ترقى إلى مستوى مادة الجيلاتين من النواحي التي سبق وذكرناها. أضف إلى ذلك أنّنا كنّا نستلمها على شكل ستة عشر لوحاً مغلّفاً (يبلغ وزن كلّ منها خمس عشرة أونصة) ضمن صناديق خشبية ضخمة إلى درجة أنّه يستحيل على المرء فتحها بشكل آمن. يمكن للمرء أن يفتح هذه الصناديق بإحدى معدات التحصين، عن طريق طرقها أربع دقائق تقريباً، لكنّ الطريقة المثلى هي تحطيم الصندوق عن طريق إمساكه من إحدى حبال تثبيته وضربه على صخرة حتى ينفتح. إنّ غطاء الصندوق مثبّت بستة براغ، ولكن حتى لو توفّر لديك الوقت لحلّها جميعاً، فإنك لن تتمكّن من إخراج الألواح لأنّها محشورة بإحكام بين جوانب الصندوق الأربعة. لقد سبق وفتحت صناديق من هذا النوع عن طريق تفجير صاعق في أحد الزوايا، لكنّني أعتبر هذه الطريقة غير ضرورية، لأنّها صاخبة وخطيرة للاستعمال اليومي.

نسف السكة. إنّ قطن البارود على شكل ألواح بوزن خمس عشرة أونصة ملائم لعمليات قطع السكة. والطريقة الاعتيادية لزرع لوح مزوّد بصاعق مدمج وموصول بآلية تفجير على شبكة السكة أمر سهل وسريع، لكنّه غير مجدٍ

يتسبّب كلّ لوح في قطع جزء بطول ست بوصات في موقع الانفجار مخلّفاً وراءه سطحين أملسين متصدّعين (نظراً إلى أنّ قضبان سكة حديد الحجاز مصنوعة من فولاذ مطاوع من إنتاج معامل Maryland أو Cockerill للفولاذ). إنّ عوارض وكراسي السكة الفولاذيّة قوية، ولقد اعتاد العدو طرق الجزء المكسور من السكة بمطرقة ثقيلة لإعادة وصله بالجزء السليم، وكانوا يقومون بمدّ قطعة جديدة في حال كان الجزء المتصدّع مهماً إلى حد ما. يبلغ طول قضيب السكة الجديد عشرة أمتار، غير أنّ السكة كانت تعمل جيّداً عند استخدام قطع غير مثبّتة بطول مترين أو ثلاثة. إنّ مسماري ربط كافيان لتثبيت عارضة الوصل. وفي المسارات المستقيمة، يمكن للقطارات البطيئة أن تسير لمسافة ميل أو اثنين دون الحاجة إلى عوارض الوصل نظراً إلى جودة كراسي السكة. أمّا في الأجزاء التي ينحني فيها مسار السكة، بعدما استهدفنا هذه الأجزاء من السكة بشكل مكثّف، فكان الأتراك يستخدمون أجزاء مستقيمة قصيرة للاستعاضة عن المتضرّرة. أثبتت هذه الطريقة فعاليّتها حتى في المنحنيات التي تمتدّ بطول 120 متراً. إنّ معدّل تنفيذ عمليات الإصلاح الذي يمكن لمجموعة مؤلّفة من مئة رجل قد يصل إلى 250 في الساعة الواحدة في حالات التدمير البسيطة، فيما يمكن لمجموعة مختصّة بعمليات التفجير مؤلّفة من عشرين رجلاً أن تنفّذ ستمئة عملية قطع للسكة في الساعة الواحدة.

هناك طريقة أفضل للتفجير تتمثّل في زرع لوحين متتاليين تحت حافة السكة الواقعة أسفل الوصلة وعارضة الربط المتصلة بالسكة، فوق الحصى التي ترصفها. سيكون هذا كفيلاً بتخريب الوصلة وعارضة الرّبط، ويتسبّب في تقصير كلّ من قضيبي السكة بمقدار بضع بوصات، وكلّ هذا لقاء لوحين وصاعق واحد. مع أنّ هذه الطريقة تستغرق وقتاً أطول لزرع المتفجرات، لكنّ الأذى الذي تسبّبه للسكة يستغرق وقتاً أطول في الإصلاح، إذ غالباً ما ينجو أحد القضبان من الكسر، وينحني عوضاً عن ذلك. في هذه الحالة، يصبح لزاماً على فريق الإصلاح إمّا قصّه وإمّا تقويمه.

لكنّ طريقة التفجير المثلى التي اكتشفناها تقضي بالحفر بجانب إحدى العوارض الوسطى المصنوعة من الصلب المطاوع بين مسارات السكّة، إلى أن تتمّ إزالة الحصى كلّياً عن الجزء الداخلي من العارضة (الحديدية بالطبع)، ثمّ زرع لوحين أسفل الحفرة، تحت العارضة، ولكن دون أن تكون على تماس معها. بعد ذلك، تجب إعادة الحصى الذي تمّت إزالتها سابقاً إلى مكانها مع الإبقاء على نهاية الفتيل ظاهرة فوق العارضة لكي يتمكّن فريق التفجير من رؤيته. يعمل الهواء المتمدّد على رفع الجزء المتوسط من العارضة بمعدّل 18 بوصة عن مستوى الأرض، ويتسبّب في تحدب القضيبين أفقياً بمعدّل ثلاث بوصات، كما يتسبّب في اقترابهما نحو بعضهما بعضاً بمعدّل ست بوصات، والتفافهما عمودياً إلى الداخل نتيجة التواء كراسي السكة من الجهة الخارجية السفلى لحافة السكة. إضافة إلى ذلك، يُحفر مجرى صغير بعمق قدمٍ أو أكثر

عبر المكوِّن. سينجم عن ذلك تدمير قضيبين من السكة، وعارضة أو اثنتين، إضافة إلى العوارض الخشبية، وكلّ ذلك لقاء لوحين وفتيل. في هذه الحالة، يتوجّب على فريق الإصلاح أن يتخلّص من الجزء المتضرّر برمّته، أو أن يقطع متراً من كلّ قضيب ثمّ تثبيت عوارض خشبية جديدة. في مقدور مجموعة مؤلّفة من مئة رجل إصلاح ما يقارب العشرين زوجاً في الساعة الواحدة، فيما يمكن لمجموعة من أربعين أن تنفّذ ثمانين عملية مماثلة في الساعة. إنّ منظر جزء من السكة تعرّض للتفجير بهذه الطريقة جميل للغاية، لأن العوارض ترتفع عن السكة بأشكال مختلفة تشبه ألغام التوليب الصغيرة.

يمكن تفجير العبوات البسيطة بفتيل بطول 12 بوصة. أمّا العبوات التي تُزرع عند عارضة الوصل على حافّة السكة، فتحتاج إلى فتيل بطول ثلاثين بوصة، فشظايا الفولاذ الصلب تتناثر مالئةً الأرض. في ما يخصّ العبوات التي تشبه ألغام "التوليب"، يمكن تفجيرها بفتيل بطول عشر بوصات، لأنّها تتسبّب في تناثر الحصى فقط. لكن في حال السماح للألواح بملامسة الجزء المعدني من العارضة، سيخلّف الانفجار قطعاً كبيرة في المكان. وعند استعمال فتيل بطول عشر بوصات، ستتطاير معظم هذه الشظايا من فوق الرجل الذي سيشعل الفتيل والذي سيكون على بعد قرابة 15 ياردة فقط عندما تنفجر الألواح. من الخطير أن يكون أبعد من ذلك. لقد زوّدنا قسم الذخائر بفتائل من نوع Bickford. يتسبّب النوع الأسود اللامع في عدد من الحوادث نظراً إلى كثرة الحوادث التي تقع بسبب سرعة الاشتعال أو بطئه. النوع الأسود الباهت خيار أفضل. أمّا الأبيض، فهو جيّد جداً. إن للفتيل الآني الذي نستخدمه حالياً تأثير ممتع في حال تمّ إشعاله بين خيام الأصدقاء، إنه يقفز قفزات عدة في الهواء ثمّ ينفجر لكنّه ليس جيداً في ظروف الخدمة. أمّا الفتيل الفرنسيّ الآني، فهو موثوق ويمكن الاعتماد عليه. ينبغي أن يكون المفجّر موصولاً بفتيل مقصوص سلفاً دائماً، وقابلاً للحمل في الجيب أو الحقيبة بشكل آمن، نظراً إلى أن تفجيرها يتطلّب احتكاكاً عنيفاً. جرت العادة أن نستعمل الفتيل لإشعال المفجّر.

كقاعدة عامّة، عمليات تفجير السكة مضيعة للوقت وعمل غير مجدٍ إلّا إذا كان العدو يفتقر إلى القطع المعدنية اللازمة لعمليات الاصلاح، أو إذا كانت تؤدّي إلى إعطاب جسر.

إنّ التفجير الذي يبعث على الرّضا، وهو تفجير هجين، يتمثّل في قطع قضيبي السكة وقلبهما رأساً على عقب أسفل الضفة. يتطلّب الشروع في ذلك ثلاثين رجلاً لكن في مقدور مجموعة صغيرة أن تمدّ السكة من جديد بالضغط على الجزء المقلوب، وعندئذ سيتكفّل نابض القضيب بعملية إعادته إلى وضعه الطبيعي، ويمكن الاستمرار بفعل ذلك مسافة أميال. إنّ هذا النوع من عمليات التفجير فعّال على العوارض الفولاذية لأنّها تؤدي إلى إتلاف رصيف السكة المؤلّف من الحصى. وفي إحدى المرّات، اختبرنا هذا الأسلوب على خط

فرعي بطول ثمانية أميال، يحتوي نسبة عالية من العوارض الخشبية ذات النتوءات المدبّبة، وكانت النتيجة رهيبة لدرجة أنّ الأتراك فقدوا الأمل في إصلاحها نهائياً.
كانت سكة حديد الحجاز تستخدمها القطارات بالحد الأدنى، ولذلك لم يكن هناك حاجة ملحّة إلى تدمير نقاط التقاطع على السكة.
عمليات نسف الجسور. كان لحركة عبور القطارات الضعيفة على السكة أثره في تكتيك نسف الجسور أيضاً، خاصةً أنّ إحداث قطع واحد على السكة كان يُعالج إمّا عن طريق تحويلة وإمّا حرف مسار القطار. أمّا في القضبان، فكانت الأساليب التي نستخدمها أهمّ من أسباب استخدامنا لها، بطبيعة الحال. إنّ غالبية الجسور مبنيّة من الحجارة الكلسية التي يتراوح وزن الواحدة منها من ثمانين إلى مئة رطل، ومثبّتة بملاط كلسيّ. يبلغ طول القنطرة الواحدة من أربعة إلى سبعة أمتار وسطيّاً، أمّا الركائز، فكانت بعرض 15 قدماً وسماكة أربعة أقدام وست بوصات. بطبيعة الحال من المستحسن تدمير جسر بشكل كامل عوضاً عن نسفه إلى الأعلى، لأنّك بهذا ستتسبّب في مضاعفة الجهود التي ستترتب على أعدائك. اكتشفنا أنّ زرع عبوة من قطن البارود بوزن 48 رطلاً، من دون دكّ، أسفل الركيزة سيكون كافياً تقريباً لنسف الجسر، وأنّ عبوة بوزن 64 رطلاً غالباً ما تكون أكثر من المطلوب بقليل. ولهذا، اعتمدنا على تركيبة BT2 1/5 لعبوات قطن البارود التي يقلّ وزنها عن مئة رطل من دون دكّ. فلو تم وضع علامة على الأقدام على ركيزة يبلغ عرضها خمسة عشر قدماً، لن يكون لدينا أي متفجرات بين الأقدام 1 و3 و12 و15. تتوضّع الشحنة المزوّدة بحزمة مستمرة، لكنها أضعف منها، التي توحِّد القدمين 5 و10 مقابل الأقدام 4 و5 و10، و11. فالقطن الجاف أفضل من الرطب لمثل هذا العمل. أمّا الجيلاتين، فأقوى بنسبة 10% لهذه العبوات المكشوفة. أمّا بالنسبة إلى العبوات التي يزيد وزنها عن مئة رطل، فيكفي تركيبة BT2 1/6 أو BT2 1/7. فكلما كان هدفك أكبر، كانت معادلتك أصغر. تحت النار، يكون الجزء الداخلي من الجسر آمناً إلى حد ما، لأن نيران مواقع العدو تستهدف السكة لا قناطر الجسر. مع ذلك نادراً ما يسمح دكّ عبوة الركيزة بالحفر بفعل ذلك بتروٍّ كافٍ. وعندما يكون الأمر وارداً، كلّ ما هو ممكن وجود خندق بعمق قدم، وهذا لا يقلل عبوة القطن بأكثر من 10%. فعوائد الجيلاتين أكثر نسبياً عن طريق الدكّ البسيط.
ثمة طريقة سريعة وأقلّ تكلفة لنسف ركيزة عادية أو كتف ركيزة، تتمثّل في وضع عبوات صغيرة في فتحات تصريف المياه الموجودة بشكل اعتيادي. ففي سكة حديد الحجاز، تتوضّع هذه الفتحات في الجزء المائل من القنطرة. وفي هذه الحالة، ستكون عبوة من الجيلاتين بوزن خمسة أرطال، أو 25 رطلاً من قطن البارود، كفيلة بتدمير السكة برمّتها. إنّ عمق فتحات التّصريف الصغير وحجمها يتسبّبان في دكّ المادة المتفجرة إلى الحد الأقصى. أمّا في حالة

الجسور التي تتكوّن من قناطر عدّة، فكنّا نفخّخ هذه الفتحات على التناوب من الجانبين. وفي كتف الركائز ذات التصميم الإنكليزي الاعتيادي، التي تتميّز بوجود عدد كبير من فتحات التصريف الصغيرة الحجم، سيكون من الحكمة تفجير عبوات عدّة كهربائياً بالتزامن، إذ إنّ التأثير سيكون أعظم بكثير من تنفيذ انفجارات فردية. تعتبر طريقة التفجير بزرع المتفجرات حول محيط الركائز أو بالحفر أسفل التّاج أو الأرضية طرائق بطيئة وعديمة الدقة أثناء الخدمة النشطة.

في شمال سوريا، حيث واجهتنا جسور مبنيّة من حجارة البازلت الضخمة التي تمّ تثبيتها بالإسمنت، كان علينا زيادة وزن العبوات المكشوفة لتصبح ربع أو حتى ثلث BT2.

وجدنا أنّ أفضل طريقة لاستعمال قطن البارود هي عند تجهيزه على شكل قوالب مؤلّفة من ثلاثين لوحاً مربوطاً بأسلاك يتمّ تمريرها من خلال الفتحات الدائرية الموجودة وسط الألواح. فهذه القوالب الكبيرة تتميّز بسهولة حملها وسرعة زرعها. إنّ العربات المصفّحة مفيدة جداً في عمليات نسف الجسور، لأنّها تسهم في حمل المتفجرات وخبير التفجير. ومن الممارسة، تبيّن لنا أنّ ثلاثين إلى أربعين ثانية وقت كافٍ لزرع عبوة ناسفة على ركيزة جسر، وأنّ العملية لا تتطلب أكثر من رجل واحد لتنفيذها. وفي هذه الحالات، جرت العادة أن نستعمل فتيلاً بطول قدمين.

إنّ التعامل مع الجسور الجملونيّة المحمولة على عوارض أصعب من التعامل مع الجسور السّابقة. وفي حالة الجسور الشبكيّة التي تتوضّع فيها عارضة الشدّ تحت سطح الجسر، من الأفضل قطع عارضتي الضّغط. فإن كانت عارضة الشدّ علوية، فمن الأفضل قطع عارضتي الشدّ وعارضة ضغط واحدة فقط. يستحيل تفجير جسر من هذا النوع بسرعة كبيرة. صحيحٌ أنّه لم يكن لدينا العديد من التجارب المماثلة، لكنّ العملية كانت تستغرق عشر دقائق أو أكثر كلّ مرّة. وعندما كانت الفرصة سانحة، كنّا نثبّت الجيلاتين في الزوايا التي تلتقي فيها العوارض. لكنّ الطريقة السريعة الوحيدة كانت تتمثّل في زرع عبوة وحيدة ضخمة أعلى الدعامة وتثبيتها بالمرابط. يمكن أن يتطلّب ذلك استعمال ألف رطل، أو أكثر، من مادة الجيلغنايت المتفجرة، إذ إنّ وجود عدد كبير من الحمّالين سيعقّد الأمور. لم يسبق لي نسف جسر مبنيّ من العوارض الفولاذية إطلاقاً.

إنّ تفخيخ القطارات شأن عملياتي أكثر من كونه هندسياً، وهو بطبيعة الحال دراسة خاصّة بحد ذاتها. أثناء العمليات التي تهدف إلى حرف مسار السكة، تعطيك الألغام الآلية الانطباع بأنّها أفضل ممّا هي عليه بالحقيقة. فهي تتطلّب دقّة عالية أثناء الزرع، ولكي تكون فعّالة، ينبغي أن تكون على شكل مكوَّن من أربع عبوات معاً. هذا يشمل عملية التوصيل الكهربائي أيضاً. كانت أفضل أعمال التلغيم التي خبرناها هي التي فعلها من أجلنا العقيد آر. إي. إم. راسل

R. E. M. Russel من سلاح الهندسة الملكيّة، وقد كنّا على وشك التوسع في استعمالها لولا انهيار العدو.

يُطلق اللغم العادي كهربائياً بمراقب. وهذه طريقة لا تقبل الإخفاق لكنّها صعبة للغاية في تدمير القطارات والعربات المعادية، ولقد كسبنا الكثير باستخدامها. أمّا العبوة القياسية التي كنّا نستعملها، فهي خمسون رطلاً من الجيلاتين. أمّا قطن البارود، فكان استخدامه شبه معدوم.

في جميع الأحوال، إنّ موضوع التفخيخ واسع لدرجة تصعب الإحاطة به. وتجهيزات الجيش الكهربائية جيدة لكنّ المفجّر يبدو ثقيلاً دون أيّ مبرر. فباستخدام سلك كهربائي منفرد معزول (تجاريّ)، كنّا نفجّر خمسة صواعق على التوازي على امتداد 500 متر، بينما يمكن للكابل المعزول، المؤلف من أسلاك معزولة عدّة، الذي يستخدمه الجيش، تفجير صاعقين فقط على امتداد المسافة نفسها. أمّا على التسلسل، فلم تسنح لي فرصة تفجير أكثر من 25 صاعقاً (ضمن مسافة 250 ياردة) إطلاقاً، ولكنّني لا أجد أيّ سبب يمنع زيادة هذا الرقم بصورة كبيرة. لم تخذلنا صواعق الجيش الكهربائيّة قطّ. ويمكن أن يكشف مقياس الاختبار عيوب بعض هذه الصّواعق، ولكن حتى الصّواعق المعطوبة من هذا النوع ستؤدي إلى إطلاق المفجّر. عادةً ما يكون عزل الوصلات غير ضروريّ. كما أنّ المفجّر سيتعطّل بسرعة إذا تعرّض للاهتزاز على متن قطار لشحن الأمتعة، أو إن كان معلّقاً على ظهر جمل أثناء الركض، ولذلك غالباً ما كنت أحمل اثنين من باب الاحتياط.

رابعاً

رسائل العراق

تموز/ يوليو – آب/ أغسطس 1929

وُجّهت الرسائل الثلاث الواردة في هذا القسم إلى ثلاث صحف مختلفة، هي: *The Observer*، و*The Times*، و*Sunday Times*، في وقت كان الشرق الأوسط يعاني من أزمة خطيرة عام 1920.

تبعاً للقرارات التي تمّ اتّخاذها في مؤتمر السلام مُنحت بريطانيا العظمى حقّ الانتداب على بلاد الرافدين (بدأت تعرف بصورة كبيرة باسم العراق). ولم يكن مفاجئاً أنّ ذلك ولّد ردّ فعل غاضب لدى السكان الذين لم تتمّ استشارتهم بالأمر، وفي تموز/ يوليو 1920، اندلعت ثورة يصعب احتوائها لدرجة أنّ البريطانيين اضطرّوا إلى استدعاء التعزيزات من الهند.

كانت رسالة لورانس الأولى، التي نُشرت في *The Times* في 22 تموز/ يوليو، بمنزلة تعبير عن تذمّره من حقيقة أنّ البريطانيين يقومون أساساً بالتّجهيز لحكومة "على النمط الإنكليزي وتُدار باللغة الإنكليزية". ترافقت إدانته هذا الأمر مع الحلول المقترحة السريعة التي تقدّم بها. لقد اقترح أن يجعل من العربية لغة التعامل الحكومي، وتشكيل فرقتين من المتطوعين المحليين، جميعهم من العرب، الذين سيوكل إليهم استعادة النظام و"سيتسببون في مغادرة آخر جندي بريطاني وهندي من هذا البلد". حتى هذه اللحظة، بدت نصيحة لورانس قابلة للتطبيق في العراق جراء الصراع الذي بدأ عام 2003، لكنه قدّم بعد ذلك اقتراحاً إضافياً من المؤكّد أنه بدا غير معقول لمعظم قرّائه في 1920، ويتضمّن أن تصبح بلاد الرافدين "مستعمرة سمراء مستقلة"، وأنّه علينا "النظر إليها (أو بالحد الأدنى) كما ننظر إلى جنوب أفريقيا أو كندا تماماً". إنّ "الغزو" سيكون "البديل الأوحد" المتاح، وهذا ما لا يرغب فيه المواطن الإنكليزي العادي ولا يستطيع تحمّل أعباءه.

لم تكن بريطانيا القوّة الوحيدة التي تنعّمت بالنتائج المختلطة التي نجمت عن منح البريطانيين حقّ الانتداب في الشرق الأوسط. ففي آذار/ مارس 1920، نصّب فيصل نفسه حاكماً على سوريا بعد إخفاق القوى المنتصرة منحه الجائزة التي طالب بها في مؤتمر السلام. غير أنّ حقّ الانتداب على سوريا كان قد مُنح للفرنسيين الذين وضعوا حداً لترقية فيصل الذاتية عن طريق الإطاحة به بأسلوب مخزٍ. كانت النتيجة أنّ كلتا القوّتين الأوروبيتين كانت

تحاول في الوقت نفسه إنهاء حالة التمرّد القومي عن طريق اللجوء إلى نشر القوات المُكْلف، والمدفعية والقوى الجوية.

في رسالته الثانية، التي نُشرت في صحيفة *The Observer* في 8 آب/ أغسطس، شرع لورانس في الهجوم على الحليفتين السابقتين، فرنسا وبريطانيا على حد سواء. في الواقع، وكما نبّه الباحث الفرنسي المرموق المتخصّص بالدراسات المتعلّقة بلورانس الدكتور موريس لاريس Maurice Lares، أعطى لورانس شرعيّة أعظم للموقف الفرنسي مقارنةً بما أعطاه للموقف الإنكليزي، إذ كتب:

> لا نملك الأهليّة لتوجيه الانتقاد إلى الفرنسيين في هذا الشأن. فجلّ ما فعلوه في قطاعهم في سوريا أنّهم حذوا حذو ما فعلناه في بلاد الرافدين بكلّ تواضع... سيبدو كأنّنا نفتقر إلى روح الدعابة إن وبّخناهم بسبب المعركة التي قاموا بها قرب دمشق، وإجهاض محاولة السوريين في إقامة حكم ذاتي، في الوقت الذي كنّا نخوض فيه المعارك قرب بغداد...

مع أنّ لورانس بدا مستعدّاً لاستثارة الهيئة في رسالته السابقة، فإنّه كان صريحاً أكثر في هذه الرسالة، إذ تابع في السياق نفسه ليقدّم اقتراحاً لطالما أدهش مَن لا يقدّرون النّبرة الساخرة المتعمّدة، والمرعبة حقّاً، التي عبّر فيها عن هذا الاقتراح، بقوله: "من المستغرب ألّا نستعمل الغاز السّام في مثل هذه الحالات... باستعمال الغاز السّام، تمكن إبادة جميع السكان الذين يقطنون المناطق التي تبدر منها الإساءات بكلّ سلاسة. وكطريقة في الحكم، لن تكون أسوأ من نظام الحكم الحالي من الناحية الأخلاقية".

من وجهة نظري، إنّ وصف تاباتشنك وماثيسون في كتابهما *Images of Lawrence* لهذا الاقتراح على أنّه "سويفتيّ" "Swiftian" هو أمر صائب. ونظراً إلى معرفته بدرجة النّفور التي ولّدها استعمال الغاز السّام في الحرب العالمية الأولى كان لورانس يقارب مشكلات الشرق الأوسط بالطريقة السّاخرة نفسها التي قارب بها جوناثان سويفت Jonathan Swift منذ قرنين قضية المجاعة التي انتشرت في أيرلندا على نطاق واسع. في 1729، نشر سويفت ما أطلق عليه A Modest Proposal [اقتراح متواضع]، مفاده أنّ قضيّة إطعام الأطفال الأيرلنديين الفقراء يمكن تسويتها عن طريق تسليمهم للأغنياء ليأكلوهم. وبالمثل، كان لورانس يقترح بصورة ساخرة أنّه يجب إعدام أقارب الرجال الذين خاضوا الحرب إلى جانبه بالغاز بسبب رفضهم هيمنة دولة إمبريالية كان لورانس يشعر بأنّها لا تملك أيّ شرعية هناك. اقتراحٌ يمكن، بطبيعة الحال، أن يخلق موجات من الاستياء عندما نفكّر في تبنّي الديكتاتور العراقي صدّام حسين، بعد مرور سبعة عقود على هذا الاقتراح، السياسة نفسها التي اقترحها لورانس من باب التّهكم آنذاك.

على أيّ حال، يجب توخي الحذر في هذا المقام. كان الغاز السّام لعنة بالنسبة إلى الرأي العام نتيجة استخدامه كلا الطرفين له في حرب 1914–1918، لكنّه لم يُستبعد من الحسابات العسكرية أو الاعتبارات السياسية في

المرحلة المضطربة التي تلت الحرب. وخلال ما أطلق عليها الحرب الأفغانية الثالثة، وجد البريطانيون أنفسهم في مواجهة محاربين من رجال القبائل الذين يصعب إخضاعهم إلى درجة أنّهم فكّروا في الغاز السّام بوصفه خياراً "أرحم" من المواد الشديدة الانفجار. في هذا السياق، كتب تشرشل: "إن كان إطلاق جندي أفغاني النار على جندي بريطاني مختبئ خلف صخرة وتمزيقه إرباً وهو جريح مُنصفاً... فلماذا لا يكون إطلاق رجل المدفعية البريطاني قذيفة تجعل هذا الجندي المحلّي المذكور يعطس مُنصفاً؟" كانت السخرية والازدراء من نصيب أيّ فكرة تشير إلى أنّ هذا يمكن أن يتعارض مع مفهوم المروءة في الحرب، لأنّ الضباط البريطانيين كانوا ينظرون إلى رجال القبائل على أنّهم "حشرات ضارّة لا تصلح سوى للإبادة". ولم يكن الأمر مختلفاً بالنسبة إلى العراق في 1920، فقد كان تشرشل، الحريص على الحد من التكلفة المادية والبشرية التي ستنجم عن استعراض القوة الهائلة، مستعدّاً للجوء إلى استخدام الغازات الخانقة المدروسة بعناية لكي تتسبّب "في الانزعاج أو المرض، ولكن ليس الموت" عن طريق إطلاقها من الطائرات. مع ذلك، كان مجلس الوزراء متردّداً في التصديق على استعمال الغاز، وحتى النوع غير القاتل منه (وفق زعمه). وفي هذه المناسبة، لم تلقِ طائرات المراقبة البريطانيّة قنابل الغاز قطّ.

في تلك المرحلة، كان لورانس مجرد شخص عادي، ولم يكن في أيّ حال طرفاً في مناقشات الحكومة البريطانية السرية، ولا توجد أيّ إشارة في الرسائل المنشورة هنا بأنّه كان بأيّ حال يساعد الحكومة في مسعاها لسحق مشاعر الاستياء لدى السكان "المحليين". فضلاً عن ذلك كان على الأرجح آخر من ينظر إلى رجال القبائل الثائرين على أنّهم "مجرد حشرات ضارّة لا تصلح سوى للإبادة"، كما لم يكن هناك أيّ إشارة على أنه يؤيّد فلسفة استعمال الغاز السّام بالحد الأدنى التي تقدّم بها تشرشل. لقد كانت نبرة صوته عندما اقترح أنه "باستعمال الغاز السّام، تمكن إبادة جميع السكان الذين يقطنون المناطق التي تبدر منها الإساءات بكلّ سلاسة" تنمّ عن فكر سويفتيّ قاتل أكثر من كونه جدلاً نابعاً من سياسة الواقع.

في هذا السّياق، تجدر الإشارة إلى افتتاحية الرسالة الثالثة، التي نُشرت في 22 آب/ أغسطس في صحيفة *Sunday Times*، والتي اقتبست فقرات منها بصورة كبيرة غير مرّة خلال أزمة العراق التي تعود إلى 2003 على أنّها مقولة تصلح للتطبيق في الوقت الحالي تماماً كما كانت عام 1920:

> لقد اقتيد الشعب البريطاني في بلاد الرافدين إلى فخّ يصعُب الخروج منه بكرامة وشرف. لقد تمّ إيقاعهم في هذا الشَرَك عن طريق حجب المعلومات المتواصل. إنّ بيانات بغداد متأخّرة، وغير صادقة ومنقوصة. وإنّ الأحوال أسوأ بكثير ممّا أطلعونا عليه، وإدارتنا عديمة الكفاءة وأكثر دمويّة ممّا يعرفه عامّة الشعب... إنّنا اليوم على شفير كارثة.

إنّ مفهومي ”الكرامة والشرف“ اللذان يشير إليهما لورانس لا يتماشيان مع فكرة الغاز السّام.

بعد قراءة ما ورد، سيحضر إلى أذهان العديد من المولعين بكتاب *Seven Pillars of Wisdom* إشارة لافتة إلى بلاد الرافدين وردت في فصل مقدّمته البليغة، وهو فصل موحّد في الإصدارات الحديثة كلّها، باستثناء الإصدارات الأولى التي تمّ فيها اختزاله لأسباب سياسية أساساً، عملاً بنصيحة برنارد شو Bernard Shaw، إذ نُشر للمرة الأولى بشكل مختصر في مجلّد الرسائل للكاتب ديفيد غارنيت عام 1938 (الصفحات 262–263). يمكن أن يكون لهذا الاقتباس أيضاً صدىً قوي معاصر. وقد عاد لورانس بالذّكرى إلى تبعات الحرب، وعلّق:

> عندما انتصرنا، تمّ توجيه الاتهام إليّ بأنّ عائدات النفط البريطانية في بلاد الرافدين قد أصبحت موضع شك، وأنّ السياسة الاستعمارية الفرنسية قد انهارت في المشرق.
> أخشى أنّني آمل ذلك. لقد دفعنا ثمناً باهظاً لقاء هذه الأمور يتمثّل في الشّرف وأرواح الأبرياء.

حتّى هذه اللحظة، ليس في الإمكان إصدار الحكم على التدخّل الجديد في سياسات الشرق الأوسط. وربّما ستمرّ السنين قبل أن نتوصل إلى قرار بهذا الشأن. كما لا يمكن القول إنّ لورانس كان على صواب في جميع القضايا المتعلّقة بذلك الجزء من العالم الذي أصبح اسمه مقترناً به، بل كان بعيداً كلّ البعد من ذلك. لكنّ رأيه كان سديداً في نواحٍ عدة من المشكلات التي نزلت بـ”الشرق المتغيّر“ (كما أسماه شخصياً؛ انظر الفقرة اللاحقة) ولذلك يستحقّ أن نستمع له.

نُشرت الرسائل تحت البنود 127 و130 و131 في كتاب ديفيد غارنيت، The Letters of T. E. Lawrence، وقد تمّ تضمين الرسالة التي نُشرت في 22 آب/ أغسطس في *The Essential T.E. Lawrence*؛ وقد نُشرت جميعها في كتاب المؤلِّفين ستانلي ورودیل واينتروب *Evolution of a Revolt*.

1. إلى رئيس تحرير The Times

22 تموز/ يوليو 1920

سيّدي، في مناظرة هذا الأسبوع حول الشرق الأوسط في مجلس العموم، عبّر أحد الأعضاء المخضرمين في المجلس عن دهشته أنّ العرب في بلاد الرافدين قد ثاروا ضدّنا رغم النّيات الحسنة التي تُبديها سلطتنا الانتدابية تجاههم. ولقد تردّدت أصداء هذا الشعور بالدّهشة هنا وهناك في وسائل الإعلام، ويبدو لي أنّها مبنيّة على فهم خطأ لمفهوم آسيا الجديدة وتاريخ السنوات الخمس الأخيرة التي أرغب في عرضها مطوّلاً في صحيفتكم مع تفسيري الشخصي للوضع.

لقد ثار العرب ضدّ الأتراك أثناء الحرب ليس لأنّ الحكومة التركية كانت سيئة على وجه الخصوص، بل لأنّهم يرغبون في الاستقلال. لم يخاطروا بأرواحهم في المعارك من أجل تغيير أسيادهم، ليصبحوا رعايا بريطانيين أو مواطنين فرنسيين، بل لينالوا فرصة خاصة بهم.

أمّا إن كانوا جديرين بالاستقلال أم لا، فهذا أمرٌ ستثبته التجربة. ليست الجدارة شرطاً للحرية. فالبلغاريون والأفغان والتاهيتيون يمتلكونها. وتنال الشعوب حرّيتها عندما تكون مسلّحة جيداً، أو عندما تكون متمرّدة، أو عندما تقطن هذه الشعوب أرضاً شائكة فتصبح تكاليف احتلالك من الدول المجاورة أكبر من الفوائد المرجوّة. لقد مضى عامان على الاستقلال الكامل لحكومة فيصل في سوريا، ولقد حافظت على الأمن العام والخدمات العامة في منطقة حكمها.

كانت فرصة بلاد الرافدين في إثبات قوّتها العسكرية ضئيلة شيئاً ما. فهي لم تحارب الأتراك إطلاقاً، وكان قتالها ضدّنا متكلّفاً ومملّاً. في النتيجة، كان علينا إقامة حكومة حرب هناك. لم يكن لدينا أيّ خيار آخر، لكنّ ذلك كان منذ عامين، ولم نقم بالانتقال إلى ظروف السّلم حتى الآن. حقّاً لا يوجد حتى الآن أيّ إشارات تدلّ على التغيير. وفق التصريح الرسمي، يتمّ إرسال "تعزيزات ضخمة" إلى هناك، وسيصل عدد حاميتنا هناك إلى مئات الألوف في الشهر المقبل. وسيرتفع منحنى التكاليف إلى 50 مليون جنيه إسترليني لهذه السنة الماليّة، وسيتطلّب الأمر منّا جهداً أكبر مع ازدياد رغبة سكان بلاد الرافدين في الاستقلال.

إنّ نفاد صبرهم بعد مضيّ عامين ليس مستغرباً. فالحكومة التي أسّسناها هناك هي حكومة على النمط الإنكليزي، وتسيّر أعمالها باللغة الإنكليزيّة. ولذلك هناك 450 مديراً تنفيذياً إنكليزياً يديرون شؤونها، دون رجل واحد من بلاد الرافدين يتبوأ منصباً مسؤولاً فيها. في المقابل، كان المحلّيون يشغلون 70% من مناصب المديرين التنفيذيين العاملين في الخدمة المدنية في زمن الحكم التركي. إنّ جنودنا الذين يبلغ عددهم هناك 80 ألفاً مشغولون في الواجبات البوليسية عوضاً عن حراسة الحدود. إنّهم يضطهدون الناس. أمّا أثناء الحكم التركي، فكان العرب يشكّلون 60% من الضباط و95% من الرتب الأخرى في كلتا الهيئتين العسكريّتين في الرافدين. إنّ حرمان امتياز المشاركة في إدارة بلدهم والدفاع عنها قد ولّد امتعاضاً لدى المثقّفين من أبناء بلاد الرافدين. صحيحٌ أنّنا قد ارتقينا بمستوى الازدهار هناك لكن من يأبه لذلك عندما تكون الحرية في الكفّة المقابلة من الميزان؟ لقد انتظروا سماع خبر حصولنا على حقّ الانتداب ورحّبوا به ظنّاً منهم بأنّ ذلك يعني منحهم حكماً ذاتياً على أراضيهم. وها هم الآن يفقدون الأمل من نياتنا الحسنة.

فما الحلّ؟ أرى أنّه يكمن في تغيير مباشر للسياسة المتّبعة. يبدو المنطق السائد حالياً خطأً بالمجمل. لماذا يتوجّب على الإنكليز (أو الهنود) أن يُقتلوا في

سبيل إقامة حكومة عربية في بلاد الرافدين، علماً أنّ هذه هي نيّة حكومة صاحب الجلالة، وأنا أتّفق معها على هذا الهدف، لكنّني سأجعل العرب يفعلون ذلك، وهم قادرون على فعله؟ إنّ تجربتي المتواضعة في المساعدة على تنصيب فيصل قد علّمتني بأنّ فن الحُكم يتطلّب امتلاك الشخصيّة أكثر من العقل.

لو كان الأمر يعود إليّ، لجعلت العربيّة لغة الحكومة الرسمية. وهذا بدوره سيفرض تخفيضاً على عدد الموظفين البريطانيين، والعودة إلى توظيف العرب المؤهلين لهذه الوظائف، ولحشدت فرقتين من المتطوّعين المحليين، جميعهم من العرب، بدءاً من الجنرالات القادة وصولاً إلى أدنى جندي (علماً أنّه يوجد الآلاف من الضباط وضباط الصف المُدرّبين). سأوكل إلى هاتين الوحدتين الحفاظ على النظام، وسأعمل على أن يغادر آخر جندي بريطاني البلاد. ستستغرق هذه التغييرات ستة أشهر، وعندئذ سيتوجّب علينا أن نرى بلاد الرافدين كما ننظر إلى جنوب أفريقيا وكندا تماماً. أعتقد بأنّ ولاء العرب في ظلّ هذه المتغيرات لن يكون مختلفاً عن ولاء أيّ أحد آخر في الإمبراطورية. وفي هذه الحالة، لن يكلفونا سنتاً واحداً.

سيقولون لي إنّ فكرة المستعمرات السمراء المستقلة في الإمبراطورية البريطانية غريبة. لكنّ خطّة مونتيغيو Montague وخطّة ميلنر Milner ليستا إلّا مقاربتين لهذه الفكرة، والبديل الوحيد لهما هو الغزو، الأمر الذي لا يرغب فيه الإنكليزي العادي ولا يستطيع تحمّل عواقبه.

بالطّبع هناك نفط في بلاد الرافدين، لكنّنا بعيدون كلّ البعد منه ما دامت الحرب دائرة في الشرق الأوسط، وأعتقد أنّه في إمكاننا تحويل هذا الأمر إلى موضوع للمساومة إن كان مهمّاً لنا إلى هذه الدرجة. يبدو أنّ العرب مستعدون لبذل دمائهم في سبيل نيل حريتهم. ما الذي سيبذلونه، يا ترى، في سبيل نفطهم!

2. فرنسا، وبريطانيا، والعرب

8 آب/ أغسطس 1920

ثمة شعور في إنكلترا بأنّ الاحتلال الفرنسي لدمشق وطردهم فيصل، الذي انتخبه السوريون الممتنّون لنا ملِكاً عليها، عن العرش هو في نهاية الأمر بمكانة نكران للجميل الذي قدّمه إلينا فيصل خلال الحرب. إنّ فكرة أن نكون مقصرين في ردّ جميل صديق مشرقيّ ستخلّف غصّة في قلوبنا. وإنّ شجاعة فيصل وحنكته السياسية جعلتا ثورة مكة المكرمة تمتدّ إلى ما بعد المدن المقدسة، إلى درجة أنّها أصبحت مصدراً للعون الفعّال للحلفاء في فلسطين.

لقد تطوّر الجيش العربي، الذي تمّ إنشاؤه في الميدان، من مجموعة من البدو إلى جيش منظّم ومجهّز جيداً. لقد أسروا 3500 جندي تركي، وحيّدوا أكثر من ذلك نتيجة الإصابة، وغنموا 150 مدفعاً، واستولوا على مئة ألف ميل مربّع من الأراضي العثمانية. لقد شكّل هذا خدمة جليلة لنا عندما كنّا أحوج ما نكون إليها، وشعرنا بأنّنا مدينون للعرب بمكافأة. ومدينون لفيصل، زعيمهم، على نحو مضاعف لقاء الولاء الذي أظهره في تنظيم العمل الأساسي الذي لعبه العرب في الزمان والمكان الذي ارتآه ألّنبي.

مع هذا كلّه، ليس من صلاحيّاتنا أن ننتقد الفرنسيين في هذا الشأن. إنّ جلّ ما فعله الفرنسيون على صعيد الساحة السورية هو أنّهم، بكلّ تواضع، فعلوا ما فعلناه في بلاد الرافدين. إنّ إنكلترا تسيطر على تسعة أجزاء من أصل عشرة من العالم العربي، وهي حتماً صاحبة القرار في الطريقة التي يتصرّف فيها الفرنسيون. فإن اتّبعنا سياسة عربية، فسيتوجّب عليهم أن يكونوا عرباً. أمّا إن حاربنا العرب، فعليهم محاربتهم أيضاً. سيظهر كأنّنا نفتقر إلى روح الدعابة في حال إدانة الفرنسيين بسبب المعركة التي خاضوها قرب دمشق، والقضاء كلياً على محاولات السوريين الحصول على الحكم الذاتي، فيما كنّا نخوض معاركنا قرب بغداد، ونحاول أن نجعل بلاد الرافدين عاجزة عن حُكم نفسها بنفسها بسحق أيّ شخص يحاول أن يرفع رأسه بينهم.

منذ أسابيع، طُلب من مدير إدارتنا في بغداد[20] استقبال بعض الأعيان من العرب الذين يرغبون في إثارة مسألة الاستقلال الجزئيّ. فحشا الوفد بمرشّحين منه، وفي سياق الردّ على مطالبهم، أخبرهم بأنّهم يحتاجون إلى زمن طويل لكي يكونوا مؤهّلين لتحمّل هذه المسؤولية. كانت هذه كلمات جريئة لكنّ نتائجها وخيمة على رجال مانشستر الذين يعملون في مدينة الحلّة هذا الأسبوع.

20 العقيد أرنولد تالبوت ويلسون Arnold Talbot Wilson، المفوّض المدني بالإنابة.

تأخذ حركات التمرّد هذه مساراً منتظماً. تبدأ بنصر مبدئي للعرب، ثمّ تخرج التعزيزات البريطانية على شكل قوة تأديبية. بعد ذلك، يشقّون طريقهم نحو هدفهم (خسائرنا ضئيلة، وخسائر العرب فادحة)، ويكون في هذه الأثناء تحت نيران المدفعية والطائرات والزوارق الحربية. في نهاية المطاف، من الممكن أن تُحرق قرية ثمّ تهدأ المنطقة بأسرها. من المستغرب ألّا نستخدم الغاز السّام في هذه الحالات. يُعدّ قصف المنازل وسيلة رديئة لاستهداف النّساء والأطفال، وغالباً ما يتكبّد جنودنا الخسائر أثناء إطلاق النار على الرجال العرب. في المقابل، تمكن إبادة جميع السكان الذين يقطنون المناطق المضطربة بكلّ إتقان عن طريق قصفها بالغاز السّام. وعلى الصعيد الأخلاقي، لن يكون استخدامها كوسيلة للحُكم مختلفاً عن النظام السائد في الوقت الحالي!

إنّنا ندرك حجم العبء الذي يشكّله الجيش في بلاد الرافدين على وزير الخزانة الإمبراطوري، ولكنّنا لا نرى بالوضوح نفسه العبء الذي يشكّله على بلاد الرافدين. إنّ إطعامه وإطعام جميع الدواب التي يستخدمها يقع على عاتق البلاد هناك. يبلغ عديد القوات المقاتلة هناك الآن 83 ألفاً، لكنّ المؤن المخصّصة تكفي 3000 جندي فقط. فضلاً عن ذلك هناك ثلاثة عمّال مخصّصين لخدمة كل جندي وتزويده بحاجياته. تسعة أشخاص من كلّ عشرة في بلاد الرافدين الآن ينتمون إلى جيشنا هناك. إن اطعامهم قد استنزف موارد البلاد من الخضار، مع أنّ العملية لم تبلغ ذروتها بعد. وليحافظوا على أنفسهم آمنين، يطالبون بمضاعفة حاميتنا الموجودة هناك الآن. وبما أنّ الموارد المتوفّرة محلياً قد استُنزفت، ستتسبّب زيادة أعداد الجنود في زيادة التكاليف إلى مستويات تعجز الأرقام عن شرحها.

إنّ وظيفة هؤلاء الجنود بوليسية بطبيعتها، وتتمثّل في التحكّم في الرعايا الذين يتوقون، كما تمّ إخطار مجلس اللوردات منذ أسبوعين، إلى استمرار وجودنا في وطنهم! لا يستطيع أحد أن يتصوّر ما سيحلّ بنا لو قرّرت إحدى جاراتنا الثلاث، التي تنظر إلينا بعين الحسد، مهاجمتنا من الخارج (جميعها ترعى مخططات ضدّنا)، في الوقت الذي تسود فيه مشاعر غياب الولاء في الدّاخل. إنّ نُظم اتصالاتنا سيئة للغاية، والميمنة والميسرة في مواقعنا الدفاعية مكشوفة على الملأ، إذ وقعت حادثتان أخيراً. ونحن لا نثق بجنودنا كما كنّا نفعل خلال سنوات الحرب.

بعد هذا تأتي الأعمال العسكرية. إذ ينبغي تشييد ثكنات ومعسكرات ضخمة، ناهيك عن مئات الأميال من الطرق العسكرية. هناك جسور عظيمة مخصّصة لعبور الشاحنات موجودة في أماكن بعيدة، حيث تشكّل الدواب وسيلة النقل المحلية الوحيدة هناك. لقد شُيّدت هذه الجسور من مواد مؤقتة، ولهذا تكاليف صيانتها باهظة جداً. كما أنّها بلا فائدة بالنسبة إلى الحكومة المدنية التي ستقوم باستملاكها لاحقاً مقابل ثمن باهظ، وهكذا ستبدأ الدولة الجديدة مسيرتها بدَيْن قسري.

يذرف السياسيون الإنكليز، بدءاً من رئيس الوزراء وانتهاءً بأصغر سياسي هناك، الدموع بسبب العبء الواقع على عاتقنا في بلاد الرافدين. ”لو كان في استطاعتنا بناء جيش محلّي“، قال اللّورد كرزون، ”لكنّهم لن يقبلوا الخدمة فيه“ (”إلّا إن كان سيقاتل ضدّنا“، لا بدّ أن سعادته قد أضاف هذه العبارة في قرارة نفسه). ثم أضاف: ”لو كان بإمكاننا إيجاد عرباً مؤهّلين لشغل المناصب التنفيذية“.

مع ندرة الكفاءات المحلّية في بلاد الرافدين، تكون المقارنة مع الوضع في سوريا مفيدة في هذا السياق. لم يجد فيصل أيّ صعوبة في حشد جيش من الجنود رغم الصعوبات التي واجهها في دفع أجورهم. على كلّ حال، كانت الظروف مختلفة في تلك الأوقات، لأنّه كان قد حُرم إيرادات الرسوم

الجمركية. فضلاً عن ذلك لم يواجه فيصل أيّ صعوبات فيَ تأسيس إدارة تتميّز بأنّ الشخصيات البارزة الخمس التي تقوم عليها من سكان بغداد المحلّيين! ولم تكن من أفضل الإدارات، لكنّ الناس في الشرق أقل إلحاحاً منّا. حتّى في أثينا لم يمنحهم المشرّع سولون Solon أفضل القوانين، بل اكتفى بإعطائهم أفضل ما يتقبّلونه.

لا يستطيع البريطانيون في بلاد الرافدين العثور على شخص كفُؤ واحد، لكنّني أقول إنّ تاريخ الشهور القليلة الأخيرة قد أظهر إفلاسهم السياسي، ويجب ألّا يُرجح رأيهم على رأينا إطلاقاً. أعرف شخصياً عشرة مسؤولين بريطانيين محتّكين من ذوي السمعة المشرّفة في السودان وسيناء والجزيرة العربية وفلسطين، وفي مقدورهم كلّهم، كل واحد منهم، تأسيس حكومة عربية تضاهي حكومة فيصل في بغداد الشهر المقبل. هذه لن تكون حكومة مثالية أيضاً، لكنّها ستكون أفضل من تلك التي أسّسها فيصل، لأن هذا المسكين قد حُرِم المستشارين الأجانب، في محاولة لإحباط عزيمته. ستدعم الحكومة البريطانية هذه الجهود في بلاد الرافدين، وستكون بمكانة تسلية إن ترأسها رجل جدير، وخصوصاً إن أدارها كما أدار كرومر Cromer مصر، وليس كما كانت تُدار مصر تحت بند الحماية. لقد سيطر كرومر على مصر ليس لأنّ بريطانيا منحته السلطة لفعل ذلك أو لأنّ مصر قد أحبّت وجودنا أو لأيّ سبب خارج هذا النطاق، بل لأنّه كان رجلاً من خيرة الرجال. ولدى بريطانيا مخزون كبير من الرجال المميّزين. آخر ما نحتاجه هناك هو رجل عبقري. ما نحتاجه حقّاً هو نسف ما قد فعلناه سابقاً، والبدء من جديد بناءً على الاستشارات. فلا جدوى ترتجى من إصلاح النظام الحالي. إنّ "تقديم التنازلات إرضاءً لمشاعر المحلّيين" وغيرها من الترهات ليست إلّا تنازلات تنمّ عن الضعف، وهي تدفع إلى مزيد من العنف. إنّنا ناضجون بما فيه الكفاية لنعترف بخطئنا ونبدأ صفحة جديدة. وعلينا فعل ذلك بفرحة عارمة، لأنّه سيوفّر علينا مليون جنيه إسترليني أسبوعياً.

3. بلاد الرافدين: حقيقة الحملة

22 آب/ أغسطس 1920

مضيعة للأرواح والمال "نحن على شفير كارثة اليوم"

كتب السّيد لورانس، الذي يُعتبر تنظيمه وإدارته للحجاز من أكثر قصص الحرب الشهيرة رومنسيّةً، هذه المقالة نزولاً عند رغبتنا، عسى أن يأخذ عامة الشّعب فكرة شاملة عن التزاماتنا في بلاد الرافدين.

لقد تمّ اقتياد الشعب البريطاني إلى شرك يصعُب الخروج منه بشرف وكرامة في بلاد الرافدين. لقد تمّت خديعتهم للوقوع فيه عن طريق كتم المعلومات بمنهجية. فقد كانت بيانات بغداد متأخّرةً ومنقوصة ومخادعة. كانت الأمور أسوأ بكثير ممّا أبلغونا به وإدارتنا أكثر دموية وأقلّ كفاءة ممّا تعرفه عامّة الشعب. هذا عارٌ يُسجّل في سجلّنا الإمبراطوري، ومن الممكن أن يتفاقم بسرعة إلى حد لا ينفع فيه علاج عادي. نحن اليوم أقرب ما نكون إلى شفير كارثة.

إنّ الذنوب التي اقترفتها السلطة الانتدابية هي نفسها التي ارتكبتها السلطات المدنية البريطانية في بلاد الرافدين (تلك المتعلّقة "بالعقداء" الثلاثة خصوصاً) التي أطلقت يدها لندن هناك. فلا سلطة لوزارة الخارجية عليها، فهي تقع تحت سلطة الفراغ الذي يفصل الخارجية عن مكتب الهند. لقد استغلّوا السلطة الاستنسابية الضرورية الممنوحة لهم في زمن الحرب واستخدموها في زمن السّلم لتحقيق استقلاليتهم الخطيرة. لقد طعنوا بكلّ اقتراح أرسلته القيادة في بريطانيا ينادي بالحكم الذاتي الحقيقي. ولقد صاغوا أخيراً ونشروا إعلاناً حول الحكم الذاتي على عجالة، تمّ توزيعه بحماسة من بغداد من أجل إحباط بيان أكثر تسامحاً كان قيد التحضير في لندن. كما استغلت "الوثائق المتعلّقة بتقرير المصير" في بلاد الرافدين عام 1919، المقبولة بريطانياً، عن طريق الضّغط الذي مارسه المسؤولون هناك، واستعراض القوة بعروض الطائرات، والإبعاد إلى الهند.

مسؤولية الحكومة

لا يمكن للحكومة التنصل من المسؤولية برمّتها. فهم لا يكادون يتلقّون معلومات أكثر ممّا تتلقّاه عامة الشعب. لذلك، كان عليهم الإصرار على معرفة المزيد، والحصول على أفضل من ذلك. لقد أرسلوا مجموعات احتياطية من التعزيزات تلو الأخرى، دون أيّ مسائلة. وعندما ساءت الظروف إلى درجة لا يمكن احتمالها، قرّرت الحكومة إرسال مصمّم النظام الحالي[21] الأصلي بصفة مفوّض سامٍ، حاملاً رسالة تصالحيّة للعرب مفادها أنّ قلبه وسياسته قد تغيّرا كلّياً.

[21] السير بيرسي كوكس Percy Cox الذي تقرّر إرساله مفوّضاً سامياً في تشرين الأول/ أكتوبر اللاحق لتشكيل حكومة مؤقتة من وجهاء العرب.

مع هذا كلّه، لم تتغيّر سياستنا المعلنة، ولم تكن بحاجة إلى التغيير. إنّ جلّ ما في الأمر وجود تباين مؤسف بين تعهداتنا وممارساتنا. لقد قلنا إنّنا ذهبنا إلى بلاد الرافدين لهزيمة تركيا، وإنّنا بقينا هناك لتحرير العرب من ظلم الحكومة التركية، ومن أجل تأمين مواردها من الذرة والزيت للعالم أجمع. لقد بذلنا ما يقارب مليون رجل وأنفقنا ما يقارب ألف مليون من المال لتحقيق هذه

الغايات. وفي هذا العام نحن بصدد بذل 92 ألف رجل وإنفاق خمسين مليوناً على الموضوع نفسه.

أسوأ من الأتراك

إن حكومتنا أسوأ من النظام التركي القديم. لقد أبقت 14 ألف مجنّد محلي منطوين تحت راية قواتنا، وقتلت بمعدّل مئتي عربي سنوياً من أجل الحفاظ على السّلم. إنّنا نحتفظ بتسعين ألف رجل، إضافةً إلى الطائرات والعربات المدرّعة والزوارق المسلحة والقطارات المصفّحة. لقد قتلنا ما يقارب عشرة آلاف عربي أثناء هذه الانتفاضة خلال الصيف. وليس في وسعنا أن نأمل الحفاظ على هذا المعدّل، لأن البلد فقير وسكانه متناثرون هنا وهناك، لكنّ السلطان عبد الحميد سيهلّل لأسياده لو شاهدنا نعمل. لقد أخبرونا بأنّ الهدف من الانتفاضة سياسي، ولكنّهم لم يخبرونا بما يريده الشعب. قد يكون ما وعدتهم به الحكومة. تحدث أحد الوزراء في مجلس اللوردات قائلاً إنّه يتوجب علينا الإبقاء على عدد كبير من الجنود هناك، لأن السكان المحلّيين يرفضون الانضمام إلى الجيش. في الجمعة، أعلنت الحكومة مقتل بعض المجنّدين المحلّيين أثناء دفاعهم عن ضباطهم البريطانيين، وأضافت أنّه لم يتم الاعتراف بخدمات هؤلاء الرجال بما يكفي نظراً إلى قلّة عديدهم (إضافةً إلى لمسة بغداد المميّزة بوصفهم أشخاصاً رديئين). كان هناك 7000 منهم، أي ما يقارب نصف عديد قوات الاحتلال التركي. وفي حال تمّ توزيعهم وقيادتهم على نحو ملائم، سيحلّون محل نصف قواتنا هناك. لقد سيطر كرومر على مصر التي يبلغ عدد سكانها ستة ملايين نسمة بخمسة آلاف جندي بريطاني، فيما يخفق العقيد ويلسون في السيطرة على بلاد الرافدين التي يقطنها ثلاثة ملايين فقط رغم وجود تسعين ألف جندي تحت إمرته.

التزاماتنا العسكرية

لم نصل بعد إلى الحد الأقصى لالتزاماتنا العسكرية. منذ أربعة أسابيع، حرّرت هيئة الأركان في بلاد الرافدين مذكّرة تطلب فيها أربع فرق إضافية. أعتقد بأنّها وُجِّهت إلى وزارة الحربية التي أرسلت الآن ثلاثة ألوية من الهند. فإن لم يكن بالإمكان استنزاف الحدود الشمالية الشرقية أكثر من ذلك، فمن أين سيستحضر الجزء المتبقي؟ في هذه الأثناء، كان جنودنا التعيسون، من الهنود والبريطانيين الذين يقاسون الظروف المناخية الصعبة وقلّة المؤن، يحرسون منطقة شاسعة ويبذلون ثمناً باهظاً في الأرواح يومياً لقاء السياسة غير الصائبة، والمتعمّدة، التي تنتهجها الإدارة المدنية في بغداد. لقد تم إعفاء الجنرال داير Dyer من مهماته في الهند نتيجة خطأ أقلّ من ذلك بكثير، لكنّ المسؤولية في هذه الحالة لا تقع على عاتق الجيش الذي تصرّف بناءً على طلب السلطات المدنية. لقد فعلت وزارة الحربية ما في وسعها لتقليص عدد قواتنا، لكنّ قرارات الحكومة لم تكن في مصلحتها.

كانت الحكومة في بغداد تشنق العرب في تلك المدينة تحت مسمّى الجرائم السياسية التي يدعونها ثورة. إنّ العرب ليسوا ثوّاراً ضدّنا. فهم لا يزالون اسمياً تحت الرعاية التركية، أي اسمياً في حالة حرب معنا. وهل يمكن لهذه الإعدامات غير القانونية أن تستفزّ العرب للانتقام من الأسرى البريطانيين الثلاثمئة المحتجزين لديهم؟ في حال حدث ذلك، هل من الممكن أن يكون عقابهم أشدّ، أم ستؤدّي إلى إقناع جنودنا بالقتال إلى آخر قطرة من دمائهم؟

لمصلحة من؟

نحن نقول إنّنا أتينا إلى بلاد الرافدين لتطويرها خدمةً للعالم أجمع. وجميع الخبراء يقولون إنّ عرض اليد العاملة المتاحة يمثّل العامل الأساسي في تطويرها. فإلى أيّ حد سيتسبّب قتل عشرات الآلاف من القرويين وسكان المدن هذا الصيف في إعاقة إنتاج القمح والقطن والزيت؟ وإلى متى سنسمح بالتضحية بملايين الجنيهات وآلاف الجنود الإمبراطوريين وعشرات آلاف العرب لمصلحة شكل من أشكال الإدارة الاستعمارية التي لا يسعها إفادة أحد باستثناء القائمين على إدارتها؟

خامساً

الشرق المتغيّر

أيلول/ سبتمبر 1920

نُشرت هذه المقالة للمرّة الأولى في مجلة *The Round Table* في أيلول/ سبتمبر 1920، من دون اسم مؤلف، وفقاً لقواعد النشر المرعيّة.

عندما تواصل النّاشران اللندنيّان ويليامز ونورغيت مع أرنولد والتر لورانس لنشر مقتطفات منوّعة من كتابات شقيقه توماس إدوارد لورانس، بعد مرور بضعة أعوام على وفاته، استجاب أرنولد والتر وقام بتجميع مقتطفات مختارة صغيرة ذات مغزى شرق أوسطي، نُشرت عام 1939 بعنوان *Oriental Assembly*. تضمّنت هذه المقتطفات "The Changing East"، إضافةً إلى الفقرة اللاحقة من هذا الجزء، و"Evolution of a Revolt". وتضمّنت أيضاً، لأول مرّة، النسخة الكاملة لمقدّمة *Seven Pillars of Wisdom* (انظر مقدّمة "The Iraq Letters"، الصفحة 240 في النص الأصلي).

إنّ التاريخ الذي نُشرت فيه هذه المقالة للمرّة الأولى، أيلول/ سبتمبر 1920، مهمٌّ للغاية، فأغلب الظّن أنّ لورانس كان منهمكاً في كتابته في الوقت الذي كان يفكّر فيه في كتابة، أو كان حقّاً يكتب، رسائل الاحتجاج الغاضبة التي تمّ عرضها في القسم السّابق، والتي يعود تاريخ اثنتين منها إلى الشهر الذي سبق هذه المقالة. بالمقارنة مع تلك الرسائل النبرة هنا تأمليّة، وفي بعض الأحايين رثائية إلى حد ما، وبالتأكيد أكثر جزالة، كما أنّها لا تنطوي على أيّ إشارة إلى الاستعانة بوسائل عصبية أو عنيفة لفرض حلّ بريطاني أو غربي في مناطق النزاعات أو الاضطرابات. حقّاً إنّ الرسالة الأبرز التي تصيبك في الصميم عند قراءتك إياها مرّة أخرى اليوم هي أنّ الشخص الذي دوماً اتُّهم أنّه إمبريالي في الخفاء، رغم كلّ الاقتراحات التي تناقض هذا الطّرح، يمكنه أن يقترح جدلاً أنّ السياسة المثلى للتعامل مع الجنسيات التابعة تتمثّل في منحهم زعيماً يختارونه، أي منحهم حرّيتهم. عام 1940، خلال إحدى أعظم خطاباته التي أدلى بها في أحلك الظّروف، أشار ونستون تشرشل، بصفته رئيساً للوزراء آنذاك، إلى أنّ الإمبراطورية البريطانية قد تستمر لألف عام. بالطّبع، كان التّركيز آنذاك على ادّعاء أنّ تلك هي "اللحظة الأمثل"، لكنّ استمرارية الإمبراطورية على المدى الطويل كانت مزعومة افتراضياً، على أنّها غير قابلة للجدل، بل "حقيقة مسلّم بها". هنا، وقبل عشرين عاماً، نجد لورانس يحاجج في أنّه رغم كون "الإمبراطورية البريطانية الأعظم شأناً في العالم، إذ تُقدّم للشعوب الصغيرة إغراء لا نظير له للانضمام إليها"، يجب أيضاً الاعتراف بأنّه يتوجب على البريطانيين، في ما يخصّ تلك "الشعوب الصغيرة"، "أن يكونوا مستعدّين لرؤيتهم يفعلون الأشياء بأساليب لا تشبه أساليبنا، وبكفاءة أقلّ. ولكن في المبدأ من الأفضل أن ندعهم يقومون بأنصاف الأشياء بأنفسهم بدلاً من أن ننجزها كلياً بالنيابة عنهم". ثم يضيف: "في حال اتّبعنا هذه الطرائق، لن نجد أفضل أعواننا بين رعايانا السّابقين المطيعين، بل سنجدهم بين مَن يثيرون القلاقل ضدّنا بصورة نشطة اليوم، لأن قادة الشعب من المثقفين هم من سيؤدون غرضنا، وأولئك ليسوا من الفلاسفة أو الأغنياء، وإنّما من الديماغوجيين والسّاسة". بعد ذلك، يدلي لورانس بتصريح لافت حقّاً: "من الواضح أنّها فئة لافتة للنظر تلك التي سنأتمن إليها صروح حكوماتنا الاستعمارية التي قد بدأ تشييدها بحذر، لكنّها لن تكون مختلفة جوهرياً عن أعضاء مجلس العموم الخاص بنا الذي نأتمنه على حرّياتنا". ولا يزال محتملاً أن يرى بعض المعلّقين المعاصرين هذه الآراء على أنّها متعالية لناحية الافتراضات التي وضعوها عن أهلية الشعوب الصاعدة وكفاءتها. ولكن يمكن أن ننظر إلى المسألة من ناحية الجوهر على أنّها أبعد من مفهوم "المستعمرة السمراء المستقلة" السّابق الذكر، في النتيجة على أنّها تسبق عصرها بصورة مذهلة.

سبقت هذه الرسائل والمقالة مؤتمر القاهرة الذي عقده تشرشل عام 1921 والذي انخرط فيه لورانس بنشاط نزولاً عند رغبة تشرشل الشخصية، بهدف

إيجاد حلّ للوضع غير المرضي في الشرق الأوسط الذي أنتجته الترتيبات التي تمّ التوافق عليها في باريس. وبناءً على نتائجها نُصّب فيصل على عرش العراق، فيما نُصّب شقيقه عبد الله حاكماً على شرق الأردن، أي ما صار يعرف لاحقاً بالمملكة الأردنية. سمحت التسوية التي تمّ التوصل إليها بهذه الطريقة للورانس، كما ذَكر في كتاب *Seven Pillars of Wisdom*، أن يخلص إلى أنّه "في حِلٍّ من مغامرة زمن حربنا في الشرق بيدين نظيفتين". وفي رسالة إلى كاتب سيرته الذاتية روبرت غريفز عام 1927، وصف لورانس الأمر على أنّه "أعظم إنجازات حياتي".

في سياق هذا الكتاب ربّما ينبغي الإحاطة بإيجاز بالنتائج المتباينة لهذه التسوية. فلا تزال الأردن تحت حكم أحد المتحدرين من سلالة عبد الله، يحمل اسم جدّه الأكبر ولقب الملك عبد الله الثاني. أمّا في العراق، فانتهى الحكم الملكي بانقلاب عسكري عام 1958، قُتل على إثره الملك فيصل الثاني، الذي حكم البلاد منذ وفاة والده عام 1933، وبقيّة أفراد العائلة المالكة رمياً بالرصاص بكلّ وحشية، ثمّ استولى حزب البعث الثوري على زمام السلطة هناك. وإلى حد معقول، يمكن القول إنّ الأزمة العراقية الحالية قد نجمت عن تلك الحادثة.

الشرق المتغيّر

أيلول/ سبتمبر 1920

في إحدى المرّات، صاغ أحد الكتّاب التصوريّين عبارة "The Unchanging East" [الشرق غير المتغيّر]، ثم دار الزمان وانتقم منه. أمّا اليوم، فإنّ الشرق هو ميدان التغيير لتغيّرات عظيمة وسريعة إلى درجة أنّ أوروبا تبدو ثابتة في مكانها بالمقارنة معه. لقد كنّا منخرطين جداً في الوقت الأخير في شنّ الحروب وصنع السلام، والتأمّل في جراحاتنا، ومحاولة استعادة توازنات الزمن، ولذلك لم يكن في استطاعتنا الاهتمام بما كانت تفكّر فيه آسيا أو تفعله. كنّا نحاول التعامل معها وفق القواعد التقليدية القديمة، لكنّها لم تستجب بطريقة ملائمة، الأمر الذي أثار استياءنا. فاندلعت الأعمال القتالية، وبدأت الاضطرابات والاحتجاجات. أمّا نحن، فغفلنا عن تسلسل الأحداث نتيجة افتقارنا المعلومات عن الحراك هناك، فلم نجد أمامنا إلّا خيار القوة كملاذ أخير لتسوية الأمور.

مع ذلك، ثمة حاجة ماسّة إلى فهم ما يجري – لدراسة متأنيّة لملكيّتنا في آسيا – من أجل استعادة التواصل مع وجهات نظرهم. نحن جميعاً متّفقون على ضرورة إجراء هذا التقويم، رغم أنّ قلّة قليلة منّا ستوافق على الدروس

المستقاة منها لاحقاً. لقد أرسلنا بعثة إلى الهند، وقد ارتأت إمكانيّة الإصلاح هناك، كما أرسلنا بعثة إلى مصر لتنظر في إمكانيّة الإصلاح هناك أيضاً. لقد سمعنا أخيراً كلاماً في مجلس اللوردات عن بعثة إلى بلاد الرافدين. حتى أنّ مالطا نالت نصيبها من هذه البعثات. لكنها كلها لم تكن سوى مسائل تدريجية يديرها سياسيّون ضيّقو الأفق لا يُسمح لهم برؤية أيّ شيء سوى الوضع السياسي للإقليم الذين هم بصدد التعامل معه. فلم يتقدّم إلينا أيّ منهم بدراسة استطلاعية عن آسيا الجديدة. لم يشخّص أيّ منهم الدّاء، ولا الدواء. وهذا الدّاء مادي وعيني وأخلاقي وذهني، وسمِّه كما تشاء. إنّه داء الحضارة، الأثر الحتمي للاحتكاك المباشر مع الغرب. إنّه الدّاء الذي أصاب السكان الأصليين في أستراليا، فتسبّب في موتهم. كان هناك أسباب بيولوجية تفسّر هذا الوهن الشديد في بنيتهم فلا يستطيعون تحمّل الاحتكاك بجسد اجتماعي مختلف جداً عن جسدهم الاجتماعي. لكنّ آسيا أقوى وأعرق وأكثر تعددية، ولن تموت بسببنا. ولكن، من دون أدنى شكّ، لقد أعييناها إلى حد كبير. أمّا أوروبا، فليست لقمة سائغة.

يمكننا رؤية العبء الذي وضعنا على كاهل آسيا مباشرةً في مجال المعدّات. لقد طوّرنا الآلات على مرّ عصور طويلة من الصراعات والاختراعات، سنوات تغيّر فيها وجه أوروبا تدريجياً لكي تتماشى مع الأفكار الجديدة، دون التسبّب في أيّ بؤس شديد. كان لدينا خيول مُسرجة، وعربات من دون نوابض، ومقطورات، وسكك حديدية، وسيارات، وطائرات. وفي بعض الأوقات، شعرنا بأن التقدّم كان سريعاً إلى درجة مخيفة، وكنّا نضع رجالاً يحملون الرايات الحمراء ويسيرون أمام الآلات ليتمكّنوا من تنبيهنا عند الخطر في كلّ مرّة كنّا نتقدّم فيها. فكيف كان الأمر بالنسبة إلى آسيا التي قامت بنقلة نوعية من عالم الحمير المسرجة إلى عالم سيارات Rolls-Royce، ومن عالم إناث الخيل التي تُتّخذ من أجل النّسل إلى عالم الطائرات؟ لقد تطوّرنا ببطء من مرحلة القوس إلى مرحلة البندقية، ثمّ إنتقلنا إلى مرحلة البندقية الآلية؛ لقد استغرق الأمر منّا خمسمئة عام. لقد تخلّى غزاة الصحراء عن رماحهم قبل الحرب مباشرة، وأصبحوا الآن ينطلقون في غزواتهم مسلّحين بمدافع Maxim. لقد اخترعنا آلات الطباعة منذ أربعمئة عام، وأمضينا وقتاً طويلاً في التدرّب على آلات الطباعة الخشبية، ثمّ الآلات ذات اللولب، ثمّ الآلات ذات الذراع، ومن بعدها الآلات البخارية والكهربائية، إلى أن وصلنا أخيراً إلى طباعة الصحف بثمن بخس وسرعة كبيرة. بالتّوازي مع ذلك، كان الشرق آنذاك يعتمد على Linotype والنّاسخ اليدوي التقليدي الذي كان يفقد عمله عاماً بعد عام. لقد دخلت الصحافة إلى عالمهم باللغة المحلية بسرعة فائقة. كانت هذه الجوانب المتعلّقة بالمعدّات. لقد قفزت آسيا خلال ثلاثين عاماً إلى مرحلة استغرقت منّا مئات السنين. ربّما لم تفعلها بأسلوب جيد جداً، شأنها شأن أجزاء من روسيا، وأجزاء من البلقان، وأجزاء من جنوب أميركا، لكن الأهم من ذلك أنّها فعلتها،

وأنّ آسيا كينغ ليك Kinglake ولامارتين Lamartine قد ولّت إلى غير رجعة. وهذا ما نشهده بأمّ أعيننا، ويتحسّر بعض المتعلّقين بأعراف القرون الوسطى منّا على ذلك. على أيّ حال، كان ذلك مجرّد حالة استعراضية لا أكثر. لم يتمّ إرجاع عقارب السّاعة إلى الوراء إطلاقاً، لكنّ أبسط الأمور تكمن في تقديم عقاربها قليلاً. وهناك كثير من الناس يدفعون آسيا لدرجة أنّه من الصّعب جداً إدراك مدى السرعة الطبيعية التي تتقدّم بها دون مساعدة الآخرين. ونحن لن نكتشف ذلك إلّا إن توقّفوا عن العبث بها. ومع ذلك، من الضروري معرفة هذا، بما أنّ الأرض ليست سوى مضمار تتنافس فيه الدول والقارات بينها. ومن معرفتنا، نستطيع القول إنّه من المحتمل أن تكون آسيا قد تفوّقت علينا ذهنياً.

من الصعوبة بمكان قياس هذا النموّ الذهني والأخلاقي. من شأن التغيرات المادية أن تهيّئ عقولنا لملاحظة تغيّر كبير في أساليب أخرى، لكنّ إدراكها يبقى أمراً غير مؤكّد. كان ثمة تغيّر في الأفكار؛ بدأنا نسمع الشعوب الآسيوية تتحدث عن الحكومات النيابية والبرلمانات. في زمن آبائنا، كانوا يُحكمون بالثيوقراطيين والطّغاة. فبمجرّد التفكير قليلاً في الوقت الذي استغرقناه لنشهد ولادة مجلس عموم، ستعترينا الدّهشة من آسيا التي تتّجه إلى الصدارة اليوم. هناك اضطرابات عمالية في القاهرة وبومباي، وإضراب عام في مكة المكرمة، ومؤتمرات نقابات عمال في القسطنطينية. لقد أُصيبوا بعدوى هذا المرض بسرعة. أمّا حق تقرير المصير، فأجل، تبنّوه كبند من بنود عصبة الأمم لدرجة يولونه فيها اهتماماً أكثر ممّا نفعل. لا بدّ أنّ الأمور آخذة بالتطوّر. لقد رأينا سياساتهم تتغيّر قبل الحرب نتيجةً لاستنزاف الدوافع والغايات البالية وبروز دوافع جديدة على الساحة. ففي زمن آبائنا، كان الشرق، وبالأخصّ الشرق الأوسط وهذا الجزء من أفغانستان، منطقياً ومتشابهاً وبسيطاً. كانت بلاد فارس وتركيا ومصر وغيرها من هذه الدول حكومات راسخة تحكمها السلاطين والأمراء بحكم الشريعة، وغالباً بالحق المقدّس، معتمدين في قوانينهم على التعاليم الدينية للدولة. في بادئ الأمر، كان الرجال يُصنّفون على أنّهم مسلمون، أو مسيحيّون، أو كفّار. في ما بعد، ولا أعلم هل هناك سبب لذلك، أصبح تصنيفهم على أنّهم أتراك أو عرب وارداً، لكنّهم لم يكونوا متأكّدين من ذلك تماماً. ولهذا، كان الدِّين هو العامل الأهمّ؛ لا نستطيع الاستهزاء بهم. فقد كنّا حتى وقت قريب مثلهم، عندما كنّا لا نزال في زمن المخطوطات والقوس والنّشاب. في 1870 تقريباً، بدأنا نشهد بدايات فكرة جديدة هي الحسّ القومي الذي نشأ بداية في أوروبا الغربية، ثمّ انتقل ببطء باتّجاه الجنوب والشرق، مسبّباً الاضطرابات والحروب في كلّ دولة ينتقل إليها على حدة. إنّ القومية مفهوم عنيف، ومن المحتمل أنّه قد أزهق، خلال فترة سطوته الأقصر نسبياً، أرواحاً بقدر ما أزهقه الدِّين. وقد أصبح أكثر فتكاً في مراحله الأخيرة؛ لقد كان تأثيره في دول البلقان وأيرلندا، وهي آخر الدول التي ابتليت به، شديداً للغاية. أمّا نحن، أوّل من عانى منه، فيبدو أنّنا قد أصبحنا

محصّنين ضدّه؛ من المحتمل أنّنا نمرّ بمرحلة اقتصادية تُعتبر فيها الحروب والحكومات مجرّد مصالح تجارية لا أكثر. ظاهرياً يبدو كأنّه محرّض على النزاعات لا طائل منه. أمّا الدافع الاقتصادي، فيوازي الدوافع الدينية والقومية في قوّته التدميرية.

مع ذلك، لم يتقدّم الشرق إلى هذا الحد بعد. فقد بدأت الأعراض الأولية للقومية الظهور في تركيا، عندما بدأ مدحت باشا استخدام الكلمات الفرنسية في الحكومة، وفي مصر عندما انتفض عرابي باشا وبدأ دحر الخديوي وحاشيته التركية بقوّة السلاح. لقد تمّ ردع كلتا الفكرتين بصرامة. عزّز البريطانيون السّلالة الأجنبية في مصر، وتبنّى السلطان عبد الحميد نهج الوحدة الإسلامية، بوصفها مفهوماً تراتبياً للإسلام، كإجراء تصحيحي لأفكار مدحت باشا. لقد استقاها من كتاب ألماني كان يخلط بين مفهوم الخلافة والبابويّة في القرون الوسطى. على أيّ حال، لاقت الفكرة نجاحاً مؤقتاً، ولا تزال صامدة إلى حد ما في الهند وأفريقيا. لقد ساد السلام أعواماً عدّة في آسيا، وتفهّمت أوروبا الوضع دون الحاجة إلى إجراء أيّ تغيير في طريقة تفكيرها. كان هذا أفضل لنا ولآسيا على حد سواء، لأنّه، كما أشار أحد الألمان، عندما نُضطرّ إلى تغيير رأينا بخصوص شأن ما، غالباً ما نضيف تكاليف الإزعاجات إلى الحساب. لم تمت الأفكار الجديدة. بالتّأكيد، لم يكن ذلك ممكناً، خاصةً أنّ البلقان تُقدّم أرضاً خصبة للفكر القومي. كانت تلك الأفكار بمكانة ميكروبات على بوابة آسيا. وبعد مُضيّ عشرين أو ثلاثين عاماً، تفشّت مرّة أخرى، ولكن هذه المرّة لم تكن على شكل اضطرابات، وإنّما مؤامرات. كانت بلاد فارس حافلة بالمؤامرات. في نهاية المطاف، دخلت البلاد مرحلة الفوضى وحصلت على دستور أذهلها من ناحية استخدامه الدّقيق لاحقاً. كانت البلاد تعرف أنّ الدستور أمر رائج، فلكلّ فرد تابع لدولةٍ دستوره. ولكن تبيّن أنّه لم يكن يعمل بحد ذاته، ولم يفهم أيّ أحد في بلاد فارس طريقة عمله. على أيّ حال، لا يزالون يمتلكون هذا الدستور، ولقد مضى على ذلك عشرة أعوام.

بعد ذلك، خرجت تركيا قوية، بعد أن أجرَت بريطانيا بعض التعديلات في مصر، التي كانت بمنزلة صمامات أمان للأبخرة السياسية المتصاعدة. كان السلطان عبد الحميد أصلب من اللورد كرومر أو السير إيلدون غورست Eldon Gorst، وهكذا تمّ كبْت القومية التركية إلى درجة أنّها أطاحت به من منصبه في نهاية المطاف. كانت تلك نهاية الوحدة الإسلامية القصيرة الأجل. لقد زُجّ بزعيم الإسلام الروحي والدنيوي بالسجن، ثمّ تمّ خلعه واستبداله برجل متخلّف عقلياً. لم يعد الشّعار القديم يجدي نفعاً بعد الآن، إذ إنّهم، في غضون أسبوع واحد، تبنّوا الشّعار الجديد جميعهم. وأعلنت تركيا أخويّة الشعوب. لقد غفل حزب "تركيا الفتاة" عن إحصاءاته عندما أدلى بهذا التصريح، وكانت الأحداث كفيلة بجعله يكتشف خطأه بسرعة. فكان الأتراك يمثّلون أقلية، ربما 30% أو 35%، في الإمبراطورية العثمانية. وكان في استطاعة الأعراق الأخرى

للدول الخاضعة للإمبراطورية، كالإغريق والأرمن والألبان والأكراد والعرب، تفهّم فكرة الأخوّة، لأنّهم كانوا يقرؤون هيربرت سبنسر Herbert Spencer وأمثاله من الكُتّاب لأعوام طويلة، وفهموا مباشرةً أنّهم متساوون مع نظرائهم الأتراك، وأنّ مساعدتهم في بناء هذه الحقبة الجديدة واجب مقدّس. وهكذا، بدؤوا يتجمّعون بالملايين، ويفكّرون بالطريقة المثلى للاستمرار في الحكم المشترك.

ردّ أنور باشا وزملاؤه الضربة دفاعاً عن أنفسهم. فطوّروا الطورانية الشاملة (عقيدةٌ وُلدت من خليط بين كتاب فرنسي وآخر ألماني)، وتقضي تعاليمها بضرورة أن تصبح الإمبراطورية العثمانية عثمانية بحقّ، وبضرورة ضمّ جميع الدول الناطقة باللغة التركية في العالم إلى حدودها المرسومة عام 1910. نتج عن ذلك معركة داخلية واسعة النطاق، ولاحقاً مخطّطات تشمل مدينة خيوة في أوزبكستان وتركستان الروسية. أمّا الأقاليم السليبة، فقرّروا تركها وشأنها في الوقت الحالي؛ كان عليهم أولاً جمع تلك الأعراق الأجنبية داخل الإمبراطورية تحت راية واحدة. وينبغي فعل ذلك بسرعة، لأن أوروبا لم تكن مرتاحة لهم. ولذلك، اتّخذوا خطوات من شأنها تشذيب الإغريق والأرمن ليتناسبوا مع إطارهم العثماني، ثمّ بدؤوا العمل على العرب، عن طريق تعليمهم التركية كخطوة أولى، وتحويلهم إلى عثمانيين جيدين كخطوة ثانية. لقد ابتدعوا مقولة قاسية مفادها أنّ "حماراً تركياً أفضل من نبي أجنبي"، وذلك لتعليم الناس قيمة الإسلام والقومية النسبية. شعرت الأعراق التابعة بوطأة تأثير أنور باشا، وبدؤوا يتهامسون بينهم، بمنتهى السّرية، أنّ هذه الأمور تناقض مبادئ القومية نفسها التي تَسبَّب تبنّيهم لها في هلاكهم. وازداد الهمس وأصبح منظّماً، واستمرّ إلى نحو 1914، حين كانت تُحاك مؤامرات إيجابية في أرمينيا وكردستان وسوريا وبلاد الرافدين، تهدف إلى انتزاع الاستقلال الذاتي من القسطنطينية بالقوّة. بعدئذٍ، اندلعت الحرب.

حتّى قبل اندلاع الحرب، جعلنا تركيا بمجملها تجنح نحو الخراب، وذلك نتيجةً لغبائها. يتميّز العرق التركي بصفة قاتلة ألا وهي الطاعة العمياء، إضافةً إلى مقدرة على التضحية بأنفسهم من أجل دولتهم، وهذا أمر مُكلف بالقدر نفسه. في إمكانك رؤية الميزة الأولى إن كنت في محطة قطارٍ مزدحمة في تركيا وقلت بصوت حازم: "اجلسوا". سيجلسون جميعهم فوراً. أمّا الصفة الثانية، فتمّ اختبارها مرّات لا تعدّ ولا تحصى خلال الحرب، بتشبثهم الشرس بمواقعهم المحصّنة. تنمّ هاتان الصفتان عن غباء فطري لدى الأتراك، والمولود من أصول تركية يمتلكها إلى درجة مذهلة. لقد كان حاكماً عظيماً، في وقت كان الحكم فيه مسألة بدائية تعتمد على الشخصية والعضلات. أمّا في زمن التلغرافات والضرائب المرتفعة، فكان أداؤه متواضعاً؛ في الواقع، لم يكن أسوأ من ذي قبل. جلّ ما في الأمر أنّنا كنّا أفضل، ولهذا كان يبدو أسوأ. حتى

على هذا المستوى لم يتمكّن من إيجاد أسياد له؛ كان أسياده من الألبانيين والبلغاريين والشّركس واليهود والأرمن وأيّ كان باستثناء الأتراك القدامى.
وكما كان الأمر بالنسبة إلى حكومتهم، استُبعد الأتراك من المصالح التجارية. فقد أصبحت المصالح التجارية علمية ومعقّدة، وأوكل بها إلى الأعراق الذكية كاليهود والأرمن والعرب الذين كانوا يجيدون المحاسبة والاقتصاد. فأصبحت ثروة تركيا والمنتجون والآلات تتركّز في أيدٍ غير تركية. في الحقيقة، لم يبقَ للأتراك في مملكة نفوذهم السابق إلّا السيف. حتّى أنّ التركي حاول استبدال السيف بالبنادق والمدافع الكبيرة والطائرات، رغم أنّه كان يجيد استخدامه بكفاءة، إن لم يكن أفضل من جميع أعراق أوروبا. وبسعيه وراء هذه الأشياء الجديدة والتافهة، انخفض عامل التأثير لديه. لقد اكتشف أنّهم يعطون العقول قيمة استثنائية، وفي النتيجة، تحسّن حال الأعراق الأكثر دناءة، تلك التي كانت تعتمد على ذكائها أكثر من أيديها باضطراد. في الماضي، تمكّنت مجموعة فظّة من الخيّالة من إخضاع طرابلس وألبانيا، والجزيرة العربيّة وسوريا، وبلاد الرافدين وأرمينيا. أمّا الآن، فيحتاج كلّ إقليم إلى حامية معتبرة. ويجب أن تكون تلك الحاميات من الأتراك الأقحاح، لأن صفة الولاء حِكرٌ على أهل الأناضول فقط. وهكذا، استنزف التجنيد الإلزامي حصّةً أكبر من جيل الشباب سنوياً. كان هؤلاء يشكّلون جنوداً مذهلين، لكنّ فئة المعمّرين لم تعد ملائمة لشَغل المناصب. في هذه الأيام، يتوجّب على الموظّف إجادة الكتابة والقراءة، وقليل من الرياضيات، ودراسة كتابات فون دير غولتز Von der Goltz. ولذلك، عليهم إيجادهم ضمن الطبقة المكتبية في المدن، وأبناء المسؤولين والتجار، وضمن فئة الشبّان الذين يجبذون نمط الحياة الغربية. كانت حياتهم تتّصف بأصناف الرذائل البيزنطية كلّها، وكانوا يحتقرون القرويين التافهين الذين هم في الحقيقة جنودهم بكل ما تحمله الكلمة من معنى. كما كانوا يتجاهلون كلّ شيء لا يخدم متعتهم الشخصية. وتحت تأثير الوباء تلو الوباء، وسوء النظافة العامة، ونوعية الطعام السيئة والإصابات بين الجنود، بدأ الجيش يستنزف حياة الشباب الأتراك. فانخفضت نسبة الولادات في الأناضول، وكان في استطاعتنا، نحن الذين نراقب من كثب، رؤية تركيا وهي تذبل وتموت من شدّة الإجهاد. لم تكن الحرب الإيطالية وحروب البلقان سوى مضاعفات لوضع ميؤوس منه أساساً.
بعدئذٍ، وضمن هذا السياق، اندلعت الحرب. أمّا بالنسبة إلى آسيا التي كانت تحرز تقدّماً مضطّرداً خلال الأعوام العشرين المنصرمة، فوقفت مشدوهةً لوهلة خلافاً لجميع توقعاتنا. خلال الحرب، قدِمت أوروبا بكلّ ما فيها إلى منطقة غرب آسيا. فوقفت القوات الألمانية على الجهة الأولى من السياج، وعلى هذه الجهة، وقفت جيوش الحلفاء. أقام كلٌّ من الطرفين إدارات هائلة معزّزة بإمكاناتهم كلّها، وهدفها العمل على مشاعر المشرقيين. فتحدثنا عن مزايا الحروب المقدّسة ومساوئها، بالدّقة نفسها التي سيتحدث فيها أيّ عالم

منطق مُسلم. وألقينا العظات عن مبادئ الحضارة وقوانين الإنسانية والقوانين الدولية واتفاقات جنيف ومؤتمرات لاهاي. وقمنا بإلقاء المناشير، وتوزيع المطبوعات المصوّرة والصحف، وعرض الأفلام لإعطاء انطباع من شأنه أن يجعل الشرق يفهمنا ويساندنا عن قناعة تامّة. وكجميع الفنانين الآخرين، كان اهتمامنا بهذه العروض ينصبّ على تصوير شخصيتنا أساساً. لم يكن لدى شعوب غرب آسيا المذهولين أيّ خيار سوى الاستماع لنا، وبدؤوا، طواعية أو مرغمين، رؤية ما نحن عليه وفهم أدقّ مفهوماتنا. لم تكن هذه المفهومات تلقى استحسانهم دائماً، لكنّهم تعلموا الكثير منها. على وجه التّحديد، تعرّفوا إلى الأسباب التي يحارب كلّ طرف من أجلها (لقد سمعوا ذلك من كلام كلّ فرد منّا، وجميعنا قلنا الأشياء نفسها تقريباً). إنّ أيّ أمر يُقسم على صحّته عدد كبير من الشّهود سيكون بالتأكيد صحيحاً. لا بدّ أن تكون هذه الحرية، وهذه الإنسانية، وهذه الثقافة وهذا الشعور بامتلاك حق تقرير المصير، ثمينة للغاية.

بغضّ النظر عن مدى فظاظة صرخة الحرب وخصوصيّتها في الغرب، فإنّه غالباً ما يكون وراءها فكرة أو مبدأ ما. مع أنّه من النادر في إنكلترا أن تسحب كلمة مجرّدة إلى الضوء، إذ من الحكمة أن تسمح لمن يفكّر في استنتاجها عبر الأمثلة، فيما يحبّذ الرّعاع الصورة المادية. أمّا في الشرق، فالناس بطبيعتهم ميّالون أكثر إلى الفلسفة، وغالباً ما يهتمّون بالفكرة أكثر من التطبيق. على أيّ حال، سيصرّون على بعض التجريد لملأ الفراغات في عقولهم. لقد عرفوا الدِّين منذ القرن التاسع عشر. عقيدة بجسد وروح، أرتهم الطريق خلال الليل والنهار. وبنور هذا الدّين، نظّموا مكارم الأخلاق، ووجبات الطعام، والتجارة، والعائلة، والسياسة. إنّ محاولات السلطان عبد الحميد لعقلنته، وجعله منطقياً ولاهوتياً في آن معاً، أدّت إلى تدميره عوضاً عن ذلك. وعندما سقط السلطان عبد الحميد، سقطت معه سطوة الدّين على المؤلّفات. فبقي الشرق مسلماً، لكنّ حياة العامة فيه تحوّلت نحو القومية. بدأ الناس يطلقون على أنفسهم اسم مصريين، أو عرب، أو أتراك، وحملت صحفهم، التي يديرها رجال تحرّروا من حكم الإسلام الرسمي نتيجةً لتأثير الأفكار الغربية فيهم، هذا الاختلاف في الدافع، وهذه النظرة الجديدة، إلى أدقّ تفصيلات الحياة. باتت القومية الآن معياراً مجرّداً يُحكم بموجبه على السياسة والسلوك. وأصبحت الحياة محكومة بمفهوم الأمة، تلك العقيدة الحديثة. ومع اقتراب الحرب، تعلّم المسلم الخروج لقتال المسلم، وتقبّل الموت في المعارك برحابة صدر دفاعاً عن هذه المُثل الجديدة. عندما كانت إنكلترا في ذروة أزمتها في الدفاع عن ملكيّتها المهدّدة في الشرق، بلغت هذه المشاعر أوجها. ولم يكن خروج الهنود المسلمين لقتال أبناء دينهم من الأتراك حفاظاً على مكانة الهند كشريك في إمبراطوريتنا المؤشّر الأمثل للدلالة على حدة هذه المشاعر، بل كانت الثّورة التي انتفض بها أهل مكة المكرمة، قبلة الإسلام، بقيادة أميرها شريف مكة المكرمة، أكبر المنحدرين من سلالة النبيّ، ضدّ الخليفة، سلطان القسطنطينية، تلك الثورة

التي جذبت كلّ من ينطق بلغة الضّاد في آسيا إلى جانبها، حتى لو عاطفياً. كان هذا هو الانتصار النهائي، وأبلغ تعبير ستعرفه آسيا الغربية عن مبدأ القومية كمنطلق للعمل السياسي، في مواجهة مبدأ الدِّين العالمي الذي يُعدّ عقيدة فوق السلطة الوطنية. وكان النصر حليف السياسيّ لا المسيحيّ.

جاء اتّفاق الهدنة، لكنّه لم يكبح جماح هذه الحركة؛ عوضاً عن ذلك جعل من الالتزام بها أمراً آمناً ومنطقياً. فزحف الأشاوس الأصلاء نحو الشمال بقيادة فيصل جنباً إلى جنب مع ألّنبي واضعين نصب أعينهم إيمانهم الشديد بحركة قومية عربية. لقد أسهم النّصر الذي حقّقوه في الترويج لهم، كما أنّه أزاح من طريقهم مشكلة حملات الدعاية التي كان يفتقر إليها برنامجهم. بعد شهرين من اتفاق الهدنة، كانت المشاعر القومية تعمّ سوريا من جنوبيها إلى شماليها، وكانت مصر تخوض صراعاً مسلّحاً ضد البريطانيين تحت شعار مشابه، وكان الضباط الشبّان من الأتراك يتّحدون ضد السلطان (فقد اعتقدوا بأنّه نوع قديم، وتافه، ومولع جداً بأوروبا) بهدف إقامة تركيا جديدة على أنقاض تركيا القديمة. لقد خسروا أقاليمهم في أوروبا – لا مشكلة، دعوها تذهب – كما خسروا الأقاليم العربيّة – لا مشكلة، دعوها تذهب أيضاً. ومن المحتمل أن يخسروا إقليماً أرمينياً في الشمال الشرقي – لا مشكلة، دعوه يذهب أيضاً. كما أنّ خسارة أزمير واردة – فلا توجد أيّ مشكلة، دعوها تذهب. تحت هذا المفهوم الجديد لمستقبلهم القومي ما يحتاجون إليه هو امتداد كتلة الأناضول من بحر مرمرة مروراً بكيليكيا وديار بكر وإقليمي أرضروم ووان وأذربيجان، وصولاً إلى بحر قزوين. يوماً ما، سيعبرون بحر قزوين، وسيجذبون التركمان في تركمانستان للتحالف معهم، إلى أن تدخل جميع الشعوب الناطقة بالتركية حتى حدود الصين في فلكهم. كانت تلك هي الطورانية المنطقية، وهي التجسيد الحقيقي لسياسة القمع المشوّهة التي مورست تحت حكم أنور باشا. نصّب مصطفى كمال، ذلك الجندي الشاب الذكي، والمغرور، والجشع، نفسه زعيماً على الحزب الجديد، وبسرعة كبيرة، وانتسبت كتلة الأتراك في آسيا بمجملها إلى الحزب تحت زعامته الاعتبارية. كانت بلاده مكتفية ذاتياً، وفي حال استطاع إقامة علاقات صداقة مع الروس على جبهته الشرقية، سيكون في مقدوره احتواء هجمات الجيش اليوناني دون أيّ مخاطر، وكذلك الحصار الذي سيفرضه الحلفاء. في بادئ الأمر، حاول كمال التقرّب من إيطاليا، ثمّ من فرنسا، ثمّ من بريطانيا، لكنّه وجد الأولى غير كافية وحدها، والثانية متلهّفة أكثر من اللزوم، والثالثة من أنصار الشرعية. الآن، حُرِم عليه بلوغ بحر إيجة على يد الجيوش اليونانية، وينبغي له الاختيار بين الاستسلام لهم أو الصداقة مع روسيا. ومن المحتمل أن يعني الخيار الثاني سقوطه شخصياً لأسباب عائلية، لكنّ أتباعه لن يتوانوا عن التضحية به من أجل مصلحة دولتهم، إن اقتضت الضرورة ذلك. ستتسبّب الوحدة مع روسيا في تأجيل تحقيق حلم دولة تركستان المستقلّة لجيل كامل، وستتقوقع تِركيا داخل حدود بلاد الأناضول

الأصلية مدّة طويلة. فمن دون مستعمرات أجنبية وحروب أجنبية وحاميات أجنبية، سيتوجّب عليها تسجيل ارتفاع كبير في عدد السكان.

يصعب توقع مصير العرب أكثر من مصير الأتراك، لأنّهم شعب يتميّز بعقلية أرفع بكثير من التركية، وذكاء ثاقب ينمّ عن قدرة على التفكير المتعمّق، وفطنة عملانية تؤهلّهم إلى درجة من الإنتاجية، إضافةً إلى ذكاء متّقد قادر على إلحاق قدر كبير من الدمار. لكنّهم يفتقرون النظام والجَلد والتنظيم. إنّهم أسرى الفكرة إلى حد لا بُرء منه. رجالٌ انفعاليّون وغير مستقرّين كالماء الذي يتّسمون بشيء من سماته كالجموح والقدرة على النفاذ. منذ فجر التاريخ، تعاقبت عليهم عشرون حكومة. وكما جرت العادة، بعد تحقيق الإنجازات، أصابهم السأم وتركوها تسقط. لكنّ التاريخ لم يتحدث عن أيّ قوّة يمكنها النّيل منهم سوى قوّة النجاح. إنّ تاريخ اضطراباتهم العاطفية مؤثّر من حيث أنّ مخزون الأفكار ومولد جميع النبوءات جليّة في الصحاري. تدفع هذه المناطق الخالية بشكل تصعب مقاومته سكانها إلى الاعتقاد بوحدانية الله وقدرته المطلقة بالمقارنة مع الطبيعة القاحلة وانعدام أيّ تسلية أو ترف في الحياة. تبدأ الحركات العربية من الصحراء، وغالباً ما تنتقل عبر أقصر الطّرق إلى سوريا. والأمر اللافت أنّ الأنبياء جميعهم كانوا يقصدون الصحراء، رغم أنّه لم يولد أيّ منهم هناك. وينزل الوحي عادةً على المدني الساميّ أو القروي. لهذا، ولما يظهر كأنّه مؤشّر التاريخ السحيق، انطلقت هذه الحركة العربية، هذا التّوق الشديد إلى الاستقلال الوطني والحكم الذاتي، من الصحراء. وتابعت طريقها التقليدي إلى دمشق أيضاً، المركز التقليدي الأول لأيّ حركة جديدة. وتزامناً مع وجود إدارة فيصل الناجحة هناك، بلغت المرحلة الثانية نهايتها. على أيّ حال، لم تكن تلك النهاية الملائمة للحركة العربية؛ فقد ظلّت بغداد محلّ الأهمية والثقل للدول السّامية، وذلك لأسباب اقتصادية وسكانية وجيهة. لقد كانت سوريا بلداً فقيراً، وصغيراً في المساحة، وكانت تتميّز بطبيعة جبلية، ومناخ جاف، وهي فقيرة من المعادن والأراضي الصالحة للزراعة أيضاً. وليس هناك احتمال أن تصبح كثافة سكانها المحلّيين كبيرة جداً. في المقابل، هناك أنهار كبيرة في بلاد الرافدين، ومساحات شاسعة من الأراضي المرويّة. كما أنّ ثروتها من الحبوب والقطن ستغدو عظيمة جداً، ناهيك عن أنّ الطبيعة قد منّت عليها بفائض من الوقود الرخيص. في هذه الحالة، ستتولّى حتماً زعامة العالم العربي في المستقبل، كما فعلت في الماضي مرّات عدة. ويمكن لدمشق أن تتولّى الصدارة مؤقّتاً، لكنّ العراق سيكون الوصيّ النهائي، لأنّ عدد سكانه يفوق سكان سوريا بخمسة أضعاف، وتبلغ ثروته أضعاف ثروة سوريا. وستصبح بلاد الرافدين سيّدة الشرق الأوسط، وستهيمن القوّة التي تتحكّم في مصيرها على جاراتها كلّهم.

لا تزال مسألة وحدة الشعوب العربية في آسيا ضبابية حتى الآن. فهي لم تكن تجربة ناجحة في الماضي. وبقليل من التفكير، سيبدو جلياً أنّ هناك

مناطق شاسعة في الجزيرة العربية على وجه التحديد، لا جدوى من حكمها. من المحتمل أن تبقى الصحراء محمية الفلاسفة الفصحاء. على أيّ حال، تمتلك الأقاليم المتحضّرة، بلاد الرافدين وسوريا، لغةً وعِرقاً ومصالح مشتركة. وحتى يومنا، لم تتمكن هاتان الدولتان من الاتحاد في دولة واحدة نتيجةً لمساحتيهما الشاسعة. ولا تزال تفصلهما رقعة مترامية الأطراف من أكوام الحجارة والحصى، باستثناء معبر ضيّق واحد في الشمال. لكنّ النفط يستخفّ بالصحراء، إذ بدأت المسافات الانحسار اليوم، وأصبح في استطاعتنا اجتياز مئة ميل عوضاً عن خمسة أميال في الساعة. ستقرّب الطّرق والسكك الحديدية والخطوط الجوية والتلغرافات هاتين الدولتين وتعلّمهما كم هما متشابهتان. وستتسبّب حاجات بلاد الرافدين التجارية في تركيز الاهتمام على مرافئ المتوسط. إنّ العرب شعب متوسطي ولا توجد قوّة ظرفية في مقدورها أن تمنعهم من بلوغ المحيط الهندي. فضلاً عن ذلك بعد أن قامت بلاد الرافدين بواجباتها في الأنهار، لن يبقى للنقل البحري أيّ دور في حياتها؛ ستكون سكة الحديد من الموصل أو بغداد إلى الإسكندرون أو طرابلس أكثر نفعاً من الطريق إلى البصرة. ومن المحتمل أن تُبصر الوحدة العربية النّور نتيجةً لقناعة أهل بلاد الرافدين الراسخة بأنّها من متطلّبات ازدهارهم الوطني.

إنّ مستقبل بلاد فارس ضبابي أيضاً. ففي ما قبل الحرب، حُكم عليها بالتقسيم بين بريطانيا العظمى وروسيا. وخلال الحرب، عانت من الغزو التركي في بعض الأحايين، وكانت الحلبة التي تتصيّد الحملات الدعائية الألمانية والبريطانية بعضها بعضاً عليها. وخلّصتها الثّورة الرّوسيّة من هذين الوجعين، وبقيت إنكلترا القوّة الوحيدة القادرة على أو الميّالة إلى إخراجها من أزمة الإفلاس والفوضى إلى مسار الحكم الذاتي اللائق. ولسوء الحظ، تبنّى رجال الدولة في كلا البلدين موقفاً أوّلياً فظاً من الأمر، وتوصّلوا إلى اتفاق كان عرضة لتأويلات غير مستحبة، ليس بالنسبة إلى العالم الخارجي فقط (المستعدّ دائماً للنظر إلى أسوأ ما فينا)، بل داخل بلاد فارس نفسها. في النتيجة، هجرتنا العناصر المتقدمة في بلاد فارس وبدأت تنظر نحو حدودها الشمالية سعياً وراء العون الروسي. كان هذا الدعم يأتي على شكل دفعات صغيرة، وقام الآخرون الذين يضمّون معظم المحاربين المتشددين في بلاد فارس باتّخاذ إجراءات عملية ضدّنا. لقد منحهم انسحابنا شرف النصر، ويبدو أنّ بلاد فارس ستتوحّد خلف إدارة وطنية لكنّها غير ودّية، أو ستتقسّم كما حالها قبل الحرب، وسيجري الاقتتال بين أنصار الروس وأنصار البريطانيين، وهم رعايا فرس اسمياً، للظفر بها.

أمّا بالنسبة إلى مصر، وهي عضو آخر من مجموعة الدول الجديدة المستقلة التي رسمت معالمها الحرب في الشرق الأوسط، فوحّدت نفسها تحت وطأة الحرب والاضطرابات منذ ذلك الوقت في ما يشبه الشعب الواحد تماماً. كان القوميّون فيها، وكلّهم من المصريّين الذين يحاولون اللحاق بركبهم، قد تخلوا

عن اختلافاتهم السّابقة ما بين مسلم ومسيحي، وقد وجدوا الآن في الجغرافيا واللغة قاسماً مشتركاً جامعاً. كما أنّهم حرّروا أنفسهم من التأثير الديني للأزهر، وهو جامعة القاهرة الإسلاميّة القديمة النمط، والمعقل السابق للمشاعر المؤيّدة للأتراك والمناهضة للبريطانيين. كان القوميّون يتوخّون هجوماً على هذه المؤسسة العتيقة بغية عصرنة شخصيتها ومنهاجها بما يتناسب واحتياجات مصر الحالية. وفي ما يخصّ قضية موقع المرأة والتعليم الحكومي، كان القوميون المصريون على درجة من التقدّم تضاهي تقدّم القوميين الأتراك. من الناحية السياسية، لا يزال الأفق ضيّقاً جداً بالنسبة إليهم، وقلّما يتجاوز ضفاف النيل، لكنّ الضغوط التي يشكلها الفائض السكاني والثروة المفرطة ستدفعهم بسرعة، دون أدنى شك، إلى البحث عن مشاريع أكبر، وعندئذ ستصبح قضية شمال أفريقيا، التي يسهل التعامل معها ضمن الغرف المتناقضة بشدّة اليوم، قضية ملتهبة. وتشكّل مصر العنصر الأقوى في منطقة شمال أفريقيا الجديدة هذه، وستكون حكومتها قادرة على أداء دور حاسم فيها شبيه بالدور الذي ستلعبه حكومة بلاد الرافدين في الكونفدرالية العربية.

ظهر أخيراً متغيّران مهمّان على الساحة في آسيا قدِما أساساً كمغامرين عن طريق البحر. يتمثّل العنصر الأول في قدوم اليونانيين إلى أزمير. أمّا الثاني، ففي قدوم اليهود إلى فلسطين. ومن بين الحالتين، يعدّ الحضور اليوناني احتلالاً مسلّحاً صريحاً، أو رغبةً منهم للسيطرة على قضمةٍ من تركيا الآسيوية، لأسباب تُعزى إلى التجارة والسكان، ثمّ التأثير في الشؤون الداخلية انطلاقاً منها. وكما يبدو، ليس لهذا الحراك أيّ احتمالاتٍ بنّاءة في ما يخصّ آسيا الجديدة. أمّا التجربة اليهودية، فتقع ضمن فئة أخرى. فهي جهد واعٍ من الشعب الأوروبي الأقلّ في أوروبا لثورة مسلّحة في وجه مسار العصور، والعودة مرّة أخرى إلى الشّرق الذي ينحدرون منه. سيأخذ المستعمرون معهم إلى الأرض التي احتلّوها لقرون عدّة قبل الحقبة المسيحيّة عيّنات من المعارف والتقنيات الأوروبية كلّها. وهم يقترحون الاستقرار بين سكان البلد المتحدثين بالعربية الموجودين فيها، وهم شعب يتحدر من أصول عشائرية، ولكنّهم يعيشون ظروفاً اجتماعية مختلفة جداً. وهم يأملون في مواءمة نمط حياتهم بما يتناسب مع مناخ فلسطين، وأن يسخروا مهاراتهم ورأس المال بغية تنظيمها على أحسن وجه على نمط الدول الأوروبية. ولا بدّ أن يشمل نجاح مخطّطهم الارتقاء بمستوى السكان العرب الحاليين إلى مستواهم المادي، أو أقلّ منهم بقليل في فترة معيّنة، وستكون تبعات هذا الأمر في غاية الأهمية بالنسبة إلى مستقبل العالم العربي. يمكن أن يكون هذا بمكانة مصدر تقني من شأنه أن يجعلهم مستقلّين عن أوروبا الصناعية، وفي هذه الحالة من المحتمل أن تتحوّل هذه الكونفدرالية الجديدة إلى عنصر هائلٍ من القوّة العالمية. على أيّ حالٍ إنّ احتمال حدوث ذلك لن يكون ممكناً في المدى

المنظور للجيل الأول أو الثاني، ولكن يجب أن يؤخذ بالحسبان في أيّ عملية تأسيس لإمبراطورية في غرب آسيا. ستصمد هذه الأساسات أو تسقط تبعاً لمسار الجهود الصهيونية، ولمسار الأحداث في روسيا، إلى حد كبير.

إنّ ما يثير الاستغراب هو الازدياد المضطّرد للتأثير الروسي في شرق آسيا الغربية في كلّ مرّة كان يطرأ فيها تغيير على الوضع الروسي. فمنذ الحقبة القيصرية، كانت روسيا المحكّم الوحيد في شمالي آسيا، من البحر الأسود وصولاً إلى بحر الصين، وهناك جزء كبير من الكتلة الروسية يقع في آسيا، الأمر الذي يسوّغ اعتبار ثورتها ظاهرة آسيوية. وهي على أقل تقدير تمتلك أهمية آسيوية كبيرة، ومن الممكن أن تفعل لآسيا ما فعلته الثورة الفرنسية الشعبية لأوروبا، إبّان دورة مماثلة من الزمن استمرّت ستين عاماً. وهذا لا يعني بأنّ مبادئ لينين السياسية قد وجدت صدىً مباشراً في نفوس القرويين في آسيا، لأن أعتى مؤيّديها لم يكونوا أصلاً من القرويين الروس، لكنّ النجاح الذي حقّقه البلاشفة كان مثالاً يحتذى في الشرق على كيفية إسقاط حكومة قديمة، استناداً إلى حق مقدّس، والأثر الذي تركه ذلك في آسيا بوجود هذه القوّة الهائلة للمؤسسة العسكرية. لم يؤثّر سقوطها في تقسيم آسيا – الشمال لروسيا والجنوب لإنكلترا – لكنّها غيّرت المنطقة الروسية من منطقة سيطرة فعّالة إلى منطقة تأثير، أو قاعدة لإلقاء المواعظ، أو منطلقاً لأنشطة العناصر الأكثر تقدّماً في أيّ مجتمع كان. فضلاً عن ذلك ستكون بمنزلة حدود مفتوحة بصورة دائمة ومصدر غير محدود للتسلّح. في الماضي، أبقت الحكومة الروسية الإمبراطورية على حدودها الجنوبية على طول قمم هضاب آسيا الوسطى لنفسها حصرياً، ولذلك لم يكن هناك أيّ أخذ أو عطاء بين نصفنا ونصفهم. لكنّ الوضع قد تغيّر الآن، لأن الشمال، وليس الجنوب، قد أصبح الجزء التقدمي في آسيا. سيعتمد مستقبل بلاد فارس، والأناضول، وبدرجة أقلّ مستقبل سوريا وبلاد الرافدين، ليس على ما ستقوم به الحكومة الروسية من أفعال، بل على ما سيقوم به أفراد بعينه، يشاطرون روسيا نظرتها المناهضة للإمبريالية، ومستعدّون للعمل كأفراد في نشر هذه المعتقدات في آسيا الجنوبية. ويمكن القول إنّ الجمهوريتين المؤقتتين، أرمينيا وجورجيا، جمهوريتان روسيتان مباشرة.

لقد انتشر هذا الواقع الجديد للقومية السياسية المنطقية والواعية، التي أصبحت الآن العامل المهيمن في كلّ حراك وطني في آسيا الغربية، على مستوى عالمي فأصبح إيقافه صعباً؛ لقد انتشر إلى حد كبير، فبات وصفه بالمؤقّت صعباً. ينبغي لنا تحضير أنفسنا لاستمراره، ولاستمرار حالة غياب الاستقرار التي سينتجُها في كلّ إقليم من الأقاليم المتنازع عليها، إلى أن يأتي الوقت الذي ينجح فيه ويتحوّل إلى مرحلة أكثر تقدماً. إنّه تغيّر جذري في الملامح السابقة لآسيا الغربية، الأمر الذي يتطلّب منّا مراجعة مبادئنا

وسياساتنا في الشرق الأوسط، وبذل الجهود للتكيّف مع هذا الواقع الجديد، عسى أن تصبّ مزايا عناصره البنّاءة في مصلحتنا.

هذه الإمبريالية الجديدة ليست مجرّد انكفاء وإهمال من قبلنا. فهي تشتمل على جانب فعّال يفرض إلقاء المسؤولية على الشعوب المحلية. وهذا هو ما يطالبون به، لكنّها تتحول إلى هدية بغيضة بمجرّد أن تمنحها لهم. فعلينا مطالبتهم بالدفاع عن أنفسهم بأنفسهم. وهذه هي الخطوة الأولى التي تقوم بها الشعوب لنيل الاحترام. كما ينبغي لهم تأمين الجنود الذين سيحلّون مكان جيوشنا المحتلة التي سنسحبها. ومن أجل ذلك، ينبغي لهم التسلّح، وتعلّم عدم إساءة استخدام السلاح الذي سيقتنونه. إنّ الطريقة الوحيدة لتعليمهم هي إجبارهم على المحاولة، فيما نقف موقف المتفرج، ونسدي النصائح. بالنّسبة إلينا، لا يقلّ ذلك أهمية عن إدارة الأمور. حقّاً، إنّه أمر مضنٍ، لأن إعطاء الأوامر أمر سهل، لكنّ إقناع الآخرين بالالتزام بالنصيحة أمر في غاية الصعوبة، وإنّ العمل على إنجاز الأمور الصعبة لأمر ممتع جداً. ولكن ينغي لنا أن نهيّئ أنفسنا لرؤيتهم يقومون بالأشياء بطرائق مختلفة جداً عن أساليبنا، وبجودة أقلّ. ولكن في المبدأ من الأفضل أن ندعهم يقومون بأنصاف الأشياء عوضاً عن أن ننجزها بشكل كامل بالنيابة عنهم. في حال اتّبعنا هذه الطرائق، لن نجد أفضل أعواننا بين رعايانا السابقين المطيعين، بل سنجدهم بين مَن يثيرون القلاقل ضدّنا على نحو نشطٍ اليوم، لأن قادة الشعب من المثقفين هم من سيؤدون غرضنا، وأولئك ليسوا من الفلاسفة أو الأغنياء، وإنّما من الديماغوجيين والسّاسة. من الواضح أنّها فئة لافتة للنظر تلك التي سنأتمن إليها صروح حكوماتنا الاستعمارية التي قد بدأ تشييدها بحذر لكنّها لن تكون مختلفة جوهرياً عن أعضاء مجلس العموم الخاص بنا الذي نأتمنه على حرّياتنا. لن يكون لديهم رغبة في تولّي زمام الأمور، لكنّنا نستطيع إرغامهم على ذلك إن قمنا بالتحضير للمغادرة. نحن لا نرغب في خسارتهم لمصلحة قوّة أخرى. فالرجل الإنكليزي محبوب لمَن لم يعرفه من قرب، كما أنّ الإمبراطورية البريطانية تُعتبر محطّ اهتمام العالم اليوم، إذ تقدّم إلى الشعوب الصغيرة مغريات منقطعة النظير لإقناعهم بالانضمام إليها. وفي حال أُعطيت التطمينات لمصر وبلاد فارس وبلاد الرافدين بالحكم الذاتي لاحقاً والاستقلال الداخلي حالياً، ستكون مسرورة بالانضمام إلينا، ولن تكلّفنا عندئذٍ أيّ مال أو رجال، كما الحال بالنسبة إلى كندا وأستراليا. البديل الوحيد لذلك هو التّمسك بهم بقوّة متناقصة تدريجياً إلى أن تصبح كلفة الفوضى أعلى ممّا يطيقونه، ثمّ نتخلّى عنهم.

سادساً

تطوّر ثورة

تشرين الأول/ أكتوبر 1920

إذا كانت مقالة "Demolitions under Fire" قد ظهرت في الطبعة التاسعة والعشرين من إحدى المجلّات العسكرية التابعة للمهندسين الملكيّين، فإنّ هذه تتميز بظهورها في العدد الأول لمجلّة أخرى هي *The Army Quarterly*، المنشورة في تشرين الأول/ أكتوبر 1920.

كما ذكرنا في المقدمة إلى المادة السابقة، تمّت إعادة طباعة هذه المقالة في المقتطفات المنوعة لأرنولد والتر لورانس عام 1939 في كتاب *Oriental Assembly* [مختارات مشرقية]. ففي تعليق المحرر، يقرّ أرنولد والتر بمصدرها ويضيف: "تمّ استخدام بعض من هذا المحتوى لاحقاً في الفصل XXXIII من كتاب *Seven Pillars of Wisdom* (ينبغي لقرّاء نسخة أكسفورد 1922 لكتاب *Seven Pillars of Wisdom*، الذي نشرته Castle Hill Press عام 1997، الانتباه إلى أنّ الفصل المتعلق بهذه المقالة قد ورد تحت رقم 35). وهو الفصل الذي يكون فيه لورانس مستلقياً في خيمته، بعد أن ألمّت به وعكة أثناء زيارته معسكر الأمير عبد الله في وادي العيص في آذار/ مارس 1917، متفكّراً في إستراتيجية الحملة المقبلة. وأعتقد بأنّ هذا، إلى حد ما، تقنية درامية يتميز بها الأسلوب الفريد لكتاب *Seven Pillars of Wisdom*، التي – كما شاهدنا في مقدمة كتابه – يستطيع بها المواءمة بين بعض المفهومات التي تعود إلى بداية انخراطه في المنطقة، أو ربما قبل ذلك، للوصول إلى ما يشبه الفرضية التي يشرح فيها لورانس مطولاً وببلاغة تامة فلسفته الخاصة حول الأعمال الحربية. وبما أنّ نشر "تطوّر ثورة" قد تزامن مع كتابته *Seven Pillars of Wisdom*، مع الأخذ بالاعتبار أنّ عمله على الأخير سيستمر لستة أعوام مقبلة، ليس من المفاجئ أن يكون العملان انعكاساً لبعضهما بعضاً.

تكمن إحدى التبعات الأدبية النادرة، التي ربما لم تنتشر بصورة واسعة، في أنّ المقالة قد لفتت نظر المؤرخ والروائي جون باكن John Bachan بطريقة ما، فقام بقراءتها باهتمام بالغ. وفي رسالة إلى بازل ليدل هارت في تشرين الأول/ أكتوبر 1927، قال باكن: "كم تمنيت أن يُعاد نشر مقالة لورانس حول حرب العصابات مرة أخرى". ربما كان تأثير المقالة في باكن كبيراً لدرجة أنّه عندما صدرت روايته *The Courts of the Morning* [قصور الصباح]، تحولت شخصية ساندي أربيوثنيت Sandy Arbuthnot المميزة التي ابتدعها باكن كبطل في عدد من مغامراته السابقة إلى شخصية لورانسية واضحة. سابقاً كان هناك أكثر من إشارة إلى شخص الموقّر أوبري هيربرت، المغامر اللافت الذي

تجمعه صداقة مشتركة مع كلّ من لورانس وباكن، عبر شخصية ساندي التي أضفى عليها الروائي ميزة الأرستقراطي اللورد كلانرويدن Clanroyden الذي لا يعير لقبه أيّ اهتمام. ففي حكايته الجديدة، رغم أنّ أحداثها تدور في أميركا الجنوبية، يصف باكن ساندي بأنّه "مفتون بسحر الجزيرة العربية البعيدة"، وأنّه رجل قصير، ورشيق "من سكان الخيام"، ويتميز بنظرة ثابتة وعينين براقتين؛ إنّه لورانس بشحمه ولحمه. وفيما أبدى باكن استعداده لمشاطرة مصدر إلهامه هذه الحماسة، كان يأمل أن تجد روايته انتشاراً أوسع. وبما أنّني من المعجبين بباكن منذ زمن طويل، يسعدني أن أحقّق له أمنيته مرة أخرى في هذا الكتاب.

من أشهر الأوصاف التي أطلقها لورانس على الثورة العربية هي أنّها "عرض ثانوي لعرض ثانوي" (انظر الصفحة 272 من النص الأصلي). كما نجد (في الصفحة 265 من النص الأصلي) استخدام مقولة "الحرب على التمرد فوضوية وبطيئة، مثل تناول الحساء بالسكين" للمرة الأولى.

إضافة إلى المصادر التي تمّ التنبيه إليها، نُشرت هذه المقالة بصيغة مختزلة في توطئة ديفيد غارنيت لكتاب معنون *The Essential T. E. Lawrence* [مسيرة حياة توماس إدوارد لورانس]، الذي صدر عام 1951، وبشكله الكامل في كتاب ستانلي ورودبل واينتروب *Evolution of a Revolt*، حيث استُخدم عنوان المقالة كعنوان للمجموعة بأكملها.

تطوّر ثورة

تشرين الأول/ أكتوبر 1920

اندلعت الثورة العربية في حزيران/ يونيو 1916 بهجوم مباغت شنّه رجال القبائل العرب الذين كانوا يفتقرون إلى السلاح والخبرة على الحاميات التركية في المدينة المنورة ومحيط مكة المكرمة. لكنّهم لم يحققوا أيّ نجاح، وبعد عناء أيام عدة، انسحبوا خارج نطاق مدفعية الحصن، وبدؤوا فرض حصار على المنطقة. نجح هذا الأسلوب في إجبار مكة المكرمة على الاستسلام مبكراً لأن الأتراك قد واجهوا صعوبة كبيرة في التمسك بطرق مواصلاتها الطويلة والوعرة. لكن المدينة المنورة كانت مربوطة مع الجيش التركي الأساسي في سوريا بالسكة الحديدية، وبفضل تفوقهم في العديد والعتاد، نجح الأتراك في غضون أسبوع من القتال في استعادة السيطرة على سكة الحديد وتعزيز حاميتهم التي حوصرت مدة مؤقتة هناك. ومع ازدياد حدة الهجوم التركي، تراجعت القوات العربية تدريجياً، وتقهقرت في نهاية المطاف نحو التلال على

مسافة خمسين ميلاً باتجاه الجنوب الغربي، وتمركزوا هناك في موقع يعترض الطريق الرئيسي المؤدي إلى مكة المكرمة.

في هذه المرحلة، توقفت الحملة أسابيع عدة، فيما كان الطرفان يلتقطان أنفاسهما، وكان الأتراك يحضرون أنفسهم للأخذ بزمام الأمور عن طريق إرسال حملة عسكرية إلى مكة المكرمة تهدف إلى سحق الثورة في معقلها. لقد نقلوا فيلقاً عسكرياً بالقطار، وعزّزوه أكثر من المعهود بالمدافع والعربات والطائرات والرشاشات وعدد من الأحصنة والبغال والجمال للتنقل. بعدئذ، بدؤوا التقدم باتجاه الطريق الغربية التي تصل المدينة المنورة بمكة المكرمة. كانت المسافة الفاصلة بينهما تبلغ قرابة 250 ميلاً. وكانت الأميال الخمسون الأولى سهلة، يليها حزام من التلال يبلغ عرضه عشرين ميلاً، وكان رجال فيصل يتمركزون فيه بوضعية الدفاع. بعد هذه التلال، هناك سهل ممتدّ على مسافة سبعين ميلاً على طول الشريط الساحلي وصولاً إلى رابغ، ويبلغ أكثر من نصف المسافة بقليل. ورابغ هي مرفأ صغير على شاطئ البحر الأحمر، وتُعتبر مرسىً جيداً للسفن. وفيها يتمركز الشريف علي، أكبر أشقاء الشريف فيصل، برفقة مزيد من قوات القبائل، وبداية جيش عربي نظامي تمّ تشكيله من ضباط ورجال من أصل عربي كانوا يخدمون في الجيش التركي وهم الآن مستعدون للقتال ضد أسيادهم السابقين في سبيل حريتهم الوطنية.

أبلغَنا المستشارون العسكريون بأنّ رابغ هي مفتاح المدينة المنورة، لأنّه لا يمكن لأيّ قوة معادية أن تعبر الطريق الرئيسي دون أن احتلالها والتزوّد بالماء من آبارها تحت أشجار النخيل. في النتيجة، إن الدفاع عنها من أهم أولوياتنا. ويمكن للبحرية المشاركة بفعالية من المرفأ، وينبغي تجهيز بساتين النخيل المستديرة كموقع محصن يتمركز فيه الجنود النظاميون. لقد ظنوا أنّ رجال القبائل البدو لن يكونوا نافعين إطلاقاً في المواقع الثابتة، ولهذا، يجب بناء قوة عربية نظامية وتدريبها في أقصر وقت ممكن لأداء هذه المهمة. في حال تقدم الأتراك قبل أن تكون هذه القوة جاهزةً، سيتوجب على البريطانيين الزّج بلواء من القوات البريطانية أو الحليفة لإنقاذ الشريف من مأزقه عن طريق الحفاظ على حاجز الصّد الدفاعي هذا.

دفعني استطلاعي الشخصي مواقعَ القوات العربية هنا وفي التلال حيث فيصل إلى إجراء تعديلات طفيفة على آراء الخبراء. لدى فيصل بضعة آلاف من الرجال المسلحين بالبنادق. ومع أنّهم ليسوا جنوداً نظاميين، وشكوكين، فإنّهم رجال مرحون وفعالون للغاية. لقد تمّ نشرهم في التلال والشعاب التي تتميز بقوّة طبيعية كبيرة، الأمر الذي جعلني أعتقد بأنّه من غير المحتمل أن يتمكن الأتراك، لمجرد أنّهم يتفوقون عليهم عددياً، من زعزعتهم. ولسبب ما إنّ الدفاع عن سلسلة هضاب ضد تسعة آلاف أو عشرة آلاف رجل أسهل من الدفاع عنها ضد تسعة رجال أو عشرة. وبناءً عليه أرسلت تقريراً مفاده أنّ رجال القبائل (في حال تمّ تعزيزهم بالرشاشات الخفيفة، وتعيين ضباط

نظاميين كمستشارين لهم) سيكونون قادرين على صد القوات التركية إلى أجل غير مسمى. وفي هذه الأثناء، يجري العمل على تجهيز القوة العربية النظامية. وبما أنّه كان لزاماً علينا التفكير في سياق مجريات العمل العسكري العام منذ أيام نابليون Napoleon، كنّا جميعاً نتطلع إلى القوات النظامية لكسب الحرب. لقد استحوذت علينا مقولة فوش Foch التي تقول إنّ أخلاقيات الحرب تقضي بالسعي وراء جيش العدو الذي يمثل مركز قوته، وتدميره في المعركة. وبما أنّ المقاتلين غير النظاميين لا يهاجمون المواقع عادةً، بدا لنا أنّهم غير قادرين على اتخاذ القرار.

وبينما كنّا نُدرب الجنود النظاميين (بالطبع لم نرسل ضباطاً أو رشاشات خفيفة إلى فيصل الموجود في التلال في تلك الأثناء)، وضع الأتراك قناعاتي على المحك فجأة عندما بدؤوا التقدم نحو مكة المكرمة. لقد نجحوا في اختراق تلالي "المنيعة" في غضون أربع وعشرين ساعة، وأخذوا بالتقدم ببطء باتجاه رابغ. وبذلك، يكونون قد برهنوا لنا النظرية الثانية للحرب غير النظامية، وهي أنّ الجنود غير النظاميين غير قادرين على الدفاع، أو مهاجمة أيّ موقع.

لم نكن ممتنّين للدرس الذي تلقيناه لأن النجاح التركي وضعنا في مأزق حرج. لم تكن القوّة المرابطة في رابغ قادرة على صد هجوم كتيبة واحدة ناهيك عن لواء كامل. وكان إرسال قوات بريطانية من مصر في ذلك الوقت شبه مستحيل. لم أكن أعتقد بقدرة لواء بريطاني واحد على التشبث بموقع رابغ برمته، ولم يكن الأتراك ليستغنوا عنه أيضاً، أضف إلى ذلك أنّه لم يكن عربي واحد ليبقى مع الشريف في حال استقدام جنود بريطانيين إلى الحجاز.

في هذا الوقت الحرج، خطرَ لي أنّه من المحتمل أن تتجلّى فعالية الجنود غير النظاميين في العمق، وليس في الظاهر، وأنّ الأتراك، نتيجةً لتخوفهم من التهديد الذي يشكّله هؤلاء الجنود غير النظاميين على خاصرتهم الشمالية، قد ترددوا طويلاً قبل أن يشنوا هجومهم. إنّ خاصرة الأتراك الفعلية تمتد من خط المواجهة إلى المدينة المنورة، قاطعةً مسافة ما يقارب خمسين ميلاً. ولكن إن تحركنا نحو سكة حديد الحجاز، خلف المدينة المنورة، فمن الممكن أن نوسع تهديدنا (في النتيجة خاصرة قواتهم) وصولاً إلى دمشق، أي لمسافة ثمانمئة ميل نحو الشمال. من شأن مثل هذا التحرك إرغام الأتراك على الانكفاء نحو الدفاع، وحينئذ سيكون في وسعنا استعادة زمام المبادرة. على أيّ حال، بدت كأنّها فرصتنا الوحيدة، وهكذا، في كانون الثاني/ يناير 1917، أخذنا جميع رجال القبائل الذين يقاتلون مع فيصل، وأدرنا ظهرنا لمكة المكرمة والأتراك ورابغ، وزحفنا مئتي ميل شمالاً باتجاه مدينة الوجه. ويعود الفضل بذلك إلى أسطول البحر الأحمر البريطاني الذي زودنا بالطعام والماء على طول الشريط الساحلي، وأمّن لنا التغطية النارية وقوة إنزال في المكان الهدف.

كان لهذا التحرك الغريب مفعول كالسحر. لقد قال كلاوزفيتس Clausewitz إنّ مؤخرة القوات تضبط تحرّكات العدو كالنِّواس، ليس نتيجةً لما تقوم به من

أفعال، وإنّما لمجرد وجودها. فنحن لم نقم بأيّ شيء ملموس، لكنّ زحفنا نحو الوجه قد أجبر الأتراك (كانوا قد وصلوا إلى رابغ تقريباً) على أن يعودوا أدراجهم إلى المدينة المنورة، وهناك قسموا قواتهم إلى نصفين. تولى النصف الأول الموقع المحصّن حول المدينة وظلوا متشبثين به إلى ما بعد اتفاق الهدنة. أمّا النصف الثاني، فانتشر على طول سكة الحديد للدفاع عنها ضد هجماتنا. هكذا، وقف الأتراك موقف المدافع في مواجهتنا طوال مدة الحرب المتبقية. أمّا نحن، فكنّا نحقق التقدم تلو الآخر إلى أن بلغت حصيلتنا، بحلول معاهدة السلام، 35 ألف أسير، ومثلهم تقريباً من القتلى والجرحى والخارجين عن الخدمة نتيجة الإصابة، إضافةً إلى الاستيلاء على مئة ألف ميل مربع من أراضي العدو؛ هذا كلّه مقابل خسائر لا تُذكر من طرفنا.

على أيّ حال، لم نكن عندها على دراية بأنّ الوجه هي نقطة التحوّل بالنسبة إلينا. كنّا نعتقد بأننا قد قدمنا إليها بغية قطع سكة الحديد، ولقد تم إرسالي فوراً إلى المناطق الداخلية لذلك، كوسيلة للسيطرة على المدينة المنورة ومقر قيادة القوات التركية وحامية قواتهم الرئيسية. في طريقي إلى هناك، توعّكت، وقضيت عشرة أيام مستلقياً على ظهري في خيمة، ولم يكن لدي شيء أفعله في تلك الأثناء سوى التفكير في الحرب وتحليل ممارساتنا العملية حتى الآن من أجل الوصول إلى مدلولاتها الحقيقية.

لسوء حظّي، كنت منغمساً في قيادة الحملة بالقدر الذي كنت أرغب فيه، ولم أتلقَّ أيّ تدريب على القيادة يؤهّلني لهذه المهمّة. في ما يخص العلوم العسكرية مطالعاتي جيدة إلى حد ما، لأن الفضول أثناء سنواتي في جامعة أكسفورد قد جعلني أتخطى دراسة نابليون وأنتقل إلى كلاوزفيتس ومدرسته العسكرية، وصولاً إلى كيمرر Caemmerer ومولتكه Moltke وغولتز Goltz والفرنسيّين المعاصرين. بدت تلك كأنّها كتب جزئية، وبعدما اطّلعت على [نظرية] جومني وويلِيسين Jomini and Willisen، اكتشفت مبادئ أشمل في القرن الثامن عشر، في كتابات ساكس Saxe وغايبرت Guibert وأتباعهم. على أيّ حال، كان كلاوزفيتس أستاذهم جميعهم من الناحية الفكرية، وباللاشعور، بدأت أؤمن به. أمّا في الجانب التكتيكي، فكانت الحملات الوحيدة التي درستها بالتفصيل هي حملات هنيبعل Hannibal وبيليساريوس Belisarius، وغزوات النبي محمد والحملات الصليبية! كان جلّ اهتمامي ينصب على الجانب النظري الصرف، وبحثت في جميع الأماكن عن الجانب الميتافيزيقي، عن فلسفة الحرب التي استحوذت قليلاً على تفكيري بضع سنوات. أمّا الآن، فوجدت نفسي مرغماً على التحرك ميدانياً، وعليّ مباشرةً إيجاد معادلة توفّق بين قراءاتي وتحركاتنا الحالية.

على أيّ حال، منحتني قراءة الكتب معرفة راسخة بأن "تدمير قوات العدو المنظمة" عن طريق "معركة العملية الواحدة" هي الهدف من الحرب. فلن يتحقق الانتصار ما لم نبذل الدماء في المقابل. كانت هذه المقولة صعبة علينا،

لأن العرب لا يمتلكون قوّات منظّمة، وفي النتيجة، لن يكون للتركي، من أتباع نظرية الجنرال فوش، أيّ هدف. كذلك الأمر، لن يحتمل العرب تكبّد الخسائر. في النتيجة إنّ العربي من أتباع نظرية كلاوزفيتس لن يكون في مقدوره دفع ثمن الانتصار. لا بد من أن هؤلاء الحكماء يتحدثون مجازياً، لأنّنا كنا، دون أدنى شك، نربح حربنا... وفيما كنت أفكر في الأمر، اتّضح لي أننا قد انتصرنا في معركة الحجاز. كنا نسيطر على 99% من الحجاز. وليهنأ الأتراك بالسيطرة على الجزء المتبقي إلى أن يحلّ السلام أو يدركوا عبثيّة التشبث بإطار نافذتنا في يوم القيامة. لقد وصلت هذه المرحلة من الحرب إلى نهايتها، فلم القلق بشأن المدينة المنورة؟ هي لم تكن قاعدة لنا كرابغ، كما أنها لا تشكل تهديداً للأتراك كما الحال بالنسبة إلى الوجه؛ إنّها مجرّد طريق مسدود بالنسبة إلى الطرفين. لقد تمركز فيها الأتراك متّخذين وضع الدفاع، دون أي حراك، حيث كانوا يأكلون الدواب التي يستخدمونها للتنقل، التي كان من المفترض أن تنقلهم إلى مكة المكرمة، والتي لم يبقَ لها أيّ مرعى تقتات عليه ضمن خطوط وجودهم المقيّدة حالياً. كانوا يقبعون هناك دون أن يشكّلوا أيّ خطورة تُذكر. وفي حال أسرهم، ستقع كلفة إطعامهم وحراستهم في مصر على عاتقنا. أمّا في حال طردهم شمالاً باتّجاه سوريا، فسينضمون إلى الجيش الرئيسي الذي يحاصرنا في سيناء. من جميع النّواحي أفضل الحلول هو أن يبقوا في مكانهم، وهم يثمّنون قيمة المدينة المنورة عالياً ويرغبون في الحفاظ عليها. إذاً، دعهم يفعلون ذلك!

بدا ذلك مختلفاً عن تقاليد الحرب التي كان الجنرال فوش يعِظ بها. ولذلك، بدأت آمل أن يكون هناك اختلاف نوعي بيننا وبينه. لقد وصف الحرب الحديثة بالحرب "المُطلقة". وفي هذه الحرب، تشرع أمّتان تتبنيّان فلسفتين غير متوافقتين بمحاولة تطبيقهما بالقوّة. إنّ الصراع بين مبدأين غير ماديّين لا ينتهي إلّا عندما تنفد سبل المقاومة لدى مناصري إحداهما. إنّ الآراء تُطرح للسّجال، أمّا القناعات، فتبقى الخيار الأفضل. إنّ النهاية المنطقية لحرب العقائد تتمثّل في تدمير إحداها نهائياً، وخير مثال على ذلك رواية *Salammbo* [22] الشّهيرة. كانت هذه خطوط النزاع بين فرنسا وألمانيا، ولكن ليس بين ألمانيا وإنكلترا، كما أعتقد، لأن جميع الجهود التي بُذلت في سبيل أن ندفع رجالنا لكي يكرهوا العدو لم تُثمر إلّا في جعلهم يكرهون الحرب. ولاحقاً، بتوقيعنا معاهدة الهدنة، جعلنا الحرب العظيمة تبدو كأنّها لا ترقى إلى مستوى نموذج فوش. بالنسبة إليّ، كانت مجرّد شكل من الحرب، فيمكن أن أرى أشكالاً أخرى كالتي عدّدها كلاوزفيتس، ومنها الحروب الشخصية التي تنشب لأسباب عائلية، وحروب الاستبعاد لأسباب حزبية، والحروب الاقتصادية لأسباب تجارية.

[22] رواية تاريخية بقلم غوستاف فلوبير. (م.)

بعدئذ فكّرتُ في الهدف الذي يسعى العرب إلى تحقيقه، ووجدتُ أنّه هدف جغرافي، وهو احتلال جميع الأراضي التي يتحدث سكانها العربية في آسيا. في خضمّ هذه العملية، يمكن أن نقتل أتراكاً لأنّنا نكرههم إلى أبعد الحدود. ومع ذلك، "قتل الأتراك" لا يمكن أن يكون ذريعة أو هدفاً. وفي حال غادروا بهدوء، ستنتهي حربنا. أمّا في حال رفضوا المغادرة، فسنضطّر آسفين إلى سلوك طريق الدماء الشنيع تحت مبدأ حرب "الإجرام"، ولكن بأقلّ قدر من الخسائر الممكنة بما أنّ العرب يخوضون حرباً من أجل الحرية، وهي نعمة لا يستمتع بها إلا الأحياء.

كانت مهمّتي الشخصية تتمثّل في القيادة، وكنت قد بدأت كشف خفايا القيادة وتحليلها من منظور إستراتيجي يشتمل على الهدف في الحرب والنظرة الشاملة التي ترى كلّ جزء من خلال الكل، وآخر تكتيكي يشتمل على الوسيلة لتحقيق الغاية الإستراتيجية والخطوات التي تقود إليها. وفي كلّ منهما، وجدت العناصر نفسها: عنصر جبري، وآخر بيولوجي، وثالث سيكولوجي. بدا العنصر الأول كأنّه علمي صرف خاضع لقوانين الرياضيات ولا يمتّ إلى الإنسانية بصلة. وهو يُعنى بثوابت معلومة وظروف ثابتة وبالزمان والمكان وأشياء أخرى غير عضوية كالتلال والمناخ والسكك الحديدية، إذ يكون البشر كتلاً هائلة لا مكان فيها للتنوع الفردي ولكنّها تتمتع بجميع وسائل المساعدة الاصطناعية وجميع الملحقات التي توفّرها الاختراعات الميكانيكية لمداركنا. في الجوهر، كانت قابلة للصياغة.

في ما يتعلق بالحالة العربية، سيلحظ العامل الجبري أولاً المساحة التي نرغب في الاستيلاء عليها، وكنت قد بدأت متكاسلاً حساب المساحة بالأميال ... ربّما 140 ألف ميل ... وكيف سيتمكن الأتراك من الدفاع عن كامل هذه المساحة ... من دون شكّ عن طريق حفر خندق من الجهة السفلى، وذلك إن قمنا بالهجوم كجيش يرفع راياته علناً ... ولكن كيف سيكون الأمر لو افترضنا جدلاً أنّنا مجرّد تأثير (كما يمكن أن نكون فعلاً)، أو فكرة، أو شيء منيع وغير ملموس أو محدد ببداية أو نهاية، ينساب في الأرجاء كالغاز؟ إنّ الجيوش كالنباتات ثابتة بالمجمل وراسخة في المكان وتتغذى على أغصان طويلة تمتدّ حتى الرأس. يمكن أن نكون كالبخار ننتشر أنّى شئنا. ممالكنا موجودة في ذهن كلّ إنسان، وبما أنّنا لا نطلب أيّ شيء ماديّ لنعيش عليه، فربما لن نقدّم أيّ مقابل ماديّ لقاء عمليات القتل. يتّضح لي أنّ الجندي العادي سيشعر بالعجز إن لم يكن لديه هدف. سيمتلك الأرض التي يوجد فيها وما يقع ضمن نطاق بندقيّته.

بعد ذلك، أجريتُ دراسة تقديرية معمّقة لعدد المخافر التي سيحتاجونها من أجل احتواء هذا الهجوم مع نشوء حالة من التّحريض على العصيان في كلّ بقعة من مئات آلاف الأميال المربعة التي لم يتم احتلالها. لقد خبرتُ الجيش التركي بأدقّ تفصيلاته، وبغض النّظر عن وسائط الدّعم التي تلقاها أخيراً من

مدافع وطائرات وقطارات مصفّحة، لا يزال بحاجة إلى مخفر محصّن في كلّ أربعة أميال مربعة، ويجب أن يحتوي كلّ مخفر منها ما لا يقلّ عن عشرين جندياً. سيحتاج الأتراك أيضاً ستمئة ألف جندي لمواجهة النّيات السّيئة للسكان العرب المحليين مجتمعين. وهم يمتلكون مئة ألف جندي لا غير. بدا من الواضح أنّ الكفّة ترجح لنا في هذا الجانب من القيادة. ويمكن للطقس والسكك الحديدية والصحاري والأسلحة التكتيكية أن تصبّ في مصلحتنا أيضاً، إنْ أدركنا مقدّراتنا الأساسية وقمنا بتطويعها بذكاء لمصلحتنا. إنّ التركي غبيّ، وسيظنّ أنّ الثورة مطلقة كالحرب، وسيتعامل معها بالقياس كما يتعامل مع الحرب المطلقة. على أيّ حال، القياس هراء خدّاع، والحرب على التمرد فوضوية وبطيئة، مثل تناول الحساء بالسكين.

سأكتفي بهذا القدر من الحديث عن العامل الرياضي الذي أزعج الآخرين تسميتي له عنصراً جبرياً. أمّا العامل الثاني، فهو البيولوجي، وهو نقطة الانكسار، مسألة الحياة والموت، ومن الأفضل تسميته الاهتراء. لقد بدا مصطلح النظام الحيوي اسماً مناسباً للتعبير عنه. لقد حوّله فلاسفة الحرب إلى فن من الفنون. كما أنّهم رفعوا من شأن أحد مكوناته عالياً، وهو "إراقة الدماء"، إلى مستوى المبدأ. فأصبح يمثّل العنصر الإنساني في المعركة. إنّه الفن الذي يلامس جميع جوانب كياننا الجسدي؛ أمرٌ في غاية الحميميّة. وهو يشتمل على خطٍّ يمثّل المتغيرات (الإنسان) يسري في جميع تقديراته. كانت مكوّناته حساسة وغير منطقية، فقام الجنرالات بحماية أنفسهم عن طريق حيلة الاحتياط، وهي الوسيلة البارزة لفنّهم. يقول غولتز إنّه عندما تَعرف قوّة العدو وتعلم أنّه منتشر بشكل كامل، ستعرف ما يكفي للاستغناء عن الاحتياط. لكنّ هذا الأمر طوباوي. فدائماً ما يكون هناك إمكانية لوقوع الحوادث، أو وجود عيب في المواد، حاضرة في ذهن الجنرال، وهنا يتمّ الاحتفاظ بالقوات الاحتياطية لا شعورياً لمواجهة مثل هذه الحالات. هناك عامل "غرائزي" في ما يتعلق بالجنود، لا يمكن التعبير عنه بالأرقام، يمكن تخمينه بما يشابه Doxa[23] عند أفلاطون، والقائد العظيم هو الذي يصدق حدسه في غالبية الأحايين. إنّ نسبة المؤكّد في التكتيك تصل إلى تسعة أعشار، وهي تُدرّس في الكتب. لكنّ العُشْر اللاعقلاني المتبقي يشبه نظرة طائر الرفراف الخاطفة فوق البركة، وهذا هو الاختبار الحقيقي للجنرال. إنّه ينبع من الغريزة المصقولة بالفكر، ومن ممارسة الضربة بتكرار حتى تصبح طبيعية كردّ الفعل الانعكاسي في وقت الشدة.

23 الدوكسا (الرأي)، المعرفة التجريبية للحقائق والأحداث، أو للواقع الفلسفي.

مع ذلك، بدا لي أن تأطير هذا الفن ضمن الإطار الإنساني هو بمنزلة تضييق لا داعي له. فيجب إسقاطه على المادة والكائنات الحية على حد سواء. بالنسبة إلى الجيش التركي، كانت المواد قليلة وثمينة، فهناك وفرة في الرجال وندرة

في المعدّات. في النتيجة، كان توجّهنا يقضي بتدمير العتاد بالدرجة الأولى، وليس الجيش. بالنسبة إلينا، إن تدمير جسر تركي، أو رشّاش آلي، أو مواد شديدة الانفجار أكثر نفعاً من قتل جندي تركي. كان الجيش العربي في ذاك الوقت، كالجيش التركي، يعاني شحّاً بالرجال والعتاد. من حيث الرجال، يعود السبب إلى أنّ الجيش العربي ليس نظامياً، وفي النتيجة لا يتكوّن من وحدات عسكرية، بل من أفراد؛ سقوط فرد منهم أشبه برمي حصاة في بركة ماء، لأن كل حصاة ستتسبب في فجوة صغيرة في الماء مدة قصيرة، لكنّ دوائر الأسى ستتوسع بعيداً عنهم. لذا، لم يكن في وسعنا تحمّل تكاليف الخسائر البشرية. كان التعامل مع الجانب المتعلّق بالعتاد أسهل. ومن الواضح أنّه يتوجب علينا التفوّق في إحدى الجوانب، سواء بقطن البارود المتفجّر، أو الرشّاشات الآلية، أو أيّ عنصر حاسم آخر. لقد أرسى فوش مبدأ التفوّق في اللحظة الحاسمة من الهجوم، وأسقطه على العامل البشري. وفي إمكاننا إسقاطه على الجانب المادي، والتفوّق بالمعدّات في اللحظة الحاسمة، أو المجال المؤثّر.

في ما يخصّ الرجال والعتاد على حد سواء، في إمكاننا محاولة إضفاء جانب عكسيّ ملتوٍ على مذهب فوش بهدف التقتير، فنكون أضعف من العدو على الأصعدة كلّها، باستثناء جانب واحد. إنّ معظم الحروب هي حروب اتصالات، يكافح فيها الطّرفان للبقاء على تواصل مع قوّاتهما لتجنب أي مفاجأة تكتيكية. بالنسبة إلينا، يجب أن تكون حربنا حرب مفارز؛ سنقوم باحتواء العدو عن طريق التهديد الصامت الذي تشكله الصحراء الشاسعة والمجهولة بالنسبة إليهم، وعدم الكشف عن أنفسنا إلى أن تحين لحظة الهجوم. يكفي أن يكون هذا الهجوم شكلياً فقط، وألا يكون موجهاً ضد جنودهم، بل عتادهم. أي لا ينبغي أن يستهدف نقاط ضعفه أو قوته الأساسية، وإنّما عتاده الذي يَسهل الوصول إليه. ففي العمليات التي تستهدف قطع السكك الحديدية، يكون الجزء المستهدف مسافة طويلة وخاوية في الغالب. كان هذا نجاحاً تكتيكياً. ففي إمكاننا تحويل ما هو عادي إلى قاعدة (وليس قانوناً، فالحرب، كما وصفها كولن Colin، تقوم على التناقضات). ومع مرور الزمن، اعتدنا لا شعورياً على تجنب الاشتباك مع العدو إطلاقاً. كان ذلك يتناغم مع الحجة العددية التي تدفع إلى عدم إعطاء جنود العدو هدفاً يطلقون النار عليه. خلال الحرب، لم يتسنّ للعديد من الأتراك على جبهتنا إطلاق رصاصة واحدة علينا. في المقابل، لم نكن في وضع الدفاع إطلاقاً، إلا في الحالات النادرة. وتُعدّ الدّقة في "جمع المعلومات الاستخباراتية" اللازمة الطبيعية لهذه القاعدة، وذلك لكي يتسنى لنا التخطيط بثقة تامة. يجب أن يكون ما يجول في ذهن الجنرال العنصر الرئيسي (دو فوكيير de Feuquière أول من قدّم هذا الطرح)، ويجب ألا تشوب معلوماته شائبة، فلا يدع مجالاً للمصادفة. لقد بذلنا مجهوداً في هذا المجال أكثر من أي مجال آخر عرفته في حياتي.

إنّ العامل الثالث في القيادة هو السيكولوجي، وهو العلم الذي تؤدي فيه دعايتنا الجانب القذر والدنيء (يطلق عليه زينوفون Xenophon اسم العامل الاستهدافي). يُعنى جانب من هذا العامل بالحشود، ومعايرة روحهم المعنوية إلى أن تصبح في وضع مؤاتٍ ليصار إلى استغلالها عملياً، والترتيب المسبّق لوجهة نظر متغيرة لخدمة هدف معين. هناك جانب آخر منه يُعنى بالأفراد، وعندئذٍ يتحول هذا العامل إلى فن نادر في الكياسة الإنسانية يفوق، بالعاطفة الهادفة، التسلسلية المنطقية التدريجية لعقولنا. كما يأخذ بالاعتبار مزاجية رجالنا من حيث التعقيدات والتحولات التي تطرأ عليها، والعمل على تهذيب ما يمكن أن يخدم مصلحتنا منها. علينا أن نهيّئ عقولهم بما يتوافق مع ترتيب المعركة، تماماً كما يقوم الضباط الآخرون بتهيئة أجسادهم بدقة وانتظام. ولا يقتصر ذلك على تنظيم عقول رجالنا فقط، مع أنّ ذلك أولوية بالنسبة إلينا، بل عقول العدو، بالقدر الذي تسمح لنا به إمكانية الوصول إليها، وعقل الشعب الذي يناصرنا من خلف خطوط النار، إضافةً إلى عقل الأمة المعادية التي تنتظر النطق بالحكم علينا، والمحايدين الذين يقفون موقف المراقب.

اعتمدنا على العامل الأخلاقي في الحرب على نحو أساسي لتحقيق النصر على الجبهة العربية. إنّ الصحافة المطبوعة هي السلاح الأعظم في ترسانة القائد المعاصر. ونحن، بما أنّنا هواة في فن القيادة، بدأنا حربنا في سياق أجواء القرن العشرين، وفكّرنا في أسلحتنا دون أيّ تحيز، ودون التمييز بين أيّ سلاح وآخر من الناحية الاجتماعية. إنّ الضابط النظامي يمتلك من الخبرة ما يعادل خبرة أربعين جيلاً من الجنود الذين خدموا تحت قيادته. وبالنسبة إلى أمثاله الأسلحة التقليدية هي الأكثر إجلالاً. لم نكن نهتم بما يفعله رجالنا غالباً، وإنّما بما يفكّرون فيه، وكان العامل الاستهدافي بالنسبة إلينا يشكّل أكثر من نصف عملية القيادة. في أوروبا، تمت تنحية هذا العامل جانباً، وعهد به إلى أشخاص من خارج نطاق هيئة الأركان. أمّا في آسيا، فكنّا ضعيفين من الناحية المادية للغاية لدرجة أنّنا لم نكن لنسمح بأن يبقى هذا السلاح الميتافيزيقي دون استعمال. لقد استحوذنا على إقليم بمجرّد أنّنا قمنا بتعليم المدنيين هناك أن يضحّوا بأنفسهم في سبيل الحرية التي نسوّق لها. أمّا وجود العدو أو غيابه، فكان شأناً ثانوياً.

كشفت لي هذه الأفكار أنّ فكرة الهجوم على المدينة المنورة، أو حتّى الإسراع في تجويعها لدفعها إلى الاستسلام، لا تتطابق مع إستراتيجيّتنا الأمثل. أردنا أن يبقى العدو في المدينة المنورة بأكبر عدد ممكن، وفي كلّ مكان آخر لا يشكل فيه خطراً علينا. في نهاية المطاف، سيتسبّب عامل الطعام في تقييد حركته ضمن نطاق السكك الحديدية. لكنّنا كنّا نرحب بسيطرته على سكك حديد الحجاز وشرقي الأردن وفلسطين ودمشق وحلب خلال الحرب، ما دام يعطينا 99.99% المتبقية من العالم العربي. وفي حال أبدى رغبة في إسراع الإخلاء، كخطوة للوجود الكثيف في المساحة الصغيرة التي يمكن لقوّاته

السيطرة عليها بفعالية، سيتوجّب علينا محاولة إعادة الثقة إليه، ليس بالقوّة، بل عن طريق التقليل من عملياتنا ضده. كان الوضع المثالي بالنسبة إلينا يتمثّل في الإبقاء على عمل سكته الحديدية، ولكن ليس أكثر من ذلك، مع التسبّب له في الحد الأعلى من الخسائر والإزعاج.

بناءً عليه، خربتُ سكة الحديد في نقاط عدّة بما يكفي لإغضاب العدو دون أن نجعله يخشى تدميره نهائياً، ثمّ عدتُ إلى مدينة الوجه لأشرح لقادتي أنّ الحرب العربية حرب جغرافية، وأنّ الجيش التركي ليس إلّا عارضاً ثانوياً وليس هدفاً لنا. إنّ هدفنا يتمحور حول السعي خلف أضعف حلقة، وأن نضغط عليها إلى أن تتهاوى كتلتها بفعل الزمن. إنّ رجال القبائل يمثلون أعظم مواردنا، وهم غير معتادين الحرب التقليدية، ويتميّزون بالحركة والقدرة على التحمل والذكاء ومعرفة الأرض والشجاعة كأهم مقوماتهم. علينا أن نفرض على الأتراك الحفاظ على حالة الدفاع السلبي لأطول مدّة ممكنة (هذا أكثر أشكال الحرب كلفةً) عن طريق بسط جبهتنا إلى حدودها القصوى. فعلى الصعيد التكتيكي، ينبغي لنا تطوير جيش متحرك إلى أبعد الحدود ومجهز بأحدث التجهيزات، على أن يكون صغيراً قدر المستطاع، واستخدامه تباعاً ضد النقاط التركية المنتشرة على طول سكة الحديد، وذلك لإجبار الأتراك على تعزيز المخافر التي يحتلونها بما يتجاوز هامش عشرين رجلاً لكلّ مخفر، وهو هامش مقتصد. إنّ عظمة هذه القوة الضاربة لن تُؤخذ بالحسبان لمجرد قوتها فحسب. فما يحدد طابع الحرب هو نسبة العدد على المساحة، وبامتلاكنا خمسة أمثال القدرة على الحركة بالمقارنة مع الأتراك، سنتمكّن من مجاراتهم في حال امتلكنا خُمس عديدهم فقط.

كان نجاحنا مؤكداً، وسيثبت بالقلم والورقة بمجرّد معرفتنا بنسبة المساحة على الأعداد. إنّه صراع موارد وليس أجساد، وفي النتيجة ليس خوض المعارك صائباً. فجلّ ما ربحناه في المعارك كان الذخيرة التي أطلقها علينا العدو. إنّ النّصر بالنسبة إلينا لا يتعلق بالمعارك، بل بالأميال المربّعة التي نحتلها من البلاد. وكما قال نابليون، من النادر أن تجد جنرالاً يرغب في خوض المعارك. لكنّ لعنة هذه الحرب هي أنّ القليل فقط لديهم شيء آخر يفعلونه. لقد اتّسم ردّ فعل نابليون بالغضب عندما تحدث ضد الدهاء المفرط الذي اتّصف به القرن الثامن عشر، عندما نسي الرجال أنّ الحرب تشرعن الجريمة تقريباً. لقد انقضت مئة عام ونحن نترجّح على نظريته الشهيرة هذه، وقد حان الوقت الآن للعودة إلى الوراء قليلاً. إنّ المعارك عبء ثقيل على الطرف الذي يظنّ أنّه الأضعف، وتفرضها قلّة المساحة، أو الحاجة إلى الدفاع عن ملكية مادية أثمن من حياة الجنود. أمّا نحن، فلم يكن لدينا أيّ شيء مادي نخسره، وفي النتيجة لم يكن علينا الدفاع أو إطلاق النار على أيّ شيء. كان العنصر الأغلى في قواتنا يتمثل في الرجال البدو من غير النظاميين، وليس من النظاميين الذين يقتصر دورهم على احتِلال الأماكن التي سبق لغير النظاميين تأمين

إمكانية الوصول إليها. كانت أوراق قوّتنا تتمثل في عاملي السرعة والزمن، وليس القوة الضاربة، وقد منحنا هذان العاملان القوّة الإستراتيجية لا التكتيكية. إنّ نطاق الحركة أهمّ من القوّة على الصعيد الإستراتيجي. لقد أثّر اختراع لحم البقر المعلب في تطور الحرب البرية أكثر ممّا أثّر فيها اختراع البارود.

لم يؤيد رؤسائي هذه النقاشات كلّها لكنّهم أذنوا لي بتجربة الأمور على طريقتي الخاصة. بدايةً انطلقنا إلى العقبة واستولينا عليها بسهولة. ثمّ على الطفيلة والبحر الميت، ومن بعدها الأزرق ودرعا وأخيراً دمشق، وجميعها على مراحل متعاقبة تمّ الإعداد لها بوعي بناءً على النظريات التي عملت عليها في المدة التي كنت فيها طريح الفراش. كانت العملية تقضي بإنشاء شبكة متدرجة من القبائل، من شأنها أن تؤمّن لنا طريقاً آمناً ومريحاً بدءاً من قواعدنا البحرية (ينبع، أو الوجه، أو العقبة) وصولاً إلى قواعد عملياتنا المتقدمة. كانت هذه القواعد تبعد قرابة ثلاثمئة ميل في بعض الأحايين، وهي مسافة طويلة تمتدّ عبر أراضٍ خالية من السكك الحديدية أو الطرقات، لكنّها سُخّرت لتصبح قصيرة لنا بالتهذيب الدؤوب لقوة الصحراء، والسيطرة لفرق الهجّانة التي تجوب تلك الصحاري المجهولة والخاوية المترامية عبر محور الجزيرة العربية الممتدة من مكة المكرمة إلى حلب وبغداد.

من ناحية الشّكل، كانت هذه العمليات تشبه الحرب البحرية أكثر من كونها عمليات برية عادية. وكان ذلك جلياً عبر طبيعة التحركات والانتشار واستقلالية القواعد ووسائل الاتصالات إضافةً إلى افتقارها عوامل الأرض من مناطق إستراتيجية أو اتجاهات ثابتة أو نقاط محددة. ”من يمتلك البحر، فله مطلق الحرية أن يكسب من الحرب قدر ما يشاء، إمّا كثيراً وإمّا قليلاً“، ومن يمتلك الصحراء، فسيكون محظوظاً بالقدر نفسه. إذ يمكن لفرق الهجّانة المغيرة، شأنها شأن السفن المكتفية ذاتياً، أن تتنقل بأمان، دون رصد مخافر العدو، بمحاذاة أيّ جزء من حدود العدو البرية عبر أطراف الأرض المزروعة، والتجسس على خطوطه، أو الإغارة عليها في النقاط التي يجدونها أسهل أو أمثل أو أنفع. وثمة طريق مضمون للتراجع إلى منطقة لا يستطيع الأتراك دخولها دائماً. كانت حرية الحركة بالنسبة إلينا مدعّمة بمعرفة وثيقة بالأرض على جبهة سوريا الصحراوية؛ من المعروف تاريخياً بأنّ سوريا تتميّز بأنّها دولة لا يمكن الدفاع عنها إن تمّت مهاجمتها من الشرق. لقد جُبت معظمها سيراً على الأقدام مرات عدّة قبل اندلاع الحرب، في محاولة لفهم حركات صلاح الدين أو إبراهيم باشا. وفي الوقت الذي أصبحت خبرتنا في الحرب أعمق، ازدادت براعتنا في استثمار تلك السليقة الجغرافية التي وصفها بورسيه Bourcet أنّها عملية اقتران بين أرض مجهولة وأرض مألوفة في خريطة ذهنية.

كان التكتيك المتبع دائماً يعتمد على إنزال ضربات خفيفة بالعدو ثمّ الفرار. ضربات خفيفة لا دفعات ضاغطة. فنحن لم نحاول قط الحفاظ على أفضلية أو تعزيزها، بل كنّا نتحرك ونضرب ثانية في مكان آخر دائماً. كنّا نستخدم أقلّ عدد

ممكن من الرجال، في أقصر وقت، في أبعد مكان. وفي حال استمر العمل إلى أن يقوم العدو بإجراء تدابير مغايرة بهدف مقاومته، سنكون في هذه الحالة قد كسرنا روحيّة مبدئنا الذي يقضي بحرمان العدو هدفاً يطلق النار عليه.

لقد اكتسبنا السرعة وسهولة الحركة نتيجة التدبير الشديد الذي يتّصف به رجال الصحراء، وكفاءتهم العالية عندما يمتطون ظهور النوق. إنّ الجمال دواب معقدة وهي تتطلب جهداً ومهارةً عاليتين للتعامل معها، لكن العائد غالباً ما يكون مُرضياً. لم يكن لدينا أيّ آلية لتوزيع المؤن، فكلّ رجل مكتفٍ ذاتياً، ويحمل على ظهر ناقته من الطعام ما يكفي ستة أسابيع، بدءاً من اللحظة التي انطلقنا فيها من القاعدة عند بدء الغارة. هذه المؤونة المخصصة لستة أسابيع هي نصف كيس من الطحين يزن 45 رطلاً. أمّا الذين يحبذون الرفاهية بالطعام، فكانوا يحملون أيضاً كمية من الأرز من باب التنوع. كان كلّ فرد يصنع الخبز لنفسه، بعد أن يعجن طحينه على شكل فطائر غير مختمرة، وتسخينها على الرماد. وكان كلّ منا يحمل كمية قليلة من ماء الشرب، لأنّ الجمال تحتاج إلى الورود إلى الماء بمعدل مرّة كلّ ثلاثة أيام، ولم يكن هناك جدوى من أن نكون أغنى من مطايانا من حيث الماء. لم يكن بعضنا يشرب الماء خلال المسير بين بئر وآخر، لكنّ هؤلاء كانوا رجالاً أشداء، إذ إنّ معظمنا كانوا يشربون كميات كبيرة من الماء في كلّ مرة كنا نصل فيها إلى بئر، ويشربون مرة أخرى بعد انقضاء يوم جاف. في أيام الصيف الحارّة، تستطيع الجمال العربية قطع مسافة 250 ميلاً بين ريّتين بسهولة، وهذا يحتاج إلى ثلاثة أيام من المسير النشط. لكنّ البلاد ليست جافة بالقدر الذي يصوّرونه، وهذه الكمية أكثر ممّا كنّا نحتاجه، لأنّه من النادر أن تتجاوز المسافة الفاصلة بين بئر وآخر مئة ميل. إنّ مسير يوم واحد عادي كفيل بقطع خمسين ميلاً، أمّا عند الضرورة، ففي إمكان المرء قطع 110 أميال في اليوم الواحد.

مكّنتنا مؤونة الأسابيع الستة من قطع مسافة أكثر من ألف ميل جيئةً وذهاباً، وكان ذلك، شأنه شأن كمية الماء الشحيحة، أكثر ممّا نحتاجه، حتى في بلد شاسع المساحة كالجزيرة العربية. كان (بالنسبة إليّ، وأنا المبتدئ في ركوب الجمال في صفوف الجيش، إنّ كلمة "مؤلم" ملائمة أكثر) قطع مسافة 1500 ميل في الشهر على ظهور النوق دون التزود بالمؤن وارداً، ولم يكن هناك تخوّف من معاناة الجوع إطلاقاً، لأن كلّاً منّا يركب على ظهر مئتي رطل من اللّحم الافتراضي، وعندما كنّا نعاني من شحّ في الطعام، كنّا دائماً نتوقف ونأكل أضعف جمالنا. إنّ لحم الجمال المنهكة لا يشكّل طعاماً جيداً لكنّه أفضل من قتل جمل سمين، إذ علينا أن نتذكر دائماً أنّ فعاليتنا المستقبلية تعتمد على عدد الجمال الجيدة الموجودة تحت تصرفنا. وهي تقتات من المراعي التي نصادفها أثناء المسير (لم نُقدم الحبوب أو الأعلاف إليها إطلاقاً). فبعد قضاء ستة أسابيع على الطريق، تصبح الجمال هزيلة، ويصبح من الضروري إرسالها

إلى المرعى للاستراحة بضعة أشهر. في هذه الأثناء، نستدعي قبيلة أخرى بديلة عن السابقة، أو نبحث عن مطايا جديدة ونشيطة.

لم نصطحب إبلاً للحمولة كي لا تعيق حركتنا. كان الرجال يحملون معهم مئة رصاصة وبندقيّة، أو كان كلّ اثنين منهم يشكّلان معاً فريق "رشاش آليّ"، ويقومان بتقاسم حمولة الرشاش والبكرة بينهما. كان الرجال ينامون كيفما اتّفق في عباءاتهم التي يرتدونها أثناء الركوب، ولقد أبلوا بلاءً حسناً إلى أن حلّ علينا شتاء 1917–1918، وكنّا حينذاك في هضاب إدوم الواقعة خلف البحر الميت. هناك فقدنا العديد من الرجال وتجمدت الجمال حتى الموت، أو علقت في الثلوج التي ظلت تغطي المرتفعات على شكل كتل ثلجية سميكة لأسابيع طويلة. في تلك الأثناء، كنّا نناشد مصر لإمدادنا بالخيام والجزم والأغطية. وكان جوابها أنّ الجزيرة العربية منطقة مدارية!

كان عتاد فرق الإغارة يتسم بالبساطة، ولكن مع الحفاظ على التفوق التقني على الأتراك في أهمّ النواحي. وكان لدينا أعداد كبيرة من الرشاشات الخفيفة لاستخدامها كبديل للبنادق الآلية، ومعدات للقناصين لرجال لم يتم تدريبهم على آلية عملها بصورة مقصودة، وذلك كي لا تتسبب محاولات إصلاحها عند الاستعصاءات في إبطاء السرعة أثناء الرمي. وفي حال استعصى أحد الرشاشات، سيتوجب على الرامي رميه جانباً ومتابعة الرمي ببندقيته. طوّرنا خاصية جديدة للمواد الشديدة الانفجار أيضاً، وكان كلّ رجل منخرط بالثورة مؤهلاً، كجزء من خبرته الأساسية، لعمليات التلغيم. لقد ابتدعنا خلال الأشهر التي قضيناها في التدريب طرائق خاصة بنا للعمليات الخاطفة تحت النار. وقبل أن ينتهي التدريب، أصبحنا مؤهلين للتعامل مع أيّ مسافة من سكة الحديد أو الجسور بأسلوب اقتصادي وآمن.

في بعض المواقف، عززنا الغارات التي ينفذها رجال القبائل بالعربات المصفحة التي يقودها رجالٌ بريطانيون. يمكن للعربات المصفحة أن تُجاري فرقة جِمال أثناء الحركة في حال توافَرَ لها طريق معقول، لكنّها على أيّ حال مزعجة ولا يمكنها السير إلّا لمسافات قصيرة، وذلك لصعوبة حمل الوقود. ولهذا، قلما كنّا نستخدمها لمسافات تزيد عن مئة ميل عن موطننا. أثناء المسير إلى دمشق، على بُعد أربعمئة ميل من القاعدة، قمنا بإعادة تزويدها بالوقود عن طريق قافلة من الجمال المحملة بالوقود، ثم تمكّنا، بمساعدة من سلاح الجو، من تزويدها بالوقود مرّةً أخرى بطائرات من شركة Handley–page للطيران. إنّ العربات آلات قتالية مذهلة وحاسمة عندما تدخل المعركة في الظروف الملائمة لها. لكن، رغم تمتع كلّ من الجمال والعربات بخاصية "إطلاق النار من الحركة" بصورة أساسية، فإنّ الوظائف التكتيكية لكلّ منهما في المعركة مختلفة جداً، إلى درجة أنّني لا أوصي باستخدامهما معاً في عمليات مشتركة، باستثناء الحالات الخاصة جداً. لقد تبين لنا أنّ استخدام

سلاح الفرسان المزود بعربات مصفحة وغير مصفحة معاً أمر محبط لمعنويات الطرفين.
كان توزيع فرق الإغارة غير تقليدي. فقد كان الخلط بين قبيلتين أو جمعهما مستحيلاً، وذلك لأنّهما إمّا تكرهان بعضهما بعضاً وإمّا لا تثقان. بالمثل، لم يكن استخدام رجال قبيلة ما ضمن قطاع قبيلة أخرى وارداً. في النتيجة، وضعنا نصب أعيننا الانتشار الأوسع للقوات، وذلك لتنفيذ أكبر عدد ممكن من الغارات مباشرةً، وأضفنا إلى سرعتها الاعتيادية عامل المرونة عن طريق استخدام منطقة الإثنين، وأخرى الثلاثاء، وثالثة الأربعاء. كان هذا الأمر كفيلاً بتعزيز عامل الحركة الطبيعية لديها. كما أنّه منحها ميزةً لا تُقدّر بثمن أثناء عمليات المطاردة، لأن القوة تُجدّد نفسها برجال نشطين في كلّ مرّة تصل فيها إلى منطقة قبلية جديدة. كما أنّه كان كفيلاً بإمدادها بالطاقة التي تحتاجها. في حقيقة الأمر، كانت الفوضى القصوى مصدر التناغم بالنسبة إليها.
كانت التدابير الاقتصادية الداخلية الخاصة بفرق الإغارة غريبة أيضاً. وكان هدفنا إمكانية الحركة القصوى. كان لنا غاية مشتركة لا تستدعي أيّ تنافس قبلي، ولذلك لم نعتمد على روحيّة الفريق من أجل تعزيز دوافعنا. لقد قسمنا الجنود إلى طبقات، إمّا عن طريق إعطائهم رواتب كبيرة ومكافآت على شكل دفعات مالية، أو لباس، أو مزايا سياسية؛ وإمّا عن طريق تصنيفهم كمنبوذين معزولين عن أقرانهم بدواعي الاحتقار، كما هو متّبع في إنكلترا. لم يكن في إمكاننا دمجهم معاً، لأن رجالنا القبليين حملوا السلاح بإرادتهم وعن قناعة تامة. هناك كثير من الجيوش تمّ تشكيلها من المتطوعين، ولكن كانت قلّة قليلة من الجيوش تخدم طوعاً في هذه الظروف الشاقة طوال حرب طويلة كالتي نخوضها الآن. وكان في إمكان أيّ عربي العودة إلى موطنه إن خانته قناعته. فالعقد الوحيد بيننا هو عهد الشّرف.
بذلك، لم يكن لدينا أيّ انضباط بمعنى الانضباط المُلزم أو الذي يكبح التصرف الفردي الذي يمثل القاسم المشترك بين الرجال في حدوده الدنيا. في الجيوش النظامية، في حالة السلم، يمثّل هذا درجة الطاقة التي يستمدها جميع الأفراد الحاضرين؛ إنّها لا تعني السعي إلى ما هو مقبول، وإنّما إلى ما هو مُطلق، إلى ما هو 100%، حيث يُعامل الرجال التسع والتسعون الأقوى بالمستوى نفسه الذي يعامل به الأسوأ. والهدف تحويل الوحدة العسكرية إلى وحدة عسكرية حقيقية، وتحويل الرجال إلى صنف كي يتسنّى لنا حساب جهدهم، وفي النتيجة مردودهم المشترك على المستوى الفردي والجماعي. وكلّما ازداد منسوب الانضباط، ينقص مستوى الكفاءة الفردية، ويصبح مستوى الأداء مضموناً أكثر. إنّه تضحية متعمَّدة بالكفاءة للتقليل من تأثير العنصر غير المؤكد، أي العامل الحيوي، بين المجندين البشر، وما يلازمه هو الحرب المركّبة أو الاجتماعية، وهي ذلك الشكل من الحرب الذي يَفرض على الرجل

الذي يقاتل على الجبهة أن يصبح نتاجاً للجهود المتضافرة للهرمية الممتدّة من ورشة التصنيع وصولاً إلى وحدة الإمداد التي تزوده بما يحتاجه في الميدان.

كانت الحرب العربية بسيطة وفردية. فكلّ جندي متطوع يخدم على الجبهة، وهو مكتف ذاتياً. ولذلك، لم يكن لدينا أيّ خطوط اتصال أو جنود عاملين. وبذلك، تُحتسب كفاءة كلّ رجل على أساس كفاءته الذاتية. وضمن ظروف حربنا، كنّا نعتقد بأنّ المردود الذي يقدمه الرجال منفردين يعادل بالحد الأدنى نتاج النظام المركّب، وبالتأكيد، كان التكيّف مع الحياة القبلية وسلوكاتها أسهل، آخذين بالاعتبار المرونة والتفهم اللتين يبديهما الضباط القادة. ومن حسن حظنا، كان الشذوذ متجذّراً في نفس كلّ شاب إنكليزي تقريباً، ولهذا، انسجمنا معهم جيداً. بطبيعة الحال، كنّا نستعين بعدد قليل جداً من الرجال الإنكليز في الميدان، أي بما لا يتجاوز نسبة واحد على ألف من العرب تقريباً. ولو استخدمنا نسبة أكبر، لكان من الممكن أن يتسبب ذلك في شرخ بيننا وبينهم، لأنّنا نُعتبر أجساماً غريبة (أو لآلئ، إن شئت) في قلب المحارة. ولم تكن القِلّة القليلة منهم على الأرض تُسيطر عن طريق سلطتهم الأجنبية، بل عن طريق التأثير والنُّصح والمعرفة الفذّة التي يتميزون بها.

عملياً لم نزجّ الأعداد الكبيرة على خط النار التي وضعها النظام "البسيط" الذي كنا نتبعه رهن إشارتنا نظرياً. بل كنا نفضل استخدامها على التوالي، وإلّا فإن هجومنا سيكون موسعاً جداً. ينبغي أن يكون لكل رجل ميدان عمل فسيح. ففي الحروب غير التقليدية، إذا اجتمع رجلان معاً، ستذهب جهود أحدهما هدراً. إنّ العبء الأخلاقي الذي ينجم عن المعركة المنفصلة من شأنه أن يجعل هذا الشكل البسيط من أشكال الحرب شاقاً للغاية بالنسبة إلى الجندي. كما يتطلب منه المبادرة الخاصة والتحمّل والحماسة. كانت غايتنا تقضي أن نحول المعركة إلى سلسلة من النزالات. وكان نابليون أول من أوحى لي بهذه الفكرة، بتقييمه الخلاق للمماليك وفقاً لمعايير الجنود الفرنسيين، وبعدئذ طبقها آردان دو بيك Ardant du Picq على نحو أوسع. إنّ ما يتحيز إليه المؤرخون عادةً ما يكون أغنى جزء من تاريخهم. فقيمتنا تعتمد كلياً على الكيف لا الكم. علينا أن نحافظ على برودة أعصابنا طوال الوقت، لأن الحماسة التي يولدها التعطش إلى الدماء ستشكّل عائقاً في وجه المنظور العلمي لمقاتلينا. وكان انتصارنا يعتمد على استغلالنا الأمثل لعوامل السرعة والتخفي ودقّة الرمي. أمّا على الصعيد الذهني، فتتطلب حرب العصابات جهداً ذهنياً أكثر من هجمات الحراب بكثير.

لم تكن حقيقة أنّ معظم جنود قواتنا من الأميين ضارّة بالنسبة إلينا، إذ كنا نعمل بقصد مع أعداد صغيرة ونشرح لكلّ منها الخطة المرسومة شفهياً. لقد مرّنتهم هذه الأمية على امتلاك ذاكرة أوسع واستماع أدقّ للأخبار. ولم يكن تكتيكنا غاية في الدّقة أيضاً، لأنّه سيُترجم إلى أعمال مستقلة عبر أذهان أتباعنا، وسيكون النجاح مستحيلاً إذا لم يُسخّر كلّ منهم ذكاءه في تعزيز

مفهومنا في مواجهة الحوادث المادية والمعنوية على طول هذا المسار. إنّ هذا التبسيط للمقدرة التكتيكية إلى مستوى أدنى مُفسِّر لأمرٌ مؤسفٌ حقاً لكنّه ليس بخسارةٍ في المجمل. فالبديل الوحيد المتاح هو المشروع المستقل. إنّ مخططاً تافهاً نثابر عليه أعظم من سلسلة من الوسائل المذهلة، وسيتفوق عليها في نهاية المطاف.

بالمثابرة الحذرة، مع الحفاظ عليها ضمن نطاق استطاعتنا وإبقائها ضمن روحية نظرياتنا، تمكّنا في النهاية من التضييق على الأتراك إلى حد جعلهم يشعرون باليأس. بدا لنا النّصر المؤزّر قريباً جداً عندما وجّه الجنرال ألّنبي ضربة قاضية إلى قوات العدو الرئيسية في فلسطين، الأمر الذي أدّى إلى حالة من الاضطراب واليأس في صفوفهم، ووضع نهاية مباشرة للحرب التركية. كنّا سعيدين للغاية بوضع حد لآلامنا، لكنّني شعرت بالنّدم شخصياً أحياناً، لأن فخامته المعظّمة قد حرمني فرصة تطبيق نظرية ساكس حتى النهاية، القائلة إنّه يمكننا أن نربح الحرب دون خوض المعارك. كانت فكرة إسناد العرض الثانوي لعرض ثانوي آخر، بما تتضمنه من فرصة لإثبات نظرية أو نقضها، لدخيل مثلي – ليس مؤهلاً من الناحية التقنية ليحسن استغلالها – ضرباً من سخرية القدر. وكنت مستعداً أن أفعل المستحيل لأثبت أنّ ساكس كان أعظم مُعلّم في هذا النوع من الحروب. ولكن جلّ ما أستطيع قوله الآن هو أنّنا عملنا في ضوء تعاليمه عامين، وقد أفلحنا في ذلك. وهذه حجّة براغماتية لا يمكن الاستهزاء بها كلياً.

لسوء الحظ، كانت حملاتنا تفتقر إلى المؤرخ والمنفذ على حد سواء. وفيما أحاول الآن توثيق ما فعلناه، والسبب الذي دفعنا، تبدو بعض مبادئنا كأنّها بدهيات (إنّ البشر ميالون إلى تصديق المغالطات)، أمّا بعضها الآخر، فيبدو متناقضاً. لا بدّ أنّ الخطأ يكمن في طريقة عرضي الأمور، أو دقّة ملاحظتي. يبدو كأنّه لم يسبق للإنكليز التفكير في الحرب الهمجية من منظور الهمجي، والثورة العربية كانت ستشكّل فرصة رائعة للمفكّر من أجل اختبار جميع احتمالاتها على نطاق واسع. كانت حربنا غريبة وبعيدة جداً لدرجة أنّ السلطة الخجولة قد تخلت عنّا. لم يكن لدينا آليات قيادة، أو أطقم رسمية، أو موظفون، أو حكومة، أو أجهزة تلغراف، أو رأي عامّ أو جنود يحملون الجنسية البريطانية، أو شرف أو أعراف. كانت تجربة مثيرة سلبت منّا الألباب. كنّا نعتقد بأنّه في استطاعتنا أن نثبت أنّ الحرب غير النظامية، أو الثورة عِلْم مستقل، وأنّ نجاحها حتميّ، في حال توافرت بعض العوامل وتمّ تنفيذها ضمن مسارات محددة. لم نتمكن من إثبات ذلك لأن الحرب قد توقفت، ولكنّ الفرضية المطروحة هنا تتمثل في ما يأتي:

يبدو أنّه على الثورة أن تتمتع بقاعدة حريزة، وأن تكون محصّنة ليس من الهجمات فحسب، بل من خوف الآخرين منها. شيء شبيه بقاعدتنا في مرافئ البحر الأحمر، أو الصحراء، أو في أذهان الرجال الذين جعلناهم يعتنقون

مبادئنا. ينبغي أن يكون لها عدوّ أجنبي معقد على شكل جيش احتلال مُنضبط، على أن يكون أصغر من أن يتمكّن من فرض مبدأ الأرض، أي ألّا يمكّنه عديده القليل من تحقيق معادلة العدد على المساحة بهدف السيطرة على كامل المنطقة بفعّالية عبر المخافر المحصّنة. إضافة إلى ذلك يجب أن يكون لها شعب موالٍ، ولكن على نحو غير فعال، أي أن يكون متعاطفاً كفاية كي لا يشي بحركات الثوار لمصلحة العدو. ويمكن للثورات أن تقوم على 2% من الفاعلين ضمن القوة الضاربة، و98% من العناصر السلبية المتعاطفة. على القلّة القليلة المنخرطة فعلياً في الثورة أن تتحلى بمواصفات السرعة والتحمل، والوجود المطلق، والاستقلالية عن شرايين الإمداد. كما عليها امتلاك المعدّات التقنية اللازمة لتدمير، أو شلّ شبكات اتصالات العدو المنظمة، لأن الحرب غير النظامية لا تختلف إطلاقاً عن تعريف ويليسين للإستراتيجية، بوصفها "دراسة الاتصالات" بأقصى درجاتها، والهجوم من حيث لا يوجد العدو. يمكننا تلخيص ذلك بخمسين كلمة: في حال تحقّقت شروط الحركة، والأمان (بما يعني حرمان العدو الأهداف)، والوقت، والمبدأ (المتمثل في كسب صداقة جميع الرعايا)، عندئذ سيكون النصر حليف الثوار، لأن العوامل الجبرية حاسمة في نهاية الأمر، ولن يكون هناك أيّ جدوى من امتلاك الوسائل المثالية أو الشجاعة في مواجهة هذه العوامل.

سابعاً

علم حرب العصابات

1929

تكفي هذه المقالة فحسب أنّها فضول أدبي أخّاذ، كونها نتاج عمل مؤلّفين اثنين، أو بدقّة أكثر، نتاج مشترك بين مؤلِّف واحد ومحرِّر ألمعيّ. بعد رفضه الإسهام في كتابة مقالة في الطبعة الرابعة عشر من *Encyclopedia Britannica* (المُزمع نشرها في 1929) عن موضوع كان ضليعاً به، كان لورانس سعيداً بأنّ المهمّة ستقع على عاتق محرّر الموسوعة العسكري، النقيب بازل ليدل هارت، مانحاً إيّاه تفويضاً مطلقاً بتجميع مقالة من كتاباته، أي كتابات لورانس التي تمّ نشرها مسبّقاً. شرع ليدل هارت، وهو من المعجبين بلورانس

وكاتب سيرته الذاتية المستقبلي، في تنفيذ المهمّة عن رغبة وإرادة، وأتحفنا بمقالة غاية في الوضوح، تتميّز بالسلاسة والأسلوب الأخّاذ، إلى درجة أنّها تستحقّ انتشاراً أوسع ممّا حقّقته فعلياً. وهذا هو السبب في ورودها في هذا المقام. فمع أنّها لا تُصنّف ضمن كتابات لورانس رسمياً، فإنها بالتأكيد تحمل طابع كتاباته المميّزة، وهي بمنزلة خلاصة ممتازة لآرائه حول الموضوع. وحتماً ستلاحظون تكراراً لبعض المواد التي ظهرت في أجزاء أخرى من هذا المجلّد، لكنّ هذا التكرار من شأنه أن يجعلها ممتعاً أكثر على أقلّ تقدير، وليس العكس، لأنّه يكشف آلية تنقيح أفكار رجل وإعادة صياغتها على يد رجل آخر يتميّز بذهن متّقد.

في الوقت الذي نُشرت فيه المقالة، كان توماس إدوارد لورانس قد غيّر اسمه بموجب إجراء قانوني ليصبح توماس إدوارد شو T. E. Shaw. ولو كان محرّرو الموسوعة على علم بذلك، لكانوا طالبوا بنسبة معتبرة لدى إنجاز المقالة، وهذا يُفسّر ورود الصيغة المختصرة T. E. L. A. للدلالة على اسم الكاتب في ذيل المقالة.

سبق هذه المقالة نبذة قصيرة بعنوان "Guerrilla" [رجال العصابات] وبقلم "TB"، والمقصود هو السير توماس باركلي Thomas Barclay، نائب رئيس "جمعية القانون الدولي" الذي ألّف مجموعة متنوّعة من الأعمال من ضمنها الكتاب المهمّ *International Law and Practice* [القانون الدولي وتنفيذه].

أُعيدت طباعة المقالة والنبذة التمهيدية في كتاب مختارات بعنوان *The Treasury of the Encyclopedia Britannica* [خزانة الموسوعة البريطانية] ويحمل العنوان الفرعيّ "أكثر من قرنين من الحقائق والمعارف والاكتشافات المستقاة من أكثر المراجع تميّزاً على مرّ الزمان" (Viking, New York, 1992). وعلّق المحرّرون: "عنصر التجربة الشخصية الذي يطغى على المقالة غريب عن الأسلوب الموسوعيّ لكنّه بلا شكّ السبب الرئيسي الذي جعلهم ينشدون هذا الكاتب بالتّحديد".

لقد تمّت إضافة المقطع التمهيدي الذي كتبه توماس باركلي كما ورد تماماً في العملين المنشورين سابقاً.

تُطلق تسمية حرب العصابات حالياً للدلالة على حرب تشنّها مجموعات بطريقة غير نظامية أو غير منظّمة، وترِد أحياناً خطأً على الشكل الآتي: "guerilla" بدلاً من guerrilla، أي بحذف الرّاء، كونها اسم تصغير للكلمة الإسبانية "Guerra" التي تعني الحرب. سبق أن تمّت مناقشة وضع المقاتلين غير النظاميين خلال مؤتمر السلام الذي عُقد عام 1899. وقد تمّ تأكيد القواعد التي تبنّاها المؤتمر بخصوصهم مرّة أخرى في مؤتمر 1907. تنصّ هذه القواعد على مجموعة من الشروط التي ينبغي أن تتوافر في هذه المجموعات غير النظامية لتصنيفها كمجموعات مقاتلة: (أ) أن يكون على رأسها رجل مسؤول عن تصرّفات أتباعهِ، (ب) أن يرتدوا شارة ثابتة يمكن تمِييزها من بعد، (ت) أن

يحملوا السلاح علناَ، (ث) أن يلتزموا قوانين الحرب وأعرافها أثناء عمليّاتهم. على أيّ حال، تنصّ هذه القواعد أيضاً على أنّه في حال الغزو إن حمل سكان المنطقة التي يجري غزوها السلاح بعفوية لمقاومة القوّة الغازية، سيكونون قوّات مقاتلة في حال حملوا السلاح علناً واحترموا قوانين الحرب وأعرافها، حتّى لو أنّهم لم يتمكنوا من تنظيم أنفسهم بما يتناسب مع الشروط السابقة الذكر نتيجة لغياب الوقت الكافي. لقد تمّ اقتباس هذه المبادئ حرفياً من المشروع الذي تمّت صياغته في مؤتمر بروكسل الدولي عام 1847. ورغم أنه لم يجرِ التصديق عليه إطلاقاً، تمّ تضمينه عملياً في أنظمة الجيش الصادرة عن الحكومة الروسية بخصوص حرب 1877–1878. (TB)

علم حرب العصابات

1929

تعتمد هذه الدراسة عن علم حرب العصابات، أو الحرب غير النظامية، على التجربة الواقعية المستقاة من الثورة العربية ضدّ الأتراك في 1916–1918. لكنّ هذا المثال التاريخي بدوره يستقي أهميته من أنّ مسار الحرب فيه كان مستوحى من التطبيق العملي للنظريات التي نعرضها هنا.

اندلعت الحرب العربية في حزيران/ يونيو 1916 بهجوم شنّه رجال القبائل الذين يفتقرون إلى الخبرة والسلاح الجيد على حاميات الجيش التركي في المدينة المنورة وأطراف مكة المكرّمة. لكنّهم لم يحققوا أيّ نجاح، وبعد عناء أيام، انسحبوا خارج نطاق مدفعية الحصن، وبدؤوا فرض حصار على المنطقة. نجح هذا الأسلوب في إجبار مكة المكرمة، وهي المدينة الأبعد، على الاستسلام مبكراً. أمّا المدينة المنورة، فكانت متصلة مع الجيش التركي الأساسي المتمركز في سوريا بسكة الحديد، الأمر الذي سمح للأتراك بتعزيز حاميتهم هناك. وتراجعت القوة العربية التي هاجمتها بالتدريج واتخذت موقعاً لها يعترض الطريق الرئيسي المؤدي إلى مكة المكرمة.

في هذه المرحلة، توقفت الحملة أسابيع عدّة، فيما كان الطرفان يلتقطان أنفاسهما، وكان الأتراك يحضّرون أنفسهم للأخذ بزمام الأمور عن طريق إرسال حملة عسكرية إلى مكة المكرمة تهدف إلى سحق الثورة في معقلها. لقد قاموا بنقل فيلق عسكري بالقطار. بعدئذٍ، بدؤوا التقدم باتجاه الطريق الغربية التي تصل المدينة المنورة بمكة المكرمة. وكانت المسافة الفاصلة بينهما تبلغ قرابة 250 ميلاً. كانت الأميال الخمسون الأولى سهلة، ويليها حزام من التلال يبلغ عرضه عشرين ميلاً، حيث يتمركز رجال فيصل فيه بوضعية الدفاع. بعد هذه التلال، هناك سهل يمتدّ سبعين ميلاً على طول الشريط

الساحلي وصولاً إلى رابغ، ويبلغ أكثر من نصف المسافة بقليل. ورابغ مرفأ صغير على شاطئ البحر الأحمر، ومرسىً جيد للسفن. يتمركز فيها الشريف علي، أكبر أشقاء الشريف فيصل، برفقة المزيد من قوات القبائل وبداية جيش عربي نظامي تمّ تشكيله من ضباط ورجال من أصل عربي كانوا يخدمون في الجيش التركي. وبما أنّه كان لزاماً علينا التفكير في سياق مجريات العمل العسكري العامّ منذ أيام نابليون، يتطلع الجنود في جميع الدول إلى القوات النظامية لكسب الحرب. لقد استحوذت علينا مقولة فوش، إنّ أخلاقيات الحرب تقضي بالسعي وراء جيش العدو الذي يمثل مركز قوته وتدميره في المعركة. وبما أنّ المقاتلين غير النظاميين لا يهاجمون المواقع عادةً، بدا لنا أنّهم غير قادرين على اتخاذ القرار.

بينما كان الجنود النظاميون العرب لا يزالون ضمن التدريب، بدأ الأتراك زحفهم نحو مكة المكرمة بغتة. ونجحوا في اختراق التلال في غضون أربع وعشرين ساعة، وبذلك يكونون قد برهنوا لنا النظرية الثانية للحرب غير النظامية، وهي أنّ الجنود غير النظاميين غير قادرين على الدفاع أو على مهاجمة أيّ موقع. لم نكن ممتنّين للدرس الذي تلقيناه لأن النجاح التركي وضع القوات المتمركزة في رابغ في مأزق حرج. ولم تكن القوة المرابطة في رابغ قادرة على صد هجوم كتيبة واحدة ناهيك عن لواء كامل.

في هذا الوقت الحرج خطر للكاتب أنّه من المحتمل أن تتجلّى فعاليّة الجنود غير النظاميين في العمق وليس في الظاهر، وأنّ الأتراك نتيجةً لتخوّفهم من التهديد الذي يشكّله هؤلاء الجنود غير النظاميين على خاصرتهم الشمالية قد تردّدوا طويلاً قبل أن يشنوا هجومهم. إنّ خاصرة القوات التركية الفعلية تمتدّ من خط المواجهة إلى المدينة المنورة، أي مسافة ما يقارب خمسين ميلاً. ولكن إن تحرك العرب نحو سكة حديد الحجاز، خلف المدينة المنورة، فسيكون من الممكن أن يوسعوا تهديدهم (في النتيجة خاصرة القوات التركية) وصولاً إلى دمشق، أي لمسافة ثمانمئة ميل نحو الشمال. من شأن مثل هذا التحرك إرغام الأتراك على الانكفاء نحو الدفاع، وحينئذ سيكون في وسع القوة العربية استعادة زمام المبادرة. على أيّ حال، بدت كأنّها فرصتهم الوحيدة، وهكذا، في كانون الثاني/ يناير 1917، أدارت قوات فيصل المؤلفة من رجال القبائل ظهرها لمكة المكرمة والأتراك ورابغ، وزحفت مئتي ميل شمالاً باتجاه مدينة الوجه.

كان لهذا التحرك الغريب مفعول كالسحر. لم يقم العرب بأيّ شيءٍ ملموس، لكنّ زحفهم نحو الوجه أجبر الأتراك (كانوا قد وصلوا إلى رابغ تقريباً) على أن يعودوا أدراجهم إلى المدينة المنورة. وهناك، تولّى نصف القوات الموقع المحصّن حول المدينة، وظلّوا متشبثين به إلى ما بعد اتفاق الهدنة. أمّا النصف الثاني، فانتشر على طول سكة الحديد للدفاع عنها ضدّ هجمات العرب. وهكذا وقف الأتراك موقف المدافع في مواجهة العرب طِوال مدة الحرب المتبقية،

فيما كان العرب يحققون التقدم تلو الآخَر إلى أن بلغت حصيلة مكاسبهم، بحلول معاهدة السلام، 35 ألف أسيراً، ومثلهم تقريباً من القتلى والجرحى والخارجين عن الخدمة نتيجة الإصابة إضافةً إلى الاستيلاء على مئة ألف ميل مربع من أراضي العدو؛ هذا كله مقابل خسائر لا تُذكر من طرفنا. على أيّ حال، رغم أنّ الوجه كانت كنقطة تحوّل بالنسبة إلينا، لم نكن ندرك أهميتها. في ذلك الوقت، كان هذا التحرك أساسياً من أجل قطع سكة الحديد بهدف الاستيلاء على المدينة المنورة التي تمثّل المركز الرئيسي للقوات التركية وحاميتها الرئيسية.

في الإستراتيجية والتكتيك

على أيّ حال، من سوء حظ الكاتب أنّه كان منغمساً في قيادة الحملة بالقدر الذي يبتغيه. ونتيجةً لأنه لم يلتقَّ أيّ تدريب في القيادة، سعى مباشرةً إلى إيجاد معادلة توفّق بين قراءاته السابقة حول النظرية العسكرية والتحركات الحالية كدليل، وأساس فكري، للعمل المستقبلي. لقد حددت الكتب الهدف من الحرب على أنّه "تدمير قوات العدو المنظمة" عن طريق "معركة العملية الواحدة". كما أنّه لا يمكن للنصر أن يتحقق دون بذل الدماء. كانت هذه مقولة صعبة، لأن العرب لا يمتلكون قوّات منظّمة، وفي النتيجة لن يكون للتركي، من أتباع نظرية الجنرال فوش، أيّ هدف. كذلك الأمر، لن يحتمل العرب تكبّد الخسائر، وفي النتيجة إنّ العربي، من أتباع نظرية كلاوزفيتس، لن يكون في مقدوره دفع ثمن الانتصار. لا بد من أن هؤلاء الحكماء يتحدثون مجازياً، لأنّنا كنا، دون أدنى شك، نربح حربنا... وفيما كنت أفكر في الأمر، اتّضح لي أننا قد انتصرنا في معركة الحجاز. كنا نسيطر على 99% من الحجاز. وليهنأ الأتراك بالسيطرة على الجزء المتبقي إلى أن يحلّ السلام أو يدركوا عبثيّة التشبث بإطار نافذتنا في يوم القيامة. لقد وصلت هذه المرحلة من الحرب إلى نهايتها، فلم القلق بشأن المدينة المنورة؟ هي لم تكن قاعدة لنا كرابغ، كما لا تشكل تهديداً للأتراك كما الحال بالنسبة إلى الوجه؛ إنّها مجرّد طريق مسدود بالنسبة إلى الطرفين. لقد تمركز فيها الأتراك متّخذين وضع الدفاع دون حراك، حيث كانوا يأكلون الدواب التي يستخدمونها للتنقل، والتي كان من المفترض أن تنقلهم إلى مكة المكرمة، ولم يبقَ لها أيّ مرعى تقتات عليه ضمن خطوط وجودهم المقيّدة حالياً. كانوا يقبعون هناك دون أن يشكّلوا أيّ خطورة تُذكر. وفي حال أسرهم، ستقع كلفة إطعامهم وحراستهم في مصر على عاتقنا. أمّا في حال طردهم شمالاً باتّجاه سوريا، فسينضمون إلى الجيش الرئيسي الذي يحاصرنا في سيناء. من جميع النّواحي أفضل الحلول أن يبقوا في مكانهم،

وهم يثمّنون قيمة المدينة المنورة عالياً ويرغبون في الحفاظ عليها. إذاً، دعهم يفعلون ذلك!

بدا ذلك مختلفاً عن تقاليد الحرب التي كان الجنرال فوش يعِظ بها، وعلى ما يبدو ثمة اختلاف نوعي. لقد وصف الحرب الحديثة بالحرب "المُطلقة". وفي هذه الحرب، تشرع أمّتان تتبنيّان فلسفتين غير متوافقتين في محاولة تطبيقهما بالقوّة. إنّ الصراع بين مبدأين غير ماديّين لا ينتهي إلّا عندما تنفد سبل المقاومة لدى مناصري إحداهما. إنّ الآراء تُطرح للسّجال، أمّا القناعات، فتبقى الخيار الأفضل. النهاية المنطقية لحرب العقائد تتمثّل في تدمير إحداها نهائياً، وخير مثال على ذلك رواية *Salammbo* الشّهيرة. كانت هذه خطوط النزاع بين فرنسا وألمانيا، ولكن ليس بين ألمانيا وإنكلترا، كما أعتقد، لأن جميع الجهود التي بُذلت في سبيل أن ندفع رجالنا لكي يكرهوا العدو لم تُثمر إلّا في جعلهم يكرهون الحرب. ولاحقاً بتوقيعنا معاهدة الهدنة، جعلنا الحرب العظيمة تبدو كأنّها لا ترقى إلى مستوى نموذج فوش. بالنسبة إليّ، كانت مجرّد شكل من أشكال الحرب، فيمكن أن أرى أشكالاً أخرى كالتي عدّدها كلاوزفيتس، ومنها الحروب الشخصية التي تنشب لأسباب عائلية، وحروب الاستبعاد لأسباب حزبية، والحروب الاقتصادية لأسباب تجارية.

إنّ الهدف الذي يسعى العرب إلى تحقيقه الآن جغرافي من دون أدنى شك، ويتلخّص في احتلال جميع الأراضي التي يتحدث سكانها العربية في آسيا. وفي خضم هذه العملية، يمكن أن نقتل أتراكاً. لكنّ "قتل الأتراك" لا يمكن أن يكون ذريعة أو هدفاً. وفي حال غادروا بهدوء، ستنتهي الحرب. أمّا في حال رفضوا المغادرة، فينبغي إخراجهم بالقوة، ولكن بأقلّ قدر من الخسائر الممكنة، خصوصاً أنّ العرب يخوضون حرباً من أجل الحرية، وهي نعمة لا يستمتع بها إلّا الأحياء. كانت المهمة الثانية تتمثّل في تحليل العملية من منظور إستراتيجي يتضمن هدف الحرب والنظرة الشاملة التي ترى كلّ جزء من خلال الكلّ، ومن منظور تكتيكي يتضمن الوسيلة لتحقيق الغاية الإستراتيجية والخطوات التي تقود إليها. وفي كلّ منهما، وجدت العناصر نفسها: عنصر جبري، وآخر بيولوجي، وثالث سيكولوجي. بدا العنصر الأول كأنّه علمي صرف خاضع لقوانين الرياضيات، ولا يمتّ إلى الإنسانية بصلة. وهو يُعنى بثوابت معلومة وظروف ثابتة، وبالزمان والمكان وأشياء أخرى غير عضوية كالتلال والمناخ والسكك الحديدية، إذ البشر كتل هائلة لا مكان فيها للتنوع الفردي ولكنّها تتمتّع بجميع وسائل المساعدة الاصطناعية وجميع الملحقات التي توفّرها الاختراعات الميكانيكية لمداركنا. من حيث الجوهر، كانت قابلة للصياغة.

في ما يتعلق بالحالة العربية، سيلحظ العامل الجبري أولاً المساحة التي نرغب في الاستيلاء عليها. وبحساب أوّلي، ستكون المساحة التقديرية ما يقارب 140 ألف ميل مربّع. والسؤال: كيف سيتمكن الأتراك من الدفاع عن كامل هذه المساحة؟ من دون شك عن طريق حفر خندِق من الجهة السفلى،

وذلك إن قام العرب بالهجوم كجيش يرفع راياته علناَ... ولكن كيف سيكون الأمر لو افترضنا جدلاً بأنّهم مجرّد تأثير، أو شيء منيع، وغير ملموس أو محدد ببداية أو نهاية، ينساب في الأرجاء كالغاز؟ إنّ الجيوش كالنباتات ثابتة بالمجمل وراسخة في المكان، تتغذّى بأغصان طويلة تمتدّ حتى الرأس. ويمكن للعرب أن يكونوا كالبخار ينتشر أنّى شاء. يتّضح أنّ الجندي النظامي سيشعر بالعجز إن لم يكن لديه هدف. وجلّ ما في الأمر أنّه سيمتلك الأرض التي يوجد فيها وما يقع ضمن نطاق بندقيته. كانت الخطوة الثانية تتلخص في دراسة تقديرية معمّقة لعدد المخافر التي سيحتاجها الأتراك من أجل احتواء هذا الهجوم، مع نشوء حالة من التحريض على العصيان في كلّ بقعة من مئات آلاف الأميال المربعة التي لم يتم احتلالها. سيحتاجون مخفراً محصّناً في كلّ أربعة أميال مربعة، ويجب أن يحتوي كلّ مخفر منها ما لا يقلّ عن عشرين جندياً. إذاً، سيحتاج الأتراك أيضاً ستمئة ألف جندي لمواجهة النّيات السيئة للسكان العرب المحلّيين مجتمعين. وهم يمتلكون مئة ألف لا غير. بدا من الواضح أنّ الكفّة ترجح للعرب في هذا المنحى. يمكن للطقس والسكك الحديدية والصحاري والأسلحة التكتيكية أن تصبّ في مصلحتهم أيضاً. إنّ التركي غبيّ، وسيظن أنّ الثورة مطلقة كالحرب، وسيتعامل معها بالقياس كما يتعامل مع الحرب المطلقة.

المنحى الإنساني في المعركة

سأكتفي بهذا القدر من الحديث عن العامل الرياضي، وأنتقل إلى العامل الثاني وهو البيولوجي، الذي يمثّل نقطة الانكسار أو مسألة الحياة والموت، ومن الأفضل تسميته الاهتراء. لقد حوّله فلاسفة الحرب إلى فن من الفنون، كما أنّهم رفعوا شأن أحد مكوناته عالياً، وهو "إراقة الدماء"، إلى مستوى المبدأ. فأصبح يمثّل العنصر الإنساني في المعركة. إنّه الفن الذي يلامس جميع جوانب كياننا الجسدي. وهو يشتمل على خطّ يمثّل المتغيرات (الإنسان) يسري في جميع تقديراته. وكانت مكوناته حساسة وغير منطقية، فقام الجنرالات بحماية أنفسهم عن طريق حيلة الاحتياط، وهي الوسيلة البارزة لهذا الفن. يقول غولتز إنّه عندما تعرف قوّة العدو وتعلم أنّه منتشرٌ بشكل كامل، ستعرف ما يكفي للاستغناء عن الاحتياط. لكنّ هذا الأمر طوباوي. فدائماً ما يكون هناك إمكانية لوقوع الحوادث، أو وجود عيب في المواد، حاضرة في ذهن الجنرال، وهنا يتمّ الاحتفاظ بالقوات الاحتياطية لا شعورياً لمواجهة مثل هذه الحالات. هناك عامل "غرائزي" في ما يتعلق بالجنود لا يمكن التعبير عنه بالأرقام، والقائد العظيم هو الذي يصدق حدسه في غالبية الأحايين. إنّ نسبة المؤكَّد في التكتيك تصل إلى تسعة أعشار، وهي تُدرّس في الكتب. لكنّ

العُشْر اللاعقلاني المتبقي يشبه نظرة طائر الرفراف الخاطفة فوق البركة، وهذا هو الاختبار الحقيقي للجنرال. إنّه ينبع من الغريزة المصقولة بالفكر ومن ممارسة الضربة بتكرار حتى تصبح طبيعية كردّ الفعل الانعكاسي في وقت الشدة.

مع ذلك، بدا لي أنّ تأطير هذا الفن ضمن الإطار الإنساني هو بمنزلة تضييق لا داعي له. ويجب إسقاطه على المادة والكائنات الحية على حد سواء. بالنسبة إلى الجيش التركي، كانت المواد قليلة وثمينة، فهناك وفرة في الرجال وندرة بالمعدّات. في النتيجة، كان توجّهنا يقضي بتدمير العتاد بالدرجة الأولى وليس الجيش. بالنسبة إلينا إن تدمير جسر تركي أو سكة حديد، أو رشاش آلي، أو مواد شديدة الانفجار أكثر نفعاً من قتل جندي تركي. كان الجيش العربي في ذاك الوقت، كالجيش التركي، يعاني شحاً في الرجال والعتاد. من حيث الرجال، يعود السبب إلى أنّ الجيش العربي ليس نظامياً، وفي النتيجة لا يتكوّن من وحدات عسكرية، بل من أفراد، وسقوط فرد منهم أشبه برمي حصاة في بركة ماء، فكلّ حصاة ستتسبب في فجوة صغيرة في الماء لمدة قصيرة، لكنّ دوائر الأسى ستتوسع بعيداً منهم. لم يكن في وسع الجيش العربي تحمّل تكاليف الخسائر البشرية. كان التعامل مع الجانب المتعلق بالعتاد أسهل. ولذلك، من الواضح أنّه يتوجب عليهم التفوق على أحد الأصعدة، سواء بقطن البارود المتفجر، أو الرشاشات الآلية، أو أيّ عنصر حاسم آخر. لقد أرسى فوش مبدأ التفوّق في اللّحظة الحاسمة من الهجوم، وأسقطه على العامل البشري. وفي إمكان الجيش العربي إسقاطه على الجانب المادي، والتفوّق بالمعدات في اللحظة الحاسمة، أو المجال المؤثر.

في ما يخص الرجال والعتاد على حد سواء، في إمكانهم محاولة إضفاء جانب عكسي ملتوٍ على مذهب فوش، بهدف التقتير، فيكونون أضعف من العدو على جميع الأصعدة، باستثناء جانب واحد أو مادة واحدة. إنّ معظم الحروب هي حروب اتصال يكافح فيها الطّرفان للبقاء على تواصل مع قواتهما لتجنب أيّ مفاجئة تكتيكية. بالنسبة إلينا، يجب أن تكون الحرب العربية حرب مفارز؛ يقومون باحتواء العدو عن طريق التهديد الصامت الذي تشكله الصحراء الشاسعة والمجهولة بالنسبة إليهم، ويتجنبون الكشف عن أنفسهم إلى أن تحين لحظة الهجوم. يكفي أن يكون هذا الهجوم شكلياً فقط، وألّا يكون موجهاً ضد جنودهم بل عتادهم. أي لا ينبغي أن يستهدف نقاط ضعفه أو قوته الأساسية، وإنّما عتاده الذي يَسهُل الوصول إليه. في العمليات التي تستهدف السكك الحديدية غالباً ما يكون الجزء المستهدف مسافة طويلة وخاوية من السكة. لقد شكّل ذلك نجاحاً تكتيكياً للجيش العربي. في نهاية المطاف، اعتاد الجيش العربي، اعتماداً على هذه النظرية، تجنب الاشتباك مع العدو إطلاقاً. وكان ذلك يتناغم مع الحجة العددية التي تدفع إلى تجنب إعطاء جنود العدو هدفاً يطلقون النار عليه. في النتيجة، لم يكن العرب في موقع الدفاع مطلقاً

إلّا في ما ندر. والدقة في "جمع المعلومات الاستخباراتية" لازمة طبيعية لهذه القاعدة، كي يتسنى لهم التخطيط بثقة تامة. يجب أن يكون ما يجول في ذهن الجنرال العنصر الرئيسي (كان دو فوكييه أول من قدّم هذا الطرح)، ويجب ألّا تشوب معلوماته شائبة، فلا يترك مجالاً للمصادفة. لقد تجشّم مركز قيادة الجيش العربي عناء هذا العمل أكثر من أيّ طرف آخر.

الحشود في العمليات القتالية

إنّ العامل الثالث في القيادة هو السيكولوجي، وهو العلم الذي تؤدي فيه دعايتنا الجانب القذر والدنيء (يطلق عليه زينوفن اسم العامل الاستهدافي). يُعنى جانب من هذا العامل بالحشود ومعايرة روحهم المعنوية إلى أن تصبح في وضع مؤاتٍ ليصار إلى استغلالها عملياً، والترتيب المسبّق لوجهة نظر متغيرة لخدمة هدف معين. هناك جانب آخر منه يُعنى بالأفراد، وعندئذ يتحول هذا العامل إلى فن نادر في الكياسة الإنسانية يفوق، بالعاطفة الهادفة، التسلسلية المنطقية التدريجية لعقولنا. كما يأخذ بالاعتبار مزاجية رجالنا، من حيث التعقيدات والتحولات التي تطرأ عليها، والعمل على تهذيب ما يمكن أن يخدم مصلحتنا منها. علينا أن نهيّئ عقولهم بما يتوافق مع ترتيب المعركة، تماماً كما يقوم الضباط الآخرون بتهيئة أجسادهم بدقة وانتظام. لا يقتصر ذلك على تنظيم عقول رجالنا فقط، مع أنّ ذلك أولوية بالنسبة إلينا، بل عقول العدو، بالقدر الذي تسمح لنا به إمكانية الوصول إليها، وعقل الشعب الذي يناصر الجيش العربي من خلف خطوط النار، إضافةً إلى عقل الأمة المعادية التي تنتظر النطق بالحكم عليهم، والمحايدين الذين يقفون موقف المراقب.

اعتمدت القيادة على العامل الأخلاقي في الحرب أساساً لتحقيق النصر على الجبهة العربية. إنّ الصحافة المطبوعة هي السلاح الأعظم في ترسانة القائد المعاصر. وبما أنّهم لا يزالون هواة في هذا الفن، بدأ قادة الجيش العربي حربهم في سياق أجواء القرن العشرين، وفكروا في أسلحتهم دون أيّ تحيز، ودون التمييز بين سلاح وآخر من الناحية الاجتماعية. إنّ الضابط النظامي يمتلك من الخبرة ما يعادل خبرة أربعين جيلاً من الجنود الذين خدموا تحت قيادته، وبالنسبة إلى أمثاله الأسلحة التقليدية هي الأكثر إجلالاً. لم تكن القيادة العربية تعير أيّ اهتمام لما يقوم به الرجال، وإنّما بما يفكرون فيه، وكان العامل الاستهدافي بالنسبة إليهم يشكّل أكثر من نصف عملية القيادة. في أوروبا، تمت تنحية هذا العامل جانباً، وعهد به إلى أشخاص من خارج نطاق هيئة الأركان. لكنّ الجيش العربي كان ضعيفاً من الناحية المادية للغاية لدرجة أنّهم لم يكونوا ليسمحوا بأن يبقى هذا السلاح الميتافيزيقي دون استعمال. لقد

استحوذنا على إقليم بمجرّد أنّنا علّمنا المدنيين هناك أن يضحوا بأنفسهم في سبيل الحرية. أمّا وجود العدو أو غيابه، فكان شأناً ثانوياً.
أظهرت هذه الأفكار أنّ فكرة الهجوم على المدينة المنورة، أو حتى الإسراع في تجويعها لدفعها إلى الاستسلام، لا تتطابق مع الإستراتيجية المُثلى. من الأفضل أن يبقى العدو في المدينة المنورة بأكبر عدد ممكن، وفي كلّ مكان آخر لا يشكل فيه خطراً على الجيش. وفي حال أبدى رغبة في إسراع الإخلاء، كخطوة للوجود الكثيف في المساحة الصغيرة التي يمكن لقواته السيطرة عليها بفعالية، سيتوجّب على الجيش العربي محاولة إعادة الثقة له، ليس بالقوة، بل عن طريق التقليل من عملياته ضدّه. كان الوضع المثالي يتمثل في الإبقاء على عمل سكّته الحديدية، ولكن ليس أكثر من ذلك، مع التسبب له بالحد الأعلى من الخسائر والإزعاج.
لم يكن الجيش التركي سوى عارض ثانوي وليس هدفاً. هدفنا الإستراتيجي الحقيقي يتمحور حول السعي خلف أضعف حلقة والضغط عليها إلى أن تتهاوى كتلتها بفعل الوقت. في النتيجة، ينبغي للجيش العربي أن يفرض على الأتراك الحفاظ على حالة الدفاع السلبي لأطول مدّة ممكنة (هذا أكثر أشكال الحرب كلفة) عن طريق بسط جبهتم إلى حدودها القصوى. على الصعيد التكتيكي، ينبغي لهم تطوير قوّة متحركة إلى أبعد الحدود ومجهزة بأحدث التجهيزات، على أن تكون صغيرةً قدر المستطاع، ثمّ استخدامها تباعاً ضدّ النقاط التركية المنتشرة على طول سكة الحديد، وذلك لإجبارهم على تعزيز مخافرهم المحتلة بما يتجاوز هامش عشرين رجلاً لكلّ مخفر، وهو هامش مقتصد. إنّ عظمة هذه القوّة الضاربة لن تُؤخذ بالحسبان لمجرّد قوتها فحسب. إنّ ما يحدد طابع الحرب هو نسبة العدد على المساحة، وبامتلاك العرب خمسة أمثال القدرة على الحركة بالمقارنة مع الأتراك، سيكون في مقدورهم مجاراة الأتراك في حال امتلكوا خُمس عديدهم فقط.

القوّة لا تعلو على نطاق الحركة

كان النجاح مؤكداً، وسيثبت بالقلم والورقة بمجرد معرفتنا بنسبة المساحة على الأعداد. إنّه صراع موارد لا أجساد، وفي النتيجة ليس خوض المعارك صائباً. جلّ ما يمكن كسبه في المعارك هي الذخيرة التي أطلقها علينا العدو. وكما قال نابليون، من النادر أن تجد جنرالاً يرغب في خوض المعارك. لكنّ لعنة هذه الحرب هي أنّ القليل فقط لديهم شيء آخر يفعلونه. لقد اتّسم ردّ فعل نابليون بالغضب عندما تحدث ضدّ الدهاء المفرط الذي اتصف به القرن الثّامن عشر، عندما نسي الرجال تقريباً أنّ الحرب تشرعن الجريمة. انقضت مئة عام وما زال الفكر العسكري يتأرجح حول نظريته، وقد حان الوقت

للعودة إلى الوراء قليلاً. إنّ المعارك عبء ثقيل على الطرف الذي يظنّ أنّه الأضعف، وتفرضها قلة المساحة أو الحاجة إلى الدفاع عن ملكية مادية أثمن من حياة الجنود. أمّا العرب، فلم يكن لديهم أيّ شيء مادي يخسرونه، وبذلك، لم يكن عليهم الدفاع أو إطلاق النّار على شيء. كانت أوراق قوّتهم تتمثّل في عاملي السرعة والزمن لا القوّة الضاربة، وقد منحهم هذان العاملان القوّة الإستراتيجية لا التكتيكية. إنّ نطاق الحركة أهمّ من القوّة على الصعيد الإستراتيجي. لقد أثّر اختراع لحم البقر المعلب في تطور الحرب البرية أكثر ممّا أثّر اختراع البارود.

لم تؤيد السلطات العسكرية البريطانية هذه النقاشات كلّها لكنّها أذنت بتجربتها على أرض الواقع. وبناءً عليه انطلقت القوات العربية إلى العقبة في البداية، واستولت عليها بسهولة. ثمّ استولت على الطفيلة والبحر الأحمر، ومن بعدها الأزرق ودرعا، وأخيراً دمشق، وجميعها على مراحل متعاقبة تمّ الإعداد لها بوعي بناء على هذه النظريات. كانت العملية تقضي بإنشاء شبكة متدرجة من القبائل من شأنها أن تؤمّن لها طريقاً آمناً ومريحاً بدءاً من القواعد البحرية (ينبع أو الوجه أو العقبة) وصولاً إلى قواعد العمليات المتقدمة. كانت هذه القواعد تبعد قرابة ثلاثمئة ميل في بعض الأحايين، وهي مسافة طويلة تمتد عبر أراضٍ خالية من السكك الحديدية أو الطرقات لكنّها سُخّرت لتصبح قصيرة للجيش العربي بالتهذيب الدؤوب لقوة الصحراء، وسيطرة الهجّانة التي تجوب تلك الصحاري المجهولة والخاوية المترامية عبر محور الجزيرة العربية والممتدة من مكة المكرمة إلى حلب وبغداد.

الصحاري والبحار

من ناحية الشكل، كانت هذه العمليات أشبه بالحرب البحرية في طبيعة التحركات والانتشار واستقلالية القواعد ووسائل الاتصالات، إضافةً إلى تجاهل العوامل الأرضية والمناطق الإستراتيجية أو الاتجاهات الثابتة أو النقاط المحددة. "من يمتلك البحر، فله مطلق الحرية في أن يكسب من الحرب قدر ما يشاء، إمّا كثيراً وإمّا قليلاً"، ومن يمتلك الصحراء، فسيكون محظوظاً بالقدر نفسه. يمكن لفرق الهجّانة المغيرة، شأنها شأن السفن المكتفية ذاتياً، أن تتنقل بأمان دون رصدها من مخافر العدو، بمحاذاة أيّ جزء من حدود العدو البرية عبر أطراف الأرض المزروعة، والتجسس على خطوطه، أو الإغارة عليها في النقاط التي يجدونها أسهل أو أمثل أو أنفع. ثمة طريق مضمون دائماً للتراجع إلى منطقة لا يستطيع الأتراك دخولها.

تعلّمنا من التدريب العملي كيفية تحديد النقطة التي علينا إثارة القلاقل فيها ضمن جسد العدو. كان التكتيك المتّبع دائماً يعتمد على إنزال ضربات خفيفة

بالعدو ثمّ الفرار. ضربات خفيفة لا دفعات ضاغطة. لم يحاول الجيش العربي قط الحفاظ على أفضلية ما أو تعزيزها، بل كان دائماً يتحرك ويضرب ثانيةً في مكان آخر. ويستخدم أقلّ عدد ممكن من الرجال في أقصر وقت وأبعد مكان. وفي حال استمر العمل إلى أن يقوم العدو بإجراء تدابير مغايرة بهدف مقاومته، سيكون في هذه الحالة قد كسر روحيّة المبدأ الذي يقضي بحرمان العدو هدفاً يطلق النار عليه.

لقد اكتسب رجال الصحراء السرعة وسهولة الحركة نتيجة التدبير الشديد الذي يتّصفون به، وكفاءتهم العالية عندما يمتطون ظهور النوق. في أيام الصيف الحارّة، تستطيع الجمال العربية قطع 250 ميلاً بين ريّتين بسهولة، وهذا يعادل ثلاثة أيام من المسير النشط. لكنّ البلاد ليست جافة بالقدر الذي يصوّرونه، وهذه المسافة أكثر ممّا نحتاجه دائماً، لأنّه من النادر أن تتجاوز المسافة الفاصلة بين بئر وآخر مئة ميل. كان عتاد فرق الإغارة يتّسم بالبساطة ولكن مع الحفاظ على التفوق التقني على الأتراك في أهم النواحي. لقد حصلنا على كمية من الرشاشات الخفيفة من مصر لاستخدامها كبديل للبنادق الآلية، ومعدات للقناصين من قبل رجال لم يتم تدريبهم على آلية عملها بصورة مقصودة، كي لا تتسبّب محاولات الإصلاح في إبطاء السرعة أثناء الرمي. أمّا الميزة الخاصة الثانية، فكانت المواد الشديدة الانفجار، وكان كلّ رجل منخرط في الثورة مؤهلاً، كجزء من خبرته الأساسية، لعمليات التلغيم.

العربات المصفحة

في بعض المواقف، تمّ تعزيز الغارات التي ينفذها رجال القبائل بالعربات المصفحة التي يقودها رجال بريطانيون. ويمكن للعربات المصفحة أن تُجاري فرقة جِمال أثناء الحركة في حال توافر لها طريق معقول. أثناء المسير إلى دمشق، على بُعد أربعمئة ميل من القاعدة، تمت إعادة تزويدها بالوقود عن طريق قافلة من الجمال المحملة بالوقود في المرة الأولى. أمّا لاحقاً، فتمّ تزويدها بالوقود عن طريق سلاح الجو. إنّ العربات آلات قتالية مذهلة وحاسمة عندما تدخل المعركة في الظروف الملائمة لها. لكن، رغم تمتع كلّ من الجمال والعربات بخاصية "إطلاق النار من الحركة" أساساً، فإنّ الوظائف التكتيكية لكلّ منهما في المعركة مختلفة جداً، إلى درجة أنّ استخدامهما معاً في عمليات مشتركة صعب للغاية. لقد تبين لنا أنّ استخدام سلاح الفرسان المزود بعربات مصفحة وغير مصفحة معاً أمر محبط لمعنويات الطرفين.

كان توزيع فرق الإغارة غير تقليدي. فقد كان الخلط بين قبيلتين أو جمعهما مستحيلاً، وذلك لأنّهما إمّا تكرهان بعضهما بعضاً وإمّا لا تثقان. بالمثل، لم يكن

استخدام رجال قبيلة ما ضمن قطاع قبيلة أخرى وارداً. وبذلك، خُرق مبدأ آخر من مبادئ الإستراتيجية التقليدية نتيجةً لاتّباع مبدأ الانتشار الأوسع للقوات، وذلك لتنفيذ أكبر عدد ممكن من الغارات مباشرةً. وأضفنا إلى سرعتها الاعتيادية عامل المرونة عن طريق استخدام منطقة الإثنين، وأخرى الثلاثاء، وثالثة الأربعاء. كان هذا الأمر كفيلاً بتعزيز عامل الحركة الطبيعية لدى الجيش العربي. كما منحه ميزةً لا تُقدّر بثمن أثناء المطاردة، لأن القوة كانت تُجدّد نفسها برجال نشيطين في كلّ مرّة تصل فيها إلى منطقة قبلية جديدة، كما كان كفيلاً بإمدادها بالطاقة التي تحتاجها. في حقيقة الأمر، كانت الفوضى القصوى مصدر تناغم بالنسبة إليها.

الجيش غير المنضبط

كانت التدابير الاقتصادية الداخلية الخاصة بفرق الإغارة غريبة أيضاً. وهدفنا يتمثل في منع الاتّساق وإمكانية الحركة القصوى. لقد أدّى التنوع إلى إقصاء استخبارات العدو وحرفها عن مسارها. إنّ وجود الهيكلية النظامية ضمن الكتائب والفرق المتماثلة يقود إلى تعاظم المعلومات، إلى أن يصبح بالإمكان الاستدلال على وجود مجموعة بناءً على مجموعات من ثلاث سرايا مختلفة. ومرة أخرى كان للعرب غاية مشتركة لا تستدعي أيّ تنافس قبلي، ولذلك لم يحتاجوا إلى الاعتماد على روحية الفريق. تمّ تقسيم الجنود إلى طبقات إمّا عن طريق إعطائهم رواتب عالية ومكافآت على شكل دفعات ماليّة، أو لباس، أو مزايا سياسية، وإمّا عن طريق تصنيفهم كمنبوذين معزولين عن أقرانهم بدواعي الاحتقار، كما هو متّبعٌ في إنكلترا. هناك كثير من الجيوش تمّ تشكيلها من المتطوعين، ولكن كانت قلّة قليلة من الجيوش تخدم طوعاً في هذه الظروف الشاقة طوال حرب طويلة كالثورة العربية. كان في إمكان أيّ عربي العودة إلى موطنه إن خانته قناعته. فالعقد الوحيد معهم هو عهد الشرف.

في النتيجة، لم يكن لدينا أيّ انضباط بمعنى الانضباط المُلزم، أو الذي يكبح التصرف الفردي الذي يمثل القاسم المشترك بين الرجال في حدوده الدنيا. في الجيوش النظامية، في حالة السلم، يمثّل هذا درجة الطاقة التي يستمدها جميع الأفراد الحاضرين؛ إنّها لا تعني السعي إلى ما هو مقبول، وإنّما إلى ما هو مُطلق، إلى ما هو 100%، حيث يُعامل الرجال التسع والتسعون الأقوى بالمستوى عينه الذي يعامل به الأسوأ. والهدف تحويل الوحدة العسكرية إلى وحدة عسكرية حقيقية، وتحويل الرجال إلى صنف كي يتسنّى لنا حساب جهدهم، وفي النتيجة مردودهم المشترك على المستوى الفردي والجماعي. كلّما ازداد منسوب الانضباط، ينقص مستوى الكفاءة الفردية ويصبح مستوى الأداء مضموناً أكثر. إنّه تضحية متعمَّدة بالكفاءة للتقليل من تأثير العنصر غير

المؤكد، أي العامل الحيوي، بين المجندين البشر، وما يلازمه هو الحرب المركّبة أو الاجتماعية، وهي ذلك الشكل من الحرب الذي يفرض على الرجل المقاتل على الجبهة أن يصبح نتاجاً للجهود المتضافرة للهرمية الممتدّة من ورشة التصنيع وصولاً إلى وحدة الإمداد التي تزوده بما يحتاجه في الميدان.

في المقابل، كانت الحرب العربية بسيطة وفردية. فكلّ جندي متطوع يخدم على الجبهة، وهو مكتفٍ ذاتياً. ولذلك، لم يكن لدينا أيّ خطوط اتصال أو جنود عاملين. في النتيجة، تُحتسب كفاءة كلّ رجل على أساس كفاءته الذاتية. وضمن ظروف حربنا، كنّا نعتقد بأنّ المردود الذي يقدمه الرجال منفردين يعادل بالحد الأدنى نتاج النظام المركّب، وبالتأكيد، كان التكيّف مع الحياة القبلية وسلوكاتها أسهل، آخذين بالاعتبار المرونة والتفهم اللتين يبديهما الضباط القادة. ومن حسن حظنا، كان الشذوذ متجذّراً في نفس كلّ شاب إنكليزي تقريباً، ولهذا، انسجمنا معهم جيداً. بطبيعة الحال، كنّا نستعين بعدد قليل جداً من الرجال الإنكليز في الميدان، أي بما لا يتجاوز نسبة واحد على ألف من العرب تقريباً. ولو أنّنا استخدمنا نسبة أكبر، لكان من الممكن أن يتسبب ذلك في شرخ بيننا وبينهم، لأنّنا أجسام غريبة (أو لآلئ، إن شئت) في قلب المحارة. ولم تكن القِلّة القليلة منهم على الأرض تُسيطر عن طريق سلطتهم الأجنبية، بل عن طريق التأثير والنُّصح والمعرفة الفذّة التي يتميزون بها.

عملياً لم نزجّ الأعداد الكبيرة على خط النار التي وضعها النظام "البسيط" الذي كنا نتبعه رهن إشارتنا نظرياً، بل كنا نفضل استخدامها على التوالي، وإلّا سيكون هجومنا موسعاً جداً. ينبغي تأمين ميدان عمل فسيح لمقاتلي حرب العصابات. ففي الحروب غير التقليدية، إذا اجتمع رجلان معاً، ستذهب جهود أحدهما هدراً. إن العبء الأخلاقي الذي ينجم عن المعركة المنفصلة من شأنه أن يجعل هذا الشكل البسيط من الحرب شاقاً للغاية بالنسبة إلى الجندي. كما يتطلب منه المبادرة الخاصة والتحمل والحماسة. كان الهدف يقضي بأن نحول المعركة إلى سلسلة من النزالات على نحو يشكّل فيه الأفراد والقادة حلفاً سعيداً. وكانت قيمة الجيش العربي تعتمد كلياً على الكيف لا الكم. فينبغي للعناصر الحفاظ على برودة أعصابهم طوال الوقت، لأن الحماسة التي يولدها التعطّش إلى الدماء ستشكل عائقاً في وجه المنظور العلمي للمقاتلين. كان انتصارهم يعتمد على الاستغلال الأمثل لعوامل السرعة والتخفي ودقة الرمي. أمّا على الصعيد الذهني، فتتطلب حرب العصابات جهداً ذهنياً أكثر من هجمات بالحراب بكثير.

علم حرب العصابات الدّقيق

بالمثابرة الحذرة، مع الحفاظ عليها ضمن نطاق استطاعتنا وإبقائها ضمن روحية نظرياتنا، تمكّنا في النهاية من التضييق على الأتراك إلى حد جعلهم يشعرون باليأس. وبدا النصر المؤزر قريباً جداً عندما وجّه الجنرال ألّنبي ضربة قاضية إلى قوات العدو الرئيسية في فلسطين، الأمر الذي أدى إلى حالة من الاضطراب واليأس في صفوفهم، ووضع نهاية مباشرة للحرب التركية. لكنّ فخامته المعظّمة قد حرم الثورة العربية فرصة تطبيق نظرية ساكس حتى النهاية وإثبات أنه يمكننا أن نربح الحرب دون خوض المعارك. ولكن يمكن لقادة هذه الثورة القول إنّهم عملوا في ضوء تعاليمه عامين وقد أفلحوا في ذلك. هذه حجة براغماتية لا يمكن الاستهزاء بها كلياً. ورغم أنّها لم تكتمل، عزّزت التجربة الاعتقاد بأن الحرب غير النظامية أو الثورة عِلْم دقيق يمكن إثباته، وأنّ نجاحها حتمي في حال توافر بعض العوامل وتنفيذها ضمن مسارات محددة.

يمكن تلخيص القضية على النحو الآتي: يجب أن تتمتع الثورة بقاعدة حريزة، وأن تكون محصّنة ليس من الهجمات فحسب، بل من خوف الآخرين منها؛ شيء شبيه بالقاعدة التي أنشأتها الثورة العربية في مرافئ البحر الأحمر، أو الصحراء، أو في أذهان الرجال الذين اعتنقوا مبادئها. ينبغي أن يكون لها عدو أجنبي معقد على شكل جيش احتلال مُنضبط، على أن يكون أصغر من أن يتمكن من فرض مبدأ الأرض، أي ألا يمكّنه عديده القليل من تحقيق معادلة العدد على المساحة بهدف السيطرة على كامل المنطقة بفعّالية عبر المخافر المحصّنة. بالإضافة إلى ذلك، يجب أن يكون لها شعب موالٍ، ولكن بشكل غير فعال، أي متعاطفاً كفاية كي لا يشي بتحركات الثوار للعدو. يمكن للثورات أن تقوم على 2% من الفاعلين ضمن القوة الضاربة، و98% من العناصر السلبية المتعاطفة. وعلى القلة القليلة المنخرطة فعلياً في الثورة أن تتحلى بمواصفات السرعة والتحمّل، والوجود المطلق، والاستقلالية عن شرايين الإمداد. كما عليها امتلاك المعدّات التقنية اللازمة لتدمير، أو شلّ، شبكات اتصالات العدو المنظمة، لأن الحرب غير النظامية لا تختلف إطلاقاً عن تعريف ويليسين للإستراتيجية بوصفها "دراسة الاتصالات" بأقصى درجاتها، والهجوم من حيث لا يوجد العدو. يمكن تلخيص ذلك بخمسين كلمة: في حال تحقّقت شروط الحركة، والأمان (بما يعني حرمان العدو الأهداف)، والوقت، والمبدأ (المتمثّل في كسب صداقة جميع الرعايا)، عندئذ سيكون النصر حليف الثوار، لأن العوامل الجبرية حاسمة في نهاية الأمر، ولن يكون هناك أيّ جدوى من امتلاك الوسائل المثالية أو الشجاعة في مواجهة هذه العوامل.

الملحق آ

"النشرة العربية"

بقلم ديفيد جورج هوغارث

(مقتبس من العدد رقم 100، 20 آب/ أغسطس 1918)

كان هوغارث معلمنا كلّنا، وصدّيقنا ومرشدنا الأبوي، الذي قدم إلينا مقاربات التاريخ ودروسه، ومبادئ العدل والإنصاف والشجاعة. أمّا بالنسبة إلى الدخلاء، فكان صانع سلام (أمّا أنا، فكنت مقاتلاً بضراوة، ولا يهمّني أمر أو شيء) وجعلنا مميَّزين ويُصغى إلينا بفعل حصافته الوازنة... كان هوغارث ضامننا ومؤرخنا الذي لا يعرف الكلل، والذي أعطانا معرفته العظيمة وحكمته المترويّة حتى في أبسط الأمور، لأنّه كان مؤمناً بما كنا نفعله.

Seven Pillars of Wisdom، الفصل 6

استغرق هوغارث بعض الوقت للعثور على دور مناسب في زمن الحرب، ووجده في النهاية في الفرع الجغرافي الذي تم إنشاؤه في شعبة الاستخبارات البحرية حديثاً (من هنا، نال رتبته البحرية)، إذ تكمن مهمة الفرع الرئيسية في تجميع كتيبات جغرافية لأغراض استخباراتية. وبحلول نهاية 1918، تم إصدار أكثر من خمسين مجلداً حظيت بسمعة عالية من حيث الدقة والموضوعية. وأسهم هوغارث في هذه السلسلة بـ*Handbook of Arabia* [دليل الجزيرة العربية] مؤلَّف من مجلدين مرجعيين. في الوقت نفسه، كان مسؤولاً عن تقارير مماثلة معدّة لإدارة الاستخبارات العسكرية في القاهرة (على سبيل المثال، تقريرين عن منطقة مرمرة في تركيا) وعن الكتيبات الصادرة برعاية المكتب العربي، ولا سيما *Handbook of Hejaz* [دليل الحجاز] الذي استخدم مواد من "النشرة العربية" على نطاق واسع (مثل أوصاف لورانس لفيصل وأشقائه في البند VI من "المراسلات السرية"). فضلاً عن ذلك كان له دور كبير في تحديد شكل "النشرة العربية" وأسلوبها واتجاهها العام. وعليه، كان الشخص الواضح الذي يلخص إنجازات تلك المجلة في عددها المئة.

تشير "فترات الغياب" المذكورة في الفقرة الخامسة إلى أوقات 1916 عندما كان في لندن ينسق العمل على هذه المنشورات المختلفة، كما أدى تعيينه في

وظيفة استخباراتية مماثلة عام 1917 في مقر قيادة الجنرال ألَنبي في فلسطين إلى إبعاده عن التواصل المنتظم مع النشرة، رغم استمرار ظهور الأحرف الأولى DGH من اسمه مذيّلة المقالات المهمة إلى نهاية الحملة.

"النشرة العربية"

يقدم عددنا المئة مناسبةً ومسوغاً للتأمل في ماضي "النشرة العربية" منذ انطلاقتها منذ أكثر من عامين. لقد غيرت طابعها من بعض النواحي خلال تلك المدة، إذ غيرت اسمها، لأنها بدأت بوصفها "ملخصات المكتب العربي" المنشورة تحت سلطة وزارة الخارجية، لكنها مرتبطة بهيئات الأركان العامة حينذاك. فتم دمج المكتب العربي الذي ما كاد يحقق وجوداً منفصلاً في إدارة الاستخبارات العسكرية في القاهرة بقيادة العميد كلايتون المعروف على نطاق واسع من عنوانه التلغرافي "INTRUSIVE" [المتطفّل]. أصدر مقر قيادة هيئة الأركان العامة، في الإسماعيلية آنذاك، نشرة استخباراتية، كان المقصود منها في الأصل أن تكون ملحقاً لـ"ملخصات المكتب العربي". وكان أول اقتراح لها من النقيب توماس إدوارد لورانس الذي بات برتبة مقدم الآن.
اتبع نصف دزينة من الأعداد نموذج هيئة الأركان العامة، وقد تمت كتابتها على الآلة الكاتبة ونسخها بعملية Roneo. سرعان ما نشأت فكرة الطباعة، ويرجع ذلك جزئياً إلى التنفيذ المعيب لعملية النسخ، الأمر الذي كان يجعل قراءة الصفحات أمراً صعباً، ولكن أكثر بسبب وجود عدد قليل من الموظفين العسكريين السريين في المطبعة الحكومية التي كانت تؤدي عملاً خفيفاً آنذاك. وكانت قادرة على تولي طباعة "ملخصات المكتب العربي" كمهمتها الرئيسية. ونظراً إلى طباعة العدد الأول على هذا النحو، اعتمد اسم جديد: "النشرة العربية". وعندما تمت طباعة الإصدارات السابقة المكتوبة على الآلة الكاتبة بعد ذلك مباشرة لإكمال المجموعة، اعتمد الاسم بأثر رجعي.
في البداية، اقترح إصدار أعداد، لكن ليس يومياً مثل نشرة استخبارات هيئة الأركان العامة، بل على مدد قصيرة غير منتظمة، وفق الضرورة. وعليه، صدرت سبعة أعداد في أربعة وعشرين يوماً من حزيران/ يونيو 1916. ورغم تقديم المطبعة التسهيلات كلّها، أدى اعتماد الطباعة إلى تأخّر النشر لا محالة. وبحلول تشرين الأول/ أكتوبر، انخفضت النشرة إلى أربعة أعداد شهرياً. وبعد مرور عام، تبيّن استحالة الحفاظ حتى على هذا المعدل لبعض الوقت، نظراً إلى ازدياد أعباء العمل السري الذي ألقته هيئة الأركان العامة والقوى البحرية على عاتق المطبعة الحكومية بصورة سريعة. فباتت الصعوبات كبيرة جداً في الجزء الأخير من 1917، إذ كانت النشرة على وشك العودة إلى نمط Roneo في الطباعة، أو التلاشي تماماً. لكن لحسن الحظ، انخفضت الضغوطات

الأخرى في المطبعة، وبات إصدار عدد أسبوعي وارداً مجدداً. على العموم، تم الحفاظ على هذا المعدل إلى الوقت الحالي، فالمطبعة تؤدي دورها بانتظام وسرعة في حال حذو المحرر حذوها.

نظراً إلى سهولة كتابة "النشرة العربية" بلغة إنكليزية لائقة أو رديئة، لكنها أكثر قبولاً بكثير، اتسمت منذ البداية بطابع أدبي غاب عن ملخصات الاستخبارات دائماً. فمن ناحية، لم تصبّ هذه الميزة في مصلحتها. مشفوعاً بالحرف الطباعي والورق الجيدين يبدو أن هذا الأمر قد أثّر سلباً في احترام طابع النشرة السري من بعض أوساطه المحدودة من المستفيدين. وسرعان ما أدرك المكتب العربي أن نشرته كانت مطلباً مُرضياً، لكنّه شاقّ للغاية. وبدأت تنتقل إلى الإدارات الكبيرة، العسكرية منها والمدنية. لم يتم الاحتفاظ بها داخل الدوائر الرسمية دائماً، وأفضت معرفة وجودها المحظورة إلى مطالب معينة لا يمكن مقاومتها من أجل رؤيتها بانتظام. ومع نهاية 1917، تمت مراجعة قائمة المستفيدين وتقييدها، واتخاذ إجراءات احترازية أخرى لمنع مخاطر الإفراط في التداول، لكن لا يزال هناك بعض الريبة في المدى الذي سيبلغه الأمر ليجعل مهمة التحرير دقيقة وصعبة.

أدت هذه الريبة، إضافة إلى البطء النسبي في إصدار هذه "النشرة العربية"، والفاصل الزمني المتزايد باستمرار الذي يعرف المحرر وجوب انقضائه بين تاريخ إصدارها وتاريخ وضعها في متناول معظم المستفيدين، إلى تعديل كبير في غايتها الأصلية. ونظراً إلى تأسيسها كملخص لأحدث المعلومات الاستخباراتية العربية تحولت إلى وسيلة لحالات تقدير مدروسة. فالسبب الحقيقي لوجودها، كما يبدو للكاتب الحالي (محررها الأول الذي استمر في تحريرها منذ ذلك الحين باستثناء مدد غياب معينة عن القاهرة) ثلاثي الجوانب.

أولاً: ترمي إلى تقديم ملخصات استخباراتية منطقية وحاسمة قدر الإمكان عن الحجاز ومنطقة الثورة العربية بصورة رئيسية (فالقاهرة معنية بهذا الأمر، لأنّها أقرب من المناطق العربية الأخرى)، وعن البلدان الأخرى المتحدثة بالعربية بصورة ثانوية. يجمع هذه الملخصات، قدر الإمكان، من في حوزتهم الأخبار كلّها، سواء أكانت سرية أم غير ذلك، ولكن ليس بالضرورة للإحاطة بتلك الأخبار كلّها. ومع ذلك، تبيّن عجز الموظفين عن التعامل مع المنطقة المتحدثة بالعربية كلّها، أو كلّها تقريباً، بشكل متساوٍ من الناحية العملية. على سبيل المثال، أفريقيا العربية التي تعتمد على قوة الاستخبارات المصرية وإدارة المناطق الحدودية قد تجاوزت نطاق عمل النشرة. أمّا ذلك الجزء من سوريا الذي لا يزال في أيدي العدو، فيصعب التعامل معه على نحو مثمر إطلاقاً. تُترك بلاد الرافدين والعراق لقوة الحملة البحرية ولدائرة بلاد الرافدين السياسية، باستثناء ما يتعلق بشؤون شرق الفرات. وأمّا في معظم مناطق الخليج التي نعتمد فيها على حكومة الهند، فنادراً ما تكون المعلومات مضمونة. في البداية، اتخذت "النشرة العربية" مجالاً واسعاً للغاية، وكان لا بدّ من

التخلي عن بعض المناطق البعيدة الواقعة خارج نطاق صلاحيات أعضائها الخاصة، على سبيل المثال بلاد فارس. أمّا المناطق الأخرى، مثل الحبشة وأرض الصومال، التي تم إدخالها في فلكها لاحقاً، فمن الأفضل استبعادها مرة أخرى، لأنّه لا يمكن للمكتب العربي إضافة أي شيء على التقارير الرسمية التي يتم تداولها على نحو مستقل.

ثانياً: تهدف "النشرة العربية" إلى إعطاء تقديرات موثوقة للأوضاع والقضايا السياسية في المنطقة التي يمكنها التصدي لها مباشرة.

ثالثاً: تهدف إلى تسجيل جميع البيانات التاريخية الحديثة المتعلقة بالعرب والأراضي المتكلمة بالعربية، وفي النتيجة الحفاظ عليها، وبالمناسبة إنقاذ أي حقائق قديمة طواها النسيان قد تسهم في تفسير الوضع الفعلي، وبالمنحى نفسه، أي بيانات ذات أهمية جغرافية أو علمية يمكن إلقاء الضوء عليها عبر تغلغلنا في الدول العربية خلال الحرب الحالية. يقع جزء من هدف المحرر في أن يكون ملف "النشرة العربية" الكامل منذ بدايتها جزءاً ضرورياً لأي شخص قد يضطر لاحقاً إلى تجميع تاريخ العرب خلال السنوات الثلاث الماضية من أجل الاستخدام الرسمي، ودليلاً استخباراتياً لأي منطقة عربية، أو خريطةً للجزيرة العربية أيضاً. تم إصدار فهرس كامل قدر الإمكان نهاية كل عام، على افتراض أن الإدارات والمسؤولين الذين يتلقون "النشرة العربية" يحتفظون بملفات كاملة منها، ويقومون بتجليدها للرجوع إليها في المستقبل. ولدينا سبب ما يدفعنا إلى معرفة أن هذا الافتراض غير مسوّغ تماماً.

غني عن القول إن هذا الهدف الثلاثي الجوانب لم يُؤخذ بالحسبان دائماً ولم يرَ النور بالكامل. كما أن التصرف بمقتضى أي معيار محترم للمعرفة العربية لم يكن وارداً؛ ستدحض قواعد الإملاء المختلفة التي يكشف عنها كل فهرس أي ادعاء من هذا القبيل! لكن يمكن عدّ حقيقة تجشم "النشرة العربية" عناء الوصول إلى عددها المئة واقترابها من 1500 صفحة برهاناً يُثلج الصدر على أنها تملأ نقصاً ملموساً في الحرب الجارية.

تحرير "النشرة العربية"

يذكر هوغارث بوضوح (في الفقرة الخامسة) أنه كان محرر "النشرة العربية" الرئيسي وأن آندرو والتر لورانس أطلق عليه في توطئته لقب "المحرر العادي". مع ذلك، حملت طبعتان اسم توماس إدوارد لورانس في صفحة المحتويات. وكانت "النشرة العربية" تصدر في معظم أوقات الحرب فوق اسم مدير المكتب العربي، النقيب (الرائد لاحقاً) كيناهان Kinahan (السير كيناهان لاحقاً) كورنواليس. وللفائدة، تم إدراج أسماء الضباط المذكورين كلّهم

بهذه الطريقة أدناه. وباستثناء واحد، تم تحديد بيانات الإصدارات كلّها على النحو الآتي: "المكتب العربي، فندق Savoy، القاهرة".

الإصدار رقم	1	النقيب توماس إدوارد لورانس، مدير بالإنابة، المكتب العربي
	2–8	الرائد البحري ديفيد جورج هوغارث، احتياطي متطوع في البحرية الملكية، قائم بأعمال المدير، المكتب العربي
	9	النقيب توماس إدوارد لورانس، مدير بالإنابة، المكتب العربي
	10–12	الرائد البحري ديفيد جورج هوغارث، احتياطي متطوع في البحرية الملكية، مدير بالإنابة، المكتب العربي
	13–16	الرائد البحري ديفيد جورج هوغارث، احتياطي متطوع في البحرية الملكية، مدير بالإنابة، المكتب العربي
	17–24	كيناهان كورنواليس، نقيب، مدير، المكتب العربي
	25–111	كيناهان كورنواليس، رائد، مدير، المكتب العربي
	112	س. أ. ج. ماكنتوش C. A. G. Mackintoch، رائد، مدير، المكتب العربي
	113	هيربرت غارلاند، نقيب، مدير بالإنابة، المكتب العربي

الملحق ب

توطئة للطبعة الأولى من المراسلات السرية

بقلم أندرو والتر لورانس

باستثناء المقالة المعنونة "التيارات السورية المتنازعة" التي لم تُطبع حتى الآن، تم تضمين محتويات هذا المجلد في الجريدة السرية المسماة "النشرة العربية" التي كانت تصدر في القاهرة من 6 حزيران/ يونيو 1916 إلى 6 كانون الأول/ ديسمبر 1918. وتبعاً لمقالة افتتاحية في عددها المئة، ابتدع النقيب توماس إدوارد لورانس فكرة الجريدة. ولاستكمال نشرة الاستخبارات التي وزعتها هيئة الأركان العامة على قوة الحملة المصرية، بدأ المكتب العربي (بوصفه فرعاً من الاستخبارات) إصدار ملخصات للأخبار السياسية الواردة من الإمبراطورية التركية والدول العربية والإسلامية الأخرى والحبشة. فبعد صدور ستة من هذه الملخصات بنسخ مطبوعة، وبتواتر سريع، حظيت النشرة بعنوانها النهائي وشكلها كمجلة مطبوعة. أمّا من الآن فصاعداً، فكانت تميل إلى الصدور على فترات أقل تواتراً واحتواء مقالات ذات قيمة أكثر ديمومة. فتمت طباعة 26 نسخة فقط من الأعداد القليلة الأولى لتوزيعها على السلطات البريطانية – المدنية والعسكرية أو البحرية – في الشرقين الأدنى والأوسط، وعلى وزارات الخارجية والحربية والبحرية في لندن؛ كان لا بدّ من التعامل مع المحتويات على أنها "سرية للغاية". وفي وقت لاحق، حققت "النشرة العربية" تداولاً أوسع. ثم ذكرت أسماء المشاركين بتصرّف، فيما لم تكن المقالات في باكورة الأعداد موقّعة، ولا حتى بالأحرف الأولى. مع ذلك، تقع حالات منفصلة في العدد 9، وقد يكون لصدوره (إضافةً إلى العدد 1) بدمغة الناشر "توماس إدوارد لورانس، نقيب، مدير بالإنابة، المكتب العربي" دلالته. أمّا المحرر العادي، فكان ديفيد جورج هوغارث.

أشار توماس إدوارد لورانس، في مجموعته الخاصة من "النشرة العربية"، إلى تأليف عدد كبير من المقالات غير الموقّعة. وبذلك، يُعرف بأنه كان مسؤولاً عن عشر مقالات، على أقل تقدير، قبل رحيله عن المنصب للمشاركة في الثورة العربية، وعن تقرير واحد دون توقيع، بشأن المفاوضات في سقوط الكوت، هو بصراحة من أعماله أيضاً (نشره ديفيد غارنيت بعنوان *The Letters of T. E. Lawrence*، الصفحة 208). ونظراً إلى أن باكورة المقالات هذه لا تندرج في نطاق المجلد الحالي، فقد يكون تقديم بعض التفصيلات مفيداً في هذا المقام.

تموز/ يوليو 1916. الصفحة 82. المقالة معنونة بـ"أخبار الحجاز". ملاحظات مؤلِّف المخطوطة. تم تصويب تموز/ يوليو لتصبح حزيران/ يونيو، الصفحة 83، السطر 8. TEL [توماس إدوارد لورانس] في نهاية الصفحة 84.

العدد 9

الصفحة 85. "Translation of Proclamation … by the Sherif"

[ترجمة إعلان... من الشريف]. نقلها توماس إدوارد لورانس إلى الإنكليزية في نهاية الصفحة 88.

5 أيلول/ سبتمبر. الصفحة 206. "Note by Cairo" [مذكّرة من القاهرة] (في معالجة العمالة المشرقية). TEL في نهاية الصفحة 207. الصفحة 210. "Hejaz Narrative" [رواية الحجاز]. TEL في نهاية الصفحة.

العدد 18

19 أيلول/ سبتمبر. الصفحة 263. "Further Information of the Stotzingen Mission" [معلومات إضافية عن بعثة ستوتسينغن] وثائق ترجمها P. Graves وTEL في نهاية الوثائق، الصفحة 272. "Conclusion" [الخاتمة] بقلم TEL ، الصفحة 272؛ TEL في نهاية الصفحة 274.

العدد 22

الصفحة 276. Summary of Information Given by Turkish Prisoners Captured at Bir Aar [ملخص المعلومات التي قدّمها الأسرى الأتراك الذين تم أسرهم في بئر عار]. TEL في نهاية الصفحة 278.

العدد 23	26 أيلول/ سبتمبر. "Note by Cairo" (في يوميات الملازم أول غروبا Grobba). TEL في نهاية الصفحة. ص. 304. "Note by Cairo" (في طبائع العرب والترك). TEL في نهاية الصفحة.
العدد 26	16 تشرين الأول/ أكتوبر. الصفحة 372. "Note" [مذكّرة] (في وضع الحجاز). TEL في نهاية الصفحة 373.

تتضمن هذه الطبعة جميع المواد المنسوبة إلى توماس إدوارد لورانس، إمّا بنص "النشرة العربية"، وإمّا بملاحظاته الهامشية بعد زيارته الأولى إلى الحجاز. وباستثناء بعض التصويبات اللفظية المدرجة في النص الجديد، أُعيد نشر ملاحظات مخطوطته بخط مائل ضمن أقواس مربعة. أمّا حالات التقصير الوحيدة، فتتمثل في: بعض الإحالات المرجعية التي أقحمها محرر النشرة الأصلي، إذ لا لزوم للفظة neither في فقرة المخطوطة المعنونة 'Military Notes' [أحداث عسكرية] (كما هي الحال في الجملة الثانية، can neither increase neither their number)؛ وفي الفقرة المعنونة 'The Sherifial Northern Army' [جيش الأشراف الشمالي]، تصوِّب كلمة Damascene [دمشقي] وصف Bagdadi Officer [ضابط بغدادي]، وهي مكتوبة بخط غير معروف بجانب اسم راسم؛ do. مكتوبة بالخط نفسه على السطر اللاحق (عن عبد الله). واستناداً إلى كتاب *Seven Pillars of Wisdom*، تم تعديل نص 'The Raid at Haret Ammar' [غارة على حالة عمار] ليصبح ten box–wagons instead of two [عشر عربات بضائع مغلقة بدلاً من اثنتين]، وupended into the hole instead of the whole [انقلبت في الحفرة بدلاً من الكلّ]. لا شك في بقاء كثير من الهنّات الأخرى بلا تصويب، لأنّه لا يمكن للكاتب، كقاعدة عامة، مطالعة تصويبات بروفات الطباعة. فمقارنة رواياته اللاحقة للأحداث نفسها ليست مفيدة دائماً بسبب مدى إعادة كتابتها. وخدمة لغرضها كانت أولى إصدارات ما بعد الحرب موضوعية ورائعة، إذ تشغل ثلاث مقالات غير موقعة في صحيفة *The Times* الصادرة في 26 و27 و28 تشرين الثاني/ نوفمبر 1918. وطرح في كتاب *Seven Pillars of Wisdom* عنصراً شخصياً تم استبعاده من المراسلات، وكانت النبرة في بعض الأماكن مختلفة تماماً. وتُعدّ معالجة معركة سيل الحسا مثالاً متطرفاً على ذلك، حيث تم تأليف المراسلة بوصفها محاكاة ساخرة مريرة (وفق الجمل الأخيرة من الفصل 86 من الطبعة العامة)؛ وبعد منحها وسام الخدمة

المتميّزة على قوتها، تميل تقاريره عن الفترة المتبقية من الحملة إلى تقليل حصته الشخصية في الأحداث.

ولمصلحة أي شخص قد يراجع النشرة، فيما يأتي قائمة كاملة بالتغييرات التي تم إجراؤها الآن في النص بموجب أدلّة ملاحظات المخطوطة. ففي 'Military Notes'، عدد المشاة العرب في القوات التركية ستمئة بدلاً من 1500. وفي 'Raids on the Railway'، Mufaddhil بدلاً من Mufaddlil، وTleih بدلاً من Tleib، و Serum(في حالة واحدة فقط) بدلاً من Serun، وUnseila بدلاً من Unseih (هذا التصويب بخط غير معروف)، والحرف العربي قاف بدلاً من j. وفي 'Wejh to Wadi Ais and Back'، bulging بدلاً من bulbous، و8 a.m. بدلاً من Sam.

يتقدم الناشرون والمحرر بخالص الشكر إلى السير ستيفن غيسلي Stephen Gaselee بصفته أمين مكتبة وزارة الخارجية، للسماح بنشر مواد رسمية كانت سرية مسبّقاً، وإلى السيد فيليب بيرسفال غريفز، المؤلف المشارك في مقالة "قوات الحجاز التركية وتعزيزها".

تعليقات على المراسلات السرية

الاختصارات

AB	*Arab Bulletin*
JW	Jeremy Wilson, *Lawrence of Arabia: The Authorised Biography* (Heinemann, London, 1989; paperback Minerva, London, 1990)
MB	Malcolm Brown (ed.), *The Letters of T. E. Lawrence* (Dent, London, 1988; paperback Oxford University Press, Oxford, 1991); published in the USA as *T. E. Lawrence: The Selected Letters* (Norton, New York, 1989; Paragon Press, New York, 1991)
SD	T. E. Lawrence, *Secret Despatches from Arabia* (Golden Cockerel, London, 1939)
SP	T. E. Lawrence, *Seven Pillars of Wisdom* (Jonathan Cape, London, 1935)

أولاً

مراسلات سرية من الجزيرة العربية

1. رسائل من الشريف فيصل

”النشرة العربية“ AB، 8 29 تشرين الثاني/ نوفمبر 1916، 418 ،I
تمت كتابة هذا المراسلة وفقاً للمناقشة المذكورة في المقالة الآتية، كما هو مبيّن في الحاشية الهامشية ”24 تشرين الأول/ أكتوبر، توماس إدوارد لورانس وفيصل“.
كان علي أكبر أبناء شريف مكة حسين، فيصل الثالث، الأربعة. انظر ”مذكّرات شخصية عن عائلة الأشراف“ للاطلاع على أوصاف لورانس للإخوة الأربعة.

2. مقتطفات من يوميات رحلة

”النشرة العربية“ 31، 18 تشرين الثاني/ نوفمبر 1916، 460–454 ،I

نتج هذا التقرير والتقارير الخمسة اللاحقة عن زيارة لورانس الأولى للجزيرة العربية، في الفترة من 16 تشرين الأول/ أكتوبر إلى 4 تشرين الثاني/ نوفمبر 1916، وهو فيض لافت من عشرين ألف كلمة تقريباً يُمكن القول بحق إنها أثّرت في مسار الحملة العربية كلّها. إنها تتعلق بـ *Seven Pillars*، الكتاب I، المعنون ‘The Discovery of Feisal’ [اكتشاف فيصل].

تُقدم ملاحظة افتتاحية تسبق هذا التقرير الأول، بعنوان Arabia/Hejaz/Summary of News [موجز أخبار الجزيرة العربية/ الحجاز]، مواكبة مستجدة أكثر تفاؤلاً للوضع كما وصفه لورانس بعبارات تشاؤمية إلى حد ما:

> لقد تلاشى الرعب الذي تم تداوله في رابغ خلال الأسبوع الأخير من تشرين الأول/ أكتوبر، وليس ثمة داعٍ للقلق الفوري... تشير التقارير إلى أن المقرات التركية المتقدمة لا تزال في بئر درويش، وأن هناك نقصاً واضحاً في الحبوب واللحوم والأعلاف. ويكشف فيصل عن مفاوضاته مع قبيلة بلي، ويبدو واثقاً إلى حد ما من كسبها إلى جانب الشريف (أي الشريف حسين).

3. مقتطفات من تقرير عن عمليات فيصل

”النشرة العربية“ 31، 18 تشرين الثاني/ نوفمبر 1916، 465–460 ،I

كما مذكور في توطئته، أعاد أرنولد والتر لورانس بعض ملاحظات مخطوط توماس إدوارد لورانس وطباعتها بخط مائل بين قوسين مربعين، رغم أنه من الواضح أنه لم يكن في نيته تصويب المحذوفات أو التعديلات التحريرية كلّها. أمّا في حالة هذا التقرير، فيجدر استرداد بعض المقاطع التي لم يعيدها، كونها جزءاً مما كان من الواضح أنه صياغة أولية لإفادة لورانس الإيجابية المهمة في *Seven Pillars*، الفصل 15، ص. 107–108، بقوله: ”في العمليات القتالية الملتحمة هذه، أثارت جسامة الثورة إعجابي، وما إلى ذلك“.

إن احتواء ”المراسلات السرية“ *SD* ملحقاً على النحو الآتي: ”إن النظر إلى جسامة الثورة محلياً يثير إعجابي“، متبوعاً بمسافة سطر، يشير بوضوح إلى حذف مقصود؛ فالنص الأصلي، كما هو محفوظ في نسخة التقرير المودعة في دائرة المحفوظات العامة برقم (FO 882/5)، ينص على الآتي: ”الأمر الذي صدمني بقوة في الحجاز هو جسامة الثورة. وإذا نظرنا إليها من مصر، فإنها تفقد بعض قدرها بسبب انغماسنا في هواتف المكاتب، وحجة القنوات، والبيانات الرسمية. ومع ذلك، لدينا هنا إقليم مأهول بالسكان“ (ويستمر النص كما هو مطبوع). بعد ثمانية أسطر ثمة مقطع آخر يستحق الاسترداد بعد عبارة ”حرب مقدسة ضدنا“. وهنا يتابع النص الأصلي: ”ومقاتلتهم (الأتراك) بوعي كامل وودود بأننا معهم ونقف إلى جانبهم“. ويوجد مقطع ثالث كفقرة جديدة

في نهاية الجملة اللاحقة، بعد العبارة ”خلف خط إطلاق النار“ وقبل الجمل المائلة بين قوسين مربعين. ينص على:

> ظاهرياً ليس بدو الحجاز وسيلة محتملة للأفكار المجردة أو الإشارية. ومع ذلك، سمعت منهم مراراً وتكراراً عن أفعال العرب الأوائل أو أشياء قالها الشريف وأبناؤه تحتوي ما يتمناه الوطني العربي الجليل كلّه. فهم ينوون إعادة الشريعة (أي الشريعة الإسلامية) من أجل إحياء اللغة العربية، وإعادة بناء ازدهار البلاد.

ثمة فكرة مفادها أن حماسة لورانس مبالغ فيها حتى بالنسبة إلى محرري القاهرة المتعاطفين معه.

4. إدارة الشريف حسين

”النشرة العربية“ 23، 26 تشرين الثاني/ نوفمبر 1916، 478–474 ،I

تجدر الإشارة إلى أن لورانس، كما هو وارد في المقتطف المذكور، كان يستخدم صيغة ”الشريف حسين“، وليس الصيغة الأجلّ الشريف حسين الموقّر“ المعتمدة في غالبية الأوقات. فبشأن هذه المسألة، يقدم كتاب ديفيد جورج هوغارث المعنون *Handbook of Hejaz* تعليقاً مثيراً للاهتمام:

> ”الشريف الموقّر“ اختراع أوروبي. لطالما أطلق العرب على أمير مكة اسم ”أمير“ وخاطبوه بلقب سيدنا (مولانا). (ملاحظة: يستخدم لورانس ترجمة مختلفة لهذا النموذج ”سيدنا“ في ”مذكّرات شخصية عن عائلة الأشراف“. فكان يحمل من الأتراك لقب ”سمو“ و”باشا“، وكان يُطلق على أبنائه ”بكوات“ عادةً (كما في ”رسالة من الشريف فيصل“). ومع ذلك، لم تعد هذه الألقاب العثمانية مستخدمة في الحجاز. وإذا كان أي لقب مسبوقاً بأسماء الأمراء الملكيين، فهو ”سيدي“ مشافهةً، و”أمير“ كتابةً.

ويمضي هوغارث في الإشارة إلى حسين باسم ”الملك، الشريف حسين بن علي“. من الواضح أنه ولورانس كانا على وفاق تام في استخدامهما في هذا الصدد.

5. معلومات عسكرية

”النشرة العربية“ 32، 26 تشرين الثاني/ نوفمبر 1916، 480–478 ،I

هناك كثير من حالات الحذف في النسخة الواردة في ”المراسلات السرية“، فقد تكون الحالة الأكثر إثارة للاهتمام في القسم الذي تم تلخيصه (Argument against landing foreigners at Rabugh.) [سجال ضد إنزال الأجانب في رابغ.]. وأوضح لورانس الأمر أنه يعتقد بأن تشجيع العرب ”سيترتب عليه إنزال الوحدات التعليمية والفنية، وتأثير إنزال قوة مقاتلة سيأتي بنتائج معاكسة تماماً“. كما شدد على وجود مستلزمات حيوية أخرى بصرف النظر عن مسألة دعم قوات الحلفاء على الأرض:

المساعدة التي يطلبها جيش القبائل هي: أ) المال ب) البنادق ت) الغذاء ث) الرشاشات الخفيفة ح) المدافع الجبلية خ) أي نوع من البنادق د) استطلاع الطائرات. فقيمة ح و خ و د أخلاقية بحت وستكلفنا مبلغاً معيناً، لكنها ليست أكثر من أ و ت... وهي مهمة جداً في الحفاظ على القوة الفعلية.

6. مذكّرات شخصية عن عائلة الأشراف

"النشرة العربية" 32، 26 تشرين الثاني/ نوفمبر 1916، 480–482 ،I

نلاحظ في ضوء المذكّرات عن "إدارة الشريف حسين" قبلُ أن لورانس يُطلق على علي وعبد الله وفيصل لقب "سيدي" أي "مولاي"، بينما يُطلق على الابن الأصغر زيد لقب "الشريف". من الواضح في هذا السياق أن أيّ لقب دون ذلك كان يُمنح لإخوته.

للحصول على وصف حماسي مماثل لفيصل، انظر رسالة لورانس إلى والدته، 16 كانون الثاني/ يناير 1917 (M. R. Lawrence, Home Letters of T. E. Lawrence and His Brothers (Basil Blackwell, 1954), p. 333; also MB, p. 101. Oxford,

7. القومية بين رجال القبائل

"النشرة العربية" 32، 26 تشرين الثاني/ نوفمبر 1916، 483–484 ،I

ثمة تعليق افتتاحي مهم على هذا التقرير في "النشرة العربية" 41 (II، 57):

> إن ما قاله توماس إدوارد لورانس (في عددنا 32، ص. 483) عن طبع القبائل السياسي تؤكده الحقائق على نحو كافٍ. وحيثما كانت هناك عمليات نشطة، يهبّ البدو في الزمان والمكان المطلوبين، ويبقون على الحياد. فلم تعمل أي قبيلة أو عشيرة في تلك المناطق ضد الشريف... وعليه، فإن ادعاءات الأمير بأنه الزعيم المقبول لسكان الحجاز القبليين قد تم تبريرها من البداية، ولا تزال قائمة.

8. قوات الحجاز التركية وتعزيزها

"النشرة العربية" 32، 26 تشرين الثاني/ نوفمبر 1916، 485–489 ،I

النص في "النشرة العربية" مسبوق بالملاحظة الآتية: "تم تجميعها من المعلومات التي بحوزة مقر القيادة العام (قوة الحملة المصرية)".

وفقاً لتوطئة أرنولد والتر لورانس كان فيليب بيرسفال غريفز Perceval Graves Philip مؤلِّفاً مشاركاً في هذا التقرير. وكان فيليب غريفز مراسلاً لصحيفة *The Times*، وعضواً مدنياً في مديرية الاستخبارات في القاهرة. وقد اكتسب قبل الحرب سمعة بصفته خبيراً مهماً في سياسات البلقان. وعمل

بالتعاون مع هوغارث على تجميع التقارير العسكرية عن منطقة مرمرة في تركيا عام 1915. وقام لاحقاً بتحرير Memoirs of King Abdullah of Jordan (Cape, London, 1950) [مذكّرات الملك عبد الله ملك الأردن]، حيث دافع بقوة عن عبد الله ضد تقويمات لورانس التعسفية إلى حد ما. وكان الأخ غير الشقيق للشاعر روبرت غريفز Robert Graves، الذي أقام لورانس معه صداقة مهمة بعد الحرب.

تم حذف الفقرتين الأخيرتين في "المراسلات السرية"؛ انظر المراسلة الإضافية المعنونة "قوات الحجاز التركية وتعزيزها".

9. جيش الشريف فيصل

"النشرة العربية" 34، 11 كانون الأول/ ديسمبر 1916، I، 530

تم شرح تقرير لورانس الموجز على نحو تحريري على النحو الآتي (II، 531):

مذكّرة من المكتب العربي. الرقم 1 هو اسم قبيلة شرق مكة على طول طريق عرفات.

ومن الواضح أن الرقم 2 مستوحى من عشيرة الشويفي من عروة، الفرع الرئيسي لبني

مالك جهينة. أمّا الرقم 3، فهو من قسم فرعي آخر من الفرع نفسه. والرقم 6 من قبيلة جهينة المستقرة.

أمّا الرقمان 4 و7، فيمثلان وحدات من قبيلة حرب ذائعة الصيت.

ومقارنة بقبيلة حرب ترجع غلبة قبيلة جهينة إلى النسبة الكبيرة من المزارعين المستقرين في القبيلة.

10. يوميات رحلة ثانية

"النشرة العربية" 36، 26 كانون الأول/ ديسمبر 1916، 548–551، I

يتعلق هذا التقرير بزيارة لورانس الثانية إلى فيصل في كانون الأول/ ديسمبر 1916؛ من الآن فصاعداً، سيكون عمله في الجزيرة العربية، مع زيارات عرضية إلى القاهرة وجدة وبئر السبع والقدس وما إلى ذلك لاحقاً، عند اللزوم. وللاطلاع على المراحل المبكرة لما كان سيصبح عملياً مشاركة مدة عامين، انظر "المراسلات السرية"، الكتاب II، المعنون 'Opening the Arab Offensive' [شنّ الهجوم العربي]، الصفحة 117 وما يليها.

11. بداية ثورة الحجاز

”النشرة العربية“ 36، 26 كانون الأول/ ديسمبر 1916، 558 ،I

12. الزحف العربي على الوجه

”النشرة العربية“ 41، 6 شباط/ فبراير 1917، 62–60 ،II

انظر *SP Seven Pillars*، الصفحة 143–169. ولمعرفة مزاج لورانس في تلك الفترة، انظر رسالته إلى المقدم ستيوارت فرانسيس نيوكومب، 17 كانون الثاني/ يناير 1917، يقول فيها: ”هذا العرض رائع، لا يمكنك تخيل متعة أكبر بالنسبة إلينا، ومزيداً من الانزعاج والغضب بالنسبة إلى الأتراك“. (*Malcolm Brown MB*، الصفحات 102–103).

13. جيش الأشراف الشمالي

”النشرة العربية“ 41، 6 شباط/ فبراير 1917، 64–63 ،II

14. أمْر فيصل بالزحف

”النشرة العربية“ 41، 6 شباط/ فبراير 1917، 66–65 ،II

15. أخبار نجد

”النشرة العربية“ 41، 6 شباط/ فبراير 1917، 70–69 ،II

نجد منطقة كبيرة وسط الجزيرة العربية كانت في تلك الفترة مصدر نزاع سياسي وديني بين الشريف حسين وابن سعود من سلالة الرياض.

16. بصحبة الجيش الشمالي

”النشرة العربية“ 41، 6 شباط/ فبراير 1917، 80–74 ،II

تتألف هذه المراسلة من مقتطفات من تقرير قدمه لورانس إلى المقدم ويلسون في 8 كانون الثاني/ يناير 1917. في استعراضه ”المراسلات السرية“ في مجلة John *O’ London’s* Weekly (17 شباط/ نوفمبر 1939)، علّق جون بروفي John Brophy باستحسان على سلاسة أسلوبه، قائلاً:

> تظهر شخصية الكاتب واضحة وحيوية في المقاطع الأكثر موضوعية. يحتفظ زعيم حرب العصابات بتصوّره الجمالي للأشياء، ويتوقف مؤقتاً في تقرير عسكري لملاحظة عشب الصحراء

الصغير، "ضباب حيوي من اللون الأخضر الفاتح هنا وهناك على أسطح الصخرة ذات اللونين الأزرق الداكن والأحمر الداكن".

يحتوي القسم المعنون "Feisal's Table Talk" [مفاوضات فيصل] على إشارات إلى ثلاثة ناشطين ألمان بارزين في الشرق الأوسط. صدرت تعليمات للرائد فون ستوتسينغن von Stotzingen من السلطات العسكرية الألمانية بفتح اتصالات بين الأراضي التي تسيطر عليها تركيا وشرق أفريقيا الألمانية. ولقد اعتمد ليو فروبينيوس Leo Frobenius، المستكشف الأفريقي، وعالم الأنثروبولوجيا الاجتماعية البارز بعد الحرب، التنكر البدوي أثناء مشاركته في مهمة دعائية في منطقة البحر الأحمر؛ ففُضِح أمره وأُجبر على التقاعد بسبب الخزي. وجمع البارون ماكس فون أوبنهايم بين الوظيفتين الصنوين لعالم الآثار ورئيس جهاز استخبارات القيصر في الشرق الأوسط. وكان اسمه الشائع في القاهرة "الجاسوس".

17. سوريا: المادة الخام

"النشرة العربية" 44، 12 آذار/ مارس 1917، 107–114، II

هذه المراسلة مسبوقة بمذكرة معنونة بـ 'Fragmentary notes written early in 1915, but not circulated' [المذكّرات المجزأة المكتوبة في مطلع 1915، لكن لم يتم تعميمها]. انظر أيضاً "التيارات السورية المتنازعة". وانتقت مراجعة *TLS* بتاريخ 3 شباط/ فبراير 1940 هذا التقرير بوصفه أحد أفضل التقارير في "المراسلات السرية"، ووصفه بأنه "نموذج من عمل جيد رصين". فمنذ كتبه لورانس – كما هو وارد في مقدمة المقالة – في مطلع 1915، قبل أشهر من اندلاع الثورة العربية، كانت إشارته إلى دمشق مثيرة للاهتمام بصورة خاصة، بقوله: "دمشق منارة ينجذب إليها العرب على نحو طبيعي، ومدينة يصعب إقناعها بأنها خاضعة لأي عرق أجنبي".

18. محطات جغرافية وأسر أشرف

"النشرة العربية" 44، 12 آذار/ مارس 1917، 121–122، II

بالنسبة إلى أسر أشرف بك، انظر *Seven Pillars*، ص. 159–161. ووصَف لورانس أشرف بأنه "مغامر سيئ السمعة في المستويات الدنيا من السياسة التركية".

19. غارات على سكة الحديد

”النشرة العربية“ 50، 13 أيار/ مايو 1917، 207–217 ،II
يتعلق هذا التقرير والتقارير الثلاثة اللاحقة بالفترة المهمة التي ترك فيها لورانس فيصل في الوجه من أجل زيارة الأمير عبد الله في وادي العيص، وذلك على نحو أساسي لتحفيز الأخير على حملات أكثر فعالية. وكان لورانس مريضاً طوال الرحلة، وقضى بعد ذلك عشرة أيام مستلقياً في خيمة يعاني من الدمامل والزحار والملاريا (انظر الملاحظة المدرجة بخط مائل في ”في معسكر الشريف عبد الله“). وادعى لاحقاً أنه خلال هذه المدة كان يفكّر في إستراتيجية الثورة وتكتيكاتها. والفصول ذات الصلة في *Seven Pillars* هي 33 و59.
يتعلق هذا التقرير بالفصل 34 من *Seven Pillars*، ويصف فيه غارته الأولى بعد شفائه. فتتّسم كتابته الوصفية الرائعة بأهمية بالغة، بما في ذلك وصف عاصفة الصحراء الرملية.

20. تعليقات على شؤون الحجاز

”النشرة العربية“ 50، 13 أيار/ مايو 1917، 226–227 ،II
في 26 نيسان/ أبريل، جمع لورانس هذه الملاحظات حول موضوعات متنوعة أثناء إقامته مع عبد الله في وادي العيص.

21. من الوجه إلى وادي العيص وإياباً

”النشرة العربية“ 51، 23 أيار/ مايو 1917، 232–240 ،II
تبعاً للفصل 31 من *Seven Pillars* وقع أحد أكثر الأحداث المحزنة في حرب لورانس خلال الرحلة إلى وادي العيص: إعدام عضو في مجموعته قتل عضواً آخر ينتمي إلى قبيلة مختلفة. ومن نافلة القول تجنبه الإشارة إلى هذه الواقعة في تقريره للقاهرة. وللحصول على تعليق على صحة هذا الحدث، انظر JW *Jeremy Wilson*، الصفحات 823–833 و1060–1061.
في 13 آذار/ مارس، أشار لورانس إلى ”موت شكسبير“. قُتل النقيب W. H. I. Shakespear، وهو ضابط بريطاني كان يعمل مبعوثاً سياسياً في الكويت حتى 1914، وعمل بعد ذلك مستشاراً لابن سعود، في معركة قبلية في كانون الثاني/ يناير 1915. ونظراً إلى وصفه هنا بأنه ”يرتدي الزي البريطاني الكامل وخوذة واقية من الشمس... لذلك تم اختياره بسهولة“، يُشك في تأثيرها في تفضيل لورانس ارتداء الملابس العربية. انظر *Jeremy Wilson*، الصفحة 1043، حيث يرتبط موت شكسبير بـ”البنود السبعة والعشرون“.

22. في معسكر الشريف عبد الله

"النشرة العربية" 51، 23 أيار/ مايو 1917، 240–242، II
بالنسبة إلى اهتمام عبد الله بالسياسة الأوروبية، والسوم... إلخ، انظر الفصل 34 من *Seven Pillars*.
هناك فجوة طويلة في هذه المرحلة من ظهور لورانس في "النشرة العربية" بسبب حقيقة أنه من 9 أيار/ مايو حتى 6 تموز/ يوليو كان مشاركاً في حملة العقبة برفقة الشريف ناصر وزعيم الحويطات عودة أبو تايه. وللحصول على وصف لورانس لهذه المدة الرائعة في *Seven Pillars*، انظر الكتاب الرابع، "Extending to Akaba" [الامتداد إلى العقبة]. ومع ذلك، كانت هناك إشارات تخمينيّة من حين إلى آخر حول مكان وجوده المحتمل وأنشطته في "النشرة العربية". انظر "تقرير استخباراتي: التحرك شمالاً" و"مقتطف من تقرير استخباراتي بعنوان الجزيرة العربية/ الحجاز".

23. قبيلة الحويطات وزعاماتها

"النشرة العربية" 57، 24 تموز/ يوليو 1917، 309–310، II
هذا هو التقرير الأبرز بسبب تقديمه عودة أبو تايه إلى مسرح الأحداث.

24. آراء الشريف الدينية

"النشرة العربية" 59، 12 آب/ أغسطس 1917، 333–336، II
كانت اتفاقية سايكس–بيكو، التفاهم الفرنسي البريطاني الروسي في ما يتعلق بتقسيم الإمبراطورية العثمانية (ليس لمصلحة حلفائهم العرب) بعد الحرب، قيد النقاش الدائر في اجتماع لورانس مع الملك حسين أيضاً. وكان السير مارك سايكس وإم. جورج بيكو M. Georges Picot قد زارا للتو الشريف، وطلب الأخير من لورانس زيارته في جدة حتى يتمكن من التحدث بشأن هذا الأمر المثير للجدل إلى ضابط بريطاني يثق في نقل آرائه إلى السلطات المختصة. وبالنسبة إلى رسالة لورانس إلى العقيد تشارلز إدوارد ويلسون Charles Edward Wilson، المبعوث البريطاني في جدة، التي يسرد فيها حواره مع الشريف، انظر: *Malcolm Brown*، ص. 112–113.
من الواضح أن اتفاقية سايكس بيكو لم تكن موضوعاً مناسباً حتى بالنسبة إلى "النشرة العربية"؛ ومن ثم إن تقرير لورانس يركّز على الموضوع الأقل إثارة للجدل إلى حد ما، موضوع ديانة الشريف، رغم أهميته أيضاً.

25. احتلال العقبة

"النشرة العربية" 59، 12 آب/ أغسطس 1917، 340–336 ،II

النص في "النشرة العربية" مسبوق بملاحظة تحريرية: "يُكمِّل وصف النقيب لورانس الآتي المعلومات المذكورة سلفاً في الصفحة 307–308 من النص الأصلي. فعدم انتظام خدمة الحجاز البريدية مسؤولة عن تأخير نشره. وأعيدت طباعة المعلومات المشار إليها في مقتطف من تقرير استخباراتي بعنوان الجزيرة العربية/ الحجاز".

26. الشريف وجيرانه

"النشرة العربية" 60، 20 آب/ أغسطس 1917، 347–346 ،II

27. البنود السبعة والعشرون

"النشرة العربية" 60، 20 آب/ أغسطس 1917، 353–347 ،II

تم نشر هذه الوثيقة المهمة لأول مرة لاحقاً في "المراسلات السرية"، وفي تمهيد ديفيد غارنيت لكتاب معنون بـ*The Essential T. E. Lawrence* [مسيرة حياة توماس إدوارد لورانس المحورية]؛ وفي كتاب جون إدوارد ماك المعنون *A Prince of Our Disorder: The Life of T. E.* Lawrence [أمير اضطرابنا: حياة توماس إدوارد لورانس]؛ وفي *Jeremy Wilson* (الملحق IV).

أضاف لورانس الملاحظة الآتية إلى الرائد كورنواليس Cornwallis عند تقديم المخطوطة الأصلية المكتوبة بخط اليد (المودعة في دائرة المحفوظات العامة بملف يحمل الرقم FO 882/7)، يقول فيها: "عزيزي كيناهان كورنواليس، هذا ليس أمراً سيئاً. وفي حال غياب الحرف ف، يرجى حذفه في "النشرة العربية"، في حال موافقتك على ذلك. توماس إدوارد لورانس". يبدو أن المسافة تشير إلى أن الكلمات "في حال غياب الحرف ف "مرتبطة بالعبارة الأولى، وليس بالثانية، الأمر الذي يشير إلى أن لورانس كان يقصد فيصل بالحرف "ف"، وهذا يعني أن فيصل لم يكن حاضراً لجذب انتباهه، وكان لدى لورانس الوقت للتركيز على فلسفة حملة الحلفاء/ العرب، خلافاً لإستراتيجيتها ولوجستيتها.

للاطلاع على رأي لورانس في العمالة العربية، انظر "مذكرة من القاهرة عن العمالة العربية".

على ما أعتقد، كان رفيق سلاح لورانس ومراقب أساليبه، الذي لم يُدَنْ له بالفضل على نحو كافٍ، هو الرائد فريدريك جيرارد بيك Frederick Gerard Peake، قائد فرقة الهجّانة المصرية في المراحل اللاحقة من الحملة، وقائد الفيلق العربي لاحقاً. ففي مذكرة كتبها عام 1963 (مودعة في مجموعة محفوظة في مكتبة بودلي)، وصف علاقة لورانس بالقادة العرب وآلية تأثيره في مسار الحملة:

> لم يكن منصبه مشابهاً لمنصب ضابط قائد عام يقع مقر قيادته خلف الخط الأمامي ويصدر أوامره عبر ضباط الأركان. فهذا الأمر لن ينجح مع البدو على نحو مُرضٍ إطلاقاً. كان دائماً على وعي تام بحقيقة أنه أوروبي ومسيحي وأن رجال قبائل الصحراء أناس فخورون وغيورون على حريتهم ومتطرفون في ما يتعلق بدينهم أيضاً. لذلك تجنب بتأنٍّ أي استعراض علني للسلطة. بالنسبة إلى العرب، تمت مناقشة خططه كلّها في مؤتمر مع زعامات الشيوخ أثناء جلوسهم حول نار المعسكر في المساء غالباً. ولا شك أن شخصيته القوية ومعرفته بعرب الصحراء مكنته من تمرير خططه خفية دون إثارة الكراهية الدفينة لكل من ليس من عرقهم ودينهم. وللسبب نفسه، كان يرتدي ملابس عربية دائماً، ويركب مع زعماء القبائل، وليس أمامهم، ويأكل طعامهم، وينام على الأرض في معسكراتهم، ويقاتل معهم في المعركة. الاختلاف الوحيد الملحوظ بينه وبين محاربيه هو أن ملابسه نظيفة تماماً وكان يرتدي عقالاً ذهبياً أعطاه إياه الأمير فيصل، القائد العام الرمزي، بين ظهراني الجنود العرب.

بعبارة أخرى، رأى بيك التنفيذ الناجح لتعاليم "Twenty-Seven Articles" في الحياة العملية.

28. غارة على حالة عمار

"النشرة العربية" 65، 8 تشرين الأول/ أكتوبر 1917، 401–404، II

النسخة الأخيرة من هذه القصة موجودة في *Seven Pillars*، الفصول 7–61، حيث أعيدت تسمية مدربي المدفعية، Yells وBrook، بـ Lewis و Stokesعلى التوالي، تيمّناً بأسلحتهما.

رغم الترحيب بالغارة بوصفها عملية ناجحة، فإنها لم تحقق هدفها الرئيسي في التعامل مع نقطة قوة سكة الحديد التركية في المدورة. لم يتحقق هذا أخيراً إلا في آب/ أغسطس 1918؛ انظر المذكّرة 100 في "النشرة العربية" المقتبسة أدناه. ومع ذلك، كان لمثل هذه الغارات كلها، بلا شك، جانبها الإيجابي، فأي تدمير للقاطرات التركية وعربات السكك الحديدية (كان لدى الأتراك إمدادات محدودة للغاية منها) ساعد في قلب الموازين لمصلحة الحلفاء بصورة عامة (في النتيجة، ساند مهمة ألّنبي في فلسطين). وتنص المذكّرة 66 في "النشرة العربية"، 21 أكتوبر 1917، الصفحة 415، على اعتراف الأتراك بخسارة سبعة وعشرين قتيلاً واثنين وأربعين جريحاً، على عكس الأرقام التي قدمها لورانس في الصفحة 301 من النص الأصلي. وعند تحويل تقرير لورانس عن الغارة إلى رؤسائه في مقر القيادة العامة، أفاد العميد كلايتون، قائلاً: "لا بدّ أن يكون لنجاح هذه العملية الصغيرة تأثيراته التي

تتجاوز أهمية الإجراء نفسه إلى حد كبير. وسيرفع معنويات العرب في الأماكن كلّها، وسيتم بلا شك تناقله في أرجاء المناطق العربية كلّها، ولن يفقد أهميته مع انتشار الأخبار. ولا بدّ أن يكون له تأثير متميّز في العرب في الأرجاء كلّها". كما أشاد كلايتون "ببسالة الرائد لورانس والطريقة الناجحة التي أدار بها قوته غير النظامية" (الوثيقة مودعة في دائرة المحفوظات العامة برقم FO 882/4).

29. غارة بالقرب من بئر الشيدية

"النشرة العربية" 66، 21 تشرين الأول/ أكتوبر 1917، II، 412–415

التقرير مؤرخ في 10 تشرين الأول/ أكتوبر. تم وصف هذه الغارة في الفصل 68 من *Seven Pillars*. أمّا بالنسبة إلى الملازم بيساني، فانظر التعليق على 'Report: Railway Raids Northern Section' [تقرير: غارات على السكك الحديدية في القطاع الشمالي] أدناه.

30. محطات جغرافية

"النشرة العربية" 66، 21 تشرين الأول/ أكتوبر 1917، II، 421

تؤكد مذكّرة منشورة في "النشرة العربية" في 23 تموز/ يوليو 1918 اكتشاف المسّاحين لاحقاً وضع سكة حديد الحجاز بعيداً جداً إلى الشرق على الخرائط، وهذا ما صدّق عليه لورانس.

31. غارة

"النشرة العربية" 73، 16 كانون الأول/ ديسمبر 1917، II، 502–504

هذا يتعلق بالفصول 71–78 من *Seven Pillars*.

كان أحد الأصحاب البارزين في الجزء الأول من هذه الغارة هو النقيب جورج لويد، النائب الوحدوي عن West Staffordshire الذي أصبح في ما بعد حاكم بومباي، وبصفته اللورد لويد، المفوض السامي في مصر. ويتم الاستشهاد بروايته غير المتملّقة دائماً لأداء لورانس أثناء وجودهما معاً في المناطق الداخلية (ضلّ لورانس طريقه في وقت ما وتمكن في مناسبة أخرى من السقوط من عمود التلغراف) في كتاب جون تشارملي John Charmley المعنون Lord Lloyd and the Decline of the British Empire (Weidenfeld & Nicolson, London, 1987)، الصفحتان 65–66 [لورد لويد وانهيار الإمبراطورية

البريطانية]. وظل لويد ولورانس صديقين مدى الحياة. ومع ذلك، يقر تقرير لويد لعام 1917 بأن صاحبه كان

رفيقاً رائعاً للغاية، وليس أقل شجاعة من بعض مَن يقومون بأشياء تقتضي الشجاعة. ولكن كما أخبرني الليلة الماضية، في كل مرة يبدأ فيها هذه الأعمال المثيرة إنه ببساطة يكرهها مدة يومين أو ثلاثة أيام قبل ذلك، إلى أن تستأثر به الحركة والعمل وعظمة المشهد والطبيعة وتجعله يستعيد توازنه مجدداً.

وللإشارة إلى المراحل اللاحقة من هذه الغارة، انظر "تقرير: غارات على السكك الحديدية في القطاع الشمالي" و"مذكّرات: القطاع الشمالي وأنباء متأخرة".

32. عبد الله والإخوان

"النشرة العربية" 74، 24 كانون الأول/ ديسمبر 1917، 511–513 ،II

يمكن اعتبار الإخوان، كما في هذه الفقرة وما يليها، على أنهم مثل الوهابيين: انظر مذكّرة "أخبار نجد" قبل.

33. المتأخونون

"النشرة العربية" 77، 27 كانون الثاني/ يناير 1918، 31 ،III

34. التقارير الأولى من الطفيلة

"النشرة العربية" 78، 11 شباط/ فبراير 1918، 35 ،III

حذفت "النشرة العربية" جملاً شتّى من بداية هذا التقرير، لكن يبدو أن أندرو والتر لورانس تعمّد حذفها. وعلى ما يبدو، لا جدوى من استعادتها.

35. معركة سيل الحسا

"النشرة العربية" 79، 11 شباط/ فبراير 1918، 41–43 ،III

هذه المراسلة مسبوقة بالملاحظة الآتية: "مكتوبة من الطفيلة بتاريخ 26 كانون الثاني/ يناير". ووصْف *Seven Pillars* للحملة التي تشمل الطفيلة (أو سيل الحسا) موجود في الكتاب VII، المعنون 'The Dead Sea Campaign' [حملة البحر الميت]. وللحصول على تعليق لاحق على ما أعتقد بأنه عمل غير ضروري ومُساء تقديره، انظر رسالته إلى المؤرخ العسكري المعتمد، الرائد

أرشيبالد بِكّ Archibald Becke بتاريخ 28 كانون الأول/ ديسمبر 1929، في "النشرة العربية"، الصفحتان 433–434.

ثمة فجوة كبيرة أخرى في هذه المرحلة في ظهور لورانس في "النشرة العربية". لقد كان منخرطاً بقوة في إدارة الحملة لدرجة أنه، على ما يبدو، تخلى عن رفع تقارير إلى المكتب العربي. ومع ذلك، تمت الإشارة إليه مرتين في حزيران/ يونيو 1918 في ما يتعلق بزيارة البعثة الصهيونية برئاسة الدكتور حاييم وايزمان إلى الشرق الأوسط: انظر 'Extract from an Intelligence Report on Arabia' [مقتطف من تقرير استخباراتي عن الجزيرة العربية] و'Note: Feisal and Weizmann' [مذكّرة: فيصل ووايزمان].

36. تقرير عن الخرماء

"النشرة العربية" 96، 9 تموز/ يوليو 1918، 245–246، III

تم طرح التقرير في "النشرة العربية". "يرسل العقيد لورانس، القادم من جدة، ما يأتي".

بات وادي الخرماء منطقة نزاع بين الشريف حسين وابن سعود. وصفت مراجعة *TLS* توماس إدوارد لورانس لـ"المراسلات السرية" تقرير لورانس حول هذا الموضوع المعقد بأنه "رزين للغاية". ويمكن القول إن وادي الخرماء كان في الواقع الشرارة التي أدت إلى اندلاع الأعمال العدائية بين الشريف حسين وابن سعود وسقوط الشريف في النهاية. وتعرّض لورانس للتوبيخ أحياناً بسبب استخفافه بسلطة ابن سعود ومبالغته بسلطة الشريف، لكنه لم يكن يتوهّم ضعف الشريف في الخرماء.

للحصول على خلفية هذا التقرير، انظر: *Jeremy Wilson*، الصفحتان 523 و1097. كان هدف لورانس الرئيسي من الذهاب إلى جدة هو نقل رسائل من السير ريجنالد وينغيت (المفوض السامي في مصر) والجنرال ألّنبي إلى الشريف لإقناعه بالموافقة على نقل القوات العربية شمالاً إلى سوريا. ونظراً إلى انغماسه في خلافه مع ابن سعود إلى حد كبير، رفض حسين الأمر.

37. التيارات السورية المتنازعة

مذكّرة تمهيدية بقلم أندرو والتر لورانس: "كتبها توماس إدوارد لورانس في عام 1918، تعليقاً على وثيقة المكتب العربي، لكنّها غير مدرجة في "النشرة العربية". من المخطوط الموجود في عهدة السيد أندرو والتر لورانس".

وهي غير مدرجة في "النشرة العربية"، لكنها (خلافاً للمذكرة التمهيدية) طُبعت بعنوان Arab Bulletin Supplementary Paper No. 1 [وثيقة "النشرة

العربية“ الإضافية رقم 1]، بتاريخ 1 شباط/ فبراير 1918 (مودعة في دائرة المحفوظات العامة برقم FO 882/14). انظر *Malcolm Brown*، الصفحة 137، رسالة إلى والدته، 8 كانون الثاني/ يناير 1918، يقول فيها: ”سأكتب مقالة من أجل تقرير استخباراتي سيُنشر في مصر...“

مرة أخرى، ثمة فجوة كبيرة في كتابات لورانس أو الإحالات إليه في ”النشرة العربية“. ومع ذلك، يمكن لأحداث معينة أن تكون مرتبطة بأنشطته المعهودة.

1. من التقرير 100 في ”النشرة العربية“، 20 آب/ أغسطس 1918، III، 279:

> صباح 8 آب/ أغسطس، تعرضت محطة المدورة لهجوم باهر، وصُعقت الحامية. فقد الأتراك 35 قتيلاً، وأسر ستة ضباط و146 رجلاً، بينهم 26 جريحاً... تكبّد المهاجمون خسائر شملت ضابطاً وستة رجال، وأُصيب ضابطان وثمانية رجال بجروح. أمّا الدمار الذي لحق بهذه المنطقة، فكان شاملاً. تم تدمير مضخة بخار كبيرة، ومضخة طاحونة هوائية، وبرج مياه بخزاناته، وبئرين بعمق 75 قدماً.

يشير هذا التقرير إلى هجوم قوات من فرقة الهجّانة الإمبراطورية على مدورة بقيادة الرائد روبرت فير بوكستون Robert Vere Buxton (صديق لورانس لاحقاً، ومحاميه في زمن السلم). لم يكن لورانس موجوداً في الهجوم، لكنه كان محورياً في تخطيطه وإحاطة الرجال به.

2. من التقرير104 في ”النشرة العربية“، 24 أيلول/ سبتمبر 1918، III، 331:

> شهدت عمليات الرتل المتنقّل لجيش الأمير فيصل الشمالي نجاحاً باهراً. فمنذ 19 أيلول/ سبتمبر، حُرم الأتراك المواصلات البرية والسككية بين فلسطين ودمشق. ولن تكون مهمة انسحاب جيشهم الرابع، الماضية قدماً الآن، أمراً يُستهان به.

كما يتضح من التقرير اللاحق، شارك لورانس بقوة في هذه المرحلة الأخيرة من الحملة، وهي مشاركته الأخيرة قبل نهاية الأعمال العدائية، والأخيرة في ”المراسلات السرية“.

38. تدمير الجيش الرابع

”النشرة العربية“ 106، 22 تشرين الأول/ أكتوبر 1918، III، 343–350

انظر *Seven Pillars*، الكتاب X، المعنون *The House is Perfected* [اكتمل المجلس]. وخلافاً للوصف في *Seven Pillars*، حظيت مراجعة *TLS* لـ”المراسلات السرية“ بمدح خاص لهذا التقرير: ”إن سرد العملية النهائية التي أدت إلى الاستيلاء على دمشق أرقى بكثير من وجهة النظر التاريخية من القصة الشخصية، حتى لو كان ذلك بسبب حذفه تلك التزويقات اللفظية الصبيانية التي أسعدت بعض أصدقاء لورانس فقط، لكنّها شوّهت سمعته“. أمّا بالنسبة إلى حادثة طفس الموصوفة في الصفحتين 171–172 من النص الأصلي، فأفاد الرائد يِكْ (انظر مذكّرة ‘Twenty–Seven Articles’)، الذي وصل إلى مكان الحادث بينما كانت المجزرة تجري على قدم وساق، بمذكرة إلى

أندرو والتر لورانس في 1963، يقول فيها: ”ما إن رآني لورانس، حتى أمرني بجمع الأسرى كلّهم عند وصولهم وحراستهم. وعند حلول الظلام، كان لدي ألفا أسير لأسهر على راحتهم“. لكن حدثت مجزرة، ولم يحاول لورانس التنصل منها في تقريره، أو في *Seven Pillars* لاحقاً. وللاطلاع على دفاعه القوي عن العرب في هذه المناسبة، انظر الصفحة 172 من النص الأصلي.

ثانياً

المراسلات الإضافية

1. قائمة التوزيع

”النشرة العربية“ 1، 6 حزيران/ يونيو 1916، I، 2

هذه القائمة المحددة، من العدد الأول، هي كما تظهر عليه في نسخة ”النشرة العربية“ المودعة في دائرة المحفوظات العامة برقم (FO 882/25). وتمت إضافة الأسماء الأربعة الأخيرة بخط اليد، وتم تغيير الرقم المعطى لعدد النسخ المخصصة لكلمات ”المكتب العربي“ من 1 إلى 2.

2. أخبار الحجاز

”النشرة العربية“ 9، 9 تموز/ يوليو 1916، I، 82–84

يعود تاريخ هذه الفقرة والفقرات الخمس اللاحقة إلى المدة التي سبقت زيارة لورانس الأولى إلى الجزيرة العربية. ولقد تم تضمينها بسبب علاقتها بالثورة العربية. كما أظهرت أن لورانس كان بالفعل خبيراً معترفاً به في عدد من جوانب الثورة قبل مغادرته القاهرة (في الواقع، كما نفهم الآن، قلّل بصورة غريبة دوره في *Seven Pillars* باقتراحه أنه ذهب إلى الجزيرة العربية بصورة شبه عرضية، لاستهلاك بعض الإجازات المتاحة. خلافاً لذلك تم إرساله لتقديم تقرير تفصيلي وبإسهاب وبصورة مقروءة عن حال الثورة في الحجاز على نحو يجعل أصحاب المناصب العليا يأبهون له).

لهذه المراسلة أهمية خاصة لأنها تقرير حالة عن الثورة بعد شهر واحد فقط من بدايتها في مطلع حزيران/ يونيو 1916.

3. مذكّرة من القاهرة عن العمالة العربية

”النشرة العربية“ 18، 5 أيلول/ سبتمبر 1916، 207–206 ،I
كما هو مبيّن في توطئة أندرو والتر لورانس، يُشار إلى تأليف هذه المتفرّقات بواسطة مذكّرات توماس إدوارد لورانس المدوّنة بقلم الرصاص في نسخته الشخصية. ومع ذلك، يمكن نسب هذا النص إلى لورانس حتى في حال غياب مثل هذا الدليل. من الواضح أن ”الاهتمام البريطاني“ بالقرب من سكة حديد بغداد التي يشير إليها يتمثل بالحفريات الأثرية في كركميش التي شارك فيها من 1911 إلى 1914 (انظر: Introduction to the Secret Despatches [مقدمة المراسلات السرية]). ويمكن قراءة أساليب التحكم بالعمالة المناداة بها مثل مسودة أولية لأجزاء من عمله الكلاسيكي المعنون ”Twenty–Seven Articles“.

4. رواية الحجاز

”النشرة العربية“ 18، 5 أيلول/ سبتمبر 1916،210 ، I

5. مذكّرة عن حامية المدينة المنورة

”النشرة العربية“ 20، 14 أيلول/ سبتمبر 1916، 243 ،I
المذكرة حاشية استدراكية لفقرة بعنوان ‘Extracts from Report by Colonel Wilson on his meeting with Sherif Feisal Bey at Yanbo, 27 and 28 August 1916’ [مقتطفات من تقرير العقيد ويلسون عن لقائه الشريف فيصل بك في ينبع في 27 و28 آب/ أغسطس 1916]. وهي تصويب لتقدير قدّمه فيصل إلى العقيد تشارلز إدوارد ويلسون – المبعوث البريطاني في جدة – عن وجود قرابة ”ستة آلاف (تركي) في المدينة المنورة وعلى طرق المواصلات“. إن تقرير ويلسون مثير للاهتمام أيضاً لأنه يعطي رد فعل إيجابي للغاية على خُلُق فيصل ومقدرته، بقوله: ”فيصل يبلغ من العمر قرابة 28، وقد أدهشني كونه رجلاً لطيفاً للغاية، وعلى درجة عالية من التعليم، وأثار إعجابي بعين الرضا“. بلا شك، كان هذا الأمر في ذهن لورانس عندما ذهب للقاء فيصل بعد أكثر من شهر بقليل.
لم تتم الإشارة إلى هذه الفقرة في توطئة أندرو والتر لورانس، لكنها منسوبة إلى توماس إدوارد لورانس في مذكّرات مكتبة Bodleian.

6. مذكّرة عن وضع الحجاز العسكري

”النشرة العربية“ 26، 16 تشرين الأول/ أكتوبر 1916، 304 ،I

تجدر الإشارة إلى أن لورانس وصل جدة في أول زيارة حاسمة له إلى الجزيرة العربية في اليوم الذي نُشر فيه هذا العدد.

7. قوات الحجاز التركية وتعزيزها

"النشرة العربية" 32، 26 تشرين الثاني/ نوفمبر 1916، I، 489

تم حذف هذه الفقرات، بقلم توماس إدوارد لورانس وفيليب بيرسفال غريفز، سابقاً من 'The Turkish Hejaz Forces and Their Reinforcement' [قوات الحجاز التركية وتعزيزها]. ويجب أن تتبع الفقرات المحذوفة الكلمات 'at one stroke, all three campaigns' "الحملات الثلاث كلّها بضربة واحدة" (الصفحة 86).

8. تقرير استخباراتي

"النشرة العربية" 37، 4 كانون الثاني/ يناير 1917، II، 4

يوضح هذا التقرير، الذي يشير إلى أن الأتراك عرضوا مكافأة لقاء القبض على لورانس، مدى سرعة إدراك الأتراك أنشطته وأهميته.

9. الحجاز: الوضع الراهن

"النشرة العربية" 47، 11 نيسان/ أبريل 1917، II، 161–162

تشير الإحالة المرجعية إلى ص. 144 (من النص الأصلي) إلى التقرير المنشور في العدد 46 الذي قدّمه المقدم ستيوارت فرانسيس نيوكومب ويصف فيه حملته الأولى على سكة حديد الحجاز. فالبيضاء وُصفت بأنها واحة صغيرة على بعد ثلاثة أميال إلى الغرب من الطريق الرئيس الذي سلكه نيوكومب و66 ميلاً من قاعدة العرب الساحلية على البحر الأحمر في الوجه.

10. مذكّرة: خريطة الوجه (بيان مؤقت)

"النشرة العربية" 52، 31 أيار/ مايو 1917، II، 260

تقارير المسارات المشار إليها في العددين 50 و51 هي 'Raids on the Railway' [غارات على سكة الحديد] و'Wejh to Wadi Ais and Back' [من الوجه إلى وادي العيص وإياباً].

11. تقرير استخباراتي: التحرّك شمالاً

"النشرة العربية" 56، 9 تموز/ يوليو 1917، 300 ،II

صدرت هذه الفقرة في "النشرة العربية" في اليوم الذي وصل فيه لورانس إلى السويس بعد اختتام حملة العقبة الناجح، إذ تمت كتابتها بينما كان لورانس يشارك في "coloured adventures" [المغامرات المزعومة] الموضحة في "مقتطف من تقرير استخباراتي بعنوان الجزيرة العربية/ الحجاز".

12. مقتطف من تقرير استخباراتي بعنوان "الجزيرة العربية/ الحجاز"

"النشرة العربية" 57، 24 تموز/ يوليو 1917، 307–308 ،II

13. أخبار قبائل عنِزَة

"النشرة العربية" 65، 8 تشرين الأول/ أكتوبر 1917، 407–408 ،II

تمكن قياس أهمية هذا التقرير من مقالة على موقع "النشرة العربية" في تشرين الثاني/ نوفمبر الماضي، بعنوان"The Anazeh Tribes and Chiefs" [قبائل عنِزَة وزعاماتها] ("النشرة العربية" 32، 489–490 ،I) بقلم ديفيد جورج هوغارث، مكتوباً "في ضوء الدور الذي ... قد يتعين عليهم الآن أداءه في وضع الشرق الأدنى". وقدّر وصف المقال المعنون بـ "the Anazeh of the Syrian Desert" [عنِزَة البادية السورية] "عددهم بربع مليون نسمة على أقل تقدير، وامتلاكهم أكثر من نصف مليون جمل ... يتم الحديث عنهم باستمرار في التقارير الرسمية، وحتى من عملاء الاستخبارات المحليين، بوصفهم قبيلة، بصيغة المفرد. فإطلاق اسم شعب عليهم لن يكون مضللاً كثيراً".

كان نوري الشعلان من قبيلة الرولة، المشار إليه في هذه المراسلة، من أكثر زعماء القبائل العربية نفوذاً وبأساً. وللاطلاع على مواجهته مع لورانس بشأن موضوع الدوافع البريطانية في الشرق الأوسط، انظر *Seven Pillars*، الفصل 48. شارك بعض "الرولة من قبيلة عنِزَة" في حملة العقبة؛ انظر Extract from an Intelligence Report under the Heading Arabia/Hejaz [مقتطف من تقرير استخباراتي بعنوان الجزيرة العربية/ الحجاز].

14. غارات على السكك الحديدية في القطاع الشمالي

"النشرة العربية" 71، 27 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917، 473 ،II

يتعلق هذا التقرير بالتوغل الموسّع داخل الأراضي التي تسيطر عليها تركيا والموصوف في ‘A Raid’ [غارة]. كما ورد في رواية لورانس، وقع الهجوم على قطار في 11 تشرين الثاني/ نوفمبر، وليس السابع منه كما ورد في هذه المراسلة، إذ كان 7 تشرين الثاني/ نوفمبر هو تاريخ محاولة الهجوم الفاشلة على الجسر. وتم تأكيد هذا التصويب في ‘Notes: Northern Section and Late News’ [مذكّرات: القطاع الشمالي وأنباء متأخرة]. انظر *Seven Pillars*، الفصول 75-78 أيضاً.

إن الملازم بيساني المشار إليه ضابط مدفعية فرنسي كان لورانس قادراً على التعاون معه. وكان برفقة لورانس في الغارة بالقرب من بئر الشيدية. لاحقاً، تم إلحاقه ولورانس بالوفد العربي في مؤتمر باريس للسلام.

15. مذكّرات: القطاع الشمالي وأنباء متأخّرة

"النشرة العربية" 72، 5 كانون الأول/ ديسمبر 1917، 490 ،II

تتعارض هاتان الفقرتان مع تأكيد كاتب سيرة حديث (لورانس جيمز Lawrence James، في كتاب بعنوان *The Golden Warrior* [المحارب الذهبي]، Weidenfeld & Nicolson، لندن، 1990) بأن لورانس عاد إلى العقبة بحلول 21 تشرين الثاني/ نوفمبر، وفي النتيجة لا يمكن أن يكون في درعا في التاريخ المحدد في *Seven Pillars* من أجل أسره وإذلاله على يد الأتراك. يتضح من المعنى الضمني لهذه التقارير أنه لم يعد إلى القاعدة فعلياً إلا بعد ذلك بكثير ... في الواقع، في الوقت المشار إليه في *Seven Pillars*.

للحصول على تحليل نقدي مفصل، وأعتقد أنه مقنع تماماً، لزعم جيمز، انظر جيريمي ويلسون، ‘Documentary Proof or Wishful Thinking: Lawrence James on the Deraa Episode’ in *The Journal of the T.E Lawrence Society*، [دليل موثّق بالمستندات، أم أضغاث أحلام: لورانس جيمز وواقعة درعا في مجلة رابطة توماس إدوارد لورانس]، المجلّد I، العدد 1، ربيع 1991.

قد يُضاف أيضاً على أسس منطقية أنه إذا كان لورانس قد لفّق واقعة درعا، كما يعني جيمز ضمناً، لكان تأريخها في وقت كان معروفاً بوجوده في العقبة إهمالاً سخيفاً. لقد كان غائباً عن قاعدته فترات طويلة خلال عامين قضاها في الجزيرة العربية، وكان سيحظى بالعديد من المواعيد المناسبة رهن إشارته.

16. مقتطف من تقرير استخباراتي عن الجزيرة العربية

"النشرة العربية" 91، 4 حزيران/ يونيو 1918، 178 ،III

كان الدكتور حاييم وايزمان صهيونياً بارزاً ورئيس منظمة الصهيونية العالمية المستقبلي والوكالة اليهودية لفلسطين. وبات أول رئيس لإسرائيل لاحقاً. وكان الرائد ويليام أورمزبي–غور (بارون هارليك Harlech Baron لاحقاً) عضواً في المكتب العربي في 1916–1917. اشتهر بآرائه الموالية للصهيونية، وكان في هذه المرحلة ضابط ارتباط بريطانياً في البعثة الصهيونية التي كان وايزمان يرأسها.

للحصول على خلفية هذه المراسلة والمراسلة اللاحقة، "مذكّرة: فيصل ووايزمان"، انظر: ويلسون، 'Documentary Proof or Wishful Thinking,' pp. 512–14 and 1095. وعدّ مقر القيادة في القاهرة وجود لورانس في الاجتماع بين وايزمان وفيصل مهمّاً، لكن لورانس كان قد غادر في مهمة قبل بلوغ الإخطار بالموعد العقبة.

17. مذكّرة: فيصل ووايزمان

"النشرة العربية" 93، 28 حزيران/ يونيو 1918، III، 208

يُظهر هذا التقرير دليلاً على التفاؤل – الذي يشاركه لورانس إلى حد كبير – بشأن العلاقات المستقبلية بين العرب واليهود، والذي لم تسوّغه الأحداث اللاحقة. راجع إسهام وايزمان في كتاب بعنوان T. E. Lawrence by His Friends, ed. A. W. Lawrence (Jonathan Cape, London, 1937), p. 221 بقوله: "لم يعتقد (لورانس) أن أهداف الشعب اليهودي وتطلعاته في فلسطين تتعارض مع مصالح العرب". فمقالة لورانس ما بعد الحرب المعنونة The Changing East هي وثيقة ذات صلة في هذا السياق أيضاً.

18. مذكّرات عن رحلات الجمال مصحوبة بتعليق بقلم ج. هارلاند

"النشرة العربية" 111، 24 أيار/ مايو 1919، 71–73، IV

من الواضح أن 'G. Harland' هو H. Garland – إمباشي، والنقيب Herbert Garland، الحائز وسام الإمبراطورية البريطانية MBE، ومدير المراسم لاحقاً، الذي تم تكليفه بالجيش المصري عام 1916، وتم إرساله في البداية إلى الحجاز لتدريب العرب على استخدام المتفجرات. كان مخترع قنبلة "غارلاند" اليدوية التي تم تزويد 174 ألف منها لقوة حملة البحر الأبيض المتوسط. واستخدم لورانس هذه القنابل اليدوية خلال غاراته على سكة حديد الحجاز. وشغل غارلاند منصب مدير المكتب العربي بالإنابة مدة وجيزة في 1919، وكان مسؤولاً عن آخر إصدارين (113 و114) من "النشرة العربية". فليس واضحاً إن كان 'G. Harland' خطأً في الطباعة، أو إن كان Garland اختار

الإدلاء بتعليقاته على مزاعم لورانس باسم مستعار يسهل اختراقه. للاطلاع على آراء لورانس بشأن قلة أهلية غارلاند النسبية للعمل مع رجال القبائل البدوية، انظر *Jeremy Wilson*، الصفحات 375 و1058.

شكر

يدين هذا الكتاب بوجوده إلى المثابرة الإبداعية لمايكل ليفينثال Michael Leventhal من شركة Greenhill Books، الذي جاءني قبل بضع سنوات بفكرة مفادها أنه يمكن العثور بين مجموعة الكتب الكبيرة حول توماس إدوارد لورانس على مساحة لمجلد مخصص له كجندي ومفكر عسكري. وأجبته بأنني قد نشرت واحداً بالفعل سلفاً، نسجت فيه عام 1991، كما تم شرحه في التمهيد بالكامل، مجموعة من كتاباته في زمن الحرب وما بعد الحرب. فمع مرور الوقت وتغير العالم، بات واضحاً أن حدسه سديداً، وأن الوقت قد حان لكتاب جديد يحمل عنواناً جديداً لظرف جديد. أهنئه على تصوره، وأشكره بحرارة على حماسته ودعمه المتواصل والثابت. وهو مَن اقترح أيضاً أن الكتاب قد يكون أكثر قيمة بالنسبة إلى توطئة علمية بقلم عارف ضليع بالدراسات الشرق أوسطية. ويسعدني أن البروفيسور مايكل كلارك من King’s College London وافق على توطئة الكتاب. ونظراً إلى أن بعض التعليقات التي أدلى بها البروفيسور كلارك المقتبسة في صحيفة *The Times* عام 2003 – أعيد نسخها هنا في المقدمة العامة – كانت حاسمة في إقناعي بأن الكتاب مشروع قابل للتطبيق، فلا أحد يضاهيه في أداء هذا الدور المهم، وأنا في غاية الامتنان له.

أثبت ديفيد واتكنز David Watkins من شركة Greenhill Books أنه محرر صارم ومحفز ومهني للغاية. والأهم من ذلك كله، أنا مدين له بالوضوح الذي تم به تنظيم مجلد يتألّف من عدد من المكونات المتباينة في كلّ مفهوم. وقد ساعده باقتدار محرر النسخ الخاص به، نيل تيتمان Neil Titman. أتقدم بشكري له ولمارك بولاند Mark Bolland الذي جهّز الفهرس الباهر. كما أشكر شركة Servis Filmsetting التي صممت الصفحات، ومصمم غلاف الكتاب كريس شاموانا Chris Shamwana.

في ملاحظة شخصية أخرى لا بدّ أن أضيف أنني كنت مدركاً طوال عملية النشر للدعم الكريم لمؤسِّس شركة Greenhill Books، ليونيل ليفينثال Lionel Leventhal.

كما حال منشوراتي عن توماس إدوارد لورانس كلّها، تم إصدار هذا الكتاب بتشجيع ودعم مجلس أمناء إدارة*Seven Pillars of Wisdom* ؛ من الجيد أن نضيف أن المجلد السابق الذي يُعدّ المجلد الحالي إعادة صياغة له إلى حد كبير، كما هو موضح، تم بموافقة شخصية من شقيق توماس إدوارد لورانس، البروفيسور الراحل أندرو والتر لورانس. وتمت إعادة طبع مواد حقوق النشر

الخاصة بالتاج البريطاني، أي مراسلات زمن الحرب في الجزء الأول والفقرة الأولى في الجزء الثاني، بموجب إذن من الأرشيف الوطني (الفقرات كلّها مستقاة من وزارة الخارجية برقم FO 882/25–7).

أمّا بالنسبة إلى المواد المستقاة من مصادر أخرى، فتمت إعادة نشر مقتطف من كتاب جيريمي ويلسون المعنون Lawrence of Arabia: The Authorised Biography of T. E. Lawrence بموجب إذن من ج. ون. ويلسون J. and N. Wilson، وأُعيد نشر مقتطف من كتاب إدوارد مورغان فورستر المعنون *Abinger Harvest* بموجب إذن من رئيس وعلماء King's College، Cambridge، وجمعية المؤلفين كوكلاء أدبيين لتَرِكة إدوارد مورغان فورستر. وتم إدراج مقتطف من قصيدة ويلفريد أوين 'The Parable of the Old Man and the Young' بموجب إذن من البروفيسور جون ستولويرزي Jon Stallworthy، نظراً إلى أن النص مقتبس من طبعته المعنونة *The War Poems of Wilfred Owen* (Chatto & Windus, 1994) [قصائد الحرب عند ويلفريد أوين]. وتمت طباعة مقتطفات من مقدمة كتاب كاثي فرانسيس ماغرو المعنون T. E. Lawrence, A 20th Century Perspective [توماس إدوارد لورانس من منظور القرن العشرين] بموجب إذن من المؤلّف. وتمت إعادة طباعة الفقرة الأخيرة في الكتاب بموجب إذن من *Encyclopedia Britannica*، وحقوق النشر لعام 1929 محفوظة لدى Encyclopedia Britannica, Inc.

ساعدني عدد من الأصدقاء البارزين في تأليف الكتاب، ولا سيما في قراءة فقرات عدة من المادة التمهيدية والتعليق عليها. في النتيجة، أود أن أعبر عن امتناني الكبير لـ: جاك فلافيل Jack Flavell، وبيتر متْكاف Peter Metcalfe، وجيريمي ويلسون، وكاثي فرانسيس ماغرو، فهم لم يشجعوني في مساعيّ فحسب، بل أنقذوني من مآزق شتى أيضاً. قرأ متن المقدمة العامة أنجيلا غودوين Angela Godwin، أمينة معرض لورانس لعام 2005–2006 في المتحف الحربي الإمبراطوري الذي تشرَّفتُ بالمشاركة فيه بصفة مستشار. أخيراً أتقدم بالشكر إلى زوجتي بِتي Betty لتمحيصها الدقيق في متن عملي ومساعدتها القيّمة في مطالعة بروفات الطباعة وتصويبها.

مراجع مختارة

Robert B. Asprey, *War in the Shadows: The Guerrilla in History* (Doubleday, New York, 1975; MacDonald and Jane's, London, 1976) Ian F. W. Beckett, *Modern Insurgencies and Counter-Insurgencies: Guerrillas and Their Opponents since 1750* (Routledge, London and New York, 2002) Ian F. W. Beckett (ed.), *The Roots of Counter-Insurgency: Armies and Guerrilla Warfare, 1900-1945* (Blandford Press, London, 1988) John Bierman and Colin Smith, *Fire in the Night: Wingate of Burma, Ethiopia and Zion* (Random House, New York, 1999; Macmillan, London, 2000) Malcolm Brown (ed.) *The Letters of T. E. Lawrence* (Dent, London, 1988; Oxford University Press, Oxford, 1991); published in the USA as *T. E. Lawrence, The Selected Letters* (Norton, New York, 1989; Paragon Press, New York, 1991) Cyril Falls, *The First World War* (Longmans, London, 1960)

E. M. Forster, *Abinger Harvest* (Edward Arnold, London, 1936)

David Garnett (ed.) *The Essential T. E. Lawrence* (Jonathan Cape, London, 1951; Dutton, New York, 1952; Oxford University Press, Oxford, 1992) David Garnett (ed.) *The Letters of T. E. Lawrence* (Jonathan Cape, London, 1938; Doubleday, Doran, New York, 1939; Spring Books, London, 1964) T. E. Lawrence, *The Mint: A Day-Book of the RAF Depot between August and December 1922* (Jonathan Cape, London, and Doubleday, New York, 1955) T. E. Lawrence, *Oriental Assembly* (Williams & Norgate, London, 1939; Dutton, New York, 1940; Imperial War Museum, London, 1991, 2005) T. E. Lawrence, *Secret Despatches from Arabia* (Golden Cockerel, London, 1939)

T. E. Lawrence, *Seven Pillars of Wisdom: A Triumph* (Jonathan Cape,)London, 1935; Doubleday, Doran, New York, 1926

T. E. Lawrence, *Seven Pillars of Wisdom: A Triumph,* 1922 (Oxford) Version (Castle Hill Press, Fordingbridge, Hants., 1997) John J. McCuen,

The Art of Counter-Revolutionary War: The Strategy of Counter-Insurgency (Faber & Faber, London, 1966) John E. Mack, *A Prince of Our Disorder: The Life of T. E. Lawrence* (Weidenfeld & Nicolson, London, and Little, Brown, Boston, 1976; Oxford University Press, Oxford, 1991; Harvard University Press, Cambridge, MA, 1998) Kathi Frances McGraw and Andrew Carvely, *T. E. Lawrence, A20th Century Retrospective* (Andrew Carvely Corporation, Summerduck, VA, 1998) Scott R. McMichael, *Stumbling Bear: Soviet Military Performance in Afghanistan* (Brassey's, London, 1991)

John A. Nagl, *Counterinsurgency Lessons from Malaya and Vietnam: Learning to Eat Soup with a knife* (Praeger, Westport, CT, 2002) David E. Omissi, *Air Power and Colonial Control: The Royal Air Force, 1919-1939* (Manchester University Press, Manchester and New York 1990) Jon Stallworthy (ed.), *The War Poems of Wilfred Owen* (Chatto & Windus, London, 1994)

Stephen E. Tabachnick (ed.), *The T. E. Lawrence Puzzle* (The University of Georgia Press, Athens, GA, 1984)

Stephen E. Tabachnick and Christopher Matheson, *Images of Lawrence* (Jonathan Cape, London, 1988)

Stanley and Rodelle Weintraub, *Evolution of a Revolt* (The Pennsylvania State University Press, University Park, 1968) Jeremy Wilson, *Lawrence of Arabia: The Authorised Biography* (Heinemann, London, 1989; Minerva, London, 1990; Atheneum, New York, 1990) Trevor Wilson, *The Myriad Faces of War* (Polity Press, Cambridge, in association with Basil Blackwell, Oxford, 1986)

حول الكتاب

نبذة

لا تزال أفكار لورانس العرب مهمة ومناسبة رغم كتابتها منذ أكثر من سبعين عاماً.
تتضمّن هذه المجموعة اللافتة تقارير لورانس من الصحراء في زمن الحرب، إضافة إلى كتاباته اللاحقة التي يحاول فيها التعامل مع عواقب الحرب في ظروف السلام.
دليلٌ قيّم يعرض سيرة ذاتية لمؤلفه قبل أن يصير شخصية عالمية شهيرة بمدة طويلة. ويقدّم لنا الرجل، قبل الأسطورة، الذي يكتب بطلاقة وحيوية.

قيل في الكتاب

«مجموعة رائعة»
US History Book Club «جدير بالاهتمام ويسوّق نفسه على نحو يتعدّى الشغوفين بلورانس»
Times Literary Supplement «يضيء جوانب غامضة من شخصية لورانس»
Evening Standard عن المؤلف
توماس إدوارد لورانس (1888–1935)، ضابط بريطاني اشتهر بلورانس العرب.
كان له دور في مساعدة القوات العربية خلال ثورتها ضدّ العثمانيين عام 1916.
عمل مستشاراً للملك فيصل الأول وتنقّل بين الجزيرة العربية وبلاد الشام ومصر والسودان.